الفتوحات المكية

فِي مَعْرِفَةِ الْأَسْرَارِ الْمَالِكِيَّةِ وَالْمُلْكِيَّةِ



السِّفرُ الثاني

تأليف

الشَّيْخ الأكبَر مُحيِ الدِّين

مُحمَّد بن عَلِي بْن مُحمَّد بْن أحمَد بْن عَبدِ الله الحَاتِمي

المَعرُوْف بِابْنِ عَرَبي

الفتوحات المكية

فِي مَعْرِفَةِ الْأَسْرَارِ الْمَالِكِيَّةِ وَالْمُلْكِيَّةِ

تأليف :

الشَّيْخ الأكبَر مُحي الدِّين

مُحمَّد بن عَلِي بْن مُحمَّد بْن أحمَد بْن عَبدِ الله الحَاتِمي

المَعرُوْف بِابْنِ عَرَبي

قدمه :

هارون الرشيد

السفر الثاني



يوجياكارتا - إندونيسيا

٢٠١٧ م - ١٤٣٨ هـ

الجزء الثاني من الفتح المكي



اَلْفَصْلُ الثَّانِي : (تَابِعُ الْبَابِ الثَّانِيّ)

فِي مَعْرِفَةِ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تَتَمَيَّزُ بِهَا الْكَلِمَاتُ ؛ وَهِيَ الْحُرُوْفُ الصِّغَارُ

حَرَكَاتُ الْحُرُوْفِ سِتٌّ ، وَمِنْهَا ... أَظْهَـرَ اللهُ مِثْلَهَـا الْكَلِمَـاتِ
هِيَ رَفْعٌ وَثُـمَّ نَصْبٌ وَخَفْـضٌ ... حَرَكَاتٌ لِلْأَحْـرُفِ الْمُعْرَبَـاتِ
وَهِيَ فَتْـحٌ وَثُمَّ ضَـمٌّ وَكَسْـرٌ ... حَرَكَاتٌ لِلْأَحْرُفِ الثَّابِتَـاتِ
وَأُصُوْلُ الْكَلَامِ حَذْفٌ فَمَوْتٌ ... أَوْ سُكُوْنٌ يَكُوْنُ عَنْ حَرَكَاتِ
هٰذِهِ حَـالَةُ الْعَـوَالِمِ ، فَانْظُـرْ ... فِي حَيَـاةٍ غَرِيْبَـةٍ فِي مَـوَاتِ

(اَلْحُرُوْفُ لِلْكَلِمَاتِ كَالْأَرْكَانِ لِلْأَجْسَامِ)

اِعْلَمْ – أَيَّدَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ بِرُوْحٍ مِنْهُ ! – أَنَّا كُنَّا شَرَطْنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي الْحَرَكَاتِ فِي فَصْلِ الْحُرُوْفِ ، لَمَّا أُطْلِقَ عَلَيْهَا الْحُرُوْفُ الصِّغَارُ . ثُمَّ إِنَّهُ رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي امْتِزَاجِ عَالَمِ الْحَرَكَاتِ بِعَالَمِ الْحُرُوْفِ إِلَّا بَعْدَ نِظَامٍ (= اِنْتِظَامِ) الْحُرُوْفِ ، وَضَمِّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَتَكُوْنُ كَلِمَةً ، عِنْدَ ذٰلِكَ ، مِنَ الْكَلِمِ . وَانْتِظَامُهَا يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي خَلْقِنَا :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ = وَهُوَ وُرُوْدُ الْحَرَكَاتِ عَلَى هٰذِهِ الْحُرُوْفِ بَعْدَ تَسْوِيَتِهَا . فَتَقُوْمُ نَشْأَةٌ أُخْرَى تُسَمَّى كَلِمَةً ، كَمَا يُسَمَّى الشَّخْصُ الْوَاحِدُ مِنَّا إِنْسَانًا . فَهٰكَذَا اِنْتَشَأَ عَالَمُ الْكَلِمَاتِ وَالْأَلْفَاظِ مِنْ عَالَمِ الْحُرُوْفِ .

فَالْحُرُوْفُ ، لِلْكَلِمَاتِ ، مَوَادٌّ ؛ كَالْمَاءِ وَالتُّرَابِ وَالنَّارِ وَالْهَوَاءِ ، لِإِقَامَةِ نَشْأَةِ أَجْسَامِنَا . ثُمَّ نَفَخَ (اللّٰهُ) الرُّوْحَ الْأَمْرِيَّ فَكَانَ إِنْسَانًا . كَمَا قَبِلَتِ الرِّيَاحُ ، عِنْدَ اسْتِعْدَادِهَا ، نَفْخَ الرُّوْحِ الْأَمْرِيِّ فَكَانَتْ جَانًّا . كَمَا قَبِلَتِ الْأَنْوَارُ ، عِنْدَ اسْتِعْدَادِهَا ، نَفْخَ الرُّوْحِ فَكَانَتِ الْمَلَائِكَةُ . –

وَمِنَ الْكَلِمِ مَا يُشَبِّهُ الْإِنْسَانَ ، وَهُوَ أَكْثَرُهَا ؛ وَمِنْهَا مَا يُشَبِّهُ الْمَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ – وَكِلَاهُمَا جِنٌّ – وَهُوَ أَقَلُّهَا : كَالْبَاءِ الْخَافِضَةِ ، وَاللَّامِ الْخَافِضَةِ وَالْمُؤَكِّدَةِ ، وَوَاوِ الْقَسَمِ وَبَائِهِ وَتَائِهِ ، وَوَاوِ الْعَطْفِ وَفَائِهِ ، وَالْقَافِ مِنْ « قِ » ، وَالشِّيْنِ مِنْ « شِ » ، وَالْعَيْنِ مِنْ « ع » – إِذَا أُمِرَتْ بِهَا : مِنَ الْوِقَايَةِ وَالْوَشْيِ وَالْوَعْيِ . وَمَا عَدَا هٰذَا الصَّنْفَ الْمُفْرَدَ ، فَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْإِنْسَانِ . وَإِنْ كَانَ الْمُفْرَدُ يُشَبِّهُ بَاطِنَ الْإِنْسَانِ ، فَإِنَّ بَاطِنَ الْإِنْسَانِ جَانٌّ فِي الْحَقِيْقَةِ .

فَلَمَّا كَانَ عَالَمُ الْحَرَكَاتِ لَا يُوْجَدُ إِلَّا بَعْدَ وُجُوْدِ الذَّوَاتِ الْمُتَحَرِّكَةِ بِهَا ، وَهِيَ الْكَلِمَاتُ الْمُنْشَآتُ مِنَ الْحُرُوْفِ ، أَخَّرْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا عَنْ فَصْلِ الْحُرُوْفِ إِلَى فَصْلِ الْأَلْفَاظِ . وَلَمَّا كَانَتِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَرَدْنَا أَنْ نَذْكُرَهَا فِي هٰذَا الْبَابِ مِنْ جُمْلَةِ الْأَلْفَاظِ – أَرَدْنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي الْأَلْفَاظِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَحَصْرِ عَوَالِمِهَا ، وَنِسْبَةِ هٰذِهِ الْحَرَكَاتِ مِنْهَا ؛ بَعْدَمَا نَتَكَلَّمُ ، أَوَّلًا ، عَلَى الْحَرَكَاتِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ نَتَكَلَّمُ عَلَى الْحَرَكَاتِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي هِيَ حَرَكَاتُ اللِّسَانِ ، وَعَلَامَاتِهَا الَّتِي هِيَ حَرَكَاتُ الْخَطِّ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ نَتَكَلَّمُ عَلَى الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَوَهَّمَ التَّشْبِيْهَ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ .

وَلَعَلَّكَ تَقُوْلُ : هٰذَا الْعَالَمُ الْمُفْرَدُ مِنَ الْحُرُوْفِ ، الَّذِي قَبِلَ الْحَرَكَةَ دُوْنَ تَرْكِيْبٍ ، كَبَاءِ الْخَفْضِ وَشَبْهِهِ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ ، كُنْتَ تُلْحِقُهُ بِالْحُرُوْفِ لِانْفِرَادِهِ ، فَإِنَّ هٰذَا هُوَ بَابُ

التَّرْكِيْبِ وَهُوَ الْكَلِمَاتُ . – قُلْنَا : مَا نُفِخَ ، فِي بَاءِ الْخَفْضِ ، الرُّوْحُ ، وَ (مَا نُفِخَ) فِي أَمْثَالِهِ مِنْ مُفْرَدَاتِ الْحُرُوْفِ ، أَرْوَاحُ الْحَرَكَاتِ ، لِيَقُوْمُوْا بِأَنْفُسِهِمْ ، كَمَا قَامَ عَالَمُ الْحُرُوْفِ وَحْدَهُ دُوْنَ الْحَرَكَاتِ ؛ وَإِنَّمَا نُفِخَ فِيْهِ (أَيْ فِي بَاءِ الْخَفْضِ وَأَمْثَالِهِ) الرُّوْحُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ ؛ فَهُوَ مُرَكَّبٌ . وَلِذٰلِكَ لَا يُعْطَى ذٰلِكَ حَتَّى يُضَافَ إِلَى غَيْرِهِ ، فَيُقَالُ : بِاللهِ ، وَتَاللهِ ، وَوَاللهِ لَأَعْبُدَنَّ ، وَسَأَعْبُدُ ، ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى﴾ ، وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَلَا مَعْنَى لَهُ ، إِذَا أَفْرَدْتَهُ ، غَيْرَ مَعْنَى نَفْسِهِ .

وَهٰذِهِ الْحَقَائِقُ الَّتِي تَكُوْنُ عَنِ التَّرْكِيْبِ ، تُوْجَدُ بِوَجُوْدِهِ وَتُعْدَمُ بِعَدَمِهِ . فَإِنَّ الْحَيَوَانَ حَقِيْقَتُهُ لَا تُوْجَدُ أَبَدًا إِلَّا عِنْدَ تَأَلُّفِ حَقَائِقَ مُفْرَدَةٍ ، مَعْقُوْلَةٍ فِي ذَوَاتِهَا ، وَهِيَ الْجِسْمِيَّةُ وَالتَّغْذِيَةُ وَالْحِسِّيَّةُ (= الْحَسَّاسِيَّةُ) . فَإِذَا تَأَلَّفَ الْجِسْمُ وَالْغِذَاءُ وَالْحِسُّ ، ظَهَرَتْ حَقِيْقَةُ الْحَيَوَانِ ، (الَّتِي) لَيْسَ هِيَ الْجِسْمُ وَحْدَهُ ، وَلَا الْغِذَاءُ وَحْدَهُ ، وَلَا الْحِسُّ وَحْدَهُ . فَإِذَا أَسْقَطَتْ حَقِيْقَةُ الْحِسِّ ، وَأَلَّفْتَ الْجِسْمَ وَالْغِذَاءَ قُلْتَ : نَبَاتٌ . (وَهٰذِهِ) حَقِيْقَةٌ لَيْسَتْ (هِيَ الْحَقِيْقَةَ) الْأُوْلَى .

وَلَمَّا كَانَتِ الْحُرُوْفُ الْمُفْرَدَةُ ، الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، مُؤَثِّرَةً فِي هٰذَا التَّرْكِيْبِ الْآخَرِ اللَّفْظِيِّ ، الَّذِي رَكَّبْنَاهُ لِإِبْرَازِ حَقَائِقَ لَا تُعْقَلُ عِنْدَ السَّامِعِ إِلَّا بِهَا ، – لِهٰذَا شَبَّهْنَاهَا لَكُمْ لِلتَّوَصُّلِ بِالْعَالَمِ الرُّوْحَانِيِّ كَالْجِنِّ . أَلَا تَرَى الْإِنْسَانَ يَتَصَرَّفُ بَيْنَ أَرْبَعِ حَقَائِقَ : حَقِيْقَةٍ ذَاتِيَّةٍ ، وَحَقِيْقَةٍ رَبَّانِيَّةٍ ، وَحَقِيْقَةٍ شَيْطَانِيَّةٍ ، وَحَقِيْقَةٍ مَلَكِيَّةٍ . وَسَيَأْتِي ذِكْرُ هٰذِهِ الْحَقَائِقِ مُسْتَوْفًى ، فِي بَابِ « الْمَعْرِفَةِ لِلْخَوَاطِرِ » ، مِنْ هٰذَا الْكِتَابِ . وَهٰذَا ، فِي عَالَمِ الْكَلِمَاتِ ، دُخُوْلُ حَرْفٍ مِنْ هٰذِهِ الْحُرُوْفِ عَلَى عَالَمِ الْكَلِمَاتِ ، فَتَحْدُثُ فِيْهِ مَا تُعْطِيْهِ حَقِيْقَتُهَا . فَافْهَمْ هٰذَا . فَهَّمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ سَرَائِرَ كَلِمِهِ !

نُكْتَةٌ وَإِشَارَةٌ

(اِنْحِصَارُ الْكَلَامِ فِي ذَاتٍ وَحَدَثٍ وَرَابِطَةٍ كَانْحِصَارِ الْوُجُوْدِ فِي ذَاتٍ فَاعِلَةٍ وَذَاتٍ قَابِلَةٍ وَفِعْلٍ أَقْدَسٍ)

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : ﴿ **أُوْتِيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّها وَكِتَابِهِ (وَكُتُبِهِ) ﴾ . – وَيُقَالُ : قَطَعَ الْأَمِيرُ يَدَ السَّارِقِ ؛ وَضَرَبَ الْأَمِيْرُ اللِّصَّ . فَمَنْ أُلْقِيَ عَنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ ، فَالْآمِرُ أَلْقَاهُ . فَكَانَ مُحَمَّدٌ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – أُلْقِيَ عَنِ اللهِ كَلِمَاتِ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ ، مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءِ شَيْءٍ مِنْهُ أَلْبَتَّةَ . فَمِنْهُ مَا أَلْقَاهُ بِنَفْسِهِ ، كَأَرْوَاحِ الْمَلَائِكَةِ وَأَكْثَرِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ . وَمِنْهُ ، أَيْضًا ، مَا أَلْقَاهُ عَنْ أَمْرِهِ .

فَيَحْدُثُ الشَّيْءُ عَنْ وَسَائِطٍ ، كَبُرَّةِ الزِّرَاعَةِ مَا تَصِلُ إِلَى أَنْ تَجْرِيَ ، فِي أَعْضَائِكَ ، رُوْحًا مُسَبِّحًا وَمُمَجِّدًا ، إِلَّا بَعْدَ أَدْوَارٍ كَثِيْرَةٍ ، وَانْتِقَالَاتٍ فِي عَوَالِمٍ ؛ وَتَنْقَلِبُ فِي كُلِّ عَالَمٍ مِنْ جِنْسِهِ ، عَلَى شَكْلِ أَشْخَاصِهِ . فَرَجَعَ الْكُلُّ فِي ذٰلِكَ إِلَى مَنْ « أُوْتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » .

فَتَنْفُخُ الْحَقِيْقَةُ الْإِسْرَافِيْلِيَّةُ مِنَ (الْحَقِيْقَةِ) الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الْمُضَافَةَ إِلَى الْحَقِّ ، نَفْخَهَا ، كَمَا قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَيَوْمَ نَنْفُخُ (يُنْفَخُ) فِي الصُّوْرِ ﴾ = اَلْمُضَافُ إِلَيْهِ بِالنُّوْنِ . وَقُرِئَ بِالْيَاءِ وَضَمِّهَا وَفَتْحِ الْفَاءِ . – وَالنَّافِخُ إِنَّمَا هُوَ إِسْرَافِيْلُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – وَاللهُ قَدْ أَضَافَ النَّفْخَ إِلَى نَفْسِهِ . فَالنَّفْخُ مِنْ إِسْرَافِيْلِ ، وَالْقَبُوْلُ مِنَ الصُّوْرِ ، وَسِرُّ الْحَقِّ بَيْنَهُمَا هُوَ الْمَعْنَى بَيْنَ النَّافِخِ وَالْقَابِلِ – كَالرَّابِطِ بَيْنَ الْحُرُوْفِ بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ – : وَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ الْفِعْلِ الْأَقْدَسِ الْأَنْزَهِ ، الَّذِي لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ النَّافِخُ وَلَا الْقَابِلُ .

فَعَلَى النَّافِخِ أَنْ يَنْفُخَ ؛ وَعَلَى النَّارِ أَنْ تَتَّقِدَ ؛ وَ (عَلَى) السِّرَاجِ أَنْ يَنْطَفِئَ . وَالْاِتِّقَادُ وَالْاِنْطِفَاءُ بِالسِّرِّ الْإِلٰهِيِّ . – « فَنَفَخَ فِيْهَا فَتَكُوْنُ طَائِرًا بِإِذْنِ اللهِ » . – قَالَ تَعَالَى : ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ

فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ . وَالنَّفْخُ وَاحِدٌ ؛ وَالنَّافِخُ وَاحِدٌ ؛ وَالْخِلَافُ فِي الْمَنْفُوْخِ فِيْهِ بِحُكْمِ الْاِسْتِعْدَادِ ؛ وَقَدْ خَفِيَ السِّرُّ الْإِلٰهِيُّ بَيْنَهُمَا فِي كُلِّ حَالَةٍ . فَتَفَطَّنُوْا ، يَا إِخْوَانُنَا ، لِهٰذَا الْأَمْرِ الْإِلٰهِيِّ ! وَاعْلَمُوْا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ = لَا يَتَوَصَّلُ أَحَدٌ إِلَى مَعْرِفَةِ كُنْهِ الْأُلُوْهَةِ أَبَدًا ؛ وَلَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرَكَ : « عَزَّتْ وَتَعَالَتْ عُلُوًّا كَبِيْرًا ! » .

فَالْعَالَمُ كُلُّهُ ، مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، مُقَيَّدٌ بَعْضُهُ بِبَعْضِهِ ؛ عَابِدٌ بَعْضُهُ بَعْضًا . مَعْرِفَتُهُمْ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ ؛ وَحَقَائِقُهُمْ مُنْبَعَثَةٌ عَنْهُمْ ، بِالسِّرِّ الْإِلٰهِيِّ الَّذِي لَا يَدْرَكُوْنَهُ ، وَعَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ . – فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يُجَارَىٰ فِي سُلْطَانِهِ ، وَلَا يُدَانَىٰ فِي إِحْسَانِهِ ! ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

فَبَعْدَ فَهْمِ « جَوَامِعِ الْكَلِمِ » الَّذِي هُوَ الْعِلْمُ الْإِحَاطِيُّ وَالنُّوْرُ الْإِلٰهِيُّ ، الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ سِرُّ الْوُجُوْدِ ، وَعَمَدُ الْقُبَّةِ ، وَسَاقُ الْعَرْشِ ، وَسَبَبُ ثُبُوْتِ كُلِّ ثَابِتٍ ، مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَاعْلَمُوْا – وَفَّقَكُمُ اللهُ ! – أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، مِنْ عَالَمِ الْحُرُوْفِ ، ثَلَاثَةٌ : ذَاتٌ غَنِيَّةٌ ، قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا ؛ وَذَاتٌ فَقِيْرَةٌ إِلَى هٰذِهِ الْغَنِيَّةِ ، غَيْرُ قَائِمَةٍ بِنَفْسِهَا ، وَلٰكِنْ يَرْجِعُ مِنْهَا إِلَى الذَّاتِ الْغَنِيَّةِ وَصْفٌ تَتَّصِفُ بِهِ ، يَطْلُبُهَا بِذَاتِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ (لَهَا) مِنْ ذَاتِهَا (هٰذَا الْوَصْفُ) إِلَّا بِمُصَاحَبَةِ هٰذِهِ الذَّاتِ لَهَا . فَقَدْ صَحَّ أَيْضًا ، مِنْ وَجْهٍ ، اَلْفَقْرُ لِلذَّاتِ الْغَنِيَّةِ ، الْقَائِمَةِ بِنَفْسِهَا ، كَمَا صَحَّ لِلْأُخْرَى ؛ – وَذَاتٌ ثَالِثَةٌ رَابِطَةٌ بَيْنَ ذَاتَيْنِ غَنِيَّتَيْنِ ، أَوْ ذَاتَيْنِ فَقِيْرَتَيْنِ ، أَوْ ذَاتٌ فَقِيْرَةٌ وَذَاتٌ غَنِيَّةٌ ؛ وَهٰذِهِ الذَّاتُ الرَّابِطَةُ ، فَقِيْرَةٌ لِوُجُوْدِ هَاتَيْنِ الذَّاتَيْنِ وَلَا بُدَّ .

فَقَدْ قَامَ الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ بِجَمِيْعِ الذَّوَاتِ ، مِنْ حَيْثُ افْتِقَارِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَإِنِ اخْتَلَفَتِ الْوُجُوْهُ ، حَتَّى لَا يَصِحَّ الْغَنِيُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا لِلّٰهِ – تَعَالَى ! – « الْغَنِيُّ الْحَمِيْدُ » مِنْ حَيْثُ ذَاتِهِ . – فَلْنُسَمِّ الْغَنِيَّةَ (عَلَى الْإِطْلَاقِ) ذَاتًا ؛ وَالْفَقِيْرَةَ حَدَثًا ؛ وَالذَّاتَ الثَّالِثَةَ ، رَابِطَةً . فَنَقُوْلُ : اَلْكَلِمُ مَحْصُوْرٌ فِي ثَلَاثِ حَقَائِقَ : ذَاتٌ وَحَدَثٌ وَرَابِطَةٌ ؛ وَهٰذِهِ الثَّلَاثَةُ (هِيَ) « جَوَامِعُ الْكَلِمِ » . فَيَدْخُلُ تَحْتَ جِنْسِ « الذَّاتِ » أَنْوَاعٌ كَثِيْرَةٌ مِنَ الذَّوَاتِ . وَكَذٰلِكَ (يَدْخُلُ) تَحْتَ جِنْسِ كَلِمَةِ « الْحَدَثِ » وَ (كَلِمَةِ) « الرَّابِطَةِ »

(أَنْوَاعٌ كَثِيْرَةٌ) . وَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيْلِ هٰذِهِ الْأَنْوَاعِ وَمَسَاقِهَا فِي هٰذَا الْكِتَابِ ؛ وَقَدِ اتَّسَعَ الْقَوْلُ فِي هٰذِهِ الْأَنْوَاعِ فِي « تَفْسِيْرِ الْقُرْآنِ » لَنَا .

وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُقِيْسَ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ ، فَانْظُرْ فِي كَلَامِ النَّحْوِيّيْنَ ، وَتَقْسِيْمِهِمُ الْكَلِمَ إِلَى اِسْمٍ وَفِعْلٍ وَحَرْفٍ ؛ وَكَذٰلِكَ الْمَنْطِقِيّيْنَ . فَالْاِسْمُ عِنْدَهُمْ (أَيْ عِنْدَ النَّحْوِيّيْنَ) ، هُوَ الذَّاتُ عِنْدَنَا ؛ وَالْفِعْلُ عِنْدَهُمْ ، هُوَ الْحَدَثُ عِنْدَنَا ؛ وَالْحَرْفُ عِنْدَهُمْ ، هُوَ الرَّابِطَةُ عِنْدَنَا . وَبَعْضُ الْأَحْدَاثِ عِنْدَهُمْ ، بَلْ كُلُّهَا ، أَسْمَاءٌ : كَالْقِيَامِ وَالْقُعُوْدِ وَالضَّرْبِ . وَجَعَلُوْا الْفِعْلَ : كُلُّ كَلِمَةٍ مُقَيَّدَةٍ بِزَمَانٍ مُعَيَّنٍ . وَنَحْنُ إِنَّمَا قَصَدْنَا بِالْكَلِمَاتِ ، (الَّتِي ذَكَرْنَاهَا) ، اَلْجَرْيُ عَلَى الْحَقَائِقِ بِمَا هِيَ عَلَيْهِ . فَجَعَلْنَا « الْقِيَامَ » وَ « قَامَ » وَ « يَقُوْمُ » وَ « قُمْ » حَدَثًا ؛ وَفَصَّلْنَا بَيْنَهُمْ بِالزَّمَانِ الْمُبْهَمِ وَالْمُعَيَّنِ .

(نَظَرِيَّةُ الزَّجَّاجِي فِي الْمَصْدَرِ)

وَقَدْ تَفَطَّنَ لِذٰلِكَ الزَّجَّاجِي فَقَالَ : « وَالْحَدَثُ » الَّذِي هُوَ الْقِيَامُ مَثَلًا ، هُوَ « الْمَصْدَرُ » = يُرِيْدُ (بِذٰلِكَ) هُوَ الَّذِي صَدَرَ مِنَ الْمُحْدِثِ ؛ – « وَهُوَ اِسْمُ الْفِعْلِ » = يُرِيْدُ أَنَّ الْقِيَامَ – هٰذِهِ الْكَلِمَةَ – اِسْمٌ لِهٰذِهِ الْحَرَكَةِ الْمَخْصُوْصَةِ مِنْ هٰذَا الْمُتَحَرِّكِ ، الَّذِي بِهَا سُمِّيَ قَائِمًا ؛ فَتِلْكَ الْهَيْئَةُ هِيَ الَّتِي سُمِّيَتْ قِيَامًا ، بِالنَّظَرِ إِلَى حَالِ وُجُوْدِهَا ؛ وَقَامَ ، بِالنَّظَرِ إِلَى حَالِ اِنْقِضَائِهَا وَعَدَمِهَا ؛ وَيَقُوْمُ وَقُمْ ، بِالنَّظَرِ إِلَى تَوَهُّمِ وُقُوْعِهَا . وَلَا تُوْجَدُ أَبَدًا إِلَّا فِي مُتَحَرِّكٍ ، فَهِيَ غَيْرُ قَائِمَةٍ بِنَفْسِهَا .

ثُمَّ قَالَ (الزَّجَّاجِي) : « وَالْفِعْلُ » = يُرِيْدُ لَفْظَةَ قَامَ وَيَقُوْمُ ، لَا نَفْسَ الْفِعْلِ الصَّادِرِ مِنَ الْمُتَحَرِّكِ الْقَائِمِ مَثَلًا ؛ « مُشْتَقٌّ مِنْهُ » = اَلْهَاءُ تَعُوْدُ عَلَى لَفْظَةِ اِسْمِ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ الْقِيَامُ . مَأْخُوْذٌ – يَعْنِي قَامَ وَيَقُوْمُ – مِنَ الْقِيَامِ ، لِأَنَّ النَّكِرَةَ ، عِنْدَهُ ، قَبْلَ الْمَعْرِفَةِ ؛ وَالْمُبْهَمُ نَكِرَةٌ ، وَالْمُخْتَصُّ مَعْرِفَةٌ ؛ وَالْقِيَامُ مَجْهُوْلُ الزَّمَانِ ، وَقَامَ مُخْتَصُّ الزَّمَانِ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ « إِنْ » ؛ وَيَقُوْمُ مُخْتَصُّ الزَّمَانِ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ « لَمْ » . – وَهٰذَا مَذْهَبُ مَنْ يَقُوْلُ بِالتَّحْلِيْلِ إِنَّهُ فَرْعٌ عَنِ التَّرْكِيْبِ ، وَإِنَّ الْمُرَكَّبَ وُجِدَ مُرَكَّبًا .

وَعَلَى مَذْهَبِ مَنْ يَقُوْلُ بِالتَّفْرِيْقِ ، وَأَنَّ التَّرْكِيْبَ طَارِئٌ – وَهُوَ الَّذِي يَعْضُدُ فِي بَابِ النَّقْلِ أَكْثَرُ – فَإِنَّ الْأَظْهَرَ أَنَّ المَعْرِفَةَ قَبْلَ النَّكِرَةِ ، وَأَنَّ لَفْظَةَ « زَيْدٍ » إِنَّمَا وُضِعَتْ لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ ، ثُمَّ طَرَأَ التَّنْكِيْرُ بِكَوْنِهِ شُوْرِكَ فِي تِلْكَ اللَّفْظَةِ ، فَاُحْتِيْجَ إِلَى التَّعْرِيْفِ بِالنَّعْتِ وَالْبَدَلِ وَشِبْهِ ذٰلِكَ . فَالْمَعْرِفَةُ أَسْبَقُ مِنَ النَّكِرَةِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِيْنَ ، وَإِنْ كَانَ لِهٰؤُلٰئِكَ وَجْهٌ ، وَلٰكِنْ هٰذَا أَلْيَقُ .

وَأَمَّا نَحْنُ ، وَمَنْ جَرَى مَجْرَانَا ، وَرَقِيَ فِي مَرْقَانَا الْأَشْمَخِ ، فَغَرَضُنَا أَمْرٌ آخَرُ ؛ لَيْسَ هُوَ قَوْلُ أَحَدِهِمَا مُطْلَقًا ، إِلَّا بِنِسَبٍ وَإِضَافَاتٍ ، وَنَظَرٍ إِلَى وُجُوْهٍ مَّا ، يَطُوْلُ ذِكْرُهَا ، وَلَا تَمُسُّ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا فِي هٰذَا الْكِتَابِ ، إِذْ قَدْ ذَكَرْنَاهَا فِي غَيْرِهِ مِنْ تَوَالِيْفِنَا .

(اَلْحَرَكَاتُ الْجِسْمَانِيَّةُ وَالرُّوْحَانِيَّةُ)

فَلْنُبَيِّنْ أَنَّ الْحَرَكَاتِ عَلَى قِسْمَيْنِ : حَرَكَةٌ جِسْمَانِيَّةٌ وَحَرَكَةٌ رُوْحَانِيَّةٌ . وَالْحَرَكَةُ الْجِسْمَانِيَّةُ لَهَا أَنْوَاعٌ كَثِيْرَةٌ ، سَيَأْتِي ذِكْرُهَا فِي دَاخِلِ الْكِتَابِ ، وَكَذٰلِكَ الرُّوْحَانِيَّةُ . وَلَا نَحْتَاجُ مِنْهَا فِي هٰذَا الْكِتَابِ ، إِلَّا إِلَى حَرَكَاتِ الْكَلَامِ لَفْظًا وَخَطًّا . فَالْحَرَكَاتُ الرَّقْمِيَّةُ (لَهَا) كَالْأَجْسَامِ ؛ وَالْحَرَكَاتُ اللَّفْظِيَّةُ لَهَا كَالْأَرْوَاحِ .

وَالْمُتَحَرِّكَاتُ عَلَى قِسْمَيْنِ : مُتَمَكِّنٌ وَمُتَلَوِّنٌ . فَالْمُتَلَوِّنُ ، كُلُّ مُتَحَرِّكٍ تُحَرِّكُ بِجَمِيْعِ الْحَرَكَاتِ أَوْ بِبَعْضِهَا ؛ فَالْمُتَحَرِّكُ بِجَمِيْعِهَا ، كَالدَّالِ مِنْ زَيْدٍ ؛ وَالْمُتَحَرِّكُ بِبَعْضِهَا ، كَالْأَسْمَاءِ الَّتِي لَا تَنْصَرِفُ فِي حَالِ كَوْنِهَا لَا تَنْصَرِفُ ، فَإِنَّهَا قَدْ تَنْصَرِفُ فِي التَّنْكِيْرِ وَالْإِضَافَةِ ، كَالدَّالِ مِنْ أَحْمَدَ . – وَالْمُتَمَكِّنُ (هُوَ) كُلُّ مُتَحَرِّكٍ ثَبَتَ عَلَى حَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَمْ يَنْتَقِلْ عَنْهَا كَالْأَسْمَاءِ الْمَبْنِيَّةِ ، مِثْلُ : هٰؤُلَاءِ ، وَحَذَامِ ، وَكَحُرُوْفِ الْأَسْمَاءِ الْمُعْرَبَةِ الَّتِي (هِيَ) قَبْلَ حَرْفِ الْإِعْرَابِ مِنْهَا : كَالزَّايِ وَالْيَاءِ مِنْ زَيْدٍ وَشِبْهِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْلَاكَ الْحَرَكَاتِ هِيَ أَفْلَاكُ الْحُرُوْفِ الَّتِي تِلْكَ الْحَرَكَاتُ عَلَيْهَا لَفْظًا وَخَطًّا ؛ فَانْظُرْهُ هُنَاكَ . وَلَهَا بَسَائِطُ وَأَحْوَالٌ وَمَقَامَاتٌ ، كَمَا كَانَ لِلْحُرُوْفِ ، نَذْكُرُهَا فِي كِتَابِ « الْمَبَادِى » الْمَخْصُوْصِ بِعِلْمِ الْحُرُوْفِ ، إِنْ شَاءَ اللّٰهُ !

وَكَمَا ثَبَتَ التَّلْوِيْنُ وَالتَّمْكِيْنُ لِلذَّاتِ ، كَذٰلِكَ ثَبَتَ لِلْحَدَثِ وَالرَّابِطِ . وَلٰكِنْ (ثَبَتَ لَهُمَا ذٰلِكَ خَاصَّةً) فِي الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ ، وَحَذْفِ الْوَصْفِ ، وَحَذْفِ الرَّسْمِ . وَيَكُوْنُ تَكْوِيْنُ تَرْكِيْبِ الرَّابِطِ لِأَمْرَيْنِ : (إِمَّا) بِالْمُوَافَقَةِ وَالْاِسْتِعَارَةِ ، وَ (إِمَّا بِ) الْاِضْطِرَارِ . فَ (التَّرْكِيْبُ) بِالْمُوَافَقَةِ – وَهُوَ الْإِتِّبَاعُ – : هٰذَا ابْنُمٌ ، وَرَأَيْتُ ابْنَمًا ، وَعَجِبْتُ مِنِ ابْنِمٍ . وَ (التَّرْكِيْبُ) بِالْاِسْتَعَارَةِ (وَهِيَ) حَرَكَةُ النَّقْلِ ، كَحَرَكَةِ الدَّالِ مِنْ « قَدَ افْلَحَ » فِي قِرَاءَةِ مَنْ نَقَلَ . وَ (التَّرْكِيْبُ) بِالْاِضْطِرَارِ ، (وَهُوَ) التَّحْرِيْكُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ .

وَقَدْ تَكُوْنُ (الْحَرَكَةُ) حَرَكَةَ الْإِتِّبَاعِ الْمُوَافِقِ فِي التَّرْكِيْبِ الذَّاتِيِّ ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُ الْحُرُوْفِ كُلِّهَا التَّمْكِيْنَ – وَهُوَ الْبِنَاءُ – مِثْلُ الْفِطْرَةِ فِيْنَا . وَهُنَا أَسْرَارٌ لِمَنْ تَفَطَّنَ . وَلٰكِنَّ الْوَالِدَانِ يَنْقُلَانِ عَنِ الْفِطْرَةِ الْمُقَيَّدَةِ ، لَا الْفِطْرَةِ الْمُطْلَقَةِ . – كَذٰلِكَ الْحُرُوْفُ : (فَإِنَّهَا) مُتَمَكِّنَةٌ فِي مَقَامِهَا ، لَا تَخْتَلُّ ، ثَابِتَةٌ ، مَبْنِيَّةٌ ، كُلُّهَا سَاكِنَةٌ فِي حَالِهَا . فَأَرَادَ اللَّافِظُ أَنْ يُوْصِلَ إِلَى السَّامِعِ مَا فِي نَفْسِهِ ، فَافْتَقَرَ إِلَى التَّلْوِيْنِ : فَحَرَّكَ الْفَلَكَ الَّذِي عَنْهُ تُوْجَدُ الْحَرَكَاتُ عِنْدَ أَبِي طَالِبٍ . وَعِنْدَ غَيْرِهِ ، هُوَ الْمُتَقَدِّمُ ، وَاللَّفْظُ أَوِ الرَّقْمُ ، عَنْ ذٰلِكَ الْفَلَكِ . وَهٰذَا مَوْضِعُ طَلَبٍ لِمُرِيْدِي مُعَايَنَةِ الْحَقَائِقِ .

(اَلْحَقَائِقُ الْأُوَلُ وَتَوَجُّهَاتُهَا الْعُلْوِيَّةُ)

وَأَمَّا نَحْنُ ، فَلَا نَقُوْلُ بِقَوْلِ أَبِي طَالِبٍ وَنَقْتَصِرُ ، وَلَا بِقَوْلِ الْآخَرِ وَنَقْتَصِرُ . فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَالَ حَقًّا مِنْ جِهَةٍ مَّا ، وَلَمْ يُتَمِّمْ . فَأَقُوْلُ : إِنَّ الْحَقَائِقَ الْأُوَلَ الْإِلٰهِيَّةَ ، تَتَوَجَّهُ عَلَى الْأَفْلَاكِ الْعُلْوِيَّةِ بِالْوَجْهِ الَّذِي تَتَوَجَّهُ بِهِ عَلَى مَحَالِّ آثَارِهَا ، عِنْدَ غَيْرِ أَبِي طَالِبِ الْمَكِّي ؛ وَتُقْبَلُ كُلُّ حَقِيْقَةٍ عَلَى مَرْتَبَتِهَا . وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الْأَفْلَاكُ فِي اللَّطَافَةِ أَقْرَبَ ، عِنْدَ غَيْرِ أَبِي طَالِبٍ ، إِلَى الْحَقَائِقِ ، – كَانَ قُبُوْلُهَا أَسْبَقَ ، لِعَدَمِ الشُّغْلِ ، وَصَفَاءِ الْمَحَلِّ مِنْ كُدُوْرَاتِ الْعَلَائِقِ ، فَإِنَّهُ نَزِيْهٌ . فَلِهٰذَا جَعَلَهَا (غَيْرُ أَبِي طَالِبٍ) السَّبَبَ الْمُؤَثِّرَ .

وَلَوْ عَرَفَ هٰذَا الْقَائِلُ أَنَّ تِلْكَ الْحَقَائِقَ الْأُوَلَ ، إِنَّمَا تَوَجَّهَتْ عَلَى مَا يُنَاسِبُهَا فِي اللَّطَافَةِ ، وَهُوَ أَنْفَاسُ الْإِنْسَانِ ، فَتَحَرَّكَ الْفَلَكُ الْعُلْوِيُّ ، الَّذِي يُنَاسِبُهُ عَالَمُ الْأَنْفَاسِ – وَهٰذَا مَذْهَبُ أَبِي طَالِبٍ – ثُمَّ يُحَرِّكُ ذٰلِكَ الْفَلَكُ الْعُلْوِيُّ الْعُضْوَ الْمَطْلُوْبَ بِالْغَرَضِ الْمَطْلُوْبِ ، بِتِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا . فَإِنَّ الْفَلَكَ الْعُلْوِيَّ وَإِنْ لَطَفَ ، فَهُوَ فِي أَوَّلِ دَرَجِ الْكَثَافَةِ وَآخِرِ دَرَجِ اللَّطَافَةِ ، بِخِلَافِ عَالَمِ أَنْفَاسِنَا .

وَاجْتَمَعَتِ الْمَذَاهِبُ . فَإِنَّ الْخِلَافَ لَا يَصِحُّ عِنْدَنَا وَلَا فِي طَرِيْقِنَا . لٰكِنَّهُ (أَيْ الْأَمْرَ) كَاشِفٌ ، وَأَكْشَفُ . فَتَفَهَّمْ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَتَحَقَّقْهُ ، فَإِنَّهُ سِرٌّ عَجِيْبٌ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْرَارِ الْإِلٰهِيَّةِ . وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ أَبُوْ طَالِبٍ فِي كِتَابِ « الْقُوْتِ » لَهُ .

(اَلتَّلْوِيْنُ وَالتَّمْكِيْنُ فِي عَالَمِ الْحُرُوْفِ)

ثُمَّ نَرْجِعُ وَنَقُوْلُ : فَافْتَقَرَ الْمُتَكَلِّمُ إِلَى التَّلْوِيْنِ لِيَبْلُغَ إِلَى مَقْصَدِهِ . فَوَجَدَ عَالَمَ الْحُرُوْفِ وَالْحَرَكَاتِ قَابِلًا لِمَا يُرِيْدُهُ مِنْهَا . لِعِلْمِهَا أَنَّهَا لَا تَزُوْلُ عَنْ حَالِهَا ، وَلَا تَبْطُلُ حَقِيْقَتُهَا . فَيَتَخَيَّلُ الْمُتَكَلِّمُ أَنَّهُ قَدْ غَيَّرَ الْحَرْفَ ، وَ (هُوَ فِي الْحَقِيْقَةِ) مَا غَيَّرَهُ . بُرْهَانُ ذٰلِكَ : أَنْ تُفْنِيَ نَظَرَكَ فِي « دَالِ » زَيْدٍ ، مِنْ حَيْثُ هُوَ « دَالٌ » ؛ وَانْظُرْ فِيْهِ مِنْ حَيْثُ تَقَدَّمَهُ « قَامَ » ، مَثَلًا : وَتَفَرَّغْ إِلَيْهِ ، أَوْ (إِلَى) أَيِّ فِعْلٍ لَفْظِيٍّ كَانَ ، لِيُحَدَّثَ بِهِ عَنْهُ ؛ فَلَا يَصِحُّ لَكَ إِلَّا الرَّفْعُ فِيْهِ خَاصَّةً : فَمَا زَالَ (حَرْفُ الدَّالِ) عَنْ بِنَائِهِ الَّذِي وُجِدَ عَلَيْهِ .

وَمَنْ تَخَيَّلَ أَنَّ « دَالَ » الْفَاعِلِ هُوَ « دَالُ » الْمَفْعُوْلِ أَوْ « دَالُ » الْمَجْرُوْرِ ، فَقَدْ خَلَّطَ ! وَاعْتَقَدَ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْأُوْلَى هِيَ عَيْنُ الثَّانِيَةِ ، لَا مِثْلُهَا . وَمَنِ اعْتَقَدَ هٰذَا فِي الْوُجُوْدِ فَقَدْ بَعُدَ عَنِ الصَّوَابِ . وَرُبَّمَا يَأْتِي مِنْ هٰذَا الْفَصْلِ ، فِي الْأَلْفَاظِ شَيْءٌ ، إِنْ قُدِّرَ وَأُلْهِمْنَاهُ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الْأَصْلَ الثُّبُوْتُ لِكُلِّ شَيْءٍ . أَلَا تَرَى الْعَبْدَ ؟ (فَإِنَّ) حَقِيْقَةَ ثُبُوْتِهِ وَتَمَلُّكِهِ ، إِنَّمَا هُوَ فِي الْعُبُوْدَةِ . فَإِنِ اتَّصَفَ ، يَوْمًا مَّا ، بِوَصْفٍ رَبَّانِيٍّ ، فَلَا تَقُلْ هُوَ مُعَارٌ

عِنْدَهُ . وَلٰكِنْ اُنْظُرْ إِلَى الْحَقِيْقَةِ الَّتِي قَبِلَتْ ذٰلِكَ الْوَصْفَ مِنْهُ ، (فَإِنَّكَ) تَجِدُهَا ثَابِتَةً فِي ذٰلِكَ الْوَصْفِ : كُلَّمَا ظَهَرَ عَيْنُهَا تَحَلَّتْ بِتِلْكَ الْحِلْيَةِ .

فَإِيَّاكَ أَنْ تَقُوْلَ : قَدْ خَرَجَ هٰذَا عَنْ طَوْرِهِ بِوَصْفِ رَبِّهِ . فَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى ! – مَا نَزَعَ وَصْفَهُ وَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ . وَإِنَّمَا وَقَعَ الشَّبَهُ ، فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى ، عِنْدَ غَيْرِ الْمُحَقِّقِ . فَيَقُوْلُ : هٰذَا هُوَ هٰذَا ! وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ هٰذَا لَيْسَ هٰذَا ، وَهٰذَا يَنْبَغِي لِهٰذَا وَلَا يَنْبَغِي لِهٰذَا : فَلْيَكُنْ ، عِنْدَ مَنْ لَا يَنْبَغِي لَهُ ، عَارِيَةً وَأَمَانَةً . وَهٰذَا (كُلُّهُ) قُصُوْرٌ ! وَكَلَامُ مَنْ عَمِيَ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ . فَإِنَّ هٰذَا وَلَا بُدَّ ، يَنْبَغِي لَهُ هٰذَا . فَلَيْسَ الرَّبُّ هُوَ الْعَبْدُ .

وَإِنْ قِيْلَ فِي اللهِ – سُبْحَانَهُ ! – : إِنَّهُ عَالِمٌ ؛ وَقِيْلَ فِي الْعَبْدِ : إِنَّهُ عَالِمٌ ؛ – وَكَذٰلِكَ الْحَيُّ وَالْمُرِيْدُ وَالسَّمِيْعُ وَالْبَصِيْرُ ، وَسَائِرُ الصِّفَاتِ وَالْإِدْرَاكَاتِ – فَإِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَ حَيَاةَ الْحَقِّ هِيَ حَيَاةُ الْعَبْدِ فِي الْحَدِّ ، فَتَلْزَمُكَ الْمُحَالَاتِ . فَإِذَا جَعَلْتَ حَيَاةَ الرَّبِّ عَلَى مَا تَسْتَحِقُّهُ الرُّبُوْبِيَّةُ ، وَحَيَاةَ الْعَبْدِ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّهُ الْكَوْنُ ، فَقَدِ انْبَغَى لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُوْنَ حَيًّا ؛ وَلَوْ لَمْ يَنْبَغِ لَهُ ذٰلِكَ ، لَمْ يَصِحَّ أَنْ يَكُوْنَ الْحَقَّ آمِرًا وَلَا قَاهِرًا إِلَّا لِنَفْسِهِ : وَيَتَنَزَّهُ – تَعَالَى ! – أَنْ يَكُوْنَ مَأْمُوْرًا أَوْ مَقْهُوْرًا . فَإِذَا ثَبَتَ أَنْ يَكُوْنَ الْمَأْمُوْرُ وَالْمَقْهُوْرُ أَمْرًا آخَرَ وَعَيْنًا أُخْرَى ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ حَيًّا ، عَالِمًا ، مَرِيْدًا ، مُتَمَكِّنًا مِمَّا يُرَادُ بِهِ . هٰكَذَا تُعْطِي الْحَقَائِقُ .

فَثَمَّ ، عَلَى هٰذَا ، حَرْفٌ لَا يَقْبَلُ سِوَى حَرَكَتِهِ : كَالْهَاءِ مِنْ « هٰذَا » . وَثَمَّ حَرْفٌ يَقْبَلُ الْحَرَكَتَيْنِ وَالثَّلَاثَ ، مِنْ جِهَةِ صُوْرَتِهِ الْجِسْمِيَّةِ وَ (صُوْرَتِهِ) الرُّوْحِيَّةِ : كَالْهَاءِ فِي الضَّمِيْرِ لَهُ وَلَهَا وَبِهِ . كَمَا تَقْبَلُ أَنْتَ بِنَفْسِكَ الْخَجَلَ ، وَبِصُوْرَتِكَ حُمْرَتَهُ ؛ وَتَقْبَلُ بِنَفْسِكَ الْوَجَلَ ، وَبِصُوْرَتِكَ صَفْرَتَهُ . وَالثَّوْبُ يَقْبَلُ الْأَلْوَانَ الْمُخْتَلِفَةَ . وَمَا بَقِيَ الْكَشْفُ إِلَّا عَنِ الْحَقِيْقَةِ الَّتِي تَقْبَلُ الْأَعْرَاضَ : هَلْ هِيَ وَاحِدَةٌ ، أَوْ شَأْنُهَا شَأْنُ الْأَعْرَاضِ فِي الْعَدَمِ وَالْوُجُوْدِ ؟ وَهٰذَا مَبْحَثٌ لِلنُّظَّارِ ؛ وَأَمَّا نَحْنُ فَلَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتُ . فَإِنَّهُ بَحْرٌ عَمِيْقٌ ، يُحَالُ الْمُرِيْدُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ بَابِ الْكَشْفِ عَلَيْهِ . فَإِنَّهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْكَشْفِ يَسِيْرٌ ، وَبِالنَّظَرِ إِلَى الْعَقْلِ عَسِيْرٌ .

(اَلْبَاحِثُ فِي اللَّفْظِ وَالْمُخْبِرُ عَمَّا تَحَقَّقَ)

ثُمَّ أَرْجِعُ وَأَقُوْلُ : إِنَّ الْحَرْفَ إِذَا قَامَتْ بِهِ حَقِيْقَةُ الْفَاعِلِيَّةِ ، (فَذٰلِكَ يَكُوْنُ) بِتَفْرِيْغِ الْفِعْلِ عَلَى الْبِنْيَةِ الْمَخْصُوْصَةِ فِي اللِّسَانِ ، فَتَقُوْلُ : قَالَ اللهُ . وَإِذَا قَامَتْ بِهِ حَقِيْقَةٌ تَطْلُبُهُ ، يُسَمَّى عِنْدَهَا مَنْصُوْبًا بِالْفِعْلِ أَوْ مَفْعُوْلًا، (قُلْ) كَيْفَ شِئْتَ . وَذٰلِكَ بِأَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ الْعَوْنَ أَوْ تَقْصُدَهُ ، كَمَا طَلَبَ مِنِّي الْقِيَامَ بِمَا كَلَّفَنِي . فَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يُعْطِنِي إِلَّا بَعْدَ سُؤَالِي ، فَكَانَ سُؤَالِي – أَوْ حَالِيَ الْقَائِمُ مُقَامَ سُؤَالِي بِوَعْدِهِ – جَعَلَهُ يُعْطِيْنِي . قَالَ تَعَالَى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فَسُؤَالِي إِيَّاهُ ، مِنْ أَمْرِهِ إِيَّايَ بِهِ ؛ وَإِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ ، مِنْ طَلَبِي مِنْهُ . فَتَقُوْلُ : دَعَوْتُ اللهَ ، فَنَصَبْتَ حَرْفَ الْهَاءِ ، وَقَدْ كَانَتْ مَرْفُوْعَةً . فَعَلِمْنَا بِالْحَرَكَاتِ أَنَّ الْحَقَائِقَ قَدِ اخْتَلَفَتْ . بِهٰذَا ثَبَتَ الْاِصْطِلَاحُ فِي لَحْنِ بَعْضِ النَّاسِ .

وَهٰذَا إِذَا كَانَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ غَيْرَنَا . وَأَمَّا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْمُتَكَلِّمَ ، فَالْحَقَائِقُ نَعْلَمُ أَوَّلًا ، وَنُجْرِيْهَا فِي أَفْلَاكِهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيْهِ ، بِالنَّظَرِ إِلَى أَفْلَاكٍ مَخْصُوْصَةٍ . وَكُلُّ مُتَكَلِّمٍ (هُوَ) بِهٰذِهِ الْمَثَابَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهٰذَا التَّفْصِيْلِ ؛ وَهُوَ (فِي الْحَقِيْقَةِ) عَالِمٌ بِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِهِ ! وَذٰلِكَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُتَلَفَّظَ بِهَا ، إِمَّا لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى – وَهُوَ مَقَامُ الْبَاحِثِ فِي اللَّفْظِ : مَا مَدْلُوْلُهُ ؟ لِيَرَى مَا قَصَدَ بِهِ الْمُتَكَلِّمُ مِنَ الْمَعَانِي . وَإِمَّا مَعْنًى يُدَلُّ عَلَيْهِ بِلَفْظٍ مَّا ، وَهُوَ الْمُخْبِرُ عَمَّا تَحَقَّقَ .

وَأَضْرَبْنَا عَنِ اللَّحْنِ ، فَإِنَّ أَفْلَاكَهُ غَيْرَ هٰذِهِ الْأَفْلَاكِ ؛ وَ (أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِ) إِسْقَاطِ الْحَرَكَاتِ مِنَ الْخَطِّ – فِي حَقِّ قَوْمٍ دُوْنَ قَوْمٍ – : مَا سَبَبُهُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ هُوَ ؟ هٰذَا كُلُّهُ (مُفَصَّلٌ) فِي كِتَابِ « الْمَبَادِي » . إِذْ كَانَ الْقَصْدُ بِهٰذَا الْكِتَابِ الْإِيْجَازَ وَالْاِخْتِصَارَ جُهْدَ الطَّاقَةِ . وَلَوِ اطَّلَعْتُمْ عَلَى الْحَقَائِقِ كَمَا اطَّلَعْنَا عَلَيْهَا ، وَعَلَى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ وَالْمَعَانِي ، لَرَأَيْتُمْ كُلَّ حَقِيْقَةٍ وَرُوْحٍ وَمَعْنًى عَلَى مَرْتَبَتِهِ . فَافْهَمْ ، وَالْزَمْ ! (فَهَا نَحْنُ) قَدْ ذَكَرْنَا مِنْ بَعْضِ مَا تُعْطِيْهِ حَقَائِقُ الْحَرَكَاتِ مَا يَلِيْقُ بِهٰذَا الْكِتَابِ .

فَلْنَقْبِضِ الْعِنَانَ ، وَلْنَرْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا : مِثْلُ كَلِمَةِ الْاِسْتِوَاءِ ، وَالْأَيْنَ ، وَفِي ، وَكَانَ ، وَالضِّحْكِ ، وَالْفَرَحِ ، وَالتَّبَشْبُشِ ، وَالتَّعَجُّبِ ، وَالْمَلَلِ ، وَالْمَعِيَّةِ ، وَالْعَيْنِ ، وَالْيَدِ ، وَالْقَدَمِ ، وَالْوَجْهِ ، وَالصُّوْرَةِ ، وَالتَّحَوُّلِ ، وَالْغَضَبِ ، وَالْحَيَاءِ ، وَالصَّلَاةِ ، وَالْفَرَاغِ . – وَمَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيْزِ وَالْحَدِيْثِ (النَّبَوِيّ) مِنْ هٰذِهِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُوَهِّمَ التَّشْبِيْهَ وَالتَّجْسِيْمَ ، وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يَلِيْقُ بِاللهِ – تَعَالَى ! – فِي النَّظَرِ الْفِكْرِيّ عِنْدَ الْعَقْلِ خَاصَّةً .

(الْأَلْفَاظُ الَّتِي تُوَهِّمُ التَّشْبِيْهَ وَالتَّجْسِيْمَ فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيْزِ وَالْحَدِيْثِ النَّبَوِيّ)

فَنَقُوْلُ : لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ مُنْزَلًا عَلَى لِسَانِ الْعَرَبِ ، فَفِيْهِ مَا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ (مِنْ خَصَائِصَ) . وَلَمَّا كَانَتِ الْأَعْرَابُ لَا تَعْقِلُ مَا لَا يُعْقَلُ ، إِلَّا حَتَّى يُنَزَّلَ لَهَا فِي التَّوْصِيْلِ بِمَا تَعْقِلُهُ ، لِذٰلِكَ جَاءَتْ هٰذِهِ الْكَلِمَاتُ (الَّتِي تُوَهِّمُ التَّشْبِيْهَ وَالتَّجْسِيْمَ) عَلَى هٰذَا الْحَدِّ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴿٨﴾ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ** ﴿٩﴾ ﴾ . (فَإِنَّهُ) لَمَّا كَانَتِ الْمُلُوْكُ عِنْدَ الْعَرَبِ تُجْلِسُ عَبْدَهَا الْمُقَرَّبَ الْمُكَرَّمَ مِنْهَا ، بِهٰذَا الْقَدْرِ فِي الْمَسَاحَةِ ، فَعَقَلَتِ (الْعَرَبُ) مِنْ هٰذَا الْخِطَابِ قُرْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ رَبِّهِ . وَلَا نُبَالِي بِمَا فَهِمَتِ (الْعَرَبُ) مِنْ ذٰلِكَ مِنْ سِوَى الْقُرْبِ . فَالْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ يَنْفِي الْحَدَّ وَالْمَسَافَةَ (عَنِ اللهِ ؛ وَهٰذَا الْقَدْرُ يَكْفِيْنَا فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ) حَتَّى يَأْتِيَ الْكَلَامُ فِي تَنْزِيْهِ الْبَارِيّ عَمَّا تُعْطِيْهِ هٰذِهِ الْأَلْفَاظُ مِنَ التَّشْبِيْهِ ، فِي الْبَابِ الثَّالِثِ الَّذِي يَلِي هٰذَا الْبَابَ .

(أَقْسَامُ اللَّفْظِ عِنْدَ الْعَرَبِ)

وَلَمَّا كَانَتِ الْأَلْفَاظُ عِنْدَ الْعَرَبِ ، عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . أَلْفَاظٌ مُتَبَايِنَةٌ ، وَهِيَ الْأَسْمَاءُ الَّتِي لَمْ تَتَعَدَّ مُسَمَّاهَا : كَالْبَحْرِ وَالْمِفْتَاحِ وَالْمِقَصَّانِ (= وَالْمِقَصَّيْنِ) . وَأَلْفَاظٌ

مُتَوَاطِئَةٌ ، وَهِيَ كُلُّ لَفْظَةٍ قَدْ تُوُوْطِئُ عَلَيْهَا ، أَنْ تُطْلَقَ عَلَى آحَادِ نَوْعٍ مَّا مِنَ الْأَنْوَاعِ : كَالرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ . وَأَلْفَاظٌ مُشْتَرَكَةٌ ، وَهِيَ كُلُّ لَفْظٍ عَلَى صِيْغَةٍ وَاحِدَةٍ ، يُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ : كَالْعَيْنِ وَالْمُشْتَرِي وَالْإِنْسَانِ . وَأَلْفَاظٌ مُتَرَادِفَةٌ ، وَهِيَ أَلْفَاظٌ مُخْتَلِفَةُ الصِّيَغِ ، تُطْلَقُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ : كَالْأَسَدِ وَالْهِزَبْرِ وَالْغَضَنْفَرِ ، وَكَالسَّيْفِ وَالْحُسَامِ وَالصَّارِمِ ، وَكَالْخَمْرِ وَالرَّحِيْقِ وَالصَّهْبَاءِ وَالْخَنْدَرِيْسِ . - هٰذِهِ هِيَ الْأُمَّهَاتُ (فِي عَالَمِ الْأَلْفَاظِ) ، مِثْلُ الْبُرُوْدَةِ وَالْحَرَارَةِ وَالْيُبُوْسَةِ وَالرُّطُوْبَةِ فِي (عَالَمِ) الطَّبَائِعِ .

وَثَمَّ أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ وَمُسْتَعَارَةٌ وَمَنْقُوْلَةٌ ، وَغَيْرُ ذٰلِكَ . وَكُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى هٰذِهِ الْأُمَّهَاتِ بِالْاِصْطِلَاحِ . فَإِنَّ الْمُشْتَبِهَ وَإِنْ قُلْتَ فِيْهِ : إِنَّهُ قَبِيْلٌ خَامِسٌ مِنْ قَبَائِلِ الْأَلْفَاظِ : مِثْلُ النُّوْرِ ، يُطْلَقُ عَلَى الْمَعْلُوْمِ وَعَلَى الْعِلْمِ ، لِشَبَهِ الْعِلْمِ بِهِ ، مِنْ كَشْفِ عَيْنِ الْبَصِيْرَةِ بِهِ الْمَعْلُوْمَ ، كَالنُّوْرِ مَعَ الْبَصَرِ فِي كَشْفِ الْمَرْئِيِّ الْمَحْسُوْسِ . فَلَمَّا كَانَ هٰذَا الشَّبَهُ صَحِيْحًا سُمِّيَ الْعِلْمُ نُوْرًا ، وَيُلْحَقُ (مِنْ ثَمَّةَ) بِالْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ . فَإِذَنْ لَا يَنْفَكُّ لَفْظٌ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّهَاتِ . وَهٰذَا هُوَ حَدُّ كُلِّ نَاظِرٍ فِي هٰذَا الْبَابِ .

وَأَمَّا نَحْنُ فَنَقُوْلُ بِهٰذَا مَعَهُمْ . وَ (لٰكِنْ) عِنْدَنَا زَوَائِدُ ، مِنْ بَابِ الْاِطِّلَاعِ عَلَى الْحَقَائِقِ ، مِنْ جِهَةٍ لَمْ يَطَّلِعُوْا عَلَيْهَا ؛ عَلِمْنَا مِنْهَا أَنَّ الْأَلْفَاظَ كُلَّهَا مُتَبَايِنَةٌ ، وَإِنِ اشْتَرَكَتْ فِي النُّطْقِ . وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، (عَلِمْنَا) أَيْضًا (أَنَّ الْأَلْفَاظَ) كُلَّهَا مُشْتَرَكَةٌ ، وَإِنْ تَبَايَنَتْ فِي النُّطْقِ . وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى شَيْءٍ مِنْ هٰذَا فِيْمَا تَقَدَّمَ مِنْ هٰذَا الْبَابِ ، فِي آخِرِ فَصْلِ الْحُرُوْفِ .

(اَلْمُحَقِّقُ وَأَدَوَاتُ التَّقْيِيْدِ : رُمُوْزٌ عَلَى كُنُوْزٍ)

فَإِذَا تَبَيَّنَ هٰذَا ، فَاعْلَمْ - أَيُّهَا الْوَلِيُّ الْحَمِيْمُ - أَنَّ الْمُحَقِّقَ الْوَاقِفَ ، الْعَارِفَ بِمَا تَقْتَضِيْهِ الْحَضْرَةُ الْإِلٰهِيَّةُ مِنَ التَّقْدِيْسِ وَالتَّنْزِيْهِ وَنَفْيِ الْمُمَاثَلَةِ وَالتَّشْبِيْهِ ، لَا يَحْجُبُهُ مَا نَطَقَتْ بِهِ الْآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ فِي حَقِّ الْحَقِّ - تَعَالَى ! - مِنْ أَدَوَاتِ التَّقْيِيْدِ بِالزَّمَانِ وَالْجِهَةِ وَالْمَكَانِ . كَقَوْلِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ ! - ﴿ **أَيْنَ اللّٰهُ ؟** ﴾ - فَأَشَارَتْ (أَمَةُ السَّوْدَاءِ)

إِلَى السَّمَاءِ . فَأَثْبَتَ لَهَا (الرَّسُوْلُ) الْإِيْمَانَ . فَسَأَلَ ﷺ بِالظَّرْفِيَّةِ عَمَّا لَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ الْمَكَانُ فِي النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ . وَالرَّسُوْلُ أَعْلَمُ بِاللهِ . وَاللهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ . وَقَالَ – تَعَالَى ! – فِي الظَّاهِرِ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ بِالْفَاءِ . وَقَالَ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ وَ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ وَ « يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ » وَ « يَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ » . وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ ، مِنَ الْأَدَوَاتِ اللَّفْظِيَّةِ (التَّشْبِيْهِيَّةِ) .

وَقَدْ تَقَرَّرَ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ ، خَلْقُهُ (تَعَالَى) الْأَزْمَانَ وَالْأَمْكِنَةَ وَالْجِهَاتِ ، وَالْأَلْفَاظَ وَالْحُرُوْفَ وَالْأَدَوَاتِ ، وَالْمُتَكَلِّمَ بِهَا وَالْمُخَاطَبِيْنَ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ . كُلُّ ذٰلِكَ خَلْقٌ لِلّٰهِ – تَعَالَى ! – . فَيَعْرِفُ الْمُحَقِّقُ قَطْعًا (أَنَّ هٰذِهِ الْأَدَوَاتِ اللَّفْظِيَّةَ التَّشْبِيْهِيَّةَ ، إِذَا أُطْلِقَتْ عَلَى الْحَقِّ) أَنَّهَا مَصْرُوْفَةٌ إِلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي يُعْطِيْكَ التَّشْبِيْهَ وَالتَّمْثِيْلَ . وَ (يَعْرِفُ أَيْضًا) أَنَّ الْحَقِيْقَةَ لَا تَقْبَلُ ذٰلِكَ أَصْلًا . وَلٰكِنْ تَتَفَاضَلُ الْعُلَمَاءُ السَّالِمَةُ عَقَائِدُهُمْ مِنَ التَّجْسِيْمِ . فَإِنَّ الْمُشَبِّهَةَ وَالْمُجَسِّمَةَ قَدْ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ (أَنَّهُمْ) عُلَمَاءُ ، مِنْ حَيْثُ عِلْمِهِمْ بِأُمُوْرٍ غَيْرِ هٰذَا . فَتَفَاضُلُ الْعُلَمَاءِ ، فِي هٰذَا الصَّرْفِ عَنْ هٰذَا الْوَجْهِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ بِالْحَقِّ تَعَالَى .

(تَفَاضُلُ الْعُلَمَاءِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيْهِ)

فَطَائِفَةٌ لَمْ تُشَبِّهْ وَلَمْ تُجَسِّمْ . وَصَرَّفَتْ عِلْمَ ذٰلِكَ ، الَّذِي وَرَدَ فِي كَلَامِ اللهِ وَرُسُلِهِ ، إِلَى اللهِ – تَعَالَى ! – . وَلَمْ تَدْخُلْ لَهَا قَدَمٌ فِي بَابِ التَّأْوِيْلِ . وَقَنِعَتْ بِمُجَرَّدِ الْإِيْمَانِ بِمَا يُعَلِّمُهُ اللهُ فِي هٰذِهِ الْأَلْفَاظِ وَالْحُرُوْفِ ، مِنْ غَيْرِ تَأْوِيْلٍ ، وَلَا صَرْفٍ إِلَى وَجْهٍ مِنْ وُجُوْهِ التَّنْزِيْهِ . بَلْ قَالَتْ : لَا أَدْرِي جُمْلَةً وَاحِدَةً ! وَلٰكِنِّي أُحِيْلُ إِبْقَاءَهُ عَلَى وَجْهِ التَّشْبِيْهِ لِقَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ ، لَا لِمَا يُعْطِيْهِ النَّظَرُ الْعَقْلِيُّ . وَعَلَى هٰذَا فُضَلَاءُ الْمُحَدِّثِيْنَ مِنْ أَهْلِ الظَّاهِرِ ، السَّالِمَةِ عَقَائِدُهُمْ مِنَ التَّشْبِيْهِ وَالتَّعْطِيْلِ .

وَطَائِفَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُنَزِّهَةِ ، عَدَلَتْ بِهٰذِهِ الْكَلِمَاتِ عَنِ الْوَجْهِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ بِاللهِ – تَعَالَى ! – فِي النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ . (نَقُوْلُ :) عَدَلَتْ إِلَى وَجْهٍ مَا مِنْ وُجُوْهِ التَّنْزِيْهِ عَلَى التَّعْيِيْنِ ، مِمَّا يَجُوْزُ فِي النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ الْحَقُّ – تَعَالَى ! – بَلْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِهِ وَلَا بُدَّ . وَمَا بَقِيَ النَّظَرُ إِلَّا فِي أَنَّ هٰذِهِ الْكَلِمَةَ : هَلِ الْمُرَادُ بِهَا ذٰلِكَ الْوَجْهَ ، أَمْ لَا ؟ وَلَا يَقْدَحُ ذٰلِكَ التَّأْوِيْلُ فِي أُلُوْهَتِهِ .

وَرُبَّمَا عَدَلُوْا بِهَا إِلَى وَجْهَيْنِ وَثَلَاثَةٍ وَأَكْثَرَ ، عَلَى حَسَبِ مَا تُعْطِيْهِ الْكَلِمَةُ فِي وَضْعِ اللِّسَانِ ، وَلٰكِنْ مِنَ الْوُجُوْهِ الْمُنَزِّهَةِ لَا غَيْرَ . فَإِذَا لَمْ يَعْرِفُوْا مِنْ ذٰلِكَ الْخَبَرِ أَوِ الْآيَةِ ، عِنْدَ التَّأْوِيْلِ فِي اللِّسَانِ ، إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا ، قَصَرُوْا الْخَبَرَ عَلَى ذٰلِكَ الْوَجْهِ التَّنْزِيْهِ ، وَقَالُوْا : هٰذَا هُوَ ، لَيْسَ إِلَّا ، فِي عِلْمِنَا وَفَهْمِنَا . وَإِذَا وَجَدُوْا لَهُ مَصْرَفَيْنِ فَصَاعِدًا ، صَرَّفُوْا الْخَبَرَ أَوِ الْآيَةَ إِلَى تِلْكَ الْمَصَارِفِ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ هٰؤُلَاءِ : يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيْدَ كَذَا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيْدَ كَذَا – وَتُعَدِّدُ وُجُوْهَ التَّنْزِيْهِ . ثُمَّ تَقُوْلُ : وَاللهُ أَعْلَمُ أَيَّ ذٰلِكَ أَرَادَ .

وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقَوَّىٰ عِنْدَهَا وَجْهٌ مَا مِنْ تِلْكَ الْوُجُوْهِ النَّزِيْهَةِ ، بِقَرِيْنَةٍ مَّا ، قَطَعَتْ لِتِلْكَ الْقَرِيْنَةِ بِذٰلِكَ الْوَجْهِ عَلَى الْخَبَرِ ، وَقَصَرَتْهُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ تُعَرِّجْ عَلَى بَاقِي الْوُجُوْهِ فِي ذٰلِكَ الْخَبَرِ ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا تَقْتَضِي التَّنْزِيْهَ .

وَطَائِفَةٌ مِنَ الْمُنَزِّهَةِ أَيْضًا ، وَهِيَ الْعَالِيَةُ ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِنَا . فَرَّغُوْا قُلُوْبَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ وَالنَّظَرِ وَأَخْلَوْهَا . إِذْ كَانَ الْمُتَقَدِّمُوْنَ ، مِنَ الطَّوَائِفِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُتَأَوِّلَةِ ، أَهْلَ فِكْرٍ وَنَظَرٍ وَبَحْثٍ . فَقَامَتْ هٰذِهِ الطَّائِفَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمُوَفَّقَةُ – وَالْكُلُّ مُوَفَّقُوْنَ بِحَمْدِ اللهِ ! – وَقَالَتْ : حَصَلَ فِي نُفُوْسِنَا تَعْظِيْمُ الْحَقِّ – جَلَّ جَلَالُهُ ! – بِحَيْثُ لَا نَقْدِرُ أَنْ نَصِلَ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا جَاءَنَا مِنْ عِنْدِهِ بِدَقِيْقِ فِكْرٍ وَنَظَرٍ . فَأَشْبَهَتْ (هٰذِهِ الطَّائِفَةُ) الْمُحَدِّثِيْنَ السَّالِمَةَ عَقَائِدُهُمْ ، حَيْثُ لَمْ يَنْظُرُوْا ، وَلَا تَأَوَّلُوْا ، وَلَا صَرَّفُوْا . بَلْ قَالُوْا : مَا فَهِمْنَا ! فَقَالَ أَصْحَابُنَا بِقَوْلِهِمْ .

ثُمَّ انْتَقَلُوْا عَنْ مَرْتَبَةِ هٰؤُلَاءِ ، بِأَنْ قَالُوْا : لَنَا أَنْ نَسْلُكَ طَرِيْقَةً أُخْرَى فِي فَهْمِ هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ . وَذٰلِكَ بِأَنْ نُفَرِّغَ قُلُوْبَنَا مِنَ النَّظَرِ الْفِكْرِيِّ ، وَنَجْلِسَ مَعَ الْحَقِّ – تَعَالَى ! –

بِالذِّكْرِ ، عَلَى بِسَاطِ الْأَدَبِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَالْحُضُوْرِ ، وَالتَّهَيُّءِ لِقُبُوْلِ مَا يَرِدُ عَلَيْنَا مِنْهُ – تَعَالَى ! – حَتَّى يَكُوْنَ الْحَقُّ – تَعَالَى ! – (هُوَ الَّذِي) يَتَوَلَّى تَعْلِيْمَنَا عَلَى الْكَشْفِ وَالتَّحْقِيْقِ ، لَمَّا سَمِعْتُهُ يَقُوْلُ : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ وَيَقُوْلُ ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ .

فَعِنْدَمَا تَوَجَّهَتْ قُلُوْبُهُمْ وَهِمَمُهُمْ إِلَى اللهِ – تَعَالَى ! – وَلَجَأَتْ إِلَيْهِ ؛ وَأَلْقَتْ عَنْهَا مَا اسْتَمْسَكَ بِهِ الْغَيْرُ مِنْ دَعْوَى الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ وَنَتَائِجِ الْعُقُوْلِ ، – كَانَتْ عُقُوْلُهُمْ سَلِيْمَةً ، وَقُلُوْبُهُمْ مُطَهَّرَةً فَارِغَةً . فَعِنْدَمَا كَانَ مِنْهُمْ هٰذَا الْاِسْتِعْدَادُ ، تَجَلَّى الْحَقُّ لَهُمْ مُعَلِّمًا . فَأَطْلَعَتْهُمْ تِلْكَ الْمُشَاهَدَةُ عَلَى مَعَانِي هٰذِهِ الْأَخْبَارِ وَالْكَلِمَاتِ دَفْعَةً وَاحِدَةً . وَهٰذَا ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوْبِ الْمُكَاشَفَةِ .

فَإِنَّهُمْ إِذَا عَايَنُوْا بِعُيُوْنِ الْقُلُوْبِ مَنْ نَزَّهَتْهُ الْعُلَمَاءُ ، الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُمْ ، بِالْإِدْرَاكِ الْفِكْرِيّ ، لَمْ يَصِحَّ لَهُمْ عِنْدَ هٰذَا الْكَشْفِ وَالْمُعَايَنَةِ أَنْ يَجْهَلُوْا خَبَرًا مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي تَوَهَّمَ التَّشْبِيْهَ ؛ وَلَا أَنْ يُبْقُوْا ذٰلِكَ الْخَبَرَ مُنْسَحِبًا ، عَلَى مَا فِيْهِ مِنَ الْاِحْتِمَالَاتِ النَّزِيْهَةِ ؛ مِنْ غَيْرِ تَعْيِيْنٍ . بَلْ يَعْرِفُوْنَ الْكَلِمَةَ وَالْمَعْنَى النَّزِيْهَ الَّذِي سِيْقَتْ لَهُ ؛ فَيَقْصُرُوْهَا (أَيِ الْكَلِمَةَ الَّتِي تُوَهِّمُ التَّشْبِيْهَ) عَلَى مَا أُرِيْدَتْ لَهُ . وَإِنْ جَاءَ ، فِي خَبَرٍ آخَرٍ ، ذٰلِكَ اللَّفْظُ عَيْنُهُ ، فَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ مِنْ تِلْكَ الْوُجُوْهِ الْمُقَدَّسَةِ ، مُعَيَّنٌ عِنْدَ هٰذَا الْمُشَاهِدِ . – هٰذَا حَالُ طَائِفَةٍ مِنَّا .

وَطَائِفَةٌ أُخْرَى ، مِنَّا أَيْضًا ، لَيْسَ لَهُمْ هٰذَا التَّجَلِّي ، وَلٰكِنْ لَهُمُ الْإِلْقَاءُ وَالْإِلْهَامُ وَاللِّقَاءُ وَالْكِتَابَةُ . وَهُمْ مَعْصُوْمُوْنَ فِيْمَا يُلْقَى إِلَيْهِمْ ، بِعَلَامَةٍ عِنْدَهُمْ ، لَا يَعْرِفُهَا سِوَاهُمْ . فَيُخْبِرُوْنَ بِمَا خُوْطِبُوْا بِهِ وَمَا أُلْهِمُوْا بِهِ وَمَا أُلْقِيَ إِلَيْهِمْ أَوْ كُتِبَ .

فَقَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَ جَمِيْعِ الْمُحَقِّقِيْنَ ، الَّذِيْنَ سَلَّمُوْا الْخَبَرَ لِقَائِلِهِ ، وَلَمْ يَنْظُرُوْا ، وَلَا شَبَّهُوْا ، وَلَا عَطَّلُوْا ؛ – وَ (عِنْدَ) الْمُحَقِّقِيْنَ ، الَّذِيْنَ بَحَثُوْا وَاجْتَهَدُوْا وَنَظَرُوْا ، عَلَى طَبَقَاتِهِمْ أَيْضًا ؛ – وَ (عِنْدَ) الْمُحَقِّقِيْنَ الَّذِيْنَ كُوْشِفُوْا وَعَايَنُوْا ؛ – وَالْمُحَقِّقِيْنَ الَّذِيْنَ خُوْطِبُوْا وَأُلْهِمُوْا ؛ – (نَقُوْلُ : قَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَ هٰؤُلَاءِ كُلِّهِمْ) أَنَّ الْحَقَّ – تَعَالَى ! –

لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِ تِلْكَ الْأَدَوَاتُ الْمُقَيِّدَةُ بِالتَّحْدِيْدِ وَالتَّشْبِيْهِ ، عَلَى حَدِّ مَا نَعْقِلُهُ فِي الْمُحْدَثَاتِ ، وَلٰكِنْ تَدْخُلُ عَلَيْهِ بِمَا فِيْهَا مِنْ مَعْنَى التَّنْزِيْهِ وَالتَّقْدِيْسِ – عَلَى طَبَقَاتِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُحَقِّقِيْنَ فِي ذٰلِكَ – لِمَا (هُوَ تَعَالَى) فِيْهِ ، وَتَقْتَضِيْهِ ذَاتُهُ مِنَ التَّنْزِيْهِ .

وَإِذَا تَقَرَّرَ هٰذَا ، فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهَا (أَيْ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تُوَهِّمُ التَّشْبِيْهَ) أَدَوَاتُ (التَّوْصِيْلِ) إِلَى أَفْهَامِ الْمُخَاطَبِيْنَ . وَكُلُّ عَالِمٍ عَلَى حَسَبِ فَهْمِهِ فِيْهَا ، وَقُوَّةِ نُفُوْذِهِ وَبَصِيْرَتِهِ . فَعَقِيْدَةُ التَّكْلِيْفِ هَيِّنَةُ الْخَطْبِ ، فُطِرَ الْعَالَمُ عَلَيْهَا . وَلَوْ بَقِيَتِ الْمُشَبِّهَةُ مَعَ مَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ (لَ) مَا كَفَرَتْ وَلَا جَسَّمَتْ . وَإِنْ كَانَ مَا أَرَادُوْا التَّجْسِيْمَ ، وَإِنَّمَا قَصَدُوْا إِثْبَاتَ الْوُجُوْدِ ؛ لٰكِنْ لِقُصُوْرِ أَفْهَامِهِمْ ، مَا ثَبَتَ لَهُمُ (الْوُجُوْدُ) إِلَّا بِهٰذَا التَّخَيُّلِ ، (أَعْنِي تَخَيُّلَ التَّشْبِيْهِ وَالتَّجْسِيْمِ) ، فَلَهُمُ النَّجَاةُ !

(وُجُوْدُ الْحَقِّ وَوُجُوْدُ الْعَالَمِ)

وَإِذْ قَدْ ثَبَتَ هٰذَا عِنْدَ الْمُحَقِّقِيْنَ ، مَعَ تَفَاضُلِ رُتَبِهِمْ فِي دَرَجِ التَّحْقِيْقِ ، فَلْنَقُلْ : إِنَّ الْحَقَائِقَ أَعْطَتْ ، لِمَنْ وَقَفَ عَلَيْهَا ، أَنْ لَا يَتَقَيَّدَ وُجُوْدُ الْحَقِّ مَعَ وُجُوْدِ الْعَالَمِ ، (لَا) بِقَبْلِيَّةٍ ، وَلَا مَعِيَّةٍ وَلَا بَعْدِيَّةٍ زَمَانِيَّةٍ . فَإِنَّ التَّقَدُّمَ الزَّمَانِيَّ وَالْمَكَانِيَّ فِي حَقِّ اللّٰهِ ، تَرْمِي بِهِ الْحَقَائِقَ ، فِي وَجْهِ الْقَائِلِ بِهِ ، عَلَى التَّحْدِيْدِ . اَللّٰهُمَّ ، إِلَّا إِنْ قَالَ بِهِ مِنْ بَابِ التَّوْصِيْلِ ، كَمَا قَالَهُ الرَّسُوْلُ ﷺ وَنَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ ؛ إِذْ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَقْوَى عَلَى كَشْفِ هٰذِهِ الْحَقَائِقِ .

فَلَمْ يَبْقَ لَنَا أَنْ نَقُوْلَ إِلَّا أَنَّ الْحَقَّ – تَعَالَى ! – مَوْجُوْدٌ بِذَاتِهِ لِذَاتِهِ ، مُطْلَقُ الْوُجُوْدِ ، غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِغَيْرِهِ ، وَلَا مَعْلُوْلٍ عَنْ شَيْءٍ ، وَلَا عِلَّةٍ لِشَيْءٍ . بَلْ هُوَ (تَعَالَى) خَالِقُ الْمَعْلُوْلَاتِ وَالْعِلَلِ ، وَالْمَلِكُ الْقُدُّوْسُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ . وَإِنَّ الْعَالَمَ مَوْجُوْدٌ بِاللّٰهِ – تَعَالَى ! – لَا بِنَفْسِهِ وَلَا لِنَفْسِهِ ؛ مُقَيَّدُ الْوُجُوْدِ بِوُجُوْدِ الْحَقِّ فِي ذَاتِهِ . فَلَا يَصِحُّ وُجُوْدُ الْعَالَمِ أَلْبَتَّةَ إِلَّا بِوُجُوْدِ الْحَقِّ . وَإِذَا انْتَفَى الزَّمَانُ عَنْ وُجُوْدِ الْحَقِّ ، وَعَنْ وُجُوْدِ مَبْدَإِ الْعَالَمِ ، فَقَدْ وُجِدَ الْعَالَمُ فِي غَيْرِ زَمَانٍ .

فَلَا (يَصِحُّ لَنَا أَنْ) نَقُوْلَ ، مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ : إِنَّ اللهَ مَوْجُوْدٌ قَبْلَ الْعَالَمِ ، إِذْ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ « الْقَبْلَ » مِنْ صِيَغِ الزَّمَانِ ، وَلَا زَمَانَ (ثَمَّةَ) . وَلَا (أَنْ نَقُوْلَ :) إِنَّ الْعَالَمَ مَوْجُوْدٌ بَعْدَ وُجُوْدِ الْحَقِّ ، إِذْ لَا بَعْدِيَّةَ . وَلَا (أَنْ نَقُوْلَ : إِنَّ الْعَالَمَ مَوْجُوْدٌ) مَعَ وُجُوْدِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ الْحَقَّ هُوَ الَّذِي أَوْجَدَهُ ، وَهُوَ فَاعِلُهُ وَمُخْتَرِعُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا . وَلٰكِنْ كَمَا قُلْنَا : اَلْحَقُّ مَوْجُوْدٌ بِذَاتِهِ (وَلِذَاتِهِ) وَالْعَالَمُ مَوْجُوْدٌ بِهِ (فَقَطْ) .

فَإِنْ سَأَلَ ذُوْ وَهْمٍ : مَتَى كَانَ وُجُوْدُ الْعَالَمِ مِنْ وُجُوْدِ الْحَقِّ ؟ – قُلْنَا : « مَتَى » = سُؤَالٌ زَمَانِيٌّ ، وَالزَّمَانُ مِنْ عَالَمِ النِّسَبِ ، وَهُوَ مَخْلُوْقٌ لِلّٰهِ – تَعَالَى ! – لِأَنَّ عَالَمَ النِّسَبِ لَهُ خَلْقُ التَّقْدِيرِ لَا خَلْقُ الْإِيْجَادِ . فَهٰذَا سُؤَالٌ بَاطِلٌ . فَانْظُرْ كَيْفَ تَسْأَلُ ! فَإِيَّاكَ أَنْ تَحْجُبَكَ أَدَوَاتُ التَّوْصِيلِ (أَيْ أَلْفَاظُ التَّشْبِيْهِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ) عَنْ تَحْقِيْقِ هٰذِهِ الْمَعَانِي فِي نَفْسِكَ وَتَحْصِيْلِهَا .

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وُجُوْدٌ صِرْفٌ خَالِصٌ ، لَا عَنْ عَدَمٍ : وَهُوَ وُجُوْدُ الْحَقِّ – تَعَالَى ! – ؛ وَوُجُوْدٌ عَنْ عَدَمِ عَيْنِ الْمَوْجُوْدِ نَفْسِهِ : وَهُوَ وُجُوْدُ الْعَالَمِ . وَلَا بَيْنِيَّةَ بَيْنَ الْوُجُوْدَيْنِ وَلَا امْتِدَادَ ، إِلَّا التَّوَهُّمَ الْمُقَدَّرَ الَّذِي يُحِيْلُهُ الْعِلْمُ وَلَا يُبْقِي مِنْهُ شَيْئًا . وَلٰكِنْ وُجُوْدٌ مُطْلَقٌ وَ (وُجُوْدٌ) مُقَيَّدٌ ؛ وُجُوْدٌ فَاعِلٌ وَوُجُوْدٌ مُنْفَعِلٌ . هٰكَذَا أَعْطَتِ الْحَقَائِقُ . – وَالسَّلَامُ !

(إِطْلَاقُ كَلِمَةِ الْاِخْتِرَاعِ عَلَى الْحَقِّ)

مَسْأَلَةٌ . – سَأَلَنِي وَارِدُ الْوَقْتِ عَنْ إِطْلَاقِ (لَفْظَةِ) الْاِخْتِرَاعِ عَلَى الْحَقِّ – تَعَالَى ! – . فَقُلْتُ لَهُ : عِلْمُ الْحَقِّ بِنَفْسِهِ (هُوَ) عَيْنُ عِلْمِهِ بِالْعَالَمِ ، إِذْ لَمْ يَزَلِ الْعَالَمُ مَشْهُوْدًا لَهُ – تَعَالَى ! – وَإِنِ اتَّصَفَ بِالْعَدَمِ . وَلَمْ يَكُنِ الْعَالَمُ مَشْهُوْدًا لِنَفْسِهِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مَوْجُوْدًا . – وَهٰذَا بَحْرٌ هَلَكَ فِيْهِ النَّاظِرُوْنَ ، الَّذِينَ عَدَمُوْا الْكَشْفَ . وَنَفْسُهُ (– تَعَالَى ! –) لَمْ تَزَلْ مَوْجُوْدَةً ، فَعِلْمُهُ لَمْ يَزَلْ مَوْجُوْدًا ، وَعِلْمُهُ (– تَعَالَى ! –) بِنَفْسِهِ

(هُوَ) عِلْمُهُ بِالْعَالَمِ (فِي أَشْرَفِ أَطْوَارِ وُجُودِ الْعَالَمِ) . فَعِلْمُهُ (– تَعَالَى ! –) بِالْعَالَمِ لَمْ يَزَلْ مَوْجُوْدًا . فَعَلِمَ الْعَالَمَ فِي حَالِ عَدَمِهِ ، وَأَوْجَدَهُ عَلَى صُوْرَتِهِ فِي عِلْمِهِ . – وَسَيَأْتِي بَيَانُ هٰذَا فِي آخِرِ الْكِتَابِ . وَهُوَ سِرُّ الْقَدَرِ الَّذِي خَفِيَ عَنْ أَكْثَرِ الْمُحَقِّقِيْنَ .

وَعَلَىٰ هٰذَا لَا يَصِحُّ فِي الْعَالَمِ الْاِخْتِرَاعُ . وَلٰكِنْ يَطْلُقُ عَلَيْهِ (– تَعَالَى ! –) « الْاِخْتِرَاعُ » بِوَجْهٍ مَّا ، لَا مِنْ جِهَةٍ مَا تُعْطِيْهِ حَقِيْقَةُ « الْاِخْتِرَاعِ » ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يُؤَدِّي إِلَى نَقْصٍ فِي الْجَنَابِ الْإِلٰهِيِّ . فَالْاِخْتِرَاعُ لَا يَصِحُّ إِلَّا فِي حَقِّ الْعَبْدِ . وَذٰلِكَ أَنَّ « الْمُخْتَرِعَ » عَلَى الْحَقِيْقَةِ لَا يَكُوْنُ مُخْتَرِعًا إِلَّا حَتَّى يَخْتَرِعَ مِثَالَ مَا يُرِيْدُ إِبْرَازَهُ فِي الْوُجُوْدِ ، فِي نَفْسِهِ أَوَّلًا ، ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ تَبْرُزُهُ الْقُوَّةُ الْعَمَلِيَّةُ إِلَى الْوُجُوْدِ الْحِسِّي ، عَلَى شَكْلٍ مَّا يُعْلَمُ لَهُ مِثْلٌ . وَمَتَى لَمْ يَخْتَرِعِ الْمُخْتَرِعُ الشَّيْءَ ، فِي نَفْسِهِ أَوَّلًا ، ثُمَّ يُظْهِرُ ذٰلِكَ الشَّيْءَ فِي عَيْنِهِ ، عَلَى حَدِّ مَا اخْتَرَعَهُ ، وَإِلَّا فَلَيْسَ بِمُخْتَرِعٍ حَقِيْقَةً .

فَإِنَّكَ إِذَا قَدَّرْتَ (مَثَلًا) أَنَّ شَخْصًا عَلَّمَكَ تَرْتِيْبَ شَكْلٍ مَّا ظَهَرَ فِي الْوُجُوْدِ لَهُ مِثْلٌ ، فَعَلِمْتَهُ ؛ ثُمَّ أَبْرَزْتَهُ أَنْتَ لِلْوُجُوْدِ كَمَا عَلِمْتَهُ ، – فَلَسْتَ أَنْتَ ، فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَعِنْدَ نَفْسِكَ ، بِمُخْتَرِعٍ لَهُ ؛ وَإِنَّمَا الْمُخْتَرِعُ لَهُ مَنِ اخْتَرَعَ مِثَالَهُ فِي نَفْسِهِ ثُمَّ عَلَّمَكَهُ . وَإِنْ نَسَبَ النَّاسُ « الْاِخْتِرَاعَ » لَكَ فِيْهِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوْا ذٰلِكَ الشَّيْءَ مِنْ غَيْرِكَ .

فَارْجِعْ أَنْتَ إِلَى مَا تَعْرِفُهُ مِنْ نَفْسِكَ ؛ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى مَنْ لَا يَعْلَمُ ذٰلِكَ مِنْكَ . فَإِنَّ الْحَقَّ – سُبْحَانَهُ ! – مَا دَبَّرَ الْعَالَمَ تَدْبِيْرَ مَنْ يُحَصِّلُ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، وَلَا فِكْرَ فِيْهِ ، وَلَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ ذٰلِكَ ؛ وَلَا اخْتَرَعَ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ، وَلَا قَالَ فِي نَفْسِهِ : هَلْ نَعْمَلُهُ كَذَا أَوْ كَذَا ؟ – هٰذَا كُلُّهُ مَا لَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ . فَإِنَّ « الْمُخْتَرِعَ » لِلشَّيْءِ يَأْخُذُ أَجْزَاءَ مَوْجُوْدَةٍ ، مُتَفَرِّقَةٍ فِي الْمَوْجُوْدَاتِ ، فَيُؤَلِّفُهَا فِي ذِهْنِهِ وَوَهْمِهِ تَأْلِيفًا لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ فِي عِلْمِهِ ؛ وَإِنْ سُبِقَ فَلَا يُبَالِي ، فَإِنَّهُ فِي ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَمْ يُسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَيْهِ ، كَمَا تَفْعَلُهُ الشُّعَرَاءُ وَالْكُتَّابُ الْفُصَحَاءُ فِي اخْتِرَاعِ الْمَعَانِي الْمُبْتَكَرَةِ .

فَثَمَّ « اِخْتِرَاعٌ » قَدْ سُبِقَ إِلَيْهِ ، فَيَتَخَيَّلُ السَّامِعُ أَنَّهُ سَرَقَهُ . فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُخْتَرِعِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَحَدٍ ، إِلَّا إِلَى مَا حَدَثَ عِنْدَهُ خَاصَّةً ، إِنْ أَرَادَ أَنْ يَلْتَذَّ وَيَسْتَمْتِعَ بِلَذَّةِ « الْاِخْتِرَاعِ » . وَمَهْمَا نَظَرَ الْمُخْتَرِعُ لِأَمْرٍ مَّا ، إِلَى مَنْ سَبَقَهُ فِيْهِ ، بَعْدَمَا اخْتَرَعَهُ ، فَرُبَّمَا هَلَكَ وَتَفَطَّرَتْ كَبْدُهُ . وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ بِالْاِخْتِرَاعِ (هُمُ) الْبُلَغَاءُ وَالْمُهَنْدِسُوْنَ ؛ وَمِنْ أَصْحَابِ الصَّنَائِعِ (أَكْثَرُهُمْ) النَّجَّارُوْنَ وَالْبَنَّاؤُوْنَ . فَهٰؤُلَاءِ أَكْثَرُ النَّاسِ اخْتِرَاعًا وَأَذْكَاهُمْ فِطْرَةً وَأَشَدُّهُمْ تَصَرُّفًا لِعُقُوْلِهِمْ .

فَقَدْ صَحَّتْ حَقِيْقَةُ « الْاِخْتِرَاعِ » لِمَنِ اسْتَخْرَجَ بِالْفِكْرِ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ قَبْلَ ذٰلِكَ ، وَلَا عَلَّمَهُ غَيْرُهُ بِالْقُوَّةِ ، أَوْ بِالْقُوَّةِ وَالْفِعْلِ إِنْ كَانَ مِنَ الْعُلُوْمِ الَّتِي غَايَتُهَا الْعَمَلُ . وَالْبَارِي – سُبْحَانَهُ ! – لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِالْعَالَمِ أَزَلًا ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى حَالَةٍ لَمْ يَكُنْ فِيْهَا بِالْعَالَمِ غَيْرَ عَالِمٍ : فَمَا اخْتَرَعَ (– تَعَالَى ! –) فِي نَفْسِهِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ .

فَإِذْ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِاللهِ قِدَمُ عِلْمِهِ (– تَعَالَى ! –) ، فَقَدْ ثَبَتَ كَوْنُهُ « مُخْتَرِعًا » لَنَا بِالْفِعْلِ . لَا أَنَّهُ اخْتَرَعَ مِثَالَنَا فِي نَفْسِهِ ، الَّذِي هُوَ صُوْرَةُ عِلْمِهِ بِنَا ، إِذْ كَانَ وُجُوْدُنَا عَلَى حَدِّ مَا كُنَّا فِي عِلْمِهِ . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ ، لَخَرَجْنَا إِلَى الْوُجُوْدِ عَلَى حَدِّ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ ؛ وَمَا لَا يَعْلَمُهُ لَا يُرِيْدُهُ ؛ وَمَا لَا يُرِيْدُهُ وَلَا يَعْلَمُهُ لَا يُوْجِدُهُ . فَنَكُوْنُ إِذَنْ مَوْجُوْدِيْنَ بِأَنْفُسِنَا أَوْ بِالْاِتِّفَاقِ . وَإِذَا كَانَ هٰذَا ، فَلَا يَصِحُّ وُجُوْدُنَا عَنْ عَدَمٍ . وَقَدْ دَلَّ الْبُرْهَانُ عَلَى وُجُوْدِنَا عَنْ عَدَمٍ ؛ وَعَلَى أَنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – عَلِمَنَا وَأَرَادَ وُجُوْدَنَا ، وَأَوْجَدَنَا عَلَى الصُّوْرَةِ الثَّابِتَةِ فِي عِلْمِهِ بِنَا . وَنَحْنُ مَعْدُوْمُوْنَ فِي أَعْيَانِنَا . فَلَا « اخْتِرَاعَ » فِي الْمِثَالِ . فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا « الْاِخْتِرَاعُ » فِي الْفِعْلِ ، وَهُوَ صَحِيْحٌ لِعَدَمِ الْمِثَالِ الْمَوْجُوْدِ فِي الْعَيْنِ .

فَتَحَقَّقْ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَقُلْ بَعْدَ ذٰلِكَ مَا شِئْتَ : فَإِنْ شِئْتَ وَصَفْتَهُ (– تَعَالَى ! –) بِالْاِخْتِرَاعِ وَعَدَمِ الْمِثَالِ ؛ وَإِنْ شِئْتَ نَفَيْتَ هٰذَا عَنْهُ . وَلٰكِنْ بَعْدَ وُقُوْفِكَ عَلَى مَا أَعْلَمْتُكَ بِهِ .

اَلْفَصْلُ الثَّالِثُ
– مِنَ الْبَابِ الثَّانِي –
فِي الْعِلْمِ وَالْعَالِمِ وَالْمَعْلُوْمِ

اَلْعِلْـمُ وَالْمَعْلُوْمُ وَالْعَـالِمُ ثَـلَاثَـةٌ حُكْمُهُـمْ وَاحِـدُ
وَإِنْ تَشَـأْ أَحْكَامُهُمْ مِثْلُهُمْ ثَـلَاثَـةٌ أَثْبَتَهَـا الشَّـاهِـدُ
وَصَاحِبُ الْغَيْبِ يَرَى وَاحِدًا لَيْسَ عَلَيْـهِ فِي الْعُـلَى زَائِدُ

اِعْلَمْ – أَيَّدَكَ اللهُ ! – أَنَّ الْعِلْمَ تَحْصِيْلُ الْقَلْبِ أَمْرًا مَّا عَلَى حَدِّ مَا هُوَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ ، مَعْدُوْمًا كَانَ ذٰلِكَ الْأَمْرُ أَوْ مَوْجُوْدًا . فَالْعِلْمُ هُوَ الصِّفَةُ الَّتِي تُوْجِبُ التَّحْصِيْلَ مِنَ الْقَلْبِ ؛ وَالْعَالِمُ هُوَ الْقَلْبُ ؛ وَالْمَعْلُوْمُ هُوَ ذٰلِكَ الْأَمْرُ الْمُحَصَّلُ . وَتَصَوُّرُ حَقِيْقَةِ الْعِلْمِ ، عَسِيْرٌ جِدًّا . وَلٰكِنْ أُمَهِّدُ لِتَحْصِيْلِ الْعِلْمِ مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ – تَعَالَى ! – .

(اَلْقَلْبُ وَالْحَضْرَةُ الْإِلٰهِيَّةُ)

فَاعْلَمُوْا أَنَّ الْقَلْبَ مِرْآةٌ مَصْقُوْلَةٌ ، كُلُّهَا وَجْهٌ ؛ لَا تَصْدَأُ أَبَدًا . فَإِنْ أُطْلِقَ يَوْمًا عَلَيْهَا أَنَّهَا صَدِئَتْ ، كَمَا قَالَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – ﴿ **إِنَّ الْقُلُوْبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيْدُ** ﴾ – اَلْحَدِيْثُ ، وَفِيْهِ : ﴿ **إِنَّ جَلَاءَهَا ذِكْرُ اللهِ وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ** ﴾ – وَلٰكِنْ مِنْ كَوْنِهِ (أَيْ الْقُرْآنِ) الذِّكْرَ الْحَكِيْمَ . فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهٰذَا الصَّدَإِ أَنَّهُ طَخَاءٌ طَلَعَ عَلَى وَجْهِ

الْقَلْبِ . وَلٰكِنَّهُ لَمَّا تَعَلَّقَ (الْقَلْبُ) وَاشْتَغَلَ بِعِلْمِ الْأَسْبَابِ (بَدَلًا) عَنِ الْعِلْمِ بِاللّٰهِ ، كَانَ تَعَلُّقُهُ بِغَيْرِ اللّٰهِ صَدأً عَلَى وَجْهِ الْقَلْبِ ، لِأَنَّهُ الْمَانِعُ مِنْ تَجَلِّي الْحَقِّ عَلَى هٰذَا الْقَلْبِ .

لِأَنَّ الْحَضْرَةَ الْإِلٰهِيَّةَ مُتَجَلَّاةٌ (= مُتَجَلِّيَةٌ) عَلَى الدَّوَامِ ، لَا يَتَصَوَّرُ فِي حَقِّهَا حِجَابٌ عَنَّا (الْبَتَّةَ) . فَلَمَّا لَمْ يَقْبِلُهَا هٰذَا الْقَلْبُ مِنْ جِهَةِ الْخِطَابِ الشَّرْعِيِّ الْمَحْمُوْدِ ، لِأَنَّهُ قَبِلَ غَيْرَهَا ، عُبِّرَ عَنْ قُبُوْلِ ذٰلِكَ الْغَيْرِ : بِالصَّدَإِ وَالْكِنِّ وَالْقُفْلِ وَالْعَمَىٰ وَالرَّانِ ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ . وَإِلَّا فَالْحَقُّ يُعْطِيْكَ أَنَّ الْعِلْمَ عِنْدَهُ (أَيْ عِنْدَ الْقَلْبِ) ، وَلٰكِنْ بِغَيْرِ اللّٰهِ فِي عِلْمِهِ . وَهُوَ بِاللّٰهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِاللّٰهِ .

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَاهُ ، قَوْلُ اللّٰهِ – تَعَالَى – : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ – فَكَانَتْ فِي « أَكِنَّةٍ » مِمَّا يَدْعُوْهَا الرَّسُوْلُ إِلَيْهِ خَاصَّةً ، لَا أَنَّهَا فِي « كِنٍّ » (مُطْلَقًا) . وَلٰكِنْ ، تَعَلَّقَتِ (الْقُلُوْبُ) بِغَيْرِ مَا تُدْعَى إِلَيْهِ ، فَعَمِيَتْ عَنْ إِدْرَاكِ مَا دُعِيَتْ إِلَيْهِ ، فَلَا تَبْصُرُ شَيْئًا .

وَالْقُلُوْبُ ، أَبَدًا ، لَمْ تَزَلْ مَفْطُوْرَةً عَلَى الْجِلَاءِ ، مَصْقُوْلَةً صَافِيَةً . فَكُلُّ قَلْبٍ تَجَلَّتْ فِيْهِ الْحَضْرَةُ الْإِلٰهِيَّةُ ، مِنْ حَيْثُ هِيَ يَاقُوْتٌ أَحْمَرُ ، الَّذِي هُوَ التَّجَلِّي الذَّاتِيُّ – فَذٰلِكَ (هُوَ) قَلْبُ الْمُشَاهِدِ ، الْمُكَمَّلِ ، الْعَالِمِ ، الَّذِي لَا أَحَدَ فَوْقَهُ فِي تَجَلٍّ مِنَ التَّجَلِّيَاتِ ؛ وَدُوْنَهُ تَجَلِّي الصِّفَاتِ ؛ وَدُوْنَهُمَا تَجَلِّي الْأَفْعَالِ ، وَلٰكِنْ مِنْ كَوْنِهَا الْحَضْرَةَ الْإِلٰهِيَّةَ . وَمَنْ لَمْ تَتَجَلَّ لَهُ مِنْ كَوْنِهَا مِنَ الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ ، فَذٰلِكَ هُوَ الْقَلْبُ الْغَافِلُ عَنِ اللّٰهِ – تَعَالَى ! – الْمَطْرُوْدُ مِنْ قُرْبِ اللّٰهِ – تَعَالَى ! – .

(تَصَوُّرُ حَقِيْقَةِ الْعِلْمِ)

فَانْظُرْ – وَفَّقَكَ اللّٰهُ ! – فِي الْقَلْبِ عَلَى حَدِّ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَانْظُرْ : هَلْ تَجْعَلُهُ الْعِلْمَ ؟ فَلَا يَصِحُّ . وَإِنْ قُلْتَ : (اَلْعِلْمُ هُوَ) الصِّقَالَةُ الذَّاتِيَةُ لَهُ ، – فَلَا سَبِيْلَ . وَلٰكِنْ هِيَ (أَيْ الصِّقَالَةَ الذَّاتِيَّةَ لِلْقَلْبِ) سَبَبٌ (لِحُصُوْلِ الْعِلْمِ ، لَا الْعِلْمُ نَفْسُهُ) . كَمَا أَنَّ ظُهُوْرَ الْمَعْلُوْمِ لِلْقَلْبِ سَبَبٌ (لِحُصُوْلِ الْعِلْمِ أَيْضًا) . وَإِنْ قُلْتَ : (اَلْعِلْمُ هُوَ) السَّبَبُ

الَّذِي يُحَصِّلُ الْمَعْلُوْمَ فِي الْقَلْبِ ، – فَلَا سَبِيْلَ (كَذٰلِكَ إِلَيْهِ) . – وَإِنْ قُلْتَ : (اَلْعِلْمُ هُوَ) الْمِثَالُ الْمُنْطَبِعُ فِي النَّفْسِ مِنَ الْمَعْلُوْمِ ، وَهُوَ تَصَوُّرُ الْمَعْلُوْمِ ؛ – فَلَا سَبِيْلَ !

فَإِنْ قِيْلَ لَكَ : فَمَا هُوَ الْعِلْمُ ؟ – فَقُلْ : (اَلْعِلْمُ هُوَ) دَرْكُ الْمُدْرَكِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ ، إِذَا كَانَ دَرْكُهُ غَيْرَ مُمْتَنِعٍ ؛ وَأَمَّا مَا يُمْتَنَعُ دَرْكُهُ ، فَالْعِلْمُ بِهِ هُوَ لَا دَرْكُهُ ! كَمَا قَالَ الصِّدِّيْقُ : « اَلْعَجْزُ عَنْ دَرْكِ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ » . فَجَعَلَ (– رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! –) الْعِلْمَ بِاللهِ هُوَ لَا إِدْرَاكُهُ ! فَاعْلَمْ ذٰلِكَ . وَلٰكِنْ « لَا دَرْكُهُ » مِنْ جِهَةِ كَسْبِ الْعَقْلِ كَمَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ ، وَلٰكِنْ « دَرْكُهُ » مِنْ جُوْدِهِ وَكَرَمِهِ وَوَهْبِهِ ، كَمَا يَعْرِفُهُ الْعَارِفُوْنَ أَهْلُ الشُّهُوْدِ ، لَا مِنْ قُوَّةِ الْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ نَظَرِهِ .

تَتْمِيْمٌ : **(مَعْرِفَةُ اللهِ عَنْ طَرِيْقِ الْكَوْنِ)**

وَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّ الْعِلْمَ بِأَمْرٍ مَّا ، لَا يَكُوْنُ إِلَّا بِمَعْرِفَةٍ قَدْ تَقَدَّمَتْ قَبْلَ هٰذِهِ الْمَعْرِفَةِ ، بِأَمْرٍ آخَرَ يَكُوْنُ بَيْنَ الْمَعْرُوْفَيْنِ مُنَاسَبَةٌ ؛ لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ . وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ اللهِ – تَعَالَى ! – وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، مِنْ جِهَةِ الْمُنَاسَبَةِ الَّتِي بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ، وَهِيَ مُنَاسَبَةُ الْجِنْسِ ، أَوِ النَّوْعِ ، أَوِ الشَّخْصِ . فَلَيْسَ لَنَا عِلْمٌ مُتَقَدِّمٌ بِشَيْءٍ ، فَنُدْرِكَ بِهِ ذَاتَ الْحَقِّ ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُنَاسَبَةِ .

مِثَالُ ذٰلِكَ عِلْمُنَا بِطَبِيْعَةِ الْأَفْلَاكِ الَّتِي هِيَ طَبِيْعَةٌ خَامِسَةٌ . لَمْ نَعْلَمْهَا أَصْلًا لَوْ لَا مَا سَبَقَ فِي عِلْمِنَا بِالْأُمَّهَاتِ الْأَرْبَعِ . فَلَمَّا رَأَيْنَا الْأَفْلَاكَ خَارِجَةً عَنْ هٰذِهِ الطَّبَائِعِ ، بِحُكْمٍ لَيْسَ هُوَ فِي هٰذِهِ الْأُمَّهَاتِ ، عَلِمْنَا أَنْ ثَمَّ طَبِيْعَةٌ خَامِسَةٌ ، مِنْ جِهَةِ الْحَرَكَةِ الْعُلْوِيَّةِ الَّتِي فِي الْأَثِيْرِ وَالْهَوَاءِ ، وَ (الْحَرَكَةِ) السُّفْلِيَّةِ الَّتِي فِي الْمَاءِ وَالتُّرَابِ .

وَالْمُنَاسَبَةُ (الْقَائِمَةُ) بَيْنَ الْأَفْلَاكِ وَالْأُمَّهَاتِ (هِيَ) الْجَوْهَرِيَّةُ الَّتِي هِيَ جِنْسٌ جَامِعٌ لِلْكُلِّ ؛ وَ (هِيَ) النَّوْعِيَّةُ (أَيْضًا) فَإِنَّهَا نَوْعٌ كَمَا أَنَّ هٰذِهِ نَوْعٌ لِجِنْسٍ وَاحِدٍ ؛

وَ (هِيَ) كَذٰلِكَ الشَّخْصِيَّةُ . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هٰذَا التَّنَاسُبُ لَمَا عَلِمْنَا مِنَ الطَّبَائِعِ عِلْمَ طَبِيْعَةِ الْفَلَكِ .

وَلَيْسَ بَيْنَ الْبَارِى (– تَعَالَى ! –) وَالْعَالَمِ مُنَاسَبَةٌ مِنْ هٰذِهِ الْوُجُوْهِ (الْمَذْكُوْرَةِ الَّتِي هِيَ الْجَوْهَرِيَّةُ وَالنَّوْعِيَّةُ وَالشَّخْصِيَّةُ) . فَلَا يُعْلَمُ (الْبَارِى) بِعِلْمٍ سَابِقٍ بِغَيْرِهِ أَبَدًا ، كَمَا يَزْعَمُ بَعْضُهُمْ مِنِ اسْتِدْلَالِ الشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ ، بِالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْكَلَامِ ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ ؛ ثُمَّ يُقَدِّسُهُ بَعْدَ مَا قَدْ حَمَلَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَقَاسَهُ بِهَا .

ثُمَّ إِنَّهُ مِمَّا يُؤَيِّدُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ ، مِنْ عِلْمِنَا بِاللهِ – تَعَالَى ! – ، أَنَّ الْعِلْمَ يَتَرَتَّبُ بِحَسَبِ الْمَعْلُوْمِ ، وَيَنْفَصِلُ فِي ذَاتِهِ بِحَسَبِ انْفِصَالِ الْمَعْلُوْمِ عَنْ غَيْرِهِ . وَالشَّيْءُ الَّذِي بِهِ يَنْفَصِلُ الْمَعْلُوْمُ ، إِمَّا أَنْ يَكُوْنَ ذَاتًا ، كَالْعَقْلِ مِنْ جِهَةِ جَوْهَرِيَّتِهِ ، وَكَالنَّفْسِ ؛ وَإِمَّا أَنْ يَكُوْنَ ذَاتًا لَهُ مِنْ جِهَةِ طَبْعِهِ ، كَالْحَرَارَةِ وَالْإِحْرَاقِ لِلنَّارِ . فَكَمَا انْفَصَلَ الْعَقْلُ عَنِ النَّفْسِ مِنْ جِهَةِ جَوْهَرِيَّتِهِ ، كَذٰلِكَ انْفَصَلَ النَّارُ عَنْ غَيْرِهِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ . – وَإِمَّا أَنْ لَا يُنْفَصَلَ عَنْهُ بِذَاتِهِ ، لٰكِنْ بِمَا هُوَ مَحْمُوْلٌ فِيْهِ ، إِمَّا بِالْحَالِ ، كَجُلُوْسِ الْجَالِسِ وَكِتَابَةِ الْكَاتِبِ ؛ وَإِمَّا بِالْهَيْئَةِ ، كَسَوَادِ الْأَسْوَدِ وَبَيَاضِ الْأَبْيَضِ . –

وَهٰذَا حَصْرُ مَدَارِكِ الْعَقْلِ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ . فَلَا يُوْجَدُ مَعْلُوْمٌ قَطْعًا لِلْعَقْلِ ، مِنْ حَيْثُ مَا هُوَ خَارِجٌ عَمَّا وَصَفْنَا . (اَللّٰهُمَّ) إِلَّا بِأَنْ نَعْلَمَ مَا انْفَصَلَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، إِمَّا مِنْ جِهَةِ جَوْهَرِهِ أَوْ طَبْعِهِ أَوْ حَالِهِ أَوْ هَيْأَتِهِ . وَلَا يُدْرِكُ الْعَقْلُ شَيْئًا لَا تُوْجَدُ فِيْهِ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ أَلْبَتَّةَ .

وَهٰذِهِ الْأَشْيَاءُ لَا تُوْجَدُ فِي اللهِ – تَعَالَى ! – . فَلَا يَعْلَمُهُ الْعَقْلُ أَصْلًا مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاظِرٌ وَبَاحِثٌ . وَكَيْفَ يَعْلَمُهُ الْعَقْلُ مِنْ حَيْثُ نَظَرِهِ ؟ وَبُرْهَانُهُ الَّذِي يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ (هُوَ) الْحِسُّ ، أَوِ الضَّرُوْرَةُ أَوِ التَّجْرِبَةُ . وَالْبَارِي – تَعَالَى ! – غَيْرُ مُدْرَكٍ بِهٰذِهِ الْأُصُوْلِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا الْعَقْلُ فِي بُرْهَانِهِ . وَحِيْنَئِذٍ ، يَصِحُّ لَهُ (أَيْ لِلْعَقْلِ) الْبُرْهَانُ الْوُجُوْدِيُّ .

فَكَيْفَ يَدَّعِي الْعَاقِلُ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ رَبَّهُ مِنْ جِهَةِ الدَّلِيْلِ ؟ وَأَنَّ الْبَارِي مَعْلُوْمٌ لَهُ ؟ وَلَوْ نَظَرَ (الْعَاقِلُ) إِلَى الْمَفْعُوْلَاتِ الصِّنَاعِيَّةِ ، وَالطَّبِيْعِيَّةِ ، وَالتَّكْوِيْنِيَّةِ ، وَالْاِنْبِعَاثِيَّةِ ، وَالْإِبْدَاعِيَّةِ ، وَرَأَى جَهْلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِفَاعِلِهِ ، – لَعَلِمَ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ! – لَا يُعْلَمُ بِالدَّلِيْلِ أَبَدًا . لٰكِنْ يُعْلَمُ أَنَّهُ مَوْجُوْدٌ ، وَأَنَّ الْعَالَمَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ اِفْتِقَارًا ذَاتِيًّا ، لَا مَحِيْصَ لَهُ عَنْهُ أَلْبَتَّةَ . قَالَ اللهُ – تَعَالَى ! – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ .

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ لُبَابَ التَّوْحِيْدِ ، فَلْيَنْظُرْ فِي الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي التَّوْحِيْدِ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيْزِ ، الَّذِي وَحَّدَ (اللهُ) بِهَا نَفْسَهُ . فَلَا أَحَدَ أَعْرَفُ مِنَ الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ . فَلْتَنْظُرْ بِمَا وَصَفَ (الْحَقُّ) نَفْسَهُ ، وَسَلِ اللهَ – تَعَالَى ! – أَنْ يُفَهِّمَكَ ذٰلِكَ ! فَسَتَقِفُ (حِيْنَئِذٍ) عَلَى عِلْمٍ إِلٰهِيٍّ لَا يَبْلُغُ إِلَيْهِ عَقْلٌ بِفِكْرِهِ أَبَدَ الْآبَادِ . وَسَأُوْرِدُ مِنْ هٰذِهِ الْآيَاتِ ، فِي الْبَابِ الَّذِي يَلِي هٰذَا الْبَابَ ، شَيْئًا يَسِيْرًا . – وَاللهُ يَرْزُقُنَا الْفَهْمَ عَنْهُ – آمِيْنَ ! – وَيَجْعَلُنَا مِنَ الْعَالِمِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْقِلُوْنَ آيَاتِهِ !



اَلْبَابُ الثَّالِثُ :
فِي تَنْزِيْهِ الْحَقِّ – تَعَالَى ! – عَمَّا فِي طَيِّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَطْلَقَهَا عَلَيْهِ – سُبْحَانَهُ ! – فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُوْلِهِ مِنَ التَّشْبِيْهِ وَالتَّجْسِيْمِ

– تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُوْلُ الظَّالِمُوْنَ عُلُوًّا كَبِيْرًا ! –

فِي نَظَـرِ الْعَبْدِ إِلَى رَبِّـهِ   فِي قُـدُسِ الْأَيْدِ وَتَنْزِيْهِهِ
وَعُلْـوِهِ عَنْ أَدَوَاتٍ أَتَتْ   تَلْحَقُ بِالْكَيْفِ وَتَشْبِيْهِهِ
دَلَالَـةٌ تَحْكُمُ قَطْعًا عَلَى   مَنْزِلَـةِ الْعَبْـدِ وَتَنْـوِيْهِهِ
وَصِحَّـةِ الْعِـلْمِ وَإِثْبَـاتِهِ   وَطَـرْحِ بِدْعِيٍّ وَتَمْوِيْهِهِ

(جَمِيْعُ الْمَعْلُوْمَاتِ حَمَلَهَا الْعَقْلُ الْأَوَّلُ)

اِعْلَمْ – أَيَّدَكَ اللهُ ! – أَنَّ جَمِيْعَ الْمَعْلُوْمَاتِ ، عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا ، حَامِلُهَا الْعَقْلُ الَّذِي يَأْخُذُ عَنِ اللهِ – تَعَالَى ! – بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ . فَلَمْ يَخْفَ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِ الْكَوْنِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ . وَمِنْ وَهْبِهِ وَجُوْدِهِ تَكُوْنُ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ الْأَشْيَاءَ ، وَمِنْ تَجَلِّيْهِ إِلَيْهَا وَنُوْرِهِ وَفَيْضِهِ الْأَقْدَسِ . فَالْعَقْلُ مُسْتَفِيْدٌ مِنَ الْحَقِّ – تَعَالَى ! – ، مُفِيْدٌ لِلنَّفْسِ . وَالنَّفْسُ

مُسْتَفِيْدَةٌ مِنَ الْعَقْلِ ، وَعَنْهَا يَكُوْنُ الْفِعْلُ . وَهٰذَا سَارٍ فِي جَمِيْعِ مَا تَعَلَّقَ بِهِ عِلْمُ الْعَقْلِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ دُوْنَهُ . وَإِنَّمَا قَيَّدْنَا بِـ « الَّتِي هِيَ دُوْنَهُ » مِنْ أَجْلِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِفَادَةِ . وَتَحَفَّظْ فِي نَظَرِكَ مِنْ قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾ وَهُوَ الْعَالِمُ : فَاعْرِفِ النِّسَبَ !

(... إِلَّا الْعَالَمَ الْمُهَيَّمَ)

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَالَمَ الْمُهَيَّمَ لَا يَسْتَفِيْدُ مِنَ الْعَقْلِ الْأَوَّلِ شَيْئًا ؛ وَلَيْسَ لَهُ (أَيْ لِلْعَقْلِ الْأَوَّلِ) عَلَى الْمُهَيَّمِيْنَ سُلْطَانٌ . بَلْ هُمْ وَإِيَّاهُ فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ ، كَالْأَفْرَادِ مِنَّا الْخَارِجِيْنَ عَنْ حُكْمِ الْقُطْبِ ، وَإِنْ كَانَ الْقُطْبُ وَاحِدًا مِنَ الْأَفْرَادِ ، لٰكِنْ خُصِّصَ الْعَقْلُ بِالْإِفَادَةِ كَمَا خُصِّصَ الْقُطْبُ ، مِنْ بَيْنِ الْأَفْرَادِ ، بِالتَّوْلِيَةِ .

(... وَإِلَّا عِلْمَ تَجْرِيْدِ التَّوْحِيْدِ)

وَهُوَ (أَيْ حُكْمُ إِفَادَةِ الْعَقْلِ مَنْ دُوْنَهُ) سَارٍ فِي جَمِيْعِ مَا تَعَلَّقَ بِهِ عِلْمُ الْعَقْلِ ، إِلَّا عِلْمَ « تَجْرِيْدِ التَّوْحِيْدِ » خَاصَّةً ، فَإِنَّهُ (أَيْ عِلْمَ تَجْرِيْدِ التَّوْحِيْدِ) يُخَالِفُ سَائِرَ الْمَعْلُوْمَاتِ مِنْ جَمِيْعِ الْوُجُوْهِ ، إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ اللّٰهِ – تَعَالَى ! – وَبَيْنَ خَلْقِهِ أَلْبَتَّةَ . وَإِنْ أُطْلِقَتِ الْمُنَاسَبَةُ يَوْمًا مَّا عَلَيْهِ ، كَمَا أَطْلَقَهَا الْإِمَامُ أَبُوْ حَامِدٍ الْغَزَالِي فِي كُتُبِهِ ، وَغَيْرُهُ ، – فَـ (ذٰلِكَ) بِضَرْبٍ مِنَ التَّكَلُّفِ ، وَمَرْمًى بَعِيْدٌ عَنِ الْحَقَائِقِ . وَإِلَّا فَأَيُّ نِسْبَةٍ بَيْنَ الْمُحْدَثِ وَالْقَدِيْمِ ؟ أَمْ كَيْفَ يُشْبِهُ مَنْ لَا يَقْبَلُ الْمِثْلَ مَنْ يَقْبَلُ الْمِثْلَ ؟ هٰذَا مُحَالٌ كَمَا قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنِ الْعَرِيْفِ الصَّنْهَاجِى فِي « **مَحَاسِنِ الْمَجَالِسِ** » الَّتِي تَعْزَى إِلَيْهِ : « لَيْسَ بَيْنَهُ (أَيْ الْحَقِّ) وَبَيْنَ الْعِبَادِ نَسَبٌ إِلَّا الْعِنَايَةَ ؛ وَلَا سَبَبٌ إِلَّا الْحُكْمَ ؛ وَلَا وَقْتٌ غَيْرَ الْأَزَلِ . وَمَا بَقِيَ فَعَمًى وَتَلْبِيْسٌ » ، وَفِي رِوَايَةٍ « فَعِلْمٌ » بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : « فَعَمًى » . – فَانْظُرْ مَا أَحْسَنَ هٰذَا الْكَلَامُ ، وَمَا أَتَمَّ هٰذِهِ الْمَعْرِفَةُ بِاللّٰهِ ، وَمَا أَقْدَسَ هٰذِهِ الْمُشَاهَدَةُ ! نَفَعَهُ اللّٰهُ بِمَا قَالَ !

(عَجزُ الْعَقْلِ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ)

فَالْعِلْمُ بِاللهِ عَزِيْزٌ عَنْ إِدْرَاكِ الْعَقْلِ وَالنَّفْسِ ، إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَوْجُوْدٌ – تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ! – . وَكُلُّ مَا يُتَلَفَّظُ بِهِ فِي حَقِّ الْمَخْلُوْقَاتِ ، أَوْ يُتَوَهَّمُ فِي الْمُرَكَّبَاتِ وَغَيْرِهَا ، فَاللهُ – سُبْحَانَهُ ! – فِي نَظَرِ الْعَقْلِ السَّلِيْمِ ، مِنْ حَيْثُ فِكْرِهِ وَعِصْمَتِهِ ، بِخِلَافِ ذٰلِكَ ؛ لَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ ذٰلِكَ التَّوَهُّمُ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ ذٰلِكَ اللَّفْظُ عَقْلًا ، مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي تَقَبَّلَهُ الْمَخْلُوْقَاتُ . فَإِنْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ (– تَعَالَى ! –) فَعَلَى وَجْهِ التَّقْرِيْبِ عَلَى الْأَفْهَامِ ، لِثُبُوْتِ الْوُجُوْدِ عِنْدَ السَّامِعِ ، لَا لِثُبُوْتِ الْحَقِيْقَةِ الَّتِي هُوَ الْحَقُّ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى ! – يَقُوْلُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ .

وَلٰكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا (الْعِلْمُ بِاللهِ) شَرْعًا ، مِنْ أَجْلِ قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ = يَقُوْلُ : اِعْلَمْ (بِي) مِنْ إِخْبَارِي الْمُوَافِقِ لِنَظَرِكَ ، لِيَصِحَّ لَكَ الْإِيْمَانُ عِلْمًا ، كَمَا يَصِحُّ لَكَ الْعِلْمُ مِنْ غَيْرِ إِيْمَانٍ ، الَّذِي هُوَ قَبْلَ التَّعْرِيْفِ . فَ (عَلَى هٰذَا) أَمَرَهُ .

فَمِنْ أَجْلِ هٰذَا الْأَمْرِ ، عَلَى نَظَرِ بَعْضِ النَّاسِ وَرَأْيِهِ فِيْهِ ، نَظَرْنَا : مِنْ أَيْنَ نَتَوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ (– تَعَالَى ! –) ؟ فَنَظَرْنَا عَلَى حُكْمِ الْإِنْصَافِ ، وَمَا أَعْطَاهُ الْعَقْلُ الْكَامِلُ ، بَعْدَ جُدِّهِ وَاجْتِهَادِهِ الْمُمَكَّنِ مِنْهُ . فَلَمْ نَصِلْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ – سُبْحَانَهُ ! – إِلَّا بِالْعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ . لِأَنَّا طَلَبْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ ، كَمَا نَطْلُبُ مَعْرِفَةَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، مِنْ جِهَةِ الْحَقِيْقَةِ الَّتِي هِيَ الْمَعْلُوْمَاتُ عَلَيْهَا . فَلَمَّا عَرَفْنَا أَنْ ثَمَّ مَوْجُوْدًا لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ ، وَلَا يُتَصَوَّرُ فِي الذِّهْنِ ، وَلَا يُدْرَكُ : فَكَيْفَ يَضْبِطُهُ الْعَقْلُ ؟ هٰذَا مَا لَا يَجُوْزُ مَعَ ثُبُوْتِ الْعِلْمِ بِوُجُوْدِهِ . فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مَوْجُوْدٌ ، وَاحِدٌ فِي أُلُوْهَتِهِ . وَهٰذَا هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي طَلَبَ مِنَّا ، غَيْرَ عَالِمِيْنَ بِحَقِيْقَةِ ذَاتِهِ ، الَّتِي يَعْرِفُ – سُبْحَانَهُ ! – نَفْسَهُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا هُوَ الْعِلْمُ بِعَدَمِ الْعِلْمِ الَّذِي طَلَبَ مِنَّا .

فَلَمَّا كَانَ – تَعَالَى ! – لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنَ الْمَخْلُوْقَاتِ فِي نَظَرِ الْعَقْلِ ، وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْهَا ؛ وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْنَا ، أَوَّلًا ، لَمَّا قِيْلَ لَنَا : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ –

أَنْ نَعْلَمَ مَا الْعِلْمُ ؟ – وَقَدْ عَلَّمْنَاهُ (وَبَيَّنَّاهُ فِي الْبَابِ الثَّانِي الَّذِي يَلِيْهِ هٰذَا الْبَابُ) – فَقَدْ عَلِمْنَا مَا يَجِبُ عَلَيْنَا مِنْ عِلْمِ الْعِلْمِ أَوَّلًا .

اِنْتَهَى الْجُزْءُ الثَّامِنُ – وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ !

الجزء التاسع من الفتوحات



تَابِعُ الْبَابِ الثَّالِثِ

(أُمَّهَاتُ الْمَطَالِبِ الْعِلْمِيَّةِ)

فَلْنَقُلْ : إِنَّهُ لَمَّا كَانَتْ أُمَّهَاتُ الْمَطَالِبِ أَرْبَعًا ، وَهِيَ : « هَلْ ، وَمَا ، وَكَيْفَ ، وَلِمَ » . فَ« هَلْ » وَ « لِمَ » ، مَطْلَبَانِ رُوْحَانِيَّانِ بَسِيْطَانِ ، يُصَحِّبُهُمَا « مَا هُوَ » . فَ« هَلْ » وَ « لِمَ » هُمَا الْأَصْلَانِ الصَّحِيْحَانِ لِلْبَسَائِطِ ، لِأَنَّ فِي « مَا هُوَ » ضَرْبًا مِنَ التَّرْكِيْبِ خَاصَّةً . وَلَيْسَ فِي هٰذِهِ الْمَطَالِبِ الْأَرْبَعَةِ مَطْلَبٌ يَنْبَغِي أَنْ يُسْأَلَ بِهِ عَنِ اللهِ – تَعَالَى ! – مِنْ جِهَةِ مَا تُعْطِيْهِ الْحَقِيْقَةُ ؛ إِذْ لَا يَصِحُّ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيْدِ إِلَّا نَفْيُ مَا يُوْجَدُ فِيْمَا سِوَاهُ – سُبْحَانَهُ ! – وَلِهٰذَا قَالَ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وَ ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

(اَلْعِلْمُ بِالسَّلْبِ هُوَ الْعِلْمُ بِاللهِ)

فَالْعِلْمُ بِالسَّلْبِ هُوَ الْعِلْمُ بِاللهِ – سُبْحَانَهُ ! – كَمَا لَمْ يَجُزْ أَنْ نَقُوْلَ فِي الْأَرْوَاحِ : كَيْفَ ؟ وَتَقَدَّسَتْ عَنْ ذٰلِكَ . لِأَنَّ حَقَائِقَهَا تُخَالِفُ هٰذِهِ الْعِبَارَةَ . كَذٰلِكَ مَا يَنْطَلِقُ عَلَى

الْأَرْوَاحِ ، مِنَ الْأَدَوَاتِ الَّتِي بِهَا يُسْأَلُ عَنْهَا ، لَا يَجُوْزُ أَنْ تُطْلَقَ عَلَى اللهِ – تَعَالَى ! – . وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُحَقِّقِ الْمُوَحِّدِ ، الَّذِي يَحْتَرِمُ حَضْرَةَ مُبْدِعِهِ وَمُخْتَرِعِهِ ، أَنْ يُطْلِقَ عَلَيْهِ هٰذِهِ الْأَلْفَاظَ . فَإِذَنْ ، لَا يُعْلَمُ (الْحَقُّ) بِهٰذِهِ الْمَطَالِبِ أَبَدًا .

وصل : (اَلْمُدْرَكُ بِذَاتِهِ وَالْمُدْرَكُ بِفِعْلِهِ وَاللَّامُدْرَكَ أَصْلًا)

ثُمَّ نَظَرْنَا أَيْضًا فِي جَمِيْعِ مَا سِوَى الْحَقِّ – تَعَالَى ! – فَوَجَدْنَاهُ عَلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يُدْرَكُ بِذَاتِهِ ، وَهُوَ الْمَحْسُوْسُ وَالْكَثِيْفُ ؛ وَقِسْمٌ يُدْرَكُ بِفِعْلِهِ ، وَهُوَ الْمَعْقُوْلُ وَاللَّطِيْفُ . فَارْتَفَعَ الْمَعْقُوْلُ عَنِ الْمَحْسُوْسِ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ : وَهِيَ التَّنَزُّهُ أَنْ تُدْرَكَ ذَاتُهُ ، وَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِفِعْلِهِ . وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ أَوْصَافُ الْمَخْلُوْقِيْنَ ، تَقَدَّسَ الْحَقُّ – تَعَالَى ! – عَنْ أَنْ يُدْرَكَ بِذَاتِهِ كَالْمَحْسُوْسِ ، أَوْ بِفِعْلِهِ كَاللَّطِيْفِ أَوِ الْمَعْقُوْلِ . لِأَنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ مُنَاسَبَةٌ أَصْلًا . لِأَنَّ ذَاتَهُ غَيْرُ مُدْرَكَةٍ لَنَا فَتُشْبِهُ الْمَحْسُوْسَ ، وَلَا فِعْلَهَا كَفِعْلِ اللَّطِيْفِ فَيُشْبِهُ اللَّطِيْفَ . لِأَنَّ فِعْلَ الْحَقِّ – تَعَالَى ! – إِبْدَاعُ الشَّيْءِ لَا مِنْ شَيْءٍ ؛ وَاللَّطِيْفُ الرُّوْحَانِيُّ ، فِعْلُ الشَّيْءِ مِنَ الْأَشْيَاءِ . فَأَيُّ مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُمَا ؟ فَإِذَا امْتَنَعَتِ الْمُنَاسَبَةُ فِي الْفِعْلِ ، فَأَحْرَى أَنْ تَمْتَنِعَ الْمُشَابَهَةُ فِي الذَّاتِ .

وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُحَقِّقَ شَيْئًا مِنْ هٰذَا الْفَصْلِ ، فَانْظُرْ إِلَى مَفْعُوْلِ هٰذَا الْفِعْلِ ، عَلَى حَسَبِ أَصْنَافِ الْمَفْعُوْلَاتِ ، مِثْلَ الْمَفْعُوْلِ الصِّنَاعِيِّ كَالْقَمِيْصِ وَالْكُرْسِيِّ (مَثَلًا) ؛ فَوَجَدْنَاهُ لَا يَعْرِفُ صَانِعَهُ ؛ إِلَّا أَنَّهُ يَدُلُّ بِنَفْسِهِ عَلَى وُجُوْدِ صَانِعِهِ وَعَلَى عِلْمِهِ بِصَنْعَتِهِ . وَكَذٰلِكَ الْمَفْعُوْلُ التَّكْوِيْنِيُّ الَّذِي هُوَ الْفَلَكُ وَالْكَوَاكِبُ ؛ (فَهٰؤُلَاءِ) لَا يَعْرِفُوْنَ مُكَوِّنَهُمْ وَلَا الْمُرَكِّبَ لَهُمْ ، وَهُوَ النَّفْسُ الْكُلِّيَّةُ الْمُحِيْطَةُ بِهِمْ . وَكَذٰلِكَ الْمَفْعُوْلُ الطَّبِيْعِيُّ ، كَالْمَوَالِيْدِ مِنَ الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ ، الَّذِيْنَ يُفْعَلُوْنَ طَبِيْعَةً مِنَ الْمَفْعُوْلِ التَّكْوِيْنِيِّ ، – لَيْسَ لَهُمْ وُقُوْفٌ عَلَى الْفَاعِلِ لَهُمْ ، الَّذِي هُوَ الْفَلَكُ وَالْكَوَاكِبُ . فَلَيْسَ

الْعِلْمُ بِالْأَفْلَاكِ مَا تَرَاهُ مِنْ جِرْمِهَا وَمَا يُدْرِكُهُ الْحِسُّ مِنْهَا . وَأَيْنَ جِرْمُ الشَّمْسِ فِي نَفْسِهَا مِنْهَا فِي عَيْنِ الرَّائِي لَهَا مِنَّا ؟ وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالْأَفْلَاكِ مِنْ جِهَةِ رُوْحِهَا وَمَعْنَاهَا الَّذِي أَوْجَدَهُ اللهُ – تَعَالَى ! – لَهَا عَنِ النَّفْسِ الْكُلِّيَّةِ الْمُحِيْطَةِ ، الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْأَفْلَاكِ وَمَا فِيْهَا .

وَكَذٰلِكَ الْمَفْعُوْلُ الْاِنْبِعَاثِيُّ الَّذِي هُوَ النَّفْسُ الْكُلِّيَّةُ ، الْمُنْبَعِثَةِ مِنَ الْعَقْلِ اِنْبِعَاثَ الصُّوْرَةِ الدِّحْيِيَّةِ مِنَ الْحَقِيْقَةِ الْجَبْرَئِيْلِيَّةِ . فَإِنَّهَا (أَيْ النَّفْسَ الْكُلِّيَةَ) لَا تَعْرِفُ الَّذِي اِنْبَعَثَتْ عَنْهُ أَصْلًا ، لِأَنَّهَا تَحْتَ حِيْطَتِهِ وَهُوَ الْمُحِيْطُ بِهَا ، لِأَنَّهَا خَاطِرٌ مِنْ خَوَاطِرِهِ . فَكَيْفَ تَعْلَمُ (النَّفْسُ الْكُلِّيَّةُ) مَا هُوَ فَوْقَهَا ، وَمَا لَيْسَ فِيْهَا مِنْهُ إِلَّا مَا فِيْهَا ؟ فَلَا تَعْلَمُ مِنْهُ إِلَّا مَا هِيَ عَلَيْهِ . فَنَفْسَهَا عَلِمَتْ ، لَا سَبَبَهَا !

وَكَذٰلِكَ الْمَفْعُوْلُ الْإِبْدَاعِيُّ ، الَّذِي هُوَ الْحَقِيْقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ عِنْدَنَا ، وَالْعَقْلُ الْأَوَّلُ عِنْدَ غَيْرِنَا . وَهُوَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي أَبْدَعَهُ اللهُ – تَعَالَى ! – مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ . وَهُوَ أَعْجَزُ وَأَمْنَعُ عَنْ إِدْرَاكِ فَاعِلِهِ مِنْ كُلِّ مَفْعُوْلٍ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . إِذْ بَيْنَ كُلِّ مَفْعُوْلٍ وَفَاعِلٍ ، مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوْبِ الْمُنَاسَبَةِ وَالْمُشَاكَلَةِ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ مِنْهُ قَدْرَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُنَاسَبَةِ ، إِمَّا مِنْ جِهَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ ، أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ . وَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ الْمُبْدَعِ الْأَوَّلِ وَالْحَقِّ – تَعَالَى ! – . فَهُوَ أَعْجَزُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ بِفَاعِلِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، مِنْ مَفْعُوْلَيْ الْأَسْبَابِ . –

إِذَنْ ، قَدْ (ثَبَتَ) عَجْزُ الْمَفْعُوْلِ ، الَّذِي يُشْبِهُ سَبَبَهُ الْفَاعِلَ لَهُ مِنْ وُجُوْهٍ ، عَنْ إِدْرَاكِهِ وَالْعِلْمِ بِهِ . – فَافْهَمْ هٰذَا وَتَحَقَّقْهُ ! فَإِنَّهُ نَافِعٌ جِدًّا فِي بَابِ التَّوْحِيْدِ ، وَالْعَجْزِ عَنْ تَعَلُّقِ الْعِلْمِ الْمُحْدَثِ بِاللهِ – تَعَالَى ! – .

وصل : (اَلْقُوَّى الْخَمْسُ وَمُدْرَكَاتُهَا الْحَقِيْقِيَّةُ)

يُؤَيِّدُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُدْرِكُ الْمَعْلُوْمَاتِ كُلَّهَا بِإِحْدَى الْقُوَّي الْخَمْسِ : اَلْقُوَّةِ الْحِسِّيَّةِ ، وَهِيَ عَلَى خَمْسٍ : اَلشَّمُّ ، وَالطَّعْمُ ، وَاللَّمْسُ ، وَالسَّمْعُ ، وَالْبَصَرُ . فَالْبَصَرُ يُدْرِكُ الْأَلْوَانَ وَالْمُتَلَوِّنَاتِ وَالْأَشْخَاصَ ، عَلَى حَدٍّ مَعْلُوْمٍ مِنَ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ . فَالَّذِي يُدْرِكُ مِنْهُ عَلَى مِيْلٍ ، غَيْرُ الَّذِي يُدْرِكُ مِنْهُ عَلَى مِيْلَيْنِ ؛ وَالَّذِي يُدْرِكُ مِنْهُ عَلَى عِشْرِيْنَ بَاعًا ، غَيْرُ الَّذِي يُدْرِكُ مِنْهُ عَلَى مِيْلٍ ؛ وَالَّذِي يُدْرِكُ مِنْهُ وَيَدُهُ فِي يَدِهِ يُقَابِلُهُ ، غَيْرُ الَّذِي يُدْرِكُ مِنْهُ عَلَى عِشْرِيْنَ بَاعًا . فَالَّذِي يُدْرِكُ مِنْهُ عَلَى مِيْلَيْنِ شَخْصًا ، لَا يَدْرِي هَلْ هُوَ إِنْسَانٌ أَوْ شَجَرَةٌ ؟ وَعَلَى مِيْلٍ ، يَعْرِفُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ ؛ وَعَلَى عِشْرِيْنَ بَاعًا ، (يَعْرِفُ) أَنَّهُ أَبْيَضُ أَوْ أَسْوَدُ ؛ وَعَلَى الْمُقَابَلَةِ ، (يَعْرِفُ) أَنَّهُ أَزْرَقُ أَوْ أَكْحَلُ . – وَهٰكَذَا سَائِرُ الْحَوَاسِّ فِي مُدْرَكَاتِهَا مِنَ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ . وَالْبَارِي – سُبْحَانَهُ ! – لَيْسَ بِمَحْسُوْسٍ ، أَيْ لَيْسَ بِمُدْرَكٍ بِالْحِسِّ عِنْدَنَا ، فِي وَقْتِ طَلَبِنَا الْمَعْرِفَةَ بِهِ : فَلَمْ نَعْلَمْهُ مِنْ طَرِيْقِ الْحِسِّ .

وَأَمَّا الْقُوَّةُ الْخَيَالِيَّةُ ، فَإِنَّهَا لَا تَضْبِطُ إِلَّا مَا أَعْطَاهَا الْحِسُّ ، إِمَّا عَلَى صُوْرَةٍ مَا أَعْطَاهَا ؛ وَإِمَّا عَلَى صُوْرَةٍ مَّا أَعْطَاهُ الْفِكْرُ ، مِنْ حَمْلِهِ بَعْضَ الْمَحْسُوْسَاتِ عَلَى بَعْضٍ . وَإِلَى هُنَا انْتَهَتْ طَرِيْقَةُ أَهْلِ الْفِكْرِ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ (عَنْ طَرِيْقِ الْقُوَّةِ الْخَيَالِيَّةِ) . فَهُوَ لِسَانُهُمْ ، لَيْسَ لِسَانَنَا . وَإِنْ كَانَ (طَرِيْقُهُمْ) حَقًّا ، وَلٰكِنْ نُنْسِبُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّهُ نُقِلَ عَنْهُمْ . فَلَمْ تَبْرَحْ هٰذِهِ الْقُوَّةُ (الْخَيَالِيَّةُ) ، كَيْفَمَا كَانَ إِدْرَاكُهَا ، عَنِ الْحِسِّ أَلْبَتَّةَ . وَقَدْ بَطَلَ تَعَلُّقُ الْحِسِّ بِاللهِ عِنْدَنَا : فَقَدْ بَطَلَ تَعَلُّقُ الْخَيَالِ بِهِ .

وَأَمَّا الْقُوَّةُ الْمُفَكِّرَةُ : فَلَا يُفَكِّرُ الْإِنْسَانُ أَبَدًا إِلَّا فِي أَشْيَاءَ مَوْجُوْدَةٍ عِنْدَهُ ، تَلَقَّاهَا مِنْ جِهَةِ الْحَوَاسِّ وَأَوَائِلِ الْعَقْلِ ؛ وَمِنْ (إِعْلَامِ) الْفِكْرِ فِيْهَا ، فِي خِزَانَةِ الْخَيَالِ ، يَحْصُلُ لَهُ عِلْمٌ بِأَمْرٍ آخَرِ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي فَكَّرَ فِيْهَا مُنَاسَبَةً . وَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ : فَإِذَنْ ، لَا يَصِحُّ الْعِلْمُ بِهِ (– تَعَالَى ! –) مِنْ جِهَةِ الْفِكْرِ . وَلِهٰذَا مَنَعَتِ الْعُلَمَاءُ مِنَ الْفِكْرِ (= التَّفَكُّرِ) فِي ذَاتِ اللهِ – تَعَالَى ! – .

وَأَمَّا الْقُوَّةُ الْعَقْلِيَّةُ : فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُدْرِكَهُ (– تعَالَى ! –) الْعَقْلُ . فَإِنَّ الْعَقْلَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَا عَلِمَهُ بَدِيْهَةً ، أَوْ مَا أَعْطَاهُ الْفِكْرُ . وَقَدْ بَطَلَ إِدْرَاكُ الْفِكْرِ لَهُ (– تعَالَى ! –) ، فَقَدْ بَطَلَ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ لَهُ مِنْ طَرِيْقِ الْفِكْرِ . وَلٰكِنْ مِمَّا هُوَ عَقْلٌ ، إِنَّمَا حَدُّهُ أَنْ يَعْقِلَ وَيَضْبِطَ مَا حَصَلَ عِنْدَهُ . فَقَدْ يَهَبُهُ الْحَقُّ الْمَعْرِفَةَ بِهِ ، فَيَعْقِلُهَا لِأَنَّهُ عَقْلٌ ، لَا مِنْ طَرِيْقِ الْفِكْرِ . – هٰذَا مَا لَا نَمْنَعُهُ . فَإِنَّ هٰذِهِ الْمَعْرِفَةَ الَّتِي يَهَبُهَا الْحَقُّ – تعَالَى ! – لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ، لَا يَسْتَقِلُّ الْعَقْلُ بِإِدْرَاكِهَا ، وَلٰكِنْ يَقْبَلُهَا ؛ فَلَا يَقُوْمُ عَلَيْهَا دَلِيْلٌ وَلَا بُرْهَانٌ ، لِأَنَّهَا وَرَاءَ طَوْرِ مَدَارِكِ الْعَقْلِ .

ثُمَّ هٰذِهِ الْأَوْصَافُ الذَّاتِيَّةُ لَا تُمْكِنُ الْعِبَارَةُ عَنْهَا ، لِأَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنِ التَّمْثِيْلِ وَالْقِيَاسِ . فَإِنَّهُ (– تعَالَى ! –) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . فَكُلُّ عَقْلٍ لَمْ يُكْشَفْ لَهُ مِنْ هٰذِهِ الْمَعْرِفَةِ شَيْءٌ ، يَسْأَلُ عَقْلًا آخَرَ قَدْ كُشِفَ لَهُ مِنْهَا . (وَلٰكِنْ) لَيْسَ فِي قُوَّةِ ذٰلِكَ الْعَقْلِ الْمَسْئُوْلِ الْعِبَارَةَ عَنْهَا ، وَلَا يُمْكِنُ . وَلِذٰلِكَ قَالَ الصِّدِّيْقُ : « اَلْعَجْزُ عَنْ دَرْكِ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ » . وَلِهٰذَا الْكَلَامِ مَرْتَبَتَانِ . فَافْهَمْ ! فَمَنْ طَلَبَ اللهَ بِعَقْلِهِ ، مِنْ طَرِيْقِ فِكْرِهِ وَنَظَرِهِ ، فَهُوَ تَائِهٌ . وَإِنَّمَا حَسْبُهُ التَّهَيُّؤُ لِقُبُوْلِ مَا يَهَبُهُ اللهُ مِنْ ذٰلِكَ . فَافْهَمْ !

وَأَمَّا الْقُوَّةُ الذَّاكِرَةُ ، فَلَا سَبِيْلَ (لَهَا) أَنْ تُدْرِكَ الْعِلْمَ بِاللهِ ؛ فَإِنَّهَا إِنَّمَا تَذَكَّرَ مَا كَانَ الْعَقْلُ ، قَبْلُ ، عَلِمَهُ ثُمَّ غَفَلَ أَوْ نَسِيَ . وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْهُ . فَلَا سَبِيْلَ لِلْقُوَّةِ الذَّاكِرَةِ إِلَيْهِ (– تعَالَى ! –) .

وَانْحَصَرَتْ مَدَارِكُ الْإِنْسَانِ ، بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ وَمَا تُعْطِيهِ ذَاتُهُ وَلَهُ فِيْهِ كَسْبٌ . وَمَا بَقِيَ إِلَّا تَهَيُّؤُ الْعَقْلِ لِقُبُوْلِ مَا يَهَبُهُ الْحَقُّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ – جَلَّ وَتَعَالَى ! – . فَلَا يَعْرِفُ (الْإِنْسَانُ الْحَقَّ) أَبَدًا مِنْ جِهَةِ الدَّلِيْلِ ، إِلَّا مَعْرِفَةَ الْوُجُوْدِ ، وَأَنَّهُ الْوَاحِدُ الْمَعْبُوْدُ – لَا غَيْرَ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُدْرِكَ لَا يَتَمَكَّنُ لَهُ أَنْ يُدْرِكَ شَيْئًا أَبَدًا إِلَّا وَمِثْلُهُ (أَيْ مِثْلُ الشَّيْءِ الْمُدْرَكِ) مَوْجُوْدٌ فِيْهِ ، وَلَوْ لَا ذٰلِكَ (لَ) مَا أَدْرَكَهُ أَلْبَتَّةَ ، وَلَا عَرَفَهُ . فَإِذَا لَمْ يَعْرِفِ (الْإِنْسَانُ) شَيْئًا إِلَّا وَفِيْهِ مِثْلُ ذٰلِكَ الشَّيْءِ الْمَعْرُوْفِ ، فَمَا عَرَفَ (الْإِنْسَانُ

فِي الْحَقِيْقَةِ) إِلَّا مَا يُشْبِهُهُ وَيُشَاكِلُهُ . وَالْبَارِي – تَعَالَى ! – لَا يُشْبِهُ شَيْئًا ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِثْلُهُ : فَلَا يُعْرَفُ أَبَدًا !

(اَلْأَشْيَاءُ الطَّبِيْعِيَّةُ لَا تَقْبَلُ الْغِذَاءَ إِلَّا مِنْ مُشَاكِلِهَا)

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، أَنَّ الْأَشْيَاءَ الطَّبِيْعِيَّةَ لَا تَقْبَلُ الْغِذَاءَ إِلَّا مِنْ مُشَاكِلِهَا ؛ فَأَمَّا مَا لَا يُشَاكِلُهَا فَلَا تَقْبَلُ الْغِذَاءَ مِنْهُ قَطْعًا . مِثَالُ ذٰلِكَ : أَنَّ الْمَوَالِيْدَ ، مِنَ الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ ، مُرَكَّبَةٌ مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ ؛ وَالْمَوَالِيْدُ لَا تَقْبَلُ الْغِذَاءَ إِلَّا مِنْهَا (أَيْ مِنْ هٰذِهِ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ) ، وَذٰلِكَ لِأَنَّ فِيْهَا نَصِيْبًا مِنْهَا . وَلَوْ رَامَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ غِذَاءَ جِسْمِهِ ، الْمُرَكَّبِ مِنْ هٰذِهِ الطَّبَائِعِ ، مِنْ شَيْءٍ كَائِنٍ عَنْ غَيْرِ هٰذِهِ الطَّبَائِعِ ، أَوْ مَا تَرَكَّبَ عَنْهَا ، – لَمْ يَسْتَطِعْ .

فَكَمَا لَا يُمْكِنُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْسَامِ الطَّبِيْعِيَّةِ أَنْ تَقْبَلَ غِذَاءًا إِلَّا مِنْ شَيْءٍ هُوَ مِنَ الطَّبَائِعِ الَّتِي هِيَ (مُرَكَّبَةٌ) مِنْهَا ، كَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْلَمَ شَيْئًا لَيْسَ فِيْهِ مِثْلُهُ أَلْبَتَّةَ . أَلَا تَرَى النَّفْسَ ؟ (إِنَّهَا) لَا تَقْبَلُ مِنَ الْعَقْلِ إِلَّا مَا تُشَارِكُهُ فِيْهِ وَتُشَاكِلُهُ ؛ وَمَا لَمْ تُشَارِكْهُ فِيْهِ لَا تَعْلَمُهُ مِنْهُ أَبَدًا . وَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي أَحَدِ شَيْءٍ ، وَلَا يَجُوْزُ ذٰلِكَ عَلَيْهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوْهِ : فَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنْ نَفْسِهِ وَفِكْرِهِ .

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : ﴿ **إِنَّ اللهَ احْتَجَبَ عَنِ الْعُقُوْلِ كَمَا احْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصَارِ . وَإِنَّ الْمَلَأَ الْأَعْلَى يَطْلُبُوْنَهُ كَمَا تَطْلُبُوْنَهُ أَنْتُمْ** ﴾ . فَأَخْبَرَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – بِأَنَّ الْعَقْلَ لَمْ يُدْرِكْهُ بِفِكْرِهِ ، وَلَا بِعَيْنِ بَصِيْرَتِهِ ، كَمَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْبَصَرُ . وَهٰذَا هُوَ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِيْمَا تَقَدَّمَ مِنْ بَابِنَا . – فَلِلّٰهِ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَلْهَمَ ، وَأَنْ عَلَّمَنَا مَا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَظِيْمًا !

(اَلتَّنْزِيْهُ وَنَفْيُ الْمُمَاثَلَةِ وَالتَّشْبِيْهِ)

هٰكَذَا ، فَلْيَكُنِ التَّنْزِيْهُ وَنَفْيُ الْمُمَاثَلَةِ وَالتَّشْبِيْهِ . وَمَا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنَ الْمُشَبِّهَةِ إِلَّا بِالتَّأْوِيْلِ ، وَحَمْلِ مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ عَلَى مَا يَسْبِقُ مِنْهَا إِلَى الْأَفْهَامِ ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيْمَا يَجِبُ اللهُ – تَعَالَى ! – مِنَ التَّنْزِيْهِ . فَقَادَهُمْ ذٰلِكَ إِلَى الْجَهْلِ الْمَحْضِ وَالْكُفْرِ الصُّرَاحِ . وَلَوْ (أَنَّهُمْ) طَلَبُوْا السَّلَامَةَ ، وَتَرَكُوْا الْأَخْبَارَ وَالْآيَاتِ عَلَى مَا جَاءَتْ ، مِنْ غَيْرِ عُدُوْلٍ مِنْهُمْ فِيْهَا إِلَى شَيْءٍ أَلْبَتَّةَ ، وَوَكَّلُوْا عِلْمَ ذٰلِكَ إِلَى اللهِ – تَعَالَى ! – وَرَسُوْلِهِ ، وَقَالُوْا : لَا نَدْرِي ، – (لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) .

وَكَانَ يَكْفِيْهِمْ قَوْلُ اللهِ – تَعَالَى ! – ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . فَمَتَى جَاءَهُمْ حَدِيْثٌ فِيْهِ تَشْبِيْهٌ ، فَقَدْ أَشْبَهَ اللهُ شَيْئًا ، وَهُوَ (ذَاتُهُ) قَدْ نَفَى الشَّبَهَ عَنْ نَفْسِهِ – سُبْحَانَهُ ! – . فَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ الْخَبَرَ لَهُ وَجْهٌ مِنْ وُجُوْهِ التَّنْزِيْهِ ، يَعْرِفُهُ اللهُ – تَعَالَى ! – وَجِيْءَ بِهِ لِفَهْمِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي نُزِلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِهِ .

وَمَا تَجِدُ (فِي الْوَاقِعِ) لَفْظَةً ، فِي خَبَرٍ وَلَا آيَةٍ ، جُمْلَةً وَاحِدَةً تَكُوْنُ نَصًّا فِي التَّشْبِيْهِ أَبَدًا . وَإِنَّمَا تَجِدُهَا عِنْدَ الْعَرَبِ تَحْتَمِلُ وُجُوْهًا : مِنْهَا مَا يُؤَدِّي إِلَى التَّشْبِيْهِ ، وَمِنْهَا مَا يُؤَدِّي إِلَى التَّنْزِيْهِ . فَحَمْلُ الْمُتَأَوِّلِ ذٰلِكَ اللَّفْظَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى التَّشْبِيْهِ ، جَوْرٌ مِنْهُ عَلَى ذٰلِكَ اللَّفْظِ ؛ إِذْ لَمْ يُوْفِ حَقَّهُ بِمَا يُعْطِيْهِ وَضْعُهُ فِي اللِّسَانِ . وَ (هُوَ) تَعَدٍّ عَلَى اللهِ – تَعَالَى ! – حَيْثُ حَمَلَ عَلَيْهِ – سُبْحَانَهُ ! – مَا لَا يَلِيْقُ بِاللهِ – تَعَالَى ! – . وَنَحْنُ نُوْرِدُ (فِيْمَا يَلِي) ، إِنْ شَاءَ اللهُ – تَعَالَى ! – بَعْضَ أَحَادِيْثَ وَرَدَتْ فِي التَّشْبِيْهِ ، وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَصٍّ فِيْهِ . –

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(اَلتَّشْبِيْهُ وَالتَّجْسِيْمُ فِي أَلْفَاظِ السُّنَّةِ)

فَمِنْ ذَلِكَ (قَوْلُهُ ﷺ) : ﴿ **قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ** ﴾ . – نَظَرَ الْعَقْلُ ، بِمَا يَقْتَضِيْهِ الْوَضْعُ مِنَ الْحَقِيْقَةِ وَالْمَجَازِ ، (أَنَّ) الْجَارِحَةَ تَسْتَحِيْلُ عَلَى اللهِ – تَعَالَى ! – . (وَ) الْإِصْبَعُ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ ، يُطْلَقُ عَلَى الْجَارِحَةِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى النِّعْمَةِ . قَالَ الرَّاعِي :

ضَعِيْفُ الْعَصَا بَادِي الْعُرُوْقِ تَرَىٰ لَهُ ... عَلَيْهَا إِذَا مَـا أَمْحَلَ النَّـاسُ إِصْبَعًـا

يَقُوْلُ تَرَى لَهُ عَلَيْهَا أَثَرًا حَسَنًا مِنَ النِّعْمَةِ ، بِحُسْنِ النَّظَرِ عَلَيْهَا . تَقُوْلُ الْعَرَبُ : مَا أَحْسَنَ إِصْبَعَ فُلَانٍ عَلَى مَالِهِ ! أَيْ أَثَرَهُ فِيْهِ . تُرِيْدُ بِهِ : نُمُوَّ مَالِهِ لِحُسْنِ تَصَرُّفِهِ فِيْهِ .

أَسْرَعُ التَّقْلِيْبِ مَا قَلَّبَتْهُ الْأَصَابِعُ ، لِصُغْرِ حَجْمِهَا وَكَمَالِ الْقُدْرَةِ فِيْهَا ؛ فَحَرَكَتُهَا أَسْرَعُ مِنْ حَرَكَةِ الْيَدِ وَغَيْرِهِ . وَلَمَّا كَانَ تَقْلِيْبُ اللهِ قُلُوْبَ الْعِبَادِ أَسْرَعُ شَيْءٍ ، أَفْصَحَ ﷺ لِلْعَرَبِ ، فِي دُعَائِهِ ، بِمَا تَعْقِلُ . وَلِأَنَّ التَّقْلِيْبَ لَا يَكُوْنُ إِلَّا بِالْيَدِ عِنْدَنَا ، فَلِذٰلِكَ جَعَلَ التَّقْلِيْبَ بِالْأَصَابِعِ ؛ لِأَنَّ الْأَصَابِعَ مِنَ الْيَدِ فِي الْيَدِ ، وَالسُّرْعَةُ فِي الْأَصَابِعِ أَمْكَنُ .

فَكَانَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – يَقُوْلُ فِي دُعَائِهِ : ﴿ **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوْبِ ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِيْنِكَ** ﴾ . – وَتَقْلِيْبُ اللهِ – تَعَالَى ! – الْقُلُوْبَ هُوَ مَا يَخْلُقُ فِيْهَا مِنَ الْهَمِّ بِالْحَسَنِ وَالْهَمِّ بِالسُّوْءِ . فَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ يُحِسُّ بِتَرَادُفِ الْخَوَاطِرِ الْمُتَعَارِضَةِ عَلَيْهِ فِي قَلْبِهِ ، الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَقْلِيْبِ الْحَقِّ الْقَلْبَ ، وَهٰذَا لَا يَقْدِرُ الْإِنْسَانُ (أَنْ) يَدْفَعَ عِلْمَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، لِذٰلِكَ كَانَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – يَقُوْلُ : ﴿ **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوْبِ ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِيْنِكَ** ﴾ .

وَفِي هٰذَا الْحَدِيْثِ ، أَنَّ إِحْدَى أَزْوَاجِهِ قَالَتْ لَهُ : « أَوْ تَخَافُ يَا رَسُوْلَ اللهِ ؟ » فَقَالَ ﷺ : ﴿ **قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ** ﴾ = يُشِيْرُ ﷺ إِلَى سُرْعَةِ التَّقْلِيْبِ مِنَ الْإِيْمَانِ إِلَى الْكُفْرِ وَمَا تَحْتَهُمَا . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾

= وَهٰذَا الْإِلْهَامُ هُوَ التَّقْلِيْبُ . وَالْأَصَابِعُ لِلسُّرْعَةِ . وَالْاِثْنَيْنِيَّةُ لَهَا (أَيْ لِلْأَصَابِعِ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ : ﴿ **بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ** ﴾ هُمَا) خَاطِرُ الْحَسَنِ وَخَاطِرُ الْقَبِيْحِ .

فَإِذَا فُهِمَ مِنَ « الْأَصَابِعِ » مَا ذَكَرْتُهُ ، وَفَهِمْتَ مِنْهُ الْجَارِحَةَ ، وَفَهِمْتَ مِنْهُ النِّعْمَةَ وَالْأَثَرَ الْحَسَنَ ، – فَبِأَيِّ وَجْهٍ تُلْحِقُهُ بِالْجَارِحَةِ ، وَهٰذِهِ الْوُجُوْهُ الْمُنَزِّهَةُ تَطْلُبُهُ ؟ فَإِمَّا (أَنْ) نَسْكُتَ وَنَكِلَ عِلْمَ ذٰلِكَ إِلَى اللهِ – تَعَالَى ! – وَإِلَى مَنْ عَرَّفَهُ الْحَقُّ ذٰلِكَ ، مِنْ رَسُوْلٍ مُرْسَلٍ ، أَوْ وَلِيٍّ مُلْهَمٍ ، بِشَرْطِ نَفْيِ الْجَارِحَةِ وَلَا بُدَّ . وَإِمَّا إِنْ أَدْرَكَنَا فُضُوْلٌ ، وَغَلَبَ عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَرِدَ بِذٰلِكَ عَلَى بِدْعِيٍّ ، مُجَسِّمٍ ، مُشَبِّهٍ ، – فَلَيْسَ بِفُضُوْلٍ بَلْ يَجِبُ عَلَى الْعَالِمِ عِنْدَ ذٰلِكَ تَبْيِيْنُ مَا فِي ذٰلِكَ اللَّفْظِ مِنْ وُجُوْهِ التَّنْزِيْهِ ، حَتَّى يَدْحَضَ بِهِ حُجَّةَ الْمُجَسِّمِ الْمَخْذُوْلِ . تَابَ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ ، وَرَزَقَهُ الْإِسْلَامَ ! –

فَإِنْ تَكَلَّمْنَا عَلَى تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي تَوَهَّمَ التَّشْبِيْهَ وَلَا بُدَّ ، فَالْعُدُوْلُ بِشَرْحِهَا إِلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيْقُ بِاللهِ – سُبْحَانَهُ ! – أَوْلَى . – هٰذَا حَظُّ الْعَقْلِ فِي الْوَضْعِ (اللُّغَوِيِّ لِلَفْظِ الْأَصَابِعِ) .

نَفْثُ رُوْحٍ فِي رُوْعٍ

(حَظُّ الْقَلْبِ مِنَ الْإِصْبَعَيْنِ : اَلْإِصْبَعَانِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَيْبِيَّةِ)

اَلْإِصْبَعَانِ سِرُّ الْكَمَالِ الذَّاتِيِّ ، الَّذِي إِذَا انْكَشَفَ إِلَى الْأَبْصَارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَأْخُذُ الْإِنْسَانُ أَبَاهَ – إِذَا كَانَ كَافِرًا – وَيَرْمِي بِهِ فِي النَّارِ ، وَلَا يَجِدُ لِذٰلِكَ أَلَمًا ، وَلَا عَلَيْهِ شَفَقَةً . – بِسِرِّ هٰذَيْنِ « الْإِصْبَعَيْنِ » الْمُتَّحِدِ مَعْنَاهُمَا ، الْمُثَنَّى لَفْظُهُمَا ، خُلِقَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ . وَظَهَرَ اِسْمُ الْمُنَوِّرِ وَالْمُظْلِمِ ، وَالْمُنْعِمِ وَالْمُنْتَقِمِ . فَلَا تَتَخَيَّلْهُمَا (أَيْ الْإِصْبَعَانِ) اثْنَيْنِ مِنْ عَشْرٍ (أَصَابِعَ) !

وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى هٰذَا السِّرِّ فِي هٰذَا الْبَابِ ، فِي (حَدِيْثِ) : ﴿ **كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِيْنٌ** ﴾ . وَهٰذِهِ مَعْرِفَةُ الْكَشْفِ . فَإِنَّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ نَعِيْمَيْنِ : نَعِيْمًا بِالْجَنَّةِ ، وَنَعِيْمًا بِعَذَابِ أَهْلِ

النَّارِ فِي النَّارِ . وَكَذٰلِكَ أَهْلُ النَّارِ لَهُمْ عَذَابَانِ . وَكِلَا الْفَرِيْقَيْنِ يَرَوْنَ اللهَ رُؤْيَةَ الْأَسْمَاءِ ، كَمَا كَانُوْا فِي الدُّنْيَا سَوَاءً . وَفِي « الْقَبْضَتَيْنِ » اللَّتَيْنِ جَاءَتَا عَنِ الرَّسُوْلِ ﷺ فِي حَقِّ الْحَقِّ ، – سِرُّ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَمَعْنَاهُ . ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ !

اَلْقَبْضَةُ وَالْيَمِيْنُ

قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ . نَظَرَ الْعَقْلُ بِمَا يَقْتَضِيْهِ الْوَضْعُ . – مَنَعَ أَوَّلًا – سُبْحَانَهُ ! – (فِي صَدْرِ الْآيَةِ) أَنْ يُقْدَرَ قَدْرُهُ ، لِمَا يُسْبِقُ إِلَى الْعُقُوْلِ الضَّعِيْفَةِ مِنَ التَّشْبِيْهِ وَالتَّجْسِيْمِ ، عِنْدَ وُرُوْدِ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي تُعْطِي ، مِنْ وَجْهٍ مَّا مِنْ وُجُوْهِهَا ، ذٰلِكَ . ثُمَّ قَالَ (– تَعَالَى ! –) بَعْدَ هٰذَا التَّنْزِيْهِ الَّذِي لَا يَعْقِلُهُ إِلَّا الْعَالِمُوْنَ : ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ .

عَرَفْنَا مِنْ وَضْعِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَنْ يُقَالَ : فُلَانٌ فِي قَبْضَتِي = يُرِيْدُ أَنَّهُ تَحْتَ حُكْمِي ، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ فِي يَدِي شَيْءٌ مِنْهُ أَلْبَتَّةَ . وَلٰكِنْ أَمْرِي فِيْهِ مَاضٍ ، وَحُكْمِي عَلَيْهِ قَاضٍ ، مِثْلُ حُكْمِي عَلَى مَا مَلَكَتْهُ يَدَيَّ حِسًّا ، وَقَبَضْتُ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ أَقُوْلُ : مَالِي فِي قَبْضَتِي ، أَيْ فِي مِلْكِي وَأَنِّي مُتَمَكِّنٌ فِي التَّصَرُّفِ فِيْهِ ، أَيْ لَا يُمْنَعُ نَفْسُهُ مِنِّي . فَإِذَا صَرَّفْتُهُ ، فَفِي وَقْتِ تَصَرُّفِي فِيْهِ كَانَ أُمْكِنُ لِي أَنْ أَقُوْلَ : هُوَ فِي قَبْضَتِي لِتَصَرُّفِي فِيْهِ ، وَإِنْ كَانَ عَبِيْدِي هُمُ الْمُتَصَرِّفُوْنَ فِيْهِ عَنْ إِذْنِي .

فَلَمَّا اِسْتَحَالَتِ الْجَارِحَةُ عَلَى اللهِ – تَعَالَى ! – عَدَلَ الْعَقْلُ إِلَى رُوْحِ الْقَبْضَةِ وَمَعْنَاهَا وَفَائِدَتِهَا : وَهُوَ مِلْكُ مَا قَبَضْتَ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا – أَعْنِي لِلْقَابِضِ – فِيْمَا قَبَضَ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَلٰكِنْ هُوَ فِي مِلْكِ الْقَبْضَةِ قَطْعًا . – فَهٰكَذَا الْعَالَمُ فِي قَبْضَةِ الْحَقِّ – تَعَالَى ! – . وَالْأَرْضُ ، فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، تَعْيِيْنُ بَعْضِ الْأَمْلَاكِ ، كَمَا نَقُوْلُ : خَادِمِي فِي قَبْضَتِي ، وَإِنْ كَانَ خَادِمِي مِنْ جُمْلَةِ مَنْ فِي قَبْضَتِي ، فَإِنَّمَا ذَكَرْتُهُ اِخْتِصَاصًا لِوُقُوْعِ نَازِلَةٍ مَّا .

وَ « الْيَمِيْنُ » عِنْدَنَا ، مَحَلُّ التَّصْرِيْفِ الْمُطْلَقِ الْقُوَى . فَإِنَّ « الْيَسَارَ » لَا يَقْوَى قُوَّةَ « الْيَمِيْنِ » . فَكَنَى (فِي الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ) بِالْيَمِيْنِ عَنِ التَّمَكُّنِ مِنَ الطَّيِّ . فَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى تَمَكُّنِ الْقُدْرَةِ مِنَ الْفِعْلِ . فَوَصَلَ (الْمَعْنَى الْقُرْآنِيُّ) إِلَى أَفْهَامِ الْعَرَبِ بِأَلْفَاظٍ تَعْرِفُهَا ، وَتَسْرَعُ بِالتَّلَقِّي لَهَا . قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ   تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِيْنِ

وَلَيْسَ لِلْمَجْدِ رَايَةٌ مَحْسُوْسَةٌ ، فَلَا تَتَلَقَّاهَا جَارِحَةٌ يَمِيْنٌ . فَكَأَنَّهُ يَقُوْلُ : لَوْ ظَهَرَ لِلْمَجْدِ رَايَةٌ مَحْسُوْسَةٌ ، لَمَا كَانَ مَحَلَّهَا أَوْ حَامِلَهَا إِلَّا يَمِيْنُ عَرَابَةِ الْأَوْسِيِّ . أَيْ صِفَةُ الْمَجْدِ بِهِ قَائِمَةٌ ، وَفِيْهِ كَامِلَةٌ . – فَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ تُطْلِقُ أَلْفَاظَ الْجَوَارِحِ عَلَى مَا لَا يَقْبَلُ الْجَارِحَةَ ، لِاشْتِرَاكٍ بَيْنَهُمَا مِنْ طَرِيْقِ الْمَعْنَى .

نَفْثُ رُوْحٍ فِي رُوْعٍ

(حَظُّ الْقَلْبِ مِنَ الْيَمِيْنِ وَالْيَسَارِ : اَلْيَمِيْنُ وَالْيَسَارُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَيْبِيَّةِ)

إِذَا تَجَلَّى الْحَقُّ لِسِرِّ عَبْدٍ مَلَّكَهُ جَمِيْعَ الْأَسْرَارِ ، وَأَلْحَقَهُ بِالْأَحْرَارِ ، وَكَانَ لَهُ التَّصَرُّفُ الذَّاتِيُّ مِنْ جِهَةِ الْيَمِيْنِ ، فَإِنَّ شَرَفَ الشِّمَالِ بِغَيْرِهِ ، وَشَرَفَ الْيَمِيْنِ بِذَاتِهِ . – ثُمَّ انْزِلْ . شَرَفُ الْيَمِيْنِ بِالْخِطَابِ ، وَشَرَفُ الشِّمَالِ بِالتَّجَلِّي . شَرَفُ الْإِنْسَانِ بِمَعْرِفَتِهِ بِحَقِيْقَتِهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهَا ، وَهُوَ الْيَسَارُ : « وَكِلْتَا يَدَيْهِ » مِنْ حَيْثُ هُوَ (إِنْسَانٌ) « شِمَالٌ » . كَمَا أَنَّ كِلْتَا يَدَيْ الْحَقِّ يَمِيْنٌ !

أَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى الْاِتِّحَادِ : كِلْتَا يَدَيْ الْعَبْدِ يَمِيْنٌ . أَرْجِعُ إِلَى التَّوْحِيْدِ : إِحْدَى يَدَيْهِ (– تَعَالَى ! –) يَمِيْنٌ ، وَالْأُخْرَى شِمَالٌ . فَتَارَةً أَكُوْنُ فِي « الْجَمْعِ » وَ « جَمْعِ الْجَمْعِ » ، وَتَارَةً أَكُوْنُ فِي « الْفَرْقِ » وَفِي « فَرْقِ الْفَرْقِ » : عَلَى حُكْمِ التَّجَلِّي وَالْوَارِدِ .

يَوْمًا يَمَانٍ إِذَا لَاقَيْتُ ذَا يَمَنٍ   وَإِنْ لَقِيْتُ مَعَدِّيًا فَعَدْنَانِ

وَمِنْ ذٰلِكَ : التَّعَجُّبُ وَالضِّحْكُ وَالْفَرَحُ وَالْغَضَبُ . – « اَلتَّعَجُّبُ » إِنَّمَا يَقَعُ مِنْ مَوْجُوْدٍ لَا يَعْلَمُ ذٰلِكَ الْمُتَعَجَّبَ مِنْهُ ، ثُمَّ يَعْلَمُهُ فَيَتَعَجَّبَ مِنْهُ . وَيُلْحَقُ بِهِ « الضِّحْكُ » . وَهٰذَا مُحَالٌ عَلَى اللهِ – تَعَالَى ! – فَإِنَّهُ مَا خَرَجَ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ . فَمَتَى وَقَعَ فِي الْوُجُوْدِ شَيْءٌ يُمْكِنُ التَّعَجُّبُ مِنْهُ عِنْدَنَا ، حُمِلَ ذٰلِكَ التَّعَجُّبُ وَالضِّحْكُ عَلَى مَنْ لَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ التَّعَجُّبُ وَلَا الضِّحْكُ . لِأَنَّ الْأَمْرَ الْوَاقِعَ مُتَعَجِّبٌ مِنْهُ عِنْدَنَا ، كَالشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صُبْوَةٌ ، فَهٰذَا أَمْرٌ يُتَعَجَّبُ مِنْهُ ، فَحَلَّ عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى ! – مَحَلَّ مَا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ عِنْدَنَا .

وَقَدْ يَخْرُجُ « الضِّحْكُ » وَ « الْفَرْحُ » إِلَى الْقُبُوْلِ وَالرِّضَى . فَإِنَّ مَنْ فَعَلْتَ لَهُ فِعْلًا أَظْهَرَ لَكَ مِنْ أَجْلِهِ الضِّحْكَ وَالْفَرْحَ ، فَقَدْ قَبِلَ ذٰلِكَ الْفِعْلَ وَرَضِيَ بِهِ . فَضِحْكُهُ وَفَرْحُهُ – تَعَالَى ! – (هُوَ) قُبُوْلُهُ وَرِضَاهُ عَنَّا . كَمَا أَنَّ غَضَبَهُ – تَعَالَى ! – مُنَزَّهٌ عَنْ غَلَيَانِ دَمِ الْقَلْبِ طَلَبًا لِلْاِنْتِصَارِ ، لِأَنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – يَتَقَدَّسُ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ وَالْعِرَضِ . فَذٰلِكَ قَدْ يَرْجِعُ إِلَى أَنْ يَفْعَلَ فِعْلَ مَنْ غَضِبَ ، مِمَّنْ يَجُوْزُ عَلَيْهِ الْغَضَبُ : وَهُوَ اِنْتِقَامُهُ – سُبْحَانَهُ ! – مِنَ الْجَبَّارِيْنَ وَالْمُخَالِفِيْنِ لِأَمْرِهِ ، وَالْمُتَعَدِّيْنَ حُدُوْدَهُ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ أَيْ جَازَاهُ جَزَاءَ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِ ؛ فَالْمُجَازِي يَكُوْنُ غَاضِبًا . فَظُهُوْرُ الْفِعْلِ أَطْلَقَ الْاِسْمَ .

(اَلتَّبَشْبُشُ)

اَلتَّبَشْبُشُ ، مِنْ بَابِ الْفَرَحِ . – وَرَدَ فِي الْخَبَرِ : ﴿ **إِنَّ اللهَ يَتَبَشْبَشُ لِلرَّجُلِ يُوَطِّئُ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ** ﴾ ، اَلْحَدِيْثُ . لَمَّا حَجَبَ الْعَالَمَ بِالْأَكْوَانِ ، وَاشْتَغَلُوْا بِغَيْرِ اللهِ عَنِ اللهِ ، فَصَارُوْا بِهٰذَا الْفِعْلِ فِي حَالِ غَيْبَةٍ عَنِ اللهِ ؛ فَلَمَّا وَرَدُوْا عَلَيْهِ – سُبْحَانَهُ ! – بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُضُوْرِ ، أَسْدَلَ إِلَيْهِمْ – سُبْحَانَهُ ! – فِي قُلُوْبِهِمْ ، مِنْ لَذَّةِ نَعِيْمِ مُحَاضَرَتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ ، مَا تَحَبَّبَ بِهَا إِلَى قُلُوْبِهِمْ . فَإِنَّ النَّبِيَّ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – يَقُوْلُ : ﴿ **أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوْكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ** ﴾ . – فَكَنَّىٰ بِالتَّبَشْبُشِ عَنْ هٰذَا الْفِعْلِ مِنْهُ ،

لِأَنَّهُ إِظْهَارُ سُرُوْرٍ بِقُدُوْمِكُمْ عَلَيْهِ . فَإِنَّهُ مَنْ يُسَرُّ بِقُدُوْمِكَ عَلَيْهِ ، فَعَلَامَةُ سُرُوْرِهِ إِظْهَارُ الْبِرِّ بِجَانِبِكَ ، وَالتَّحَبُّبُ ، وَإِرْسَالُ مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعَمٍ عَلَيْكَ . فَلَمَّا ظَهَرَتْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنَ اللهِ إِلَى الْعَبِيْدِ النَّازِلِيْنَ بِهِ ، سَمَّاهُ تَبَشْبُشًا .

(اَلنِّسْيَانُ)

اَلنِّسْيَانُ . – قَالَ اللهُ – تَعَالَى ! – : ﴿ **فَنَسِيَهُمْ** ﴾ . اَلْبَارِي – تَعَالَى ! – لَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ النِّسْيَانُ . وَلٰكِنَّهُ – تَعَالَى ! – لَمَّا عَذَّبَهُمْ عَذَابَ الْأَبَدِ ، وَلَمْ تَنَلْهُمْ رَحْمَتُهُ – تَعَالَى ! – صَارُوْا كَأَنَّهُمْ مُنْسِيُّوْنَ عِنْدَهُ ، وَهُوَ كَأَنَّهُ نَاسٍ لَهُمْ . أَيْ هٰذَا فِعْلُ النَّاسِي ، وَمَنْ لَا يَتَذَكَّرُ مَا هُمْ فِيْهِ مِنْ أَلِيْمِ الْعَذَابِ . وَذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا ﴿ **نَسُوا اللَّهَ** ﴾ ، فَجَازَاهُمْ بِفِعْلِهِمْ : فَفِعْلُهُمْ أَعَادَهُ عَلَيْهِمْ لِلْمُنَاسَبَةِ .

وَقَدْ يَكُوْنُ (مَعْنَى) « نَسِيَهُمُ (اللهُ) » أَخَّرَهُمْ ؛ وَ (مَعْنَى) « نَسُوْا اللهَ » أَيْ أَخَّرُوْا أَمْرَ اللهِ ، فَلَمْ يَعْمَلُوْا بِهِ . – أَخَّرَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ حِيْنَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَنْ أَدْخَلَهُ فِيْهَا مِنْ غَيْرِهِمْ . وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا الْبَابِ اِتِّصَافُ الْحَقِّ بِالْمَكْرِ وَالْاِسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ وَقَالَ : ﴿ **وَمَكَرَ اللَّهُ** ﴾ وَقَالَ : ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴾ .

(اَلنَّفَسُ)

اَلنَّفَسُ . – قَالَ ﷺ : ﴿ **لَا تَسُبُّوْا الرِّيْحَ فَإِنَّهَا مِنْ نَفَسِ الرَّحْمٰنِ** ﴾ . وَقَوْلُهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِيْنِي مِنْ قَبْلِ الْيَمَنِ** ﴾ . وَهٰذَا كُلُّهُ مِنَ التَّنْفِيْسِ . كَأَنَّهُ يَقُوْلُ : « لَا تَسُبُّوْا الرِّيْحَ فَإِنَّهَا مِمَّا يُنَفِّسُ بِهَا الرَّحْمٰنُ عَنْ عِبَادِهِ » . وَقَالَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ **نُصِرْتُ بِالصَّبَا** ﴾ . وَكَذٰلِكَ يَقُوْلُ : ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ نَفَسَ** ﴾ أَيْ تَنْفِيْسَ ﴿ **الرَّحْمٰنِ** ﴾ عَنْ عِبَادِهِ . وَقَالَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ نَفَسَ** ﴾ أَيْ تَنْفِيْسَ ﴿ **الرَّحْمٰنِ** ﴾ عَنِّي ، لِلْكَرْبِ الَّذِي كَانَ فِيْهِ مِنْ تَكْذِيْبِ قَوْمِهِ إِيَّاهُ ، وَرَدِّهِمْ

أَمْرَ اللهِ ،– ﴿ **مِنْ قَبْلِ الْيَمَنِ** ﴾ – فَكَانَتِ الْأَنْصَارُ (مِمَّنْ) نَفَّسَ اللهُ بِهِمْ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ مَا كَانَ أَكْرَبَهُ مِنَ الْمُكَذِّبِيْنَ . فَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى ! – مُنَزَّهٌ عَنِ النَّفَسِ ، الَّذِي هُوَ الْهَوَاءُ الْخَارِجُ مِنَ الْمُتَنَفِّسِ . « تَعَالَى اللهُ عَمَّا نَسَبَ إِلَيْهِ الظَّالِمُوْنَ » مِنْ ذٰلِكَ « عُلُوًّا كَبِيْرًا » !

(اَلصُّوْرَةُ)

اَلصُّوْرَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْأَمْرِ ، وَعَلَى الْمَعْلُوْمِ عِنْدَ النَّاسِ ، وَعَلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . – وَرَدَ فِي الْحَدِيْثِ إِضَافَةُ الصُّوْرَةِ إِلَى اللهِ فِي « الصَّحِيْحِ » وَغَيْرِهِ ، مِثْلُ حَدِيْثِ عِكْرِمَةَ . قَالَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ **رَأَيْتُ رَبِّي فِي صُوْرَةِ شَابٍّ** ﴾ ، اَلْحَدِيْثُ . – هٰذَا حَالٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ . وَهُوَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَعْلُوْمٌ مُتَعَارَفٌ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ **إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِهِ** ﴾ .

اِعْلَمْ أَنَّ الْمِثْلِيَّةَ الْوَارِدَةَ فِي الْقُرْآنِ لُغَوِيَّةٌ لَا عَقْلِيَّةٌ ، لِأَنَّ الْمِثْلِيَّةَ الْعَقْلِيَّةَ تَسْتَحِيْلُ عَلَى اللهِ – تَعَالَى ! – . زَيْدٌ اَلْأَسَدُ شِدَّةً ؛ زَيْدٌ زُهَيْرٌ شِعْرًا . – إِذَا وَصَفْتَ مَوْجُوْدًا بِصِفَةٍ أَوْ صِفَتَيْنِ ، ثُمَّ وَصَفْتَ غَيْرَهُ بِتِلْكَ الصِّفَةِ ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا تَبَايُنٌ مِنْ جِهَةِ حَقَائِقَ أُخَرَ ، وَلٰكِنَّهُمَا مُشْتَرِكَانِ فِي رُوْحِ تِلْكَ الصِّفَةِ وَمَعْنَاهَا : فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صُوْرَةِ الْآخَرِ فِي تِلْكَ الصِّفَةِ خَاصَّةً . فَافْهَمْ وَتَنَبَّهْ !

وَانْظُرْ كَوْنَكَ دَلِيْلًا عَلَيْهِ – سُبْحَانَهُ ! – وَهَلْ وَصَفْتَهُ بِصِفَةِ كَمَالٍ إِلَّا مِنْكَ ؟ فَتَفَطَّنْ ! فَإِذَا دَخَلْتَ مِنْ بَابِ التَّعْرِيَةِ عَنِ الْمُنَاظَرَةِ ، سَلَبْتَ النَّقَائِصَ ، الَّتِي تَجُوْزُ عَلَيْكَ ، عَنْهُ ، وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تَقُمْ قَطُّ بِهِ . وَلٰكِنَّ الْمُجَسِّمَ وَالْمُشَبِّهَ لَمَّا أَضَافَهَا إِلَيْهِ ، سَلَبْتَ أَنْتَ تِلْكَ الْإِضَافَةَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَتَوَهَّمِ (الْمُجَسِّمُ أَوِ الْمُشَبِّهُ) هٰذَا ، لَمَا فَعَلْتَ شَيْئًا مِنْ هٰذَا السَّلْبِ . –

فَاعْلَمْ (أَنَّهُ) وَإِنْ كَانَ لِلصُّوْرَةِ هُنَا مَدَاخِلُ كَثِيْرَةٌ ، (لٰكِنْ) أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهَا رَغْبَةً فِيْمَا قَصَدْنَاهُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ مِنْ حَذْفِ التَّطْوِيْلِ . ﴿ **وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ** ﴾ .

(اَلذِّرَاعُ)

اَلذِّرَاعُ . – وُرِدَ فِي الْخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ **إِنَّ ضِرْسَ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وَكَثَافَةَ جِلْدِهِ أَرْبَعُوْنَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْجَبَّارِ** ﴾ = هٰذِهِ إِضَافَةُ تَشْرِيْفٍ : مِقْدَارٌ جَعَلَهُ اللهُ – تَعَالَى ! – (وَ) أَضَافَهُ إِلَيْهِ . كَمَا تَقُوْلُ هٰذَا الشَّيْءُ كَذَا وَكَذَا ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْمَلِكِ ، تُرِيْدُ الذِّرَاعَ الْأَكْبَرَ الَّذِي جَعَلَهُ الْمَلِكُ ، وَإِنْ كَانَ ، مَثَلًا ، ذِرَاعُ الْمَلِكِ ، الَّذِي هُوَ الْجَارِحَةُ ، مِثْلَ أَذْرَعِ النَّاسِ . وَالذِّرَاعُ الَّذِي جَعَلَهُ (الْمَلِكُ) مِقْدَارًا ، يَزِيْدُ عَلَى ذِرَاعِ الْجَارِحَةِ بِنِصْفِهِ أَوْ ثُلُثِهِ . فَلَيْسَ هُوَ إِذَنْ ذِرَاعُهُ عَلَى حَقِيْقَتِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِقْدَارٌ نَصَبَهُ ثُمَّ أُضِيْفَ إِلَى جَاعِلِهِ . فَاعْلَمْ ! وَالْجَبَّارُ ، فِي اللِّسَانِ ، (هُوَ) الْمَلِكُ الْعَظِيْمُ .

(اَلْقَدَمُ)

وَهٰكَذَا « الْقَدَمُ » . – ﴿ **يَضَعُ الْجَبَّارُ فِيْهَا (أَيْ فِي النَّارِ) قَدَمَهُ** ﴾ . اَلْقَدَمُ (هِيَ) الْجَارِحَةُ . وَيُقَالُ : لِفُلَانٍ فِي هٰذَا الْأَمْرِ قَدَمٌ ، أَيْ ثُبُوْتٌ . وَالْقَدَمُ ، جَمَاعَةٌ مِنَ الْخَلْقِ . فَتَكُوْنُ الْقَدَمُ إِضَافَةً . وَقَدْ يَكُوْنُ الْجَبَّارُ (مَعْنَاهُ هُنَا) مَلَكًا ، وَتَكُوْنُ هٰذِهِ الْقَدَمُ لِهٰذَا الْمَلَكِ ، إِذِ الْجَارِحَةُ تَسْتَحِيْلُ عَلَى اللهِ – تَعَالَى وَجَلَّ ! –

(اَلْإِسْتِوَاءُ)

وَالْاِسْتِوَاءُ أَيْضًا يَنْطَلِقُ عَلَى الْاِسْتِقْرَارِ وَالْقُصُوْدِ وَالْاِسْتِيْلَاءِ . وَالْاِسْتِقْرَارُ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ ، فَلَا يَجُوْزُ عَلَى اللهِ – تَعَالَى ! – إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الثُّبُوْتِ . وَالْقَصْدُ هُوَ الْإِرَادَةُ ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ . قَالَ (– تَعَالَى ! –) : ﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ** ﴾ أَيْ قَصَدَ ؛ وَ ﴿ **ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ** ﴾ – أَيْ اسْتَوْلَى .

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ | مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وَالْأَخْبَارُ وَالْآيَاتُ كَثِيْرَةٌ ، مِنْهَا صَحِيْحٌ وَ (مِنْهَا) سَقِيْمٌ . وَمَا مِنْهَا خَبَرٌ إِلَّا وَلَهُ وَجْهٌ مِنْ وُجُوْهِ التَّنْزِيْهِ . وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَقْرُبَ (فَهْمُ) ذٰلِكَ عَلَيْكَ ، فَاعْمِدْ إِلَى اللَّفْظَةِ الَّتِي تَوَهَّمَ التَّشْبِيْهَ ، وَخُذْ فَائِدَتَهَا وَرُوْحَهَا أَوْ مَا يَكُوْنُ عَنْهَا ، فَاجْعَلْهُ فِي حَقِّ الْحَقِّ تَفُزْ بِدَرَجَةِ التَّنْزِيْهِ ، حِيْنَ حَازَ غَيْرُكَ دَرْكَ التَّشْبِيْهِ . فَهٰكَذَا فَافْعَلْ ! وَطَهِّرْ ثَوْبَكَ ! وَيَكْفِي هٰذَا الْقَدْرُ مِنْ (إِيْرَادِ) هٰذِهِ الْأَخْبَارِ . فَقَدْ طَالَ الْبَابُ .

نَفْثُ الرُّوْحِ الْأَقْدَسِ فِي الرُّوْعِ الْأَنْفَسِ

(اَلْمَعْنَى الرَّمْزِيُّ لِأَلْفَاظِ التَّشْبِيْهِ بِلِسَانِ الشَّرْعِ)

(نَفْثُ الرُّوْحِ الْأَقْدَسِ فِي الرُّوْعِ الْأَنْفَسِ) بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَلْفَاظِ : لَمَّا تَعَجَّبَ الْمُتَعَجِّبُ (وَهُوَ الْمَلِكُ) مِمَّنْ خَرَجَ عَلَى صُوْرَتِهِ (وَهُوَ آدَمُ) وَخَالَفَهُ فِي سَرِيْرَتِهِ . فَفَرِحَ بِوُجُوْدِهِ . وَضَحِكَ مِنْ شُهُوْدِهِ . وَغَضِبَ لِتَوَلِّيْهِ . وَتَبَشْبَشَ لِتَدَلِّيْهِ . وَنَسِيَ ظَاهِرَهُ . وَتَنَفَّسَ فَأَطْلَقَ مَوَاخِرَهُ . وَثَبَتَ عَلَى مُلْكِهِ . وَتَحَكَّمَ بِالتَّقْدِيْرِ عَلَى مِلْكِهِ . فَكَانَ مَا أَرَادَ . وَإِلَى اللهِ الْمَعَادُ !

فَهٰذِهِ أَرْوَاحٌ مُجَرَّدَةٌ ، تَنْظُرُهَا أَشْبَاحٌ مُسَنَّدَةٌ . فَإِذَا بَلَغَ الْمِيْقَاتُ ، وَانْقَضَتِ الْأَوْقَاتُ ، وَمَارَتِ السَّمَاءُ ، وَكُوِّرَتِ الشَّمْسُ ، وَبُدِّلَتِ الْأَرْضُ ، وَانْكَدَرَتِ النُّجُوْمُ ، وَانْتَقَلَتِ الْأُمُوْرُ ، وَظَهَرَتِ الْآخِرَةُ ، وَحُشِرَ الْإِنْسَانُ وَغَيْرُهُ فِي الْحَافِرَةِ ، – حِيْنَئِذٍ تُحْمَدُ الْأَشْبَاحُ ، وَتَتَنَسَّمَ الْأَرْوَاحُ ، وَيَتَجَلَّى الْفَتَّاحُ ، وَيَتَّقِدُ الْمِصْبَاحُ ، وَتُشَعْشَعُ الرَّاحُ ، وَيَظْهَرُ الْوُدُّ الصُّرَاحُ ، وَيَزُوْلُ الْإِلْحَاحُ ، وَيُرَفْرِفُ الْجَنَاحُ ، وَيَكُوْنُ الْاِبْتِنَاءُ بِالضُّرَاحِ ، مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى الْإِصْبَاحِ . – فَمَا أَسْنَاهَا مِنْ مَنْزِلَةٍ ، وَمَا أَشْهَاهَا إِلَى النُّفُوْسِ مِنْ حَالَةٍ مُكَمِّلَةٍ : مَتَّعَنَا اللهُ بِهَا !



اَلْبَابُ الرَّابِعُ :
فِي سَبَبِ بَدْءِ الْعَالَمِ
وَمَرَاتِبِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى مِنَ الْعَالَمِ كُلِّهِ

فِي سَبَبِ الْبَدْءِ وَأَحْكَامِهِ   وَغَايَةِ الصُّنْعِ وَإِحْكَامِهِ
وَالْفَرْقِ مَا بَيْنَ رُعَاةِ الْعُلَى   فِي نَشْئِهِ وَبَيْنَ حُكَّامِهِ
دَلَائِلٌ دَلَّتْ عَلَى صَانِعٍ   قَدْ ظَهَرَ الْكُلُّ بِأَحْكَامِهِ

(خَوَاصُّ الْمَكَانِ وَإِحْسَاسُ الْجَنَانِ)

قَدْ وَقَفَ الصَّفِيُّ الْوَلِيُّ – أَبْقَاهُ اللهُ ! – عَلَى سَبَبِ بَدْءِ الْعَالَمِ ، فِي كِتَابِنَا الْمُسَمَّى بِـ « **عَنْقَاءَ مُغْرِبٍ فِي مَعْرِفَةِ خَتْمِ الْأَوْلِيَاءِ وَشَمْسِ الْمَغْرِبِ** » ؛ – وَفِي كِتَابِنَا الْمُسَمَّى بِـ « **إِنْشَاءِ الدَّوَائِرِ** » الَّذِي أَلَّفْنَا بَعْضَهُ بِمَنْزِلِهِ الْكَرِيمِ ، فِي وَقْتِ زِيَارَتِنَا إِيَّاهُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ (٥٩٨) وَنَحْنُ نُرِيدُ الْحَجَّ . فَقَيَّدَ لَهُ مِنْهُ خَدِيمُهُ عَبْدُ الْجَبَّارِ – أَعْلَى اللهُ قَدْرَهُ ! – الْقَدْرَ الَّذِي كُنْتُ سَطَّرْتُهُ مِنْهُ ، وَرَحَلْتُ بِهِ مَعِي إِلَى مَكَّةَ – زَادَهَا اللهُ تَشْرِيفًا ! – فِي السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ لِأُتَمِّمَهُ بِهَا .

فَشَغَلَنَا هٰذَا الْكِتَابُ (أَيْ الْفُتُوْحَاتِ الْمَكِّيَّةَ) عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ ، بِسَبَبِ الْأَمْرِ الْإِلٰهِيِّ الَّذِي وَرَدَ عَلَيْنَا فِي تَقْيِيْدِهِ مَعَ رَغْبَةِ بَعْضِ الْإِخْوَانِ وَالْفُقَرَاءِ فِي ذٰلِكَ ، حِرْصًا مِنْهُمْ عَلَى مَزِيْدِ الْعِلْمِ ، وَرَغْبَةً فِي أَنْ تَعُوْدَ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتُ هٰذَا « الْبَيْتِ الْمُبَارَكِ الشَّرِيْفِ » ، مَحَلِّ الْبَرَكَاتِ ، وَالْهُدَى وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ؛ وَ (رَغْبَةً مِنَّا) أَنْ نُعَرِّفَ أَيْضًا ، فِي هٰذَا الْمَوْضُوْعِ ، الصَّفِيَّ الْكَرِيْمَ ، أَبَا مُحَمَّدٍ ، عَبْدِ الْعَزِيْزِ (الْمَهْدَوِي الْقُرَشِي) – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! – مَا تُعْطِيْهِ مَكَّةُ مِنَ الْبَرَكَاتِ ، وَأَنَّهَا خَيْرُ وَسِيْلَةٍ عِبَادِيَّةٍ ، وَأَشْرَفُ مَنْزِلَةٍ جَمَادِيَّةٍ تُرَابِيَّةٍ ، عَسَى تَنْهَضُ بِهِ هِمَّةُ الشَّوْقِ إِلَيْهِ ، وَتَنْزِلُ بِهِ رَغْبَةُ الْمَزِيْدِ عَلَيْهِ . فَقَدْ قِيْلَ لِمَنْ « أُوْتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » ، وَكَانَ مِنْ رَبِّهِ فِي مُشَاهَدَةِ الْعَيْنِ ، أَدْنَى مِنْ « قَابِ قَوْسَيْنِ » ، وَمَعَ هٰذَا التَّقْرِيْبِ الْأَكْمَلِ ، وَالْحَظِّ الْأَوْفَرِ الْأَجْزَلِ ، أَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ .

وَمِنْ شَرْطِ الْعَالِمِ الْمُشَاهِدِ ، صَاحِبِ الْمَقَامَاتِ الْغَيْبِيَّةِ وَالْمَشَاهِدِ ، أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلْأَمْكِنَةِ فِي الْقُلُوْبِ اللَّطِيْفَةِ تَأْثِيْرًا . وَلَوْ وُجِدَ الْقَلْبُ ، فِي أَيِّ مَوْضِعٍ كَانَ ، الْوُجُوْدَ الْأَعَمَّ ، فَوُجُوْدُهُ بِمَكَّةَ أَسْنَى وَأَتَمُّ . فَكَمَا تَتَفَاضَلُ الْمَنَازِلُ الرُّوْحَانِيَّةُ كَذٰلِكَ تَتَفَاضَلُ الْمَنَازِلُ الْجِسْمَانِيَّةُ . وَإِلَّا ، فَهَلِ الْمَدَرُ مِثْلُ الْحَجَرِ ؟ إِلَّا عِنْدَ صَاحِبِ الْحَالِ . وَأَمَّا الْمُكَمَّلُ ، صَاحِبُ الْمَقَامِ ، فَإِنَّهُ يُمَيِّزُ بَيْنَهُمَا ، كَمَا مَيَّزَ بَيْنَهُمَا الْحَقُّ . هَلْ سَاوَى الْحَقُّ بَيْنَ دَارٍ بِنَاؤُهَا لَبِنُ التُّرَابِ وَالتِّبْنِ ، وَدَارٍ بِنَاؤُهَا لَبِنُ الْعَسْجَدِ وَاللُّجَيْنِ ؟ فَالْحَكِيْمُ الْوَاصِلُ (هُوَ) مَنْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ . فَذٰلِكَ وَاحِدُ عَصْرِهِ ، وَصَاحِبُ وَقْتِهِ . فَ (فَرْقٌ) كَثِيْرٌ بَيْنَ مَدِيْنَةٍ يَكُوْنُ أَكْثَرُ عِمَارَتِهَا الشَّهَوَاتِ ، وَبَيْنَ مَدِيْنَةٍ يَكُوْنُ أَكْثَرُ عِمَارَتِهَا الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ !

أَلَيْسَ قَدْ جَمَعَ مَعِي – صَفِيٌّ أَبْقَاهُ اللهُ ! – أَنَّ وُجُوْدَ قُلُوْبِنَا فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَكْثَرُ مِنْ بَعْضٍ ؟ وَقَدْ كَانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! – يَتْرُكُ الْخَلْوَةَ فِي بُيُوْتِ الْمَنَارَةِ الْمَحْرُوْسَةِ ، الْكَائِنَةِ بِشَرْقِيِّ تُوْنِسٍ ، بِسَاحِلِ الْبَحْرِ ، وَيَنْزِلُ إِلَى الرَّابِطَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْمَقَابِرِ ، بِقُرْبِ

الْمَنَارَةِ مِنْ جِهَةِ بَابِهَا ، وَهِيَ تُعْزَى إِلَى الْخَضِرِ . فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذٰلِكَ ، فَقَالَ : إِنَّ قَلْبِي أَجِدُهُ هُنَالِكَ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الْمَنَارَةِ . وَقَدْ وَجَدْتُ فِيْهَا ، أَنَا أَيْضًا ، مَا قَالَهُ الشَّيْخُ .

وَقَدْ عَلِمَ وَلِيِّي – أَبْقَاهُ اللهُ ! – أَنَّ ذٰلِكَ مِنْ أَجْلِ مَنْ يَعْمُرُ ذٰلِكَ الْمَوْضِعَ ، إِمَّا فِي الْحَالِ ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُكَرَّمِيْنَ أَوْ مِنَ الْجِنِّ الصَّادِقِيْنَ ؛ وَإِمَّا مِنْ هِمَّةِ مَنْ كَانَ يَعْمُرُهُ وَفُقِدَ ، كَبَيْتِ أَبِي يَزِيْدِ الَّذِي يُسَمَّى بَيْتَ الْأَبْرَارِ ، وَكَزَاوِيَةِ الْجُنَيْدِ بِالشُّوْنِيْزِيَّةِ ، وَكَمَغَارَةِ ابْنِ أَدْهَمٍ بِالْيَقِيْنِ ؛ وَمَا كَانَ مِنْ أَمَاكِنِ الصَّالِحِيْنَ الَّذِيْنَ فَنُوْا عَنْ هٰذِهِ الدَّارِ ، وَبَقِيَتْ آثَارُهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ تَنْفَعِلُ لَهَا الْقُلُوْبُ اللَّطِيْفَةُ . وَلِهٰذَا يَرْجِعُ تَفَاضُلُ الْمَسَاجِدِ فِي وُجُوْدِ الْقَلْبِ ، لَا فِي تَضَاعُفِ الْأَجْرِ . فَقَدْ تَجِدُ قَلْبَكَ فِي مَسْجِدٍ أَكْثَرُ مِمَّا تَجِدُهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ . وَذٰلِكَ لَيْسَ لِلتُّرَابِ ، وَلٰكِنْ لِمُجَالَسَةِ الْأَتْرَابِ أَوْ هِمَمِهِمْ . وَمَنْ لَا يَجِدُ الْفَرْقَ ، فِي وُجُوْدِ قَلْبِهِ ، بَيْنَ السُّوْقِ وَالْمَسَاجِدِ ، فَهُوَ صَاحِبُ حَالٍ ، لَا صَاحِبُ مَقَامٍ .

وَلَا أَشُكُّ ، كَشْفًا وَعِلْمًا ، أَنَّهُ وَإِنْ عَمَرَتِ الْمَلَائِكَةُ جَمِيْعَ الْأَرْضِ ، مَعَ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْمَعَارِفِ وَالرُّتَبِ ، فَإِنَّ أَعْلَاهُمْ رُتْبَةً ، وَأَعْظَمَهُمْ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً (هُمْ) عَمَرَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَعَلَى قَدْرِ جُلَسَائِكَ يَكُوْنُ وُجُوْدُكَ . فَإِنَّهُ لِهِمَمِ الْجُلَسَاءِ ، فِي قَلْبِ الْجَلِيْسِ لَهُمْ ، تَأْثِيْرًا . وَهِمَمُهُمْ عَلَى قَدْرِ مَرَاتِبِهِمْ . وَإِنْ كَانَ (التَّفَاضُلُ) مِنْ جِهَةِ الْهِمَمِ ، فَقَدْ طَافَ بِهٰذَا الْبَيْتِ مِائَةُ أَلْفِ نَبِيٍّ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُوْنَ أَلْفَ نَبِيٍّ سِوَى الْأَوْلِيَاءِ . وَمَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا وَلِيٍّ إِلَّا وَلَهُ هِمَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهٰذَا الْبَيْتِ .

وَهٰذَا الْبَلَدُ (هُوَ الْبَلَدُ) الْحَرَامُ : لِأَنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي اِصْطَفَاهُ اللهُ عَلَى سَائِرِ الْبُيُوْتِ ؛ وَلَهُ سِرُّ الْأَوَّلِيَّةِ فِي الْمَعَابِدِ ، كَمَا قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ** ﴾ مِنْ كُلِّ مَخُوْفٍ ؛ – إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

فَلَوْ رَحَلَ الصَّفِيُّ – أَبْقَاهُ اللهُ ! – إِلَى هٰذَا الْبَلَدِ الْحَرَامِ الشَّرِيْفِ ، لَوَجَدَ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالزِّيَادَاتِ مَا لَمْ يَكُنْ رَآهُ قَبْلَ ذٰلِكَ ، وَلَا خَطَرَ لَهُ بِالْبَالِ . وَقَدْ عَلِمَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! – أَنَّ النَّفْسَ تُحْشَرُ عَلَى صُوْرَةِ عِلْمِهَا ، وَالْجِسْمَ (يُحْشَرُ) عَلَى صُوْرَةِ عَمَلِهِ . وَصُوْرَةُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِمَكَّةَ ، أَتَمُّ مِمَّا فِي سِوَاهَا . وَلَوْ دَخَلَهَا صَاحِبُ قَلْبٍ سَاعَةً وَاحِدَةً لَكَانَ لَهُ ذٰلِكَ . فَكَيْفَ إِنْ جَاوَرَ بِهَا وَأَقَامَ ، وَأَتَى فِيْهَا بِجَمِيْعِ الْفَرَائِضِ وَالْقَوَاعِدِ ؟ فَلَا شَكَّ أَنَّ مَشْهَدَهُ بِهَا يَكُوْنُ أَتَمَّ وَأَجْلَى ، وَمَوْرِدَهُ أَصْفَى وَأَعْذَبَ وَأَحْلَى .

وَإِذْ ، وَصَفِيِّي – أَبْقَاهُ اللهُ ! – قَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِسُّ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ ، عَلَى حَسَبِ الْأَمَاكِنِ وَالْأَمْزِجَةِ ؛ وَيَعْلَمُ أَنَّ ذٰلِكَ رَاجِعٌ أَيْضًا إِلَى حَقِيْقَةِ السَّاكِنِ بِهِ أَوْ هِمَّتِهِ ، كَمَا ذَكَرْنَا . وَلَا شَكَّ عِنْدَنَا أَنَّ مَعْرِفَةَ هٰذَا الْفَنِّ ، أَعْنِي مَعْرِفَةَ الْأَمَاكِنِ ، وَالْإِحْسَاسِ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ ، مِنْ تَمَامِ تَمَكُّنِ مَعْرِفَةِ الْعَارِفِ وَعُلُوِّ مَقَامِهِ ، وَإِشْرَافِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَقُوَّةِ مَيْزِهِ . – فَاللهُ يَكْتُبُ لِوَلِيِّي فِيْهَا أَثَرًا حَسَنًا ، وَيَهِبُهُ فِيْهَا خَيْرًا طَيِّبًا . إِنَّهُ الْمَلِيُّ بِذٰلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ !

(اَلْأَسْمَاءُ الْإِلٰهِيَّةُ وَالْحَقَائِقُ الْوُجُوْدِيَّةُ)

اِعْلَمْ – وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ الْمُسْلِمِيْنَ ! – أَنَّ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ بِاللهِ ، مِنْ أَهْلِ الْكَشْفِ وَالْحَقَائِقِ ، لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِسَبَبِ بَدْءِ الْعَالَمِ إِلَّا تَعَلُّقَ الْعِلْمِ الْقَدِيْمِ بِإِيْجَادِهِ : فَكَوَّنَ (– تَعَالَى ! –) مَا عَلِمَ أَنَّهُ سَيُكَوِّنُهُ . وَهُنَا يَنْتَهِي أَكْثَرُ النَّاسِ .

وَأَمَّا نَحْنُ ، وَمَنْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى مَا أَطْلَعَنَا عَلَيْهِ ، فَقَدْ وَقَفْنَا عَلَى أُمُوْرٍ أُخَرٍ ، غَيْرِ هٰذَا . وَذٰلِكَ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ الْعَالَمَ مُفَصَّلًا بِحَقَائِقِهِ وَنِسَبِهِ ، وَجَدْتَهُ مَحْصُوْرَ الْحَقَائِقِ وَالنِّسَبِ ، مَعْلُوْمَ الْمَنَازِلِ وَالرُّتَبِ ، مُتَنَاهَى الْأَجْنَاسِ ، بَيْنَ مُتَمَاثِلٍ وَمُخْتَلِفٍ . فَإِذَا وَقَفْتَ عَلَى هٰذَا الْأَمْرِ ، عَلِمْتَ أَنَّ لِهٰذَا سِرًّا لَطِيْفًا وَأَمْرًا عَجِيْبًا ، لَا تُدْرَكُ حَقِيْقَتُهُ بِدَقِيْقِ فِكْرٍ وَلَا نَظَرٍ ، بَلْ بِعِلْمٍ مَوْهُوْبٍ مِنْ عُلُوْمِ الْكَشْفِ ، وَنَتَائِجِ الْمُجَاهَدَاتِ

الْمُصَاحَبَةِ لِلْهِمَمِ . فَإِنَّ مُجَاهَدَةً بِغَيْرِ هِمَّةٍ غَيْرَ مُنْتِجَةٍ شَيْئًا وَلَا مُؤَثِّرَةٍ فِي الْعِلْمِ ، وَلٰكِنْ تُؤَثِّرُ فِي الْحَالِ مِنْ رِقَّةٍ وَصَفَاءٍ يَجِدُهُ صَاحِبُ الْمُجَاهَدَةِ .

فَاعْلَمْ – عَلَّمَكَ اللهُ سَرَائِرَ الْحِكَمِ ، وَوَهَّبَكَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ! – أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى الَّتِي تَبْلُغُ فَوْقَ أَسْمَاءِ الْإِحْصَاءِ عَدَدًا ، وَتَنْزِلُ دُوْنَ أَسْمَاءِ الْإِحْصَاءِ سَعَادَةً ، هِيَ الْمُؤَثِّرَةُ فِي هٰذَا الْعَالَمِ ، وَهِيَ « الْمَفَاتِحُ الْأُوَلِ » الَّتِي ﴿**لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ**﴾ ؛ وَأَنَّ لِكُلِّ حَقِيْقَةٍ (وُجُوْدِيَّةٍ) اِسْمًا يَخُصُّهَا مِنَ الْأَسْمَاءِ . وَأَعْنِي بِالْحَقِيْقَةِ ، حَقِيْقَةً تَجْمَعُ جِنْسًا مِنَ الْحَقَائِقِ ، رَبُّ تِلْكَ الْحَقِيْقَةِ (هُوَ) ذٰلِكَ الْاِسْمُ ، وَتِلْكَ الْحَقِيْقَةُ عَابِدَتُهُ ، وَتَحْتَ تَكْلِيْفِهِ . لَيْسَ غَيْرُ ذٰلِكَ .

وَإِنْ جَمَعَ لَكَ شَيْءٌ مَّا أَسْمَاءًا كَثِيْرَةً ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَوَهَّمْتَهُ . فَإِنَّكَ إِنْ نَظَرْتَ إِلَى ذٰلِكَ الشَّيْءِ ، وَجَدْتَ لَهُ مِنَ الْوُجُوْهِ مَا يُقَابِلُ بِهِ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَهِيَ الْحَقَائِقُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا . مِثَالُ ذٰلِكَ : مَا ثَبَتَ لَكَ فِي الْعِلْمِ الَّذِي فِي ظَاهِرِ الْعُقُوْلِ وَتَحْتَ حُكْمِهَا ، فِي حَقِّ مَوْجُوْدٍ مَّا ، (أَنَّهُ) فَرْدٌ لَا يَنْقَسِمُ ، مِثْلُ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ ، الْجُزْءِ الَّذِي لَا يَنْقَسِمُ ؛ (وَمَعَ ذٰلِكَ) فَإِنَّ فِيْهِ (أَيْ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ) حَقَائِقُ مُتَعَدِّدَةٌ ، تَطْلُبُ أَسْمَاءًا إِلٰهِيَّةً عَلَى عَدَدِهَا . فَحَقِيْقَةُ إِيْجَادِهِ : يَطْلُبُ الْاِسْمَ الْقَادِرَ ؛ وَوَجْهُ إِحْكَامِهِ : يَطْلُبُ الْاِسْمَ الْعَالِمَ ؛ وَوَجْهُ اِخْتِصَاصِهِ : يَطْلُبُ الْاِسْمَ الْمُرِيْدَ ؛ وَوَجْهُ ظُهُوْرِهِ : يَطْلُبُ الْاِسْمَ الْبَصِيْرَ وَالرَّائِيَ ؛ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . – فَهٰذَا (الْجَوْهَرُ) وَإِنْ كَانَ فَرْدًا فَلَهُ هٰذِهِ الْوُجُوْهُ وَغَيْرُهَا مِمَّا لَمْ نَذْكُرْهَا ؛ وَلِكُلِّ وَجْهٍ ، وُجُوْهٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، تَطْلُبُ مِنَ الْأَسْمَاءِ بِحَسَبِهَا ؛ وَتِلْكَ الْوُجُوْهُ هِيَ الْحَقَائِقُ ، عِنْدَنَا ، الثَّوَانِي ؛ وَالْوُقُوْفُ عَلَيْهَا عَسِيْرٌ ، وَتَحْصِيْلُهَا مِنْ طَرِيْقِ الْكَشْفِ أَعْسَرُ .

(أُمَّهَاتُ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ)

وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَسْمَاءَ قَدْ نَتْرُكُهَا عَلَى كَثْرَتِهَا ، إِذَا لَحَظْنَا وُجُوْهَ الطَّالِبِيْنَ لَهَا مِنَ الْعَالَمِ ؛ وَإِذَا لَمْ نَلْحَظْ ذٰلِكَ ، فَلْنَرْجِعْ وَنَلْحَظْ أُمَّهَاتِ الْمُطَالِبِ (الْعِلْمِيَّةِ) الَّتِي لَا غِنًى لَهَا

عَنْهَا ؛ فَنَعْرِفُ (ثَمَّةَ) أَنَّ الْأَسْمَاءَ ، الَّتِي الْأُمَّهَاتُ مَوْقُوْفَةٌ عَلَيْهَا ، هِيَ أَيْضًا أُمَّهَاتُ الْأَسْمَاءِ . فَيَسْهُلُ النَّظَرُ ، وَيَكْمُلُ الْغَرَضُ ، وَيَتَيَسَّرُ التَّعَدِّي مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّهَاتِ إِلَى الْبَنَاتِ ، كَمَا يَتَيَسَّرُ رَدُّ الْبَنَاتِ إِلَى الْأُمَّهَاتِ . فَإِذَا نَظَرْتَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا ، الْمَعْلُوْمَةَ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيّ وَالسُّفْلِيِّ ، تَجِدُ الْأَسْمَاءَ السَّبْعَةَ ، الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِالصِّفَاتِ عِنْدَ أَصْحَابِ عِلْمِ الْكَلَامِ ، تَتَضَمَّنُهَا . وَقَدْ ذَكَرْنَا هٰذَا فِي كِتَابِنَا الَّذِي سَمَّيْنَاهُ « **إِنْشَاءَ الدَّوَائِرِ** » .

وَلَيْسَ غَرَضُنَا فِي هٰذَا الْكِتَابِ فِي هٰذِهِ الْأُمَّهَاتِ السَّبْعَةِ ، الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالصِّفَاتِ ؛ وَلٰكِنْ قَصَدْنَا الْأُمَّهَاتِ الَّتِي لَا بُدَّ لِإِيْجَادِ الْعَالَمِ مِنْهَا . كَمَا أَنَّا لَا نَحْتَاجُ فِي دَلَائِلِ الْعُقُوْلِ ، مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ – سُبْحَانَهُ ! – إِلَّا كَوْنَهُ مَوْجُوْدًا ، عَالِمًا ، مُرِيْدًا ، قَادِرًا ، حَيًّا ، لَا غَيْرَ . وَمَا زَادَ عَلَى هٰذَا فَإِنَّمَا يَقْتَضِيْهِ التَّكْلِيْفُ . فَمَجِيْءُ الرَّسُوْلِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – جَعَلَنَا نَعْرِفُهُ (– تَعَالَى ! –) مُتَكَلِّمًا ؛ وَالتَّكْلِيْفُ جَعَلَنَا نَعْرِفُهُ سَمِيْعًا ، بَصِيْرًا ؛ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ . فَالَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ (إِنَّمَا هُوَ) لِوُجُوْدِ الْعَالَمِ . وَ (هٰذِهِ الْأَسْمَاءُ) هِيَ أَرْبَابُ الْأَسْمَاءِ ، وَمَا عَدَاهَا فَسَدَنَةٌ لَهَا ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ هٰذِهِ الْأَرْبَابِ سَدَنَةٌ لِبَعْضِهَا (الْآخَرِ) .

فَأُمَّهَاتُ الْأَسْمَاءِ (الْإِلٰهِيَّةِ) : اَلْحَيُّ ، الْعَالِمُ ، الْمُرِيْدُ ، الْقَادِرُ ، الْقَائِلُ ، الْجَوَّادُ ، الْمُقْسِطُ . وَهٰذِهِ الْأَسْمَاءُ (هِيَ) بَنَاتُ الْاِسْمَيْنِ (الْاِلٰهِيَّيْنِ) : الْمُدَبِّرُ وَالْمُفَصِّلُ . فَالْحَيُّ يُثْبِتُ فَهْمَكَ بَعْدَ وُجُوْدِكَ وَقَبْلَهُ . وَالْعَالِمُ يُثْبِتُ إِحْكَامَكَ فِي وُجُوْدِكَ ، وَقَبْلَ وُجُوْدِكَ يُثْبِتُ تَقْدِيْرَكَ . وَالْمُرِيْدُ يُثْبِتُ اِخْتِصَاصَكَ . وَالْقَادِرُ يُثْبِتُ عَدَمَكَ . وَالْقَائِلُ يُثْبِتُ قِدَمَكَ . وَالْجَوَّادُ يُثْبِتُ إِيْجَادَكَ . وَالْمُقْسِطُ يُثْبِتُ مَرْتَبَتَكَ ، وَالْمَرْتَبَةُ آخِرُ مَنَازِلِ الْوُجُوْدِ .

فَهٰذِهِ حَقَائِقُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُوْدِهَا ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَسْمَائِهَا الَّتِي هِيَ أَرْبَابُهَا . فَالْحَيُّ (هُوَ) رَبُّ الْأَرْبَابِ وَالْمَرْبُوْبِيْنَ ، وَهُوَ الْإِمَامُ ؛ وَيَلِيْهِ فِي الرُّتْبَةِ الْعَالِمُ ؛ وَيَلِي الْعَالِمَ الْمُرِيْدُ ؛ وَيَلِي الْمُرِيْدَ الْقَائِلُ ؛ وَيَلِي الْقَائِلَ الْقَادِرُ ؛ وَيَلِي الْقَادِرَ الْجَوَّادُ ؛ وَآخِرُهُمُ الْمُقْسِطُ ، فَإِنَّهُ

رَبُّ الْمَرَاتِبِ ، وَهِيَ آخِرُ مَنَازِلِ الْوُجُوْدِ . وَمَا بَقِيَ مِنَ الْأَسْمَاءِ فَ (هُوَ) تَحْتَ طَاعَةِ هٰؤُلَاءِ الْأَسْمَاءِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَابِ .

(أَئِمَّةُ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ)

وَكَانَ سَبَبُ تَوَجُّهِ هٰؤُلَاءِ الْأَسْمَاءِ إِلَى الْاِسْمِ اللهِ ، فِي إِيْجَادِ الْعَالَمِ ، بَقِيَّةَ الْأَسْمَاءِ مَعَ حَقَائِقِهَا أَيْضًا . عَلَى أَنَّ أَئِمَّةَ الْأَسْمَاءِ ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْعَالَمِ ، إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةٌ لَا غَيْرَ : اِسْمُهُ (– تَعَالَى ! –) الْحَيُّ وَالْمُتَكَلِّمُ وَالسَّمِيْعُ وَالْبَصِيْرُ . فَإِنَّهُ (– تَعَالَى ! –) إِذَا سَمِعَ كَلَامَهُ ، وَرَأَى ذَاتَهَ ، فَقَدْ كَمُلَ وُجُوْدُهُ فِي ذَاتِهِ ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْعَالَمِ . وَنَحْنُ لَا نُرِيْدُ مِنَ الْأَسْمَاءِ إِلَّا مَا يَقُوْمُ بِهَا وُجُوْدُ الْعَالَمِ . فَكَثُرَتْ عَلَيْنَا الْأَسْمَاءُ ، فَعَدَلْنَا إِلَى أَرْبَابِهَا ؛ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِمْ فِي حَضَرَاتِهِمْ ، فَمَا وَجَدْنَا غَيْرَ هٰؤُلَاءِ الَّذِيْنَ ذَكَرْنَاهُمْ ، وَأَبْرَزْنَاهُمْ عَلَى حَسَبِ مَا شَاهَدْنَاهُمْ . فَكَانَ سَبَبُ تَوَجُّهِ أَرْبَابِ الْأَسْمَاءِ إِلَى الْاِسْمِ اللهِ ، فِي إِيْجَادِ أَعْيَانِنَا ، بَقِيَّةَ الْأَسْمَاءِ .

فَأَوَّلُ مَنْ قَامَ لِطَلَبِ هٰذَا الْعَالَمِ ، اَلْاِسْمُ (الْاِلٰهِيُّ) الْمُدَبِّرُ وَ (الْاِسْمُ الْاِلٰهِيُّ) الْمُفَصِّلُ ، عَنْ سُؤَالِ الْاِسْمِ الْمَلِكِ . فَعِنْدَمَا تَوَجَّهَا (هٰذَانِ الْاِسْمَانِ) عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي عَنْهُ وُجِدَ الْمِثَالُ فِي نَفْسِ الْعَالِمِ ، مِنْ غَيْرِ عَدَمٍ مُتَقَدِّمٍ ، وَلٰكِنْ تَقَدُّمَ مَرْتَبَةٍ لَا تَقَدُّمَ وُجُوْدٍ ، كَتَقَدُّمِ طُلُوْعِ الشَّمْسِ عَلَى أَوَّلِ النَّهَارِ ، وَإِنْ كَانَ أَوَّلُ النَّهَارِ مُقَارِنًا لِطُلُوْعِ الشَّمْسِ ، وَلٰكِنْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْعِلَّةَ فِي وُجُوْدِ أَوَّلِ النَّهَارِ طُلُوْعُ الشَّمْسِ ، وَقَدْ قَارَنَهُ فِي الْوُجُوْدِ . فَهٰكَذَا هُوَ الْأَمْرُ .

فَلَمَّا دَبَّرَ الْعَالَمَ وَفَصَّلَهُ هٰذَانِ الْاِسْمَانِ (الْإِلٰهِيَّانِ) مِنْ غَيْرِ جَهْلٍ مُتَقَدِّمٍ بِهِ أَوْ عَدَمِ عِلْمٍ ؛ وَانْتَشَأَتْ صُوْرَةُ الْمِثَالِ فِي نَفْسِ الْعَالَمِ ، – تَعَلَّقَ اِسْمُهُ (– تَعَالَى ! –) الْعَالِمُ ، إِذْ ذَاكَ ، بِذٰلِكَ الْمِثَالِ ، كَمَا تَعَلَّقَ بِالصُّوْرَةِ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مَرْئِيَّةٍ لِأَنَّهَا غَيْرُ مَوْجُوْدَةٍ ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ فِي بَابِ : « مِمَّ وُجِدَ الْعَالَمُ ؟ » .

(أَوَّلُ أَسْمَاءِ الْعَالَمِ)

فَأَوَّلُ أَسْمَاءِ الْعَالَمِ ، هٰذَانِ الْاِسْمَانِ (الْاِلٰهِيَّانِ : الْمُدَبِّرُ وَالْمُفَصِّلُ) . وَالْاِسْمُ الْمُدَبِّرُ هُوَ الَّذِي حَقَّقَ وَقْتَ الْإِيْجَادِ الْمُقَدَّرِ ، فَتَعَلَّقَ بِهِ (الْاِسْمُ) الْمُرِيْدُ عَلَى حَدِّ مَا أَبْرَزَهُ الْمُدَبِّرُ وَدَبَّرَهُ . وَمَا عَمِلَا (أَيْ الْاِسْمَانِ الْمُدَبِّرُ وَالْمُفَصِّلُ) شَيْئًا مِنْ نَشْءِ هٰذَا الْمِثَالِ ، إِلَّا بِمُشَارَكَةِ بَقِيَّةِ الْأَسْمَاءِ ، لٰكِنْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ هٰذَيْنِ الْاِسْمَيْنِ . وَلِهٰذَا صَحَّتْ لَهُمَا الْإِمَامَةُ ؛ وَالْآخَرُوْنَ لَا يَشْعُرُوْنَ بِذٰلِكَ حَتَّى بَدَتْ صُوْرَةُ الْمِثَالِ ، فَرَأَوْا مَا فِيْهِ مِنَ الْحَقَائِقِ ، الْمُنَاسَبَةِ لَهُمْ ، تَجْذِبُهُمْ لِلتَّعَشُّقِ بِهَا . فَصَارَ كُلُّ اِسْمٍ يَتَعَشَّقُ بِحَقِيْقَتِهِ الَّتِي (هِيَ مَوْجُوْدَةٌ) فِي الْمِثَالِ ، وَلٰكِنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّأْثِيْرِ فِيْهَا ، إِذْ لَا تُعْطِي الْحَضْرَةُ الَّتِي تَجَلَّى فِيْهَا هٰذَا الْمِثَالُ .

فَأَدَّاهُمْ ذٰلِكَ التَّعَشُّقُ وَالْحُبُّ إِلَى الطَّلَبِ وَالسَّعْيِ وَالرَّغْبَةِ فِي إِيْجَادِ صُوْرَةِ عَيْنِ ذٰلِكَ الْمِثَالِ ، لِيَظْهَرَ سُلْطَانُهُمْ ، وَيَصِحَّ عَلَى الْحَقِيْقَةِ وُجُوْدُهُمْ . فَ (إِنَّهُ) لَا شَيْءَ أَعْظَمُ هَمًّا مِنْ عَزِيْزٍ لَا يَجِدُ عَزِيْزًا يُقَهِّرُهُ حَتَّى يَذِلَّ تَحْتَ قَهْرِهِ ، فَيَصِحَّ سُلْطَانُ عِزِّهِ ؛ أَوْ غَنِيّ لَا يَجِدُ مَنْ يَفْتَقِرُ إِلَى غِنَاهُ ! وَهٰكَذَا جَمِيْعُ هٰذِهِ الْأَسْمَاءِ . فَلَجَّأَتْ (بَقِيَّةُ الْأَسْمَاءِ) إِلَى أَرْبَابِهَا ، الْأَئِمَّةِ السَّبْعَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، تَرْغَبُ إِلَيْهَا فِي إِيْجَادِ عَيْنِ هٰذَا الْمِثَالِ الَّذِي شَاهَدُوْهُ فِي ذَاتِ الْعَالِمِ بِهِ : وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعَالَمِ .

(اَلْأَسْمَاءُ الْإِلٰهِيَّةُ مُتَّحِدَةٌ مِنْ حَيْثُ الذَّاتِ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ حَيْثُ التَّعَلُّقَاتِ)

وَرُبَّمَا يَقُوْلُ الْقَائِلُ : يَا أَيُّهَا الْمُحَقِّقُ ، وَكَيْفَ تَرَى (بَقِيَّةُ) الْأَسْمَاءِ (الْاِلٰهِيَّةِ) هٰذَا الْمِثَالَ ، وَلَا يَرَاهُ إِلَّا الْاِسْمُ « الْبَصِيْرُ » خَاصَّةً لَا غَيْرُهُ ، وَكُلُّ اِسْمٍ (هُوَ) عَلَى حَقِيْقَةٍ لَيْسَ الْاِسْمُ الْآخَرُ عَلَيْهَا ؟ قُلْنَا لَهُ : لِتَعْلَمَ – وَفَّقَكَ اللهُ ! – أَنَّ كُلَّ اِسْمٍ إِلٰهِيّ يَتَضَمَّنُ جَمِيْعَ الْأَسْمَاءِ كُلِّهَا ؛ وَأَنَّ كُلَّ اِسْمٍ يَنْعُتُ بِجَمِيْعِ الْأَسْمَاءِ فِي أُفُقِهِ . فَكُلُّ اِسْمٍ هُوَ : حَيٌّ ، قَادِرٌ ، سَمِيْعٌ ، بَصِيْرٌ ، مُتَكَلِّمٌ ، – فِي أُفُقِهِ وَفِي عِلْمِهِ . وَإِلَّا ، فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُوْنَ (كُلُّ اِسْمٍ اِلٰهِيّ) رَبًّا لِعَابِدِهِ ؟ هَيْهَاتَ ، هَيْهَاتَ !

غَيْرُ أَنَّ ثَمَّ لَطِيْفَةً لَا يُشْعَرُ بِهَا . وَذٰلِكَ أَنَّكَ تَعْلَمُ قَطْعًا فِي حُبُوْبِ الْبُرِّ وَأَمْثَالِهِ ، أَنَّ كُلَّ بُرَّةٍ فِيْهَا مِنَ الْحَقَائِقِ مَا فِي أُخْتِهَا ؛ كَمَا تَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ هٰذِهِ الْحَبَّةَ لَيْسَتْ عَيْنُ هٰذِهِ الْحَبَّةِ الْأُخْرَى ، وَإِنْ كَانَتَا تَحْوِيَانِ عَلَى حَقَائِقٍ مُتَمَاثِلَةٍ ، فَإِنَّهُمَا مِثْلَانِ . فَابْحَثْ عَنْ هٰذِهِ الْحَقِيْقَةِ الَّتِي تَجْعَلُكَ تُفَرِّقُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَبَّتَيْنِ وَتَقُوْلُ : إِنَّ هٰذِهِ لَيْسَتْ عَيْنَ هٰذِهِ . وَهٰذَا سَارٍ فِي جَمِيْعِ الْمُتَمَاثِلَاتِ ، مِنْ حَيْثُ مَا تَمَاثَلُوْا بِهِ . – كَذٰلِكَ (شَأْنُ) الْأَسْمَاءِ (الْإِلٰهِيَّةِ) : كُلُّ اِسْمٍ جَامِعٌ لِمَا جَمَعَتِ الْأَسْمَاءُ مِنَ الْحَقَائِقِ ؛ ثُمَّ تَعْلَمُ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّ هٰذَا الْاِسْمَ لَيْسَ هُوَ هٰذَا (الْاِسْمُ) الْآخَرُ ، بِتِلْكَ اللَّطِيْفَةِ الَّتِي بِهَا فَرَّقْتَ بَيْنَ حُبُوْبِ الْبُرِّ ، وَكُلِّ مُتَمَاثِلٍ . فَابْحَثْ عَنْ هٰذَا الْمَعْنَى حَتَّى تَعْرِفَهُ بِالذِّكْرِ لَا بِالْفِكْرِ .

غَيْرُ أَنِّي أُرِيْدُ أَنْ أُوْقِفَكَ عَلَى حَقِيْقَةٍ مَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِيْنَ ، وَرُبَّمَا مَا اطَّلَعَ عَلَيْهَا ، فَرُبَّمَا خَصَّصْتُ بِهَا ، وَلَا أَدْرِي هَلْ تُعْطِي لِغَيْرِي بَعْدِي أَمْ لَا ، مِنَ الْحَضْرَةِ الَّتِي أُعْطِيْتُهَا ؟ فَإِنِ اسْتَقْرَأَهَا أَوْ فَهِمَهَا مِنْ كِتَابِي فَأَنَا الْمُعَلِّمُ لَهُ ، وَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُوْنَ فَلَمْ يَجِدُوْهَا .

وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ اِسْمٍ (إِلٰهِيٍّ) ، كَمَا قَرَّرْنَا ، يَجْمَعُ حَقَائِقَ الْأَسْمَاءِ وَيَحْتَوِي عَلَيْهَا ، مَعَ وُجُوْدِ اللَّطِيْفَةِ الَّتِي وَقَعَ لَكَ التَّمْيِيْزُ بِهَا بَيْنَ الْمِثْلَيْنِ . وَذٰلِكَ أَنَّ الْاِسْمَ الْمُنْعِمَ وَالْاِسْمَ الْمُعَذِّبَ ، اللَّذَيْنِ هُمَا الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، كُلُّ اِسْمٍ مِنْ هٰذَيْنِ الْاِسْمَيْنِ يَتَضَمَّنُ مَا تَحْوِيْهِ سَدَنَتُهُ ، مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ . غَيْرَ أَنَّ أَرْبَابَ الْأَسْمَاءِ ، وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَسْمَاءِ ، عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ : مِنْهَا مَا يُلْحَقُ بِدَرَجَاتِ أَرْبَابِ الْأَسْمَاءِ ؛ وَمِنْهَا مَا يَنْفَرِدُ بِدَرَجَةٍ . فَمِنْهَا مَا يَنْفَرِدُ بِدَرَجَةِ الْمُنْعِمِ ، وَمِنْهَا مَا يَنْفَرِدُ بِدَرَجَةِ الْمُعَذِّبِ . – فَهٰذِهِ أَسْمَاءُ الْعَالَمِ مَحْصُوْرَةً . وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ !

(اِسْمُ اللهِ الْأَعْظَمِ)

فَلَمَّا لَجَأَتِ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا إِلَى هٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ ؛ وَلَجَأَتِ الْأَئِمَّةُ إِلَى الْاِسْمِ اللهِ ، – لَجَأَ الْاِسْمُ اللهُ إِلَى « الذَّاتِ » مِنْ حَيْثُ غِنَاهَا عَنِ الْأَسْمَاءِ ؛ سَائِلًا فِي إِسْعَافِ مَا

سَأَلَتْهُ الْأَسْمَاءُ فِيْهِ . فَأَنْعَمَ « الْمِحْسَانُ الْجَوَّادُ » بِذٰلِكَ وَقَالَ : قُلْ لِلْأَئِمَّةِ يَتَعَلَّقُوْنَ بِإِبْرَازِ الْعَالَمِ عَلَى حَسَبِ مَا تُعْطِيْهِ حَقَائِقُهُمْ . فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْاِسْمُ اللهُ وَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ . فَانْقَلَبُوْا مُسْرِعِيْنَ ، فَرِحِيْنَ ، مُبْتَهِجِيْنَ . وَلَمْ يَزَالُوْا كَذٰلِكَ . فَنَظَرُوْا إِلَى الْحَضْرَةِ الَّتِي أَذْكُرُهَا فِي الْبَابِ السَّادِسِ مِنْ هٰذَا الْكِتَابِ ، فَأَوْجَدُوْا الْعَالَمَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ فِيْمَا يَأْتِي مِنَ الْأَبْوَابِ ، بَعْدَ هٰذَا ، إِنْ شَاءَ اللهُ !

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾



اَلْبَابُ الْخَامِسُ :

فِي مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ
وَأَسْرَارِ الْفَاتِحَةِ مِنْ وَجْهٍ مَّا لَا مِنْ جَمِيْعِ الْوُجُوْهِ

بَسْـمَلَةُ الْأَسْـمَاءِ ذُو مَنْظَرَيْنِ ... مَـا بَيْنَ إِبْقَـاءٍ وَإِفْنَـاءِ عَيْن
إِلَّا بِمَنْ قَـالَتْ لِمَنْ حِيْنَ مَـا ... خَافَتْ عَلَى النَّمْلِ مِنَ الْحَطْمَتَيْن
فَقَـالَ مَنْ أَضحَكَـهُ قَوْلُهَـا : ... هَلْ أَثَرٌ يُطْلَبُ مِنْ بَعْدِ عَيْن ؟
يَا نَفْسِ! يَا نَفْسِ! اِسْتَقِيمِي فَقَدْ ... عَايَنْتُ مِنْ نَمْلَتِنَـا الْقَبْضَتَيْن
وَهٰكَـذَا فِي الْحَمْـدِ فَاسْتَثْنِهَا ... إِنْ شِـئْتَ أَنْ تُنْعِـمَ بِالْجَنَّتَيْن
إِحْدَاهُمَـا مِنْ عَسْجَدٍ مُشْرِقٍ ... جُمْلَتُهَـا وَأُخْتُهَـا مِنْ لُجَـيْن
يَا أُمَّ قُـرْآنِ الْعُـلَىٰ هَلْ تُـرَىٰ ... مِنْ جِهَةِ الْفُرْقَـانِ لِلْفِـرْقَتَيْن
أَنْتِ لَنَـا السَّـبْعُ الْمَثَـانِي الَّتِي ... خُصَّ بِهَـا سَـيِّدُنَـا دُوْنَ مَيْن
فَأَنْتِ مِفْتَـاحُ الْهُـدَى لِلنُّهَىٰ ... وَخُصَّ مَنْ عَادَاكِ بِالْفُرْقَتَيْن !

لَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَفْتَحَ مَعْرِفَةَ الْوُجُوْدِ وَابْتِدَاءَ الْعَالَمِ ، الَّذِي هُوَ عِنْدَنَا « الْمُصْحَفُ الْكَبِيْرُ » الَّذِي تَلَاهُ الْحَقُّ عَلَيْنَا تِلَاوَةَ حَالٍ ، كَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ تِلَاوَةَ قَوْلٍ ؛ فَالْعَالَمُ

حُرُوْفٌ مَخْطُوْطَةٌ مَرْقُوْمَةٌ فِي « رَقِّ الْوُجُوْدِ الْمَنْشُوْرِ » وَلَا تَزَالُ الْكِتَابَةُ فِيْهِ دَائِمَةً أَبَدًا لَا تَنْتَهِي ؛ – وَلَمَّا افْتَتَحَ اللّٰهُ – تَعَالَى ! – كِتَابَهُ الْعَزِيْزَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ؛ وَهٰذَا كِتَابٌ ، أَعْنِي الْعَالَمَ الَّذِي نَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ ؛ – أَرَدْنَا أَنْ نَفْتَتِحَ بِالْكَلَامِ عَلَى أَسْرَارِ الْفَاتِحَةِ .

(فَاتِحَةُ الْفَاتِحَةِ)

وَ « بِسْمِ اللّٰهِ » فَاتِحَةُ الْفَاتِحَةِ . وَهِيَ آيَةٌ أُوْلَى مِنْهَا ، أَوْ مُلَازِمَةٌ لَهَا كَالْعِلَاوَةِ ، عَلَى الْخِلَافِ الْمَعْلُوْمِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ . فَلَا بُدَّ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى الْبَسْمَلَةِ . وَرُبَّمَا يَقَعُ الْكَلَامُ عَلَى بَعْضِ آيَاتٍ مِنْ سُوْرَةِ الْبَقَرَةِ ، آيَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ خَاصَّةً ، تَبَرُّكًا بِكَلَامِ الْحَقِّ – سُبْحَانَهُ ! – ثُمَّ نَسُوْقُ الْأَبْوَابَ ، إِنْ شَاءَ اللّٰهُ – تَعَالَى ! –

فَأَقُوْلُ : إِنَّهُ لَمَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْإِلٰهِيَّةَ (هِيَ) سَبَبُ وُجُوْدِ الْعَالَمِ ، وَأَنَّهَا الْمُسَلَّطَةُ عَلَيْهِ وَالْمُؤَثِّرَةُ ، لِذٰلِكَ كَانَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عِنْدَنَا ، خَبَرَ اِبْتِدَاءٍ مُضْمَرٍ : وَهُوَ اِبْتِدَاءُ الْعَالَمِ وَظُهُوْرُهُ . كَأَنَّهُ (– تَعَالَى ! –) يَقُوْلُ : ظُهُوْرُ الْعَالَمِ (هُوَ) « بِسْمِ اللّٰه الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ » = أَيْ بِاسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ظَهَرَ الْعَالَمُ . وَاخْتَصَّ (تِ الْبَسْمَلَةُ بِـ) الثَّلَاثَةِ الْأَسْمَاءِ (الْإِلٰهِيَّةِ) لِأَنَّ الْحَقَائِقَ تُعْطِي ذٰلِكَ . فَاللّٰهُ : هُوَ الْاِسْمُ الْجَامِعُ لِلْأَسْمَاءِ كُلِّهَا . وَالرَّحْمٰنُ : صِفَةٌ عَامَّةٌ ، فَهُوَ رَحْمٰنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ بِهَا (أَيْ بِالرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ) رَحِمَ (اللّٰهُ) كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ فِي الدُّنْيَا .

وَلَمَّا كَانَتِ الرَّحْمَةُ فِي الْآخِرَةِ لَا تَخْتَصُّ إِلَّا بِقَبْضَةِ السَّعَادَةِ ، فَإِنَّهَا تَنْفَرِدُ عَنْ أُخْتِهَا ؛ وَكَانَتِ (الرَّحْمَةُ) فِي الدُّنْيَا مُمْتَزِجَةً : يُوْلَدُ (الْمَرْءُ) كَافِرًا وَيَمُوْتُ مُؤْمِنًا – أَيْ يُنْشَأُ كَافِرًا فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، وَبِالْعَكْسِ ، وَتَارَةً وَتَارَةً ؛ وَ (كَانَ) بَعْضُ الْعَالَمِ تَمَيَّزَ بِإِحْدَى الْقَبْضَتَيْنِ بِأَخْبَارٍ صَادِقٍ ، – فَجَاءَ الْاِسْمُ « الرَّحِيْمُ » مُخْتَصًّا بِالدَّارِ الْآخِرَةِ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ . وَتَمَّ الْعَالَمُ بِهٰذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَسْمَاءِ ، جُمْلَةً : فِي الْاِسْمِ « اللّٰهِ » ؛ وَتَفْصِيْلًا : فِي الْاِسْمَيْنِ « الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ » . فَتَحَقَّقْ مَا ذَكَرْنَاهُ فَإِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَدْخُلَ إِلَى مَا فِي طَيِّ الْبَسْمَلَةِ وَالْفَاتِحَةِ مِنْ بَعْضِ الْأَسْرَارِ ، كَمَا شَرَطْنَاهُ . فَلْنُبَيِّنْ ! وَنَقُوْلُ :

(رَمْزِيَةُ الْبَاءِ)

« بِسْمِ » . – بِالْبَاءِ ظَهَرَ الْوُجُوْدُ ؛ وَبِالنُّقْطَةِ تَمَيَّزَ الْعَابِدُ مِنَ الْمَعْبُوْدِ . قِيْلَ لِلشِّبْلِي – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! – : « أَنْتَ الشِّبْلِي ؟ » فَقَالَ : « أَنَا النُّقْطَةُ الَّتِي تَحْتَ الْبَاءِ ! » . وَهُوَ قَوْلُنَا : اَلنُّقْطَةُ لِلتَّمْيِيْزِ (بَيْنَ الْعَابِدِ وَالْمَعْبُوْدِ) ، وَهُوَ وُجُوْدُ الْعَبْدِ بِمَا تَقْتَضِيْهِ حَقِيْقَةُ الْعُبُوْدِيَّةُ . وَكَانَ الشَّيْخُ أَبُوْ مَدْيَنَ – رَحِمَهُ اللهُ ! – يَقُوْلُ : « مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا رَأَيْتُ الْبَاءَ عَلَيْهِ مَكْتُوْبَةً » .

فَالْبَاءُ الْمُصَاحَبَةُ لِلْمَوْجُوْدَاتِ (هِيَ) مِنْ حَضْرَةِ الْحَقِّ فِي مَقَامِ الْجَمْعِ وَالْوُجُوْدِ : أَيْ بِي قَامَ كُلُّ شَيْءٍ وَظَهَرَ ؛ وَهِيَ (أَيْضًا) مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ . – (وَ) هٰذِهِ الْبَاءُ بَدَلٌ مِنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ الَّتِي كَانَتْ فِي « الْإِسْمِ » قَبْلَ دُخُوْلِ الْبَاءِ ، وَاحْتِيْجَ إِلَيْهَا إِذْ لَا يَنْطَبِقُ بِسَاكِنٍ . فَجُلِبَتِ الْهَمْزَةُ ، الْمُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْقُدْرَةِ ، مُحَرَّكَةً – (وَهٰذَا) عِبَارَةٌ عَنِ الْوُجُوْدِ – لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى النُّطْقِ ، الَّذِي هُوَ الْإِيْجَادُ مِنْ إِبْدَاعٍ وَخَلْقٍ ، بِالسَّاكِنِ الَّذِي هُوَ الْعَدَمُ – وَهُوَ أَوَانُ وُجُوْدِ الْمُحْدَثِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ – وَهُوَ السِّيْنُ . فَدَخَلَ (الْعَدَمُ) فِي الْمِلْكِ (أَيْ فِي الْوُجُوْدِ) بِالْمِيْمِ (الَّذِي هُوَ رَمْزُ الْوُجُوْدِ فِي عَالَمِ الْحُرُوْفِ) : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ .

(اَلْفَرْقُ بَيْنَ الْبَاءِ وَالْأَلِفِ)

فَصَارَتِ الْبَاءُ بَدَلًا مِنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ ، أَعْنِي الْقُدْرَةَ الْأَزَلِيَّةَ . وَصَارَتْ حَرَكَةُ الْبَاءِ لِحَرَكَةِ الْهَمْزَةِ ، الَّذِي هُوَ الْإِيْجَادُ . وَوَقَعَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْبَاءِ وَالْأَلِفِ الْوَاصِلَةِ ؛ فَإِنَّ الْأَلِفَ تُعْطِي الذَّاتَ ، وَالْبَاءَ تُعْطِي الصِّفَةَ ؛ وَلِذٰلِكَ كَانَتِ (الْبَاءُ) لِعَيْنِ الْإِيْجَادِ أَحَقَّ مِنَ الْأَلِفِ بِالنُّقْطَةِ الَّتِي تَحْتَهَا ، وَهِيَ الْمَوْجُوْدَاتُ . فَصَارَ فِي الْبَاءِ الْأَنْوَاعَ الثَّلَاثَةَ : شَكْلُ الْبَاءِ ، وَالنُّقْطَةُ ، وَالْحَرَكَةُ (= وَالْحَرَكَاتُ) الْعَوَالِمُ الثَّلَاثَةُ . – فَكَمَا فِي الْعَالَمِ الْوَسَطِ تَوَهُّمٌ مَّا ، كَذٰلِكَ فِي نُقْطَةِ الْبَاءِ . فَالْبَاءُ ، مَلَكُوْتِيَّةٌ ؛ وَالنُّقْطَةُ جَبَرُوْتِيَّةٌ ؛ وَالْحَرَكَةُ شَهَادِيَّةٌ مُلْكِيَّةٌ .

وَالْأَلِفُ الْمَحْذُوْفَةُ ، الَّتِي هِيَ (أَيْ الْبَاءُ) بَدَلٌ مِنْهَا ، هِيَ حَقِيْقَةُ الْقَائِمِ بِالْكُلِّ – تَعَالَى ! – . وَاحْتَجَبَ (الْقَائِمُ بِالْكُلِّ) رَحْمَةً مِنْهُ بِالنُّقْطَةِ الَّتِي تَحْتَ الْبَاءِ . – وَعَلَى هٰذَا الْحَدِّ (مِنَ التَّأْوِيْلِ الرَّمْزِيِّ الْعِرْفَانِيِّ) نَأْخُذُ كُلَّ مَسْأَلَةٍ فِي هٰذَا الْبَابِ . مُسْتَوْفَاةً بِطَرِيْقِ الْإِيْجَازِ . فَـ « بِسْمِ » وَ ﴿ الٓمٓ ﴾ : وَاحِدٌ .

(رَمْزِيَةُ الْأَلِفِ)

ثُمَّ وَجَدْنَا الْأَلِفَ مِنْ « بِسْمِ » قَدْ ظَهَرَتْ فِي ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وَ ﴿ بِاسْمِ اللهِ مَجْرٰهَا ﴾ (ظَهَرَتِ الْأَلِفُ) بَيْنَ الْبَاءِ وَالسِّيْنِ ، وَلَمْ تَظْهَرْ بَيْنَ السِّيْنِ وَالْمِيْمِ . فَلَوْ لَمْ تَظْهَرِ (الْأَلِفُ) فِي « بِاسْمِ » السَّفِيْنَةِ ، مَا جَرَتِ السَّفِيْنَةُ ؛ وَلَوْ لَمْ تَظْهَرِ (الْأَلِفُ) فِي ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ، مَا عَلِمَ الْمِثْلُ حَقِيْقَتَهُ ، وَلَا رَأَى سُوْرَتَهُ ، فَتَيَقَّظَ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ ، وَانْتَبَهَ . فَلَمَّا كَثُرَ اسْتِعْمَالُهَا (أَيْ الْأَلِفُ) فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، حُذِفَتْ لِوُجُوْدِ الْمِثْلِ الَّذِي قَامَ مُقَامَهُ فِي الْخِطَابِ ، وَهُوَ الْبَاءُ . فَصَارَ الْمِثْلُ (أَيْ الْبَاءُ) مِرْآةً لِلسِّيْنِ ؛ فَصَارَ السِّيْنُ مِثَالًا . وَعَلَى هٰذَا التَّرْتِيبِ ، نِظَامُ التَّرْكِيبِ .

وَإِنَّمَا لَمْ تَظْهَرِ (الْأَلِفُ) بَيْنَ السِّيْنِ وَالْمِيْمِ ، وَهُوَ (= وَهُمَا) مَحَلُّ التَّغْيِيْرِ وَصِفَاتُ الْأَفْعَالِ ، (لِـ) أَنَّ (هُ) لَوْ ظَهَرَتِ (الْأَلِفُ) لَزَالَ السِّيْنُ وَالْمِيْمُ ، إِذْ (هُمَا) لَيْسَا بِصِفَةٍ لَازِمَةٍ لِلْقَدِيْمِ ، مِثْلُ الْبَاءِ ؛ فَكَانَ خَفَاؤُهُ (أَيْ الْأَلِفِ) عَنْهُمْ (= عَنْهُمَا) رَحْمَةً بِهِمْ (= بِهِمَا) إِذْ كَانَ سَبَبَ بَقَاءِ وُجُوْدِهِمْ (= وُجُوْدِهِمَا) . ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا** ﴾ = وَهُوَ (أَيْ الْأَلِفُ) الرَّسُوْلُ . – فَهٰذِهِ الْبَاءُ وَالسِّيْنُ وَالْمِيْمُ (هُمُ) الْعَالَمُ كُلُّهُ .

(عَمَلُ الْبَاءِ فِي الْمِيْمِ)

ثُمَّ عَمِلَ الْبَاءُ فِي الْمِيْمِ الْخَفْضَ ، مِنْ طَرِيْقِ الشَّبَهِ بِالْحُدُوْثِ ، إِذِ الْمِيْمُ (هِيَ) مَقَامُ (عَالَمِ) الْمُلْكِ ، وَهُوَ الْعُبُوْدِيَّةُ . وَخَفَضَتْهَا الْبَاءُ ، (أَيْ) عَرَّفَتْهَا بِنَفْسِهَا وَأَوْقَفَتْهَا

عَلَى حَقِيْقَتِهَا . فَمَهْمَا وُجِدَتِ الْبَاءُ وُجِدَتِ الْمِيْمُ فِي مَقَامِ الْإِسْلَامِ . فَإِنْ زَالَتِ الْبَاءُ يَوْمًا مَّا ، لِسَبَبٍ طَارِئٍ ، وَهُوَ تَرَقِّي الْمِيْمِ إِلَى مَقَامِ الْاِيْمَانِ ، فَتَحَ فِي عَالَمِ الْجَبَرُوْتِ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وَأَشْبَاهِهِ . فَأُمِرَ بِتَنْزِيْهِ الْمَحَلِّ لِتَجَلِّي الْمِثْلِ ، فَقِيْلَ لَهُ : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ = الَّذِي هُوَ مُغَذِّيْكَ بِالْمَوَادِّ الْإِلٰهِيَّةِ : فَهُوَ رَبُّكَ . فَفَتَحَ الْمِيْمَ . وَجَاءَتِ الْأَلِفُ ظَاهِرَةً ، وَزَالَتِ الْبَاءُ ، لِأَنَّ الْأَمْرَ تَوَجَّهَ عَلَيْهَا (أَيْ عَلَى الْمِيْمِ) بِالتَّسْبِيْحِ ، وَلَا طَاقَةَ لَهَا عَلَى ذٰلِكَ ، وَالْبَاءُ مُحْدَثَةٌ مِثْلُهَا (أَيْ مِثْلُ الْمِيْمِ) ، وَالْمُحْدَثُ – مِنْ بَابِ الْحَقَائِقِ – لَا فِعْلَ لَهُ ؛ وَلَا بُدَّ لَهَا (أَيْ لِلْمِيْمِ) مِنِ امْتِثَالِ الْأَمْرِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ ظُهُوْرِ الْأَلِفِ الَّذِي هُوَ الْفَاعِلُ الْقَدِيْمُ .

(ظُهُوْرُ الْأَلِفِ)

فَلَمَّا ظَهَرَ (الْأَلِفُ فِي ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فَعَلَتِ الْقُدْرَةُ فِي الْمِيْمِ التَّسْبِيْحَ ، فَسَبَّحَ كَمَا أُمِرَ . وَقِيْلَ لَهُ (أَيْ لِلْمِيْمِ) : « الْأَعْلَى » لِأَنَّهُ مَعَ الْبَاءِ فِي الْأَسْفَلِ . وَ (هُوَ ، أَيْ الْمِيْمُ) فِي هٰذَا الْمَقَامِ (مُتَحَقِّقٌ) فِي الْوَسَطِ . وَلَا يُسَبِّحُ الْمُسَبِّحُ مِثْلَهُ ، وَلَا مَنْ هُوَ دُوْنَهُ : فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ الْمُسَبَّحُ « أَعْلَى » . – وَلَوْ كُنَّا فِي تَفْسِيْرِ سُوْرَةِ « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » لَأَظْهَرْنَا أَسْرَارَهَا . –

فَلَا يَزَالُ (الْمِيْمُ) فِي هٰذَا الْمَقَامِ حَتَّى يَتَنَزَّهَ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنَّ مَنْ يُنَزِّهُهُ مُنَزَّهٌ : فَإِنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ تَنْزِيْهِهِ ! فَلَا بُدَّ مِنْ (أَنَّ) هٰذَا التَّنْزِيْهَ يَعُوْدُ عَلَى الْمُنَزِّهِ (الَّذِي هُوَ الْمُسَبِّحُ) ، وَيَكُوْنُ هُوَ « الْأَعْلَى » ، فَإِنَّ الْحَقَّ (– تَعَالَى ! –) ، مِنْ بَابِ الْحَقِيْقَةِ ، لَا يَصِحُّ عَلَيْهِ (إِطْلَاقُ لَقَبِ) « الْأَعْلَى » ، فَإِنَّهُ (أَيْ الْأَعْلَى) مِنْ أَسْمَاءِ الْإِضَافَةِ ، وَضَرْبٌ مِنْ وُجُوْهِ الْمُنَاسَبَةِ ؛ فَلَيْسَ (الْحَقُّ) بِأَعْلَى وَلَا أَسْفَل وَلَا أَوْسَط – تَنَزَّهَ عَنْ ذٰلِكَ وَتَعَالَى عُلُوًّا كَبِيْرًا ! – . بَلْ نِسْبَةُ الْأَعْلَى وَالْأَوْسَط وَالْأَسْفَل إِلَيْهِ ، نِسْبَةٌ وَاحِدَةٌ .

فَإِذَا تَنَزَّهَ (الْمِيْمُ) ، خَرَجَ عَنْ حَدِّ الْأَمْرِ ، وَخَرَقَ حِجَابَ السَّمْعِ ، وَحَصَّلَ الْمَقَامَ « الْأَعْلَى » . فَارْتَفَعَ الْمِيْمُ بِمُشَاهَدَةِ الْقَدِيْمِ ، فَحَصَلَ مِنْهُ الثَّنَاءَ التَّامَّ بِـ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ

ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ .

فَكَمَا أَنَّ الْإِسْمَ عَيْنَ الْمُسَمَّى ، كَذٰلِكَ الْعَبْدُ عَيْنُ الْمَوْلَى . « مَنْ تَوَاضَعَ لِلّٰهِ رَفَعَهُ اللّٰهُ » . وَفِي الصَّحِيْحِ مِنَ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْحَقَّ « يَدُ الْعَبْدِ وَرِجْلُهُ وَلِسَانُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ » . — (وَفِي الْحَقِيْقَةِ) لَوْ لَمْ يَقْبَلِ (الْمِيْمُ) الْخَفْضَ مِنَ الْبَاءِ فِي « بِاسْمِ » ، مَا حَصَلَ لَهُ الرَّفْعُ فِي النِّهَايَةِ فِي « تَبَارَكَ اسْمُ » .

(اَلتَّثْلِيْثُ فِي الْبَسْمَلَةِ)

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْ « بِسْمِ » مُثَلَّثٌ ، عَلَى طَبَقَاتِ الْعَوَالِمِ . فَاسْمُ الْبَاءِ : بَاءٌ وَأَلِفٌ وَهَمْزَةٌ . وَاسْمُ السِّيْنِ : سِيْنٌ وَيَاءٌ وَنُوْنٌ . وَاسْمُ الْمِيْمِ : مِيْمٌ وَيَاءٌ وَمِيْمٌ . — وَالْيَاءُ مِثْلُ الْبَاءِ ، وَهِيَ حَقِيْقَةُ الْعَبْدِ فِي بَابِ النِّدَاءِ (= الْبُعْدُ) . فَمَا أَشْرَفَ هٰذَا الْمَوْجُوْدُ (= عَالَمُ الْحُرُوْفِ) ، كَيْفَ انْحَصَرَ فِي عَابِدٍ (اَلْيَاءُ = حَقِيْقَةُ الْعَبْدِ فِي بَابِ النِّدَاءِ) وَمَعْبُوْدُ (الْبَاءِ) ! فَهٰذَا شَرَفٌ مُطْلَقٌ لَا يُقَابِلُهُ ضِدٌّ ، لِأَنَّ مَا سِوَى وُجُوْدِ الْحَقِّ — تَعَالَى ! — وَوُجُوْدِ الْعَبْدِ ، عَدَمٌ مَحْضٌ لَا عَيْنَ لَهُ .

(رَمْزِيَةُ السِّيْنِ)

ثُمَّ إِنَّهُ سَكَنَ السِّيْنُ مِنْ « بِسْمِ » تَحْتَ ذِلِّ الْإِفْتِقَارِ وَالْفَاقَةِ ، كَسُكُوْنِنَا تَحْتَ طَاعَةِ الرَّسُوْلِ لَمَّا قَالَ (— تعالى ! —) : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ . فَسَكَنَتِ السِّيْنُ مِنْ « بِسْمِ » لِتَتَلَقَّى مِنَ الْبَاءِ الْحَقَّ الْيَقِيْنَ . فَلَوْ تَحَرَّكَتِ (السِّيْنُ) قَبْلَ أَنْ تَسْكُنَ لَاسْتَبَدَّتْ بِنَفْسِهَا ، وَخِيْفَ عَلَيْهَا مِنَ الدَّعْوَىٰ — وَهِيَ سِيْنٌ مُقَدَّسَةٌ ! — : فَسَكَنَتْ . فَلَمَّا تَلَقَّتْ مِنَ الْبَاءِ الْحَقِيْقَةَ الْمَطْلُوْبَةَ أُعْطِيَتِ الْحَرَكَةُ ، فَلَمْ تَتَحَرَّكْ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ إِلَّا بَعْدَ ذَهَابِ الْبَاءِ : إِذْ كَانَ كَلَامُ التِّلْمِيْذِ بِحُضُوْرِ الشَّيْخِ ، فِي أَمْرٍ مَّا ، سُوْءَ أَدَبٍ ؛ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَهُ (الشَّيْخُ) ، فَامْتِثَالُ الْأَمْرِ هُوَ الْأَدَبُ .

فَقَالَ (السِّيْنُ) عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْبَاءِ ، يُخَاطِبُ أَهْلَ الدَّعْوَى ، تَائِهًا بِمَا حَصَلَ لَهُ فِي « الْمَقَامِ الْأَعْلَى » : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ . ثُمَّ تَحَرَّكَ ، لِمَنْ أَطَاعَهُ ، بِالرَّحْمَةِ وَاللِّيْنِ فَقَالَ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ = يُرِيْدُ حَضْرَةَ الْبَاءِ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ حَضْرَةُ الرَّسُوْلِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – وَكَثِيْبَ الرُّؤْيَةِ حَضْرَةُ الْحَقِّ . – فَاصْدُقْ وَسَلِّمْ ، تَكْشِفْ وَتَلْحَقْ !

فَهٰذِهِ الْحَضْرَةُ (= حَضْرَةُ الْبَاءِ) هِيَ الَّتِي تُنْقِلُهُ إِلَى « الْأَلِفِ الْمُرَادَةِ » . فَكَمَا أَنَّهُ يُنْقِلُكَ الرَّسُوْلُ إِلَى اللهِ ، كَذٰلِكَ تُنْقِلُكَ حَضْرَتُهُ – الَّتِي هِيَ الْجَنَّةُ – إِلَى الْكَثِيْبِ الَّذِي هُوَ حَضْرَةُ الْحَقِّ !

(اَلتَّنْوِيْنُ الْعَبْدِيُّ الْمَحْذُوْفُ فِي الْبَسْمَلَةِ)

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ التَّنْوِيْنَ فِي « بِسْمٍ » لِتَحْقِيْقِ الْعُبُوْدَةِ وَإِشَارَاتِ التَّبْعِيْضِ . فَلَمَّا ظَهَرَ مِنْهُ (= مِنَ « الْإِسْمِ ») التَّنْوِيْنُ ، اِصْطَفَاهُ « الْحَقُّ الْمُبِيْنُ » بِإِضَافَةِ التَّشْرِيْفِ وَالتَّمْكِيْنِ ، فَقَالَ : « بِسْمِ اللهِ » ! فَحَذَفَ التَّنْوِيْنَ الْعَبْدِيَّ ، لِإِضَافَتِهِ إِلَى الْمَنْزِلِ الْإِلٰهِيِّ . وَلَمَّا كَانَ تَنْوِيْنَ تَخَلُّقٍ ، لِهٰذَا صَحَّ لَهُ هٰذَا التَّحَقُّقُ ؛ وَإِلَّا فَالسُّكُوْنُ أَوْلَى بِهِ . فَاعْلَمْ !

اِنْتَهَى الْجُزْءُ التَّاسِعُ

الجزء العاشر من الفتح المكي



(تَابِعُ الْبَابِ الْخَامِسِ)

وصل :

(تَتِمَّةُ الْكَلَامِ عَلَى الْبَسْمَلَةِ مِنْ طَرِيْقِ الْأَسْرَارِ)

قَوْلُهُ (– تَعَالَى ! –) : « اللّٰهِ » مِنْ « بِسْمِ اللّٰهِ » !

يَنْبَغِي لَكَ ، أَيُّهَا الْمُسْتَرْشِدُ ، أَنْ تَعْرِفَ أَوَّلًا مَا تَحَصَّلَ فِي هٰذِهِ الْكَلِمَةِ الْكَرِيْمَةِ مِنَ الْحُرُوْفِ ، وَحِيْنَئِذٍ يَقَعُ الْكَلَامُ عَلَيْهَا ، إِنْ شَاءَ اللّٰهُ ! وَحُرُوْفُهَا : أ ل ل ا ه و . فَأَوَّلُ مَا أَقُوْلُ كَلَامًا مُجْمَلًا مَرْمُوْزًا ، ثُمَّ نَأْخُذُ فِي تَبْيِيْنِهِ لِيَسْهُلَ قُبُوْلُهُ عَلَى عَالَمِ التَّرْكِيْبِ .

(تَعَلُّقُ الْعَبْدِ بِأَلِفِ اللّٰهِ : أَوْ مَقَامُ الْأُمَنَاءِ الْوَرَثَةِ الصِّدِّيْقِيْنَ)

وَذٰلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ تَعَلَّقَ بِالْأَلِفِ تَعَلُّقَ مَنِ اضْطُرَّ وَالْتَجَى ، فَأَظْهَرَتْهُ اللَّامُ الْأُوْلَى ظُهُوْرًا ، وَرَّثَهُ الْفَوْزَ مِنَ الْعَدَمِ وَالنَّجَا . فَلَمَّا صَحَّ ظُهُوْرُهُ ، وَانْتَشَرَ فِي الْوُجُوْدِ نُوْرُهُ ، وَصَحَّ تَعَلُّقُهُ بِالْمُسَمَّى ، وَبَطَلَ تَخَلُّقُهُ بِالْأَسْمَاءِ – أَفْنَتْهُ اللَّامُ الثَّانِيَةُ بِشُهُوْدِ الْأَلِفِ الَّتِي بَعْدَهَا ، فَنَاءًا لَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةً ؛ وَذٰلِكَ عَسَى أَنْ يَنْكَشِفَ لَهُ الْمُعَمَّى . ثُمَّ جَاءَتِ الْوَاوُ ،

الَّتِي بَعْدَ الْهَاءِ ، لِتَمَكُّنِ الْمُرَادِ . وَبَقِيَتِ الْهَاءُ لِوُجُوْدِهِ آخِرًا ، عِنْدَ مَحْوِ الْعِبَادِ ، مِنْ أَجْلِ الْعِنَادِ : فَذٰلِكَ أَوَانُ الْأَجَلِ الْمُسَمَّىٰ .

وَهٰذَا هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي تَضْمَحَلُّ فِيْهِ أَحْوَالُ السَّائِرِيْنَ ، وَتَنْعَدِمُ فِيْهِ مَقَامَاتُ السَّالِكِيْنَ ، حَتَّى « يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ ، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ » . لَا غَيْرَ يَثْبُتُ لِظُهُوْرِهِ ، وَلَا ظَلَامَ يَبْقَى لِنُوْرِهِ . « فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ » . اَعْرِفْ حَقِيْقَةَ « إِنْ لَمْ تَكُنْ » تَكُنْ أَنْتَ « كُنْ ! » إِذْ كَانَتِ التَّاءُ مِنَ الْحُرُوْفِ الزَّوَائِدِ فِي الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ لِلذَّوَاتِ ، وَهِيَ الْعُبُوْدِيَّةُ .

يَقُوْلُ بَعْضُ السَّادَةِ ، وَقَدْ سَمِعَ عَاطِسًا يَقُوْلُ : « الْحَمْدُ لِلّٰهِ ! » – فَقَالَ لَهُ ذٰلِكَ السَّيِّدُ : « أَتِمْهَا كَمَا قَالَ اللهُ « رَبِّ الْعَالَمِيْنَ » » . فَقَالَ الْعَاطِسُ : « يَا سَيِّدِنَا ! وَمَنِ الْعَالَمُ حَتَّى يُذْكَرَ مَعَ اللهِ ؟ » . فَقَالَ لَهُ : « اَلْآنَ قُلْهُ ، يَا أَخِي ! فَإِنَّ الْمُحْدَثَ إِذَا قُرِنَ بِالْقَدِيْمِ لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ » – . وَهٰذَا هُوَ مَقَامُ الْوُصْلَةِ ، وَحَالُ وَلَهِ أَهْلِ الْفَنَاءِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ . وَأَمَّا لَوْ فَنِيَ (صَاحِبُ الْحَالِ) عَنْ فَنَائِهِ ، لَمَا قَالَ : « الْحَمْدُ لِلّٰهِ ! » لِأَنَّ فِي قَوْلِهِ : « الْحَمْدُ » ، أَثْبَتَ الْعَبْدَ ، الَّذِي هُوَ الْمُعَبِّرُ عَنْهُ بِالرِّدَاءِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ ، وَبِالثَّوْبِ عِنْدَ آخَرِيْنَ . وَلَوْ قَالَ (صَاحِبُ الْحَالِ) : « رَبِّ الْعَالَمِيْنَ » ، لَكَانَ أَرْفَعَ مِنَ الْمَقَامِ الَّذِي كَانَ فِيْهِ .

فَذٰلِكَ مَقَامُ الْوَارِثِيْنَ ، وَلَا مَقَامَ أَعْلَى مِنْهُ ، لِأَنَّهُ شُهُوْدٌ لَا يَتَحَرَّكُ مَعَهُ لِسَانٌ ، وَلَا يَضْطَرِبُ مَعَهُ جَنَانٌ . أَهْلُ هٰذَا الْمَقَامِ (فَانُوْنَ) فِي أَحْوَالِهِمْ ، فَاغِرَةٌ أَفْوَاهُهُمْ . اِسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ أَنْوَارُ الذَّاتِ ، وَبَدَتْ عَلَيْهِمْ رُسُوْمُ الصِّفَاتِ . هُمْ عَرَائِسُ اللهِ الْمَخْبُوْؤُنَّ عِنْدَهُ ، الْمَحْجُوْبُوْنَ لَدَيْهِ . لَا يَعْرِفُهُمْ سِوَاهُ ، كَمَا لَا يَعْرِفُوْنَ سِوَاهُ . تَوَّجَهُمْ بِتَاجِ الْبَهَاءِ وَإِكْلِيْلِ السَّنَاءِ . وَأَقْعَدَهُمْ عَلَى مَنَابِرِ الْفَنَاءِ عَنِ الْقُرْبِ ، فِي بِسَاطِ الْأُنْسِ ، وَمُنَاجَاةِ الدَّيْمُوْمِيَّةِ بِلِسَانِ الْقَيُّوْمِيَّةِ . أَوْرَثَهُمْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ (– تَعَالَى ! –) : ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ وَ ﴿بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُوْنَ﴾ .

فَلَمْ تَزَلِ الْقُوَّةُ الْإِلٰهِيَّةُ تَمُدُّهُمْ بِالْمُشَاهَدَةِ ، فَيَبْرُزُوْنَ بِالصِّفَاتِ فِي مَوْضِعِ الْقَدَمَيْنِ : فَلَا وَلَهَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الْاِقْتِدَاءِ ، وَلَا ذَكَرَ إِلَّا إِقَامَةَ سُنَّةٍ أَوْ فَرْضٍ . لَا يَحِيْدُوْنَ عَنْ سَوَاءِ

السَّبِيْلِ . فَهِمَ بِالْحَقِّ . وَإِنْ خَاطَبُوْا الْخَلْقَ أَوْ عَاشَرُوْهُمْ ، فَلَيْسُوْا مَعَهُمْ . وَإِنْ رَأَوْهُم لَمْ يَرَوْهُمْ : إِذْ لَا يَرَوْنَ مِنْهُمْ إِلَّا كَوْنَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ أَفْعَالِ اللهِ .

فَهُمْ يُشَاهِدُوْنَ الصَّنْعَةَ وَالصَّانِعَ : مَقَامًا عُمَرِيًّا ! كَمَا يَقْعُدُ أَحَدُكُمْ مَعَ نَجَّارٍ يَصْنَعُ تَابُوْتًا ، فَيَشْهَدُ الصَّنْعَةَ وَالصَّانِعَ ، وَلَا تَحْجُبُهُ الصَّنْعَةُ عَنِ الصَّانِعِ ، إِلَّا إِنْ شَغَلَ قَلْبَهُ حُسْنُ الصَّنْعَةِ ، فَـ﴿ **إِنَّ الدُّنْيَا** ﴾ كَمَا قَالَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – ﴿ **حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ** ﴾ . وَهِيَ (أَيْ الدُّنْيَا) مِنْ « خَضْرَاءِ الدِّمَنِ » : جَارِيَةٌ حُسَنَاءٍ فِي مَنْبِتِ سَوْءٍ ؛ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا وَأَحَبَّهَا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِ أُخْرَاهُ . وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَـدُوٍّ فِي ثِيَـابِ صَـدِيْقِ

فَهٰذِهِ الطَّائِفَةُ (هُمُ) الْأُمَنَاءُ الصِّدِّيْقُوْنَ ، إِذْ أَيَّدَهُمُ اللهُ بِالْقُوَّةِ الْإِلٰهِيَّةِ وَأَمَدَّهُمْ . فَهُمْ مَعَهُ ، بِهٰذِهِ النِّسْبَةِ ، عَلَى وَجْهِ الْمِثَالِ . وَهٰذَا أَعْلَى مَقَامٍ يُرَقَّىٰ فِيْهِ . وَأَشْرَفُ غَايَةٍ يُنْتَهَىٰ إِلَيْهَا (هِيَ) هٰذِهِ الْغَايَةُ الْقُصْوَى ، إِذْ لَا غَايَةَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ التَّوْحِيْدُ ، لَا مِنْ حَيْثُ الْمَوَارِدُ وَالْوَارِدَاتُ . وَهُوَ الْمُسْتَوَىٰ ، إِذْ لَا اسْتِوَاءَ إِلَّا (حَيْثُ) الرَّفِيْقُ الْأَعْلَى . فَهَنِيْئًا لِهٰذِهِ الْعِصَابَةِ بِمَا نَالُوْهُ مِنْ حَقَائِقِ الْمُشَاهَدَةِ وَهَنِيْئًا لَنَا ، عَلَى التَّصْدِيْقِ وَالتَّسْلِيْمِ لَهُمْ ، بِالْمُوَافَقَةِ وَالْمُسَاعَدَةِ ! مَرَّ بِنَا جَوَادُ اللِّسَانِ فِي حَلْبَةِ الْكَلَامِ . فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا كُنَّا بِسَبِيْلِهِ . – وَالسَّلَامُ !

(عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ : اَلْبَسْمَلَةُ مِنْ طَرِيْقِ الْأَسْرَارِ)

فَأَقُوْلُ : هَمْزَةُ هٰذَا الْاِسْمِ (أَيْ اسْمِ الْجَلَالَةِ) ، الْمَحْذُوْفَةُ بِالْإِضَافَةِ ، (هِيَ) تَحْقِيْقُ اِتِّصَالِ الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَتَمْحِيْقُ اِنْفِصَالِ الْغَيْرِيَّةِ . فَالْأَلِفُ وَاللَّامُ الْمُلْصَقَةُ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، لِتَحْقِيْقِ الْمُتَّصِلِ وَتَمْحِيْقِ الْمُنْفَصِلِ .

وَالْأَلِفُ الْمَوْجُوْدَةُ فِي اللَّامِ الثَّانِيَةِ ، لِمَحْوِ آثَارِ الْغَيْرِ الْمُتَحَصِّلِ . وَالْوَاوُ ، الَّتِي بَعْدَ الْهَاءِ ، لَيْسَ لَهَا فِي الْخَطِّ أَثَرٌ ، وَ (مَعَ ذٰلِكَ) مَعْنَاهَا فِي الْوُجُوْدِ ، بِهَاءِ الْهُوِيَّةِ ، قَدِ انْتَشَرَ . أَبْدَاهَا (الْحَقُّ) فِي عَالَمِ الْمُلْكِ بِذَاتِهَا فَقَالَ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

فَبَدَأَ (الْحَقُّ فِي عَالَمِ الْمُلْكِ) بِالْهُوِيَّةِ وَخَتَمَ ، وَمَلَّكَهَا الْأَمْرَ فِي الْوُجُوْدِ وَالْعَدَمِ ، وَجَعَلَهَا دَالَّةً عَلَى الْحُدُوْثِ وَالْقِدَمِ . وَهُوَ (أَيْ ضَمِيْرُ الْهُوِيَّةِ : هُوَ) آخِرُ ذِكْرِ الذَّاكِرِيْنَ وَأَعْلَاهُ . فَرَجَعَ الْأَمْرُ عَلَى الصَّدْرِ . فَلَاحَتْ لَيْلَةُ الْقَدَرِ . وَوَقَفَ بِوُجُوْدِهَا أَهْلُ الْعِنَايَةِ وَالتَّأْيِيْدِ عَلَى حَقَائِقِ التَّوْحِيْدِ . فَالْوُجُوْدُ ، فِي نُقْطَةِ دَائِرَةِ هٰذَا الْاِسْمِ (= اللهِ) ، سَاكِنٌ . وَقَدِ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ بِحَقِيْقَتِهِ اِشْتِمَالَ الْأَمَاكِنِ عَلَى الْمُتَمَكِّنِ السَّاكِنِ . — ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ .

وَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقَـلَّ لِنُـوْرِهِ مَثَلًا مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنِّبْـرَاسِ

فَقَالَ — تَعَالَى ! — : ﴿ وَاللهُ (أَلَا إِنَّهُ) بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيْطٌ ﴾ ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ ، وَصَيَّرَ الْكُلَّ اِسْمًا وَمُسَمًّى ، وَأَرْسَلَهُ مَكْشُوْفًا وَمُعَمًّى !

حَلُّ الْمُقْفَلِ وَتَفْصِيلُ الْمُجْمَلِ
(اَللهُ : مِنْ طَرِيْقِ الْأَسْرَارِ)

يَقُوْلُ الْعَبْدُ : « اَللهُ ! » فَيُثْبِتُ (بِالْأَلِفِ وَالْهَاءِ) « أَوَّلًا وَآخِرًا » ، وَيُنْفِي بِاللَّامَيْنِ « بَاطِنًا وَظَاهِرًا » . لَزِمَتِ اللَّامُ الثَّانِيَةُ الْهَاءَ بِوَسَاطَةِ الْأَلِفِ الْعِلْمِيَّةِ : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ — اَلثَّلَاثَةُ (هِيَ) اللَّامُ ؛ — ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ = فَالْأَلِفُ (هُوَ) سَادِسٌ فِي حَقِّ الْهَاءِ ، رَابِعٌ فِي حَقِّ اللَّامِ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ = اَلْعَرْشُ ظِلُّ اللهِ . اَلْعَرْشُ (هُوَ) اللَّامُ الثَّانِيَةُ وَمَا حَوَاهُ اللَّامُ الْأُوْلَى بِطَرِيْقِ الْمِلْكِ . وَاللَّامَانِ هُمَا « الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ » مِنْ بَابِ الْأَسْمَاءِ ؛ ظَهَرَتَا بَيْنَ أَلِفِ « الْأَوَّلِ » وَأَلِفِ « الْآخِرِ » ، وَهُوَ مَقَامُ الْاِتِّصَالِ : لِأَنَّ النِّهَايَةَ تَنْعَطِفُ عَلَى الْبِدَايَةِ ، وَتَتَّصِلُ بِهَا اِتِّصَالَ اتِّحَادٍ .

ثُمَّ خَرَجَتِ الْهَاءُ بِوَاوِهَا الْبَاطِنَةِ ، مَخْرَجَ الْاِنْفِصَالِ . – وَالْجُزْءُ الْمُتَّصِلُ بَيْنَ اللَّامِ وَالْهَاءِ ، هُوَ السِّرُّ الَّذِي بِهِ تَقَعُ الْمُشَاهَدَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالسَّيِّدِ . وَذٰلِكَ (هُوَ) مَرْكَزُ الْأَلِفِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَهُوَ مَقَامُ الْاِضْمِحْلَالِ .

ثُمَّ جَعَلَ – تَعَالَى ! – فِي الْخَطِّ الْمُتَّصِلِ ، جُزْءًا بَيْنَ اللَّامَيْنِ : لِلْاِتِّصَالِ بَيْنَ اللَّامِ الْأُوْلَى الَّتِي هِيَ عَالَمُ الْمُلْكِ ، وَبَيْنَ اللَّامِ الثَّانِيَةِ الَّتِي هِيَ عَالَمُ الْمَلَكُوْتِ . وَ (هٰذَا) هُوَ مَرْكَزُ الْعَالَمِ الْأَوْسَطِ ، عَالَمِ الْجَبَرُوْتِ ، مَقَامِ النَّفْسِ . وَلَا بُدَّ مِنْ خُطُوْطٍ فَارِغَةٍ بَيْنَ كُلِّ حَرْفَيْنِ . فَتِلْكَ مَقَامَاتُ فَنَاءِ رُسُوْمِ السَّالِكِيْنَ مِنْ حَضْرَةٍ إِلَى حَضْرَةٍ .

تتميم :

اَلْأَلِفُ الْأُوْلَى (فِي اِسْمِ الْجَلَالَةِ) ، الَّتِي هِيَ أَلِفُ الْهَمْزَةِ ، مُنْقَطِعَةٌ . وَاللَّامُ الثَّانِيَةُ ، أَلِفُهَا مُتَّصِلٌ بِهَا . قُطِعَتِ الْأَلِفُ فِي أَوَائِلِ الْخُطُوْطِ لِقَوْلِهِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ **كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ** ﴾ ، فَلِهٰذَا قُطِعَتْ . وَتَنَزَّهَ مِنَ الْحُرُوْفِ مِنْ أَشْبَهِهَا فِي عَدَمِ الْاِتِّصَالِ بِمَا بَعْدَهَا .

وَالْحُرُوْفُ الَّتِي أَشْبَهَتْهَا عَلَى عَدَدِ الْحَقَائِقِ الْعَامَّةِ الْعَالِيَةِ ، الَّتِي هِيَ الْأُمَّهَاتُ . وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ الْأَلِفِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ الْحُرُوْفِ) إِذَا كَانَتْ آخِرَ الْحُرُوْفِ ، (فَإِنَّهَا) تَقْطَعُ الْاِتِّصَالَ مِنَ الْبَعْدِيَّةِ الرَّقْمِيَّةِ . فَكَانَ اِنْقِطَاعُ الْأَلِفِ تَنْبِيْهًا لِمَا ذَكَرْنَاهُ . وَكَذٰلِكَ إِخْوَتُهُ . فَالْأَلِفُ لِلْحَقِّ ، وَأَشْبَاهُ الْأَلِفِ لِلْخَلْقِ – وَذٰلِكَ : « د ذ ر ز و » – فِي جَمِيْعِ

الْحَقَائِقِ . د : (رَمْزٌ لِ) جِسْمٍ ؛ — ذ : (رَمْزٌ لِ) مُتَغَذٍّ ؛ — ر : (رَمْزٌ لِ) حَسَّاسٍ ؛ — ز : (رَمْزٌ لِ) نَاطِقٍ ؛ — و : وَمَا عَدَاهُ مِمَّنْ لَهُ لُغَةٌ . وَانْحَصَرَتْ حَقَائِقُ الْعَالَمِ الْكُلِّيَّةِ .

فَلَمَّا أَرَادَ (الْأَلِفُ) وُجُودَ اللَّامِ الثَّانِيَةِ وَهِيَ أَوَّلُ مَوْجُودٍ فِي الْمَعْنَى ، وَإِنْ تَأَخَّرَتْ فِي الْخَطِّ ، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْجِسْمِ تَتَقَدَّمُ عَلَى مَعْرِفَةِ الرُّوحِ شَاهِدًا ؛ وَكَذٰلِكَ الْخَطُّ ، شَاهِدًا . وَهِيَ (أَيْ اللَّامُ) عَالَمُ الْمَلَكُوتِ ، أَوْجَدَهَا (الْأَلِفُ) بِقُدْرَتِهِ ، وَهِيَ الْهَمْزَةُ الَّتِي فِي الْإِسْمِ (اللّٰهِ) إِذَا ابْتَدَأْتَ بِهِ مُعَرًّى مِنَ الْإِضَافَةِ . وَهِيَ (أَيْ الْهَمْزَةُ ، الَّتِي هِيَ رَمْزُ الْقُدْرَةِ) لَا تُفَارِقُ الْأَلِفَ .

فَلَمَّا أَوْجَدَتْ هٰذِهِ الْأَلِفُ اللَّامَ الثَّانِيَةَ ، جَعَلَهَا رَئِيسَةً . فَطَلَبَتِ (اللَّامُ الثَّانِيَةُ) مَرْؤُسًا تَكُوْنُ عَلَيْهِ بِالطَّبْعِ . فَأَوْجَدَ لَهَا (الْأَلِفُ) عَالَمَ الشَّهَادَةِ ، الَّذِي هُوَ اللَّامُ الْأُوْلَى . فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهِ أَشْرَقَ وَأَنَارَ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ = وَهُوَ الْجُزْءُ الَّذِي بَيْنَ اللَّامَيْنِ . (ثُمَّ) أَمَرَ — سُبْحَانَهُ ! — اللَّامَ الثَّانِيَةَ أَنْ تُمِدَّ الْأُوْلَى بِمَا أَمَدَّهَا بِهِ — تَعَالَى ! — مِنْ جُوْدِ ذَاتِهِ ، وَأَنْ تَكُوْنَ دَلِيْلَهَا إِلَيْهِ . فَطَلَبَتِ (اللَّامُ الثَّانِيَةُ) مِنْهُ (— سُبْحَانَهُ ! —) مَعْنًى تُصَرِّفُهُ فِي جَمِيْعِ أُمُوْرِهَا ، يَكُوْنُ لَهَا كَالْوَزِيْرِ ، فَتُلْقِي إِلَيْهِ مَا تُرِيْدُهُ ، فَيُلْقِيْهِ عَلَى عَالَمِ اللَّامِ الْأُوْلَى . فَأَوْجَدَ لَهَا الْجُزْءُ الْمُتَّصِلُ بِاللَّامَيْنِ ، الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالْكِتَابِ الْأَوْسَطِ ، وَهُوَ الْعَالَمُ الْجَبَرُوْتِيُّ . وَلَيْسَتْ لَهُ ذَاتٌ قَائِمَةٌ مِثْلُ اللَّامَيْنِ ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ عَالَمِ الْخَيَالِ عِنْدَنَا . فَأَلْقَتِ اللَّامُ الثَّانِيَةُ إِلَى ذٰلِكَ الْجُزْءِ (مَا أَلْقَتْ) ، وَارْتَقَمَ فِيْهِ مَا أُرِيْدَ مِنْهَا ، وَوَجَّهَتْ بِهِ إِلَى اللَّامِ الْأُوْلَى ، فَامْتَثَلَتِ الطَّاعَةَ حَتَّى قَالَتْ : بَلَىٰ !

فَلَمَّا رَأَتِ اللَّامُ الْأُوْلَى الْأَمْرَ قَدْ أَتَاهَا مِنْ قِبَلِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ ، بِوَسَاطَةِ الْجُزْءِ الَّذِي هُوَ الشَّرْعُ ، صَارَتْ مُشَاهِدَةً لِمَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنْ ذٰلِكَ الْجُزْءِ ، رَاغِبَةً لَهُ فِي أَنْ يُوْصِلَهَا إِلَى صَاحِبِ الْأَمْرِ لِتُشَاهِدَهُ . فَلَمَّا صَرَفَتِ الْهِمَّةُ إِلَى ذٰلِكَ الْجُزْءِ ، وَاشْتَغَلَتْ بِمُشَاهَدَتِهِ ، اِحْتَجَبَتْ عَنِ الْأَلِفِ الَّتِي تَقَدَّمَتْهَا ، (فَطَرَقَ سَمْعَهَا حِيْنَئِذٍ) : ﴿ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ . وَلَوْ لَمْ تَصرِفِ الْهِمَّةَ إِلَى ذٰلِكَ الْجُزْءِ لَتَلَقَّتِ الْأَمْرَ مِنَ الْأَلِفِ الْأُوْلَى بِلَا وَاسِطَةٍ .

وَلٰكِنْ لَا يُمْكِنُ (ذٰلِكَ) لِسِرٍّ عَظِيْمٍ : فَإِنَّهَا (أَيِ الْأَلِفَ الْأُوْلَى) أَلِفُ الذَّاتِ ، وَالثَّانِيَةَ أَلِفُ الْعِلْمِ .

إِشَارَةٌ :
(اَللَّامُ الْجَلَالِيَّةُ وَالْأَلِفُ الْوَحْدَانِيَّةُ)

أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّامَ الثَّانِيَةَ لَمَّا كَانَتْ مُرَادَةً ، مُجْتَبَاةً ، مُنَزَّهَةً عَنِ الْوَسَائِطِ ، كَيْفَ اتَّصَلَتْ بِأَلِفِ الْوَحْدَانِيَّةِ اِتِّصَالًا شَافِيًا ، حَتَّى صَارَ وُجُوْدُهَا نُطْقًا يَدُلُّ عَلَى الْأَلِفِ دَلَالَةً صَحِيْحَةً ؟ وَإِنْ كَانَتِ الذَّاتُ خَفِيَتْ ، فَإِنَّ لَفْظَكَ بِاللَّامِ يُحَقِّقُ الْاِتِّصَالَ ، وَيَدُلُّكَ عَلَيْهَا .

﴿ **مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ** ﴾ = مَنْ عَرَفَ اللَّامَ الثَّانِيَةَ ، عَرَفَ الْأَلِفَ ! فَجَعَلَ نَفْسَكَ دَلِيْلًا عَلَيْكَ . ثُمَّ جَعَلَ كَوْنَكَ دَلِيْلًا عَلَيْكَ ، دَلِيْلًا عَلَيْهِ : فِي حَقِّ مَنْ بَعُدَ وَقَدَّمَ مَعْرِفَةَ الْعَبْدِ بِنَفْسِهِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ يُفْنِيْهِ (الْحَقُّ) عَنْ مَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ ، لَمَّا كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنْ يَعْرِفَ رَبَّهُ . أَلَا تَرَى تَعَانُقَ اللَّامِ الْأَلِفَ ؟ وَكَيْفَ يُوْجَدُ اللَّامُ فِي النُّطْقِ قَبْلَ الْأَلِفِ ؟ وَفِي هٰذَا تَنْبِيْهٌ لِمَنْ أَدْرَكَ !

فَهٰذِهِ اللَّامُ الْمَلَكُوْتِيَّةُ تَتَلَقَّى مِنْ أَلِفِ الْوَحْدَانِيَّةِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ ؛ فَتُوْرِدُهُ عَلَى الْجُزْءِ الْجَبَرُوْتِيِّ لِيُؤَدِّيْهِ إِلَى لَامِ الشَّهَادَةِ وَالْمُلْكِ . هٰكَذَا الْأَمْرُ مَا دَامَ التَّرْكِيْبُ وَالْحِجَابُ : فَلَمَّا حَصَلَتِ « الْأَوَّلِيَّةُ وَالْآخِرِيَّةُ وَالظَّاهِرِيَّةُ وَالْبَاطِنِيَّةُ » أَرَادَ – تَعَالَى ! – كَمَا قَدَّمَ الْأَلِفُ ، مُنَزَّهَةً عَنِ الْاِتِّصَالِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوْهِ بِالْحُرُوْفِ ، أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْتِهَاءَ نَظِيْرُ الْاِبْتِدَاءِ : فَلَا يَصِحُّ بَقَاءٌ لِلْعَبْدِ أَوَّلًا وَآخِرًا . فَأَوْحَدَ (– تَعَالَى ! –) الْهَاءَ مُفْرَدَةً بِوَاوِ هُوِيَّتِهَا .

فَإِنْ تَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ الْهَاءَ مُلْصَقَةٌ إِلَى اللَّامِ ، فَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ . وَإِنَّمَا هِيَ بَعْدَ الْأَلِفِ ، الَّتِي بَعْدَ اللَّامِ . وَالْأَلِفُ لَا يَتَّصِلُ بِهَا ، فِي الْبَعْدِيَّةِ ، شَيْءٌ مِنَ الْحُرُوْفِ ؛

فَالْهَاءُ بَعْدَ اللَّامِ مَقْطُوْعَةٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ . فَذٰلِكَ الْاِتِّصَالُ بِاللَّامِ فِي الْخَطِّ ، لَيْسَ بِاتِّصَالٍ . فَالْهَاءُ وَاحِدَةٌ ، وَالْأَلِفُ وَاحِدَةٌ : فَاضْرِبِ الْوَاحِدَ فِي مِثْلِهِ يَكُنِ (الْحَاصِلُ) وَاحِدًا ! فَصَحَّ انْفِصَالُ الْخَلْقِ عَنِ الْحَقِّ . فَبَقِيَ الْحَقُّ !

وَإِذَا صَحَّ تَخَلُّقُ اللَّامِ الْمُلْكِيَّةِ بِمَا تُوْرِدُهُ عَلَيْهَا لَامُ الْمَلَكُوْتِ ، فَلَا تَزَالُ تَضْمَحِلُّ عَنْ صِفَاتِهَا ، وَتُفْنِي عَنْ رُسُوْمِهَا ، إِلَى أَنْ تَحْصُلَ فِي مَقَامِ الْفَنَاءِ عَنْ نَفْسِهَا . فَإِذَا فَنِيَتْ عَنْ ذَاتِهَا ، فَنِيَ الْجُزْءُ لِفَنَائِهَا . وَاتَّحَدَتِ اللَّامَانِ لَفْظًا ، يَنْطِقُ بِهَا اللِّسَانُ مُشَدَّدَةً ، لِلْإِدْغَامِ الَّذِي حَدَثَ ، فَصَارَتْ مَوْجُوْدَةً بَيْنَ أَلِفَيْنِ اِشْتَمَلَا عَلَيْهَا ، وَأَحَاطَا بِهَا .

فَأَعْطَتْنَا الْحِكْمَةَ الْمَوْهُوْبَةَ ، لَمَّا سَمِعْنَا لَفْظَ النَّاطِقِ بِـ « لَا » بَيْنَ أَلِفَيْنِ ، (فَـ) عَلِمْنَا ، ضَرُوْرَةً ، أَنَّ الْمُحْدَثَ فَنِيَ بِظُهُوْرِ الْقَدِيْمِ . فَبَقِيَ أَلِفَانِ : أُوْلَى وَأُخْرَى . وَزَالَ « الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ » ، بِزَوَالِ اللَّامَيْنِ بِكَلِمَةِ النَّفْيِ . فَضَرَبْنَا الْأَلِفَ فِي الْأَلِفِ – ضَرْبَ الْوَاحِدِ فِي الْوَاحِدِ – : فَخَرَجَتْ لَكَ الْهَاءُ . فَلَمَّا ظَهَرَتِ (الْهَاءُ) زَالَ حُكْمُ « الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ » ، الَّذِي جَعَلَتْهُ الْوَاسِطَةَ ، كَمَا زَالَ حُكْمُ « الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ » . فَقِيْلَ عِنْدَ ذٰلِكَ ﴿ **كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ** ﴾ ! ثُمَّ أَصْلُ هٰذَا الضَّمِيْرِ ، الَّذِي هُوَ الْهَاءُ ، الرَّفْعُ وَلَا بُدَّ ؛ فَإِنِ انْفَتَحَ أَوِ انْخَفَضَ ، فَتِلْكَ صِفَةٌ تَعُوْدُ عَلَى مَنْ فَتَحَهُ أَوْ خَفَضَهُ ؛ فَهِيَ عَائِدَةٌ عَلَى الْعَامِلِ ، الَّذِي (هُوَ) قَبْلُ ، فِي اللَّفْظِ .

تكملة :
(اَلْحَرَكَاتُ وَالْحُرُوْفُ وَالْمَخَارِجُ فِي اِسْمِ الْجَلَالَةِ)

ثُمَّ أَوْجَدَ – سُبْحَانَهُ ! – الْحَرَكَاتِ وَالْحُرُوْفَ وَالْمَخَارِجَ تَنْبِيْهًا مِنْهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ! – أَنَّ الذَّوَاتِ تَتَمَيَّزُ بِالصِّفَاتِ وَالْمَقَامَاتِ . فَجَعَلَ الْحَرَكَاتِ نَظِيْرَ الصِّفَاتِ ، وَجَعَلَ الْحُرُوْفَ نَظِيْرَ الْمَوْصُوْفِ ، وَجَعَلَ الْمَخَارِجَ نَظِيْرَ الْمَقَامَاتِ وَالْمَعَارِجِ . فَأَعْطَى لِهٰذَا الْاِسْمِ (الْإِلٰهِيِّ الْأَعْظَمِ) مِنَ الْحُرُوْفِ ، عَلَى عُمُوْمِ وُجُوْهِهِ ، مِنْ وَصْلٍ وَقَطْعٍ : ء ، ا ، ل ، هـ ، و = هَمْزَةً وَأَلِفًا وَلَامًا وَهَاءً وَوَاوًا . فَالْهَمْزَةُ أَوَّلًا ، وَالْهَاءُ آخِرًا ؛ وَمَخْرَجُهُمَا

وَاحِدٌ ، مِمَّا يَلِي الْقَلْبَ . ثُمَّ جَعَلَ بَيْنَ الْهَمْزَةِ وَالْهَاءِ حَرْفَ اللَّامِ ، وَمَخْرَجُهُ اللِّسَانُ ، تَرْجُمَانُ الْقَلْبِ . فَوَقَعَتِ النِّسْبَةُ بَيْنَ اللَّامَيْنِ وَالْهَمْزَةِ وَالْهَاءِ ، كَمَا وَقَعَتِ النِّسْبَةُ بَيْنَ الْقَلْبِ ، الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْكَلَامِ ، وَبَيْنَ اللِّسَانِ الْمُتَرْجِمِ عَنْهُ . قَالَ الْأَخْطَلُ :

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا   جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيْلا

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّامُ مِنَ اللِّسَانِ ، جَعَلَهَا (الْأَلِفُ) تَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا إِلَى نَفْسِهَا ، فَأَفْنَاهَا عَنْهَا ، وَهِيَ الْحَنَكُ الْأَسْفَلُ . فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهِ ، لَا إِلَى ذَاتِهَا ، عَلَتْ وَارْتَفَعَتْ إِلَى الْحَنَكِ الْأَعْلَى ؛ وَاشْتَدَّ اللِّسَانُ بِهَا فِي الْحَنَكِ اِشْتِدَادًا ، لِتَمَكُّنِ عُلُوِّهَا وَارْتِفَاعِهَا بِمُشَاهَدَتِهِ ؛ وَخَرَجَتِ الْوَاوُ مِنَ الشَّفَتَيْنِ إِلَى الْوُجُوْدِ الظَّاهِرِ ، مُخْبِرَةً ، دَالَّةً عَلَيْهِ ؛ وَذٰلِكَ مَقَامُ بَاطِنِ النُّبُوَّةِ (= الْوِلَايَةِ) : وَهِيَ الشَّعْرَةُ الَّتِي فِيْنَا مِنَ الرَّسُوْلِ ﷺ وَفِي ذٰلِكَ يَكُوْنُ الْوِرْثُ .

فَخَرَجَ مِنْ هٰذَا الْوَصْلِ : أَنَّ الْهَمْزَةَ وَالْأَلِفَ وَالْهَاءَ مِنْ عَالَمِ الْمَلَكُوْتِ ؛ وَاللَّامَ مِنْ عَالَمِ الْجَبَرُوْتِ ؛ وَالْوَاوَ مِنْ عَالَمِ الْمُلْكِ .

وصل :

قَوْلُهُ (– تَعَالَى ! –) : « اَلرَّحْمٰنِ » مِنَ « الْبَسْمَلَةِ » .

(اَلْاِسْمُ الرَّحْمٰنُ : مِنْ طَرِيْقِ الْأَسْرَارِ)

اَلْكَلَامُ عَلَى هٰذَا الْاِسْمِ (الْإِلٰهِيّ) فِي هٰذَا الْبَابِ ، مِنْ وَجْهَيْنِ : مِنْ وَجْهِ الذَّاتِ وَمِنْ وَجْهِ الصِّفَةِ . فَمَنْ أَعْرَبَهُ بَدَلًا جَعَلَهُ ذَاتًا ؛ وَمَنْ أَعْرَبَهُ نَعْتًا ، جَعَلَهُ صِفَةً . وَالصِّفَاتُ (النَّفْسِيَّةُ) سِتٌّ ؛ وَمِنْ شَرْطِ هٰذِهِ الصِّفَاتِ ، الْحَيَاةُ : فَظَهَرَتِ السَّبْعُ (الصِّفَاتُ) . وَجَمِيْعُ هٰذِهِ الصِّفَاتِ لِلذَّاتِ : وَهِيَ الْأَلِفُ الْمَوْجُوْدَةُ بَيْنَ الْمِيمِ وَالنُّوْنِ ، مِنَ (الْاِسْمِ الْإِلٰهِيّ) الرَّحْمٰنِ .

وَيَتَرَكَّبُ الْكَلَامُ عَلَى هٰذَا الِاسْمِ ، مِنَ الْخَبَرِ الثَّابِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ **إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِهِ** ﴾ = مِنْ حَيْثُ إِعَادَةُ الضَّمِيْرِ عَلَى اللهِ . وَيُؤَيِّدُ هٰذَا النَّظَرُ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى ، وَهِيَ قَوْلُهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ **عَلَى صُوْرَةِ الرَّحْمٰنِ** ﴾ . وَهٰذِهِ الرِّوَايَةُ وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ مِنْ طَرِيْقِ النَّقْلِ ، فَهِيَ صَحِيْحَةٌ مِنْ طَرِيْقِ الْكَشْفِ .

فَأَقُوْلُ : إِنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ وَالرَّاءَ : لِلْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ . وَالْحَاءَ وَالْمِيْمَ وَالنُّوْنَ : مَدْلُوْلُ الْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ . وَصِفَةُ الشَّرْطِ ، الَّتِي هِيَ الْحَيَاةُ ، مُسْتَصْحَبَةٌ لِجَمِيْعِ هٰذِهِ الصِّفَاتِ . – ثُمَّ الْأَلِفُ ، الَّتِي بَيْنَ الْمِيْمِ وَالنُّوْنِ ، (هِيَ) مَدْلُوْلُ الْمَوْصُوْفِ ؛ وَإِنَّمَا حَذَفَتْ خَطًّا لِدَلَالَةِ الصِّفَاتِ عَلَيْهَا دَلَالَةً ضَرُوْرِيَّةً ، مِنْ حَيْثُ قِيَامُ الصِّفَةِ بِالْمَوْصُوْفِ . فَتَجَلَّتْ لِلْعَالَمِ الصِّفَاتُ . وَكَذٰلِكَ لَمْ يَعْرِفُوْا مِنَ الْإِلٰهِ غَيْرَهَا ، وَلَا يَعْرِفُوْنَهَا .

ثُمَّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى وُجُوْدِ الْأَلِفِ وَلَا بُدَّ (هُوَ) مَا ذَكَرْنَاهُ ، وَزِيَادَةٌ . وَهِيَ إِشْبَاعُ فَتْحَةِ الْمِيْمِ . وَذٰلِكَ إِشَارَةٌ إِلٰهِيَّةٌ إِلَى بَسْطِ الرَّحْمَةِ عَلَى الْعَالَمِ . فَلَا يَكُوْنُ أَبَدًا مَّا قَبْلَ الْأَلِفِ إِلَّا مَفْتُوْحًا . فَتَدُلُّ الْفَتْحَةُ عَلَى الْأَلِفِ فِي مِثْلِ هٰذَا الْمَوْطِنِ . وَهُوَ مَحَلُّ وُجُوْدِ الرُّوْحِ الَّذِي لَهُ مَقَامُ الْبَسْطِ لِمَحَلِّ التَّجَلِّي . وَلِهٰذَا ذَكَرَ أَهْلُ عَالَمِ التَّرْكِيْبِ ، فِي وَضْعِ الْخُطُوْطِ فِي حُرُوْفِ الْعِلَّةِ ، الْيَاءَ الْمَكْسُوْرَ مَا قَبْلَهَا – إِذْ قَدْ تُوْجَدُ الْيَاءُ الصَّحِيْحَةُ وَلَا كَسْرَ قَبْلَهَا – ، وَكَذٰلِكَ الْوَاوُ الْمَضْمُوْمُ مَا قَبْلَهَا . وَلَمَّا ذَكَرُوْا الْأَلِفَ لَمْ يَقُوْلُوْا : الْمَفْتُوْحَ مَا قَبْلَهَا ، إِذْ لَا تُوْجَدُ إِلَّا وَالْفَتْحُ فِي الْحَرْفِ الَّذِي قَبْلَهَا ، بِخِلَافِ الْوَاوِ وَالْيَاءِ . فَالِاعْتِدَالُ لِلْأَلِفِ لَازِمٌ أَبَدًا .

فَالْجَاهِلُ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ فِي الْوُجُوْدِ مُنَزَّهًا عَنْ جَمِيْعِ النَّقَائِصِ إِلَّا اللهَ – تَعَالَى ! – نَسِيَ الرُّوْحَ الْقُدْسِيَّ الْأَعْلَى فَقَالَ : مَا فِي الْوُجُوْدِ إِلَّا اللهُ ! فَلَمَّا سُئِلَ فِي التَّفْصِيْلِ ، لَمْ يُوْجَدُ لَدَيْهِ تَحْصِيْلُ .

وَإِنَّمَا خَصَّصُوْا الْوَاوَ بِالْمَضْمُوْمِ مَا قَبْلَهَا ، وَالْيَاءَ بِالْمَكْسُوْرِ مَا قَبْلَهَا ، – لِمَا ذَكَرْنَاهُ : فَصَحَّتِ الْمُفَارَقَةُ بَيْنَ الْأَلِفِ (مِنْ جِهَةٍ) ، وَبَيْنَ الْوَاوِ وَالْيَاءِ (مِنْ جِهَةٍ

أُخْرَى) . فَالْأَلِف ، لِلذَّاتِ ؛ وَالْوَاوُ الْعِلِّيَّةُ لِلصِّفَاتِ ؛ وَالْيَاءُ الْعِلِّيَّةُ لِلْأَفْعَالِ . (وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ أَيْضًا :) اَلْأَلِف : لِلرُّوْحِ وَالْعَقْلُ صِفَتُهُ – وَهُوَ الْفَتْحَةُ ؛ وَالْوَاوُ : النَّفْسُ ، وَالْقَبْضُ صِفَتُهَا – وَهُوَ الضَّمَّةُ ؛ وَالْيَاءُ : الْجِسْمُ ، وَوُجُوْدُ الْفِعْلِ صِفَتُهُ – وَهُوَ الْخَفْضُ .

فَإِنِ انْفَتَحَ مَا قَبْلَ الْوَاوِ وَالْيَاءِ ، فَذٰلِكَ رَاجِعٌ إِلَى حَالِ الْمُخَاطَبِ . وَلَمَّا كَانَتَا (أَيْ الْوَاوُ وَالْيَاءُ) غَيْرًا وَلَا بُدَّ ، اِخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمَا الصِّفَاتُ . وَلَمَّا كَانَتِ الْأَلِفُ لَا تَقْبَلُ الْحَرَكَاتِ ، اِتَّحَدَتْ بِمَدْلُوْلِهَا ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهَا شَيْءٌ أَلْبَتَّةَ . – وَسُمِّيَتْ (هٰذِهِ الْأَحْرُفُ) حُرُوْفَ الْعِلَّةِ لِمَا نَذْكُرُهُ : فَأَلِفُ الذَّاتِ عِلَّةٌ لِوُجُوْدِ الصِّفَةِ ؛ وَوَاوُ الصِّفَةِ ، عِلَّةٌ لِوُجُوْدِ الْفِعْلِ ؛ وَيَاءُ الْفِعْلِ ، عِلَّةٌ لِوُجُودِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُوْنٍ . فَلِهٰذَا سُمِّيَتْ (هٰذِهِ الْأَحْرُفُ) عِلَلًا .

ثُمَّ أَوْجَدَ (الْحَقُّ – تَعَالَى ! –) النُّوْنَ مِنْ هٰذَا الْاِسْمِ (الرَّحْمٰنِ) نِصْفَ دَائِرَةٍ فِي الشَّكْلِ . وَالنِّصْفُ الْآخَرُ (مِنَ النُّوْنِ) مَحْصُوْرٌ ، مَعْقُوْلٌ فِي النُّقْطَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى النُّوْنِ الْغَيْبِيَّةِ ، الَّذِي هُوَ نِصْفُ الدَّائِرَةِ . وَيَحْسِبُ النَّاسُ النُّقْطَةَ أَنَّهَا دَلِيْلٌ عَلَى النُّوْنِ الْمَحْسُوْسَةِ . – ثُمَّ أَوْجَدَ (– تَعَالَى ! –) مُقْدَمَ الْحَاءِ مِمَّا يَلِي الْأَلِفَ الْمَحْذُوْفَةَ فِي الرَّقْمِ ، إِشَارَةً إِلَى مُشَاهَدَتِهَا ، وَلِذٰلِكَ سَكَنَتْ ؛ وَلَوْ كَانَ مُقْدَمُهَا إِلَى الرَّاءِ لَتَحَرَّكَتْ .

فَالْأَلِفُ الْأُوْلَى (مِنَ الْاِسْمِ الرَّحْمٰنِ) : لِلْعِلْمِ ؛ وَاللَّامُ : لِلْإِرَادَةِ ؛ وَالرَّاءُ : لِلْقُدْرَةِ ، وَهِيَ صِفَةُ الْإِيْجَادِ . فَوَجَدْنَا الْأَلِفَ لَهَا الْحَرَكَةُ مِنْ كَوْنِهَا هَمْزَةً ؛ وَالرَّاءَ لَهَا الْحَرَكَةُ ؛ وَاللَّامَ ، سَاكِنَةً . فَاتَّحَدَتِ الْإِرَادَةُ بِالْقُدْرَةِ – كَمَا اتَّحَدَ الْعِلْمُ وَالْإِرَادَةُ بِالْقُدْرَةِ إِذَا وَصَلَتِ « الرَّحْمٰنُ » بِاللهِ – فَأَدْغَمْتَ لَامَ الْإِرَادَةِ فِي رَاءِ الْقُدْرَةِ ، بَعْدَمَا قُلِبَتْ رَاءً ؛ وَشُدِّدَتْ لِتَحْقِيْقِ الْإِيْجَادِ الَّذِي هُوَ الْحَاءُ ، (وَهُوَ) وُجُوْدُ الْكَلِمَةِ سَاكِنَةً . وَإِنَّمَا سَكَنَتِ (الْحَاءُ) لِأَنَّهَا لَا تَنْقَسِمُ ، وَالْحَرَكَةُ مُنْقَسِمَةٌ . فَلَمَّا كَانَتِ الْحَاءُ سَاكِنَةً سُكُوْنًا حَيًّا ، وَرَأَيْنَاهَا مُجَاوِرَةَ الرَّاءِ ، رَاءَ الْقُدْرَةِ ، – عَرَفْنَا أَنَّهَا (رَمْزُ) الْكَلِمَةِ (وَرَمْزُ الرُّوْحِ) . وَتَثْمِيْنُهَا ، تَنْبِيْهٌ (عَلَى ذٰلِكَ : لِأَنَّ الْعَدَدَ ٨ ، وَهُوَ قِيْمَةُ الْحِسَابِيَّةِ لِحَرْفِ الْحَاءِ ، وَهُوَ رَمْزُ وُجُوْدِ كَمَالِ الذَّاتِ) .

(اَلرَّحْمٰنُ بَدَلًا وَنَعْتًا أَوْ مَقَامُ الْجَمْعِ وَالتَّفْرِقَةِ)

أَشَارَ مَنْ أَعْرَبَهُ (أَيْ الْاِسْمَ الرَّحْمٰنَ) بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ : « اللّٰهُ » — إِلَى مَقَامِ الْجَمْعِ وَاتِّحَادِ الصِّفَاتِ . وَهُوَ مَقَامُ مَنْ رَوِيَ : ﴿ **خَلَقَ (اللّٰهُ) آدَمَ عَلَى صُوْرَتِهِ** ﴾ = وَذٰلِكَ وُجُوْدُ الْعَبْدِ فِي مَقَامِ الْحَقِّ ، حَدَّ الْخِلَافَةِ . وَالْخِلَافَةُ تَسْتَدْعِي الْمُلْكَ بِالضَّرُوْرَةِ . وَالْمُلْكُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ رَاجِعٌ لِذَاتِهِ ، وَقِسْمٌ رَاجِعٌ لِغَيْرِهِ . وَالْوَاحِدُ مِنَ الْأَقْسَامِ يَصْلُحُ ، فِي هٰذَا الْمَقَامِ ، عَلَى حَدِّ مَا رَتَّبْنَاهُ . فَإِنَّ الْبَدَلَ فِي الْمَوْضِعِ يَحُلُّ مَحَلَّ الْمُبْدَلِ مِنْهُ ، مِثْلُ قَوْلِنَا : « جَاءَنِي أَخُوْكَ زَيْدٌ » ، فَزَيْدٌ بَدَلٌ مِنْ أَخِيْكَ ، بَدَلَ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ . وَهُمَا لِعَيْنٍ وَاحِدَةٍ : فَإِنَّ زَيْدًا هُوَ أَخُوْكَ ، وَأَخَاكَ هُوَ زَيْدٌ بِلَا شَكٍّ . — وَهٰذَا مَقَامٌ ، مَنِ اعْتَقَدَ خِلَافَهُ فَمَا وَقَفَ عَلَى حَقِيْقَةٍ ، وَلَا وَحَّدَ ، قَطُّ ، مُوْجِدَهُ !

وَأَمَّا مَنْ أَعْرَبَهُ (أَيْ الْاِسْمَ الرَّحْمٰنَ) نَعْتًا ، فَإِنَّهُ أَشَارَ إِلَى مَقَامِ التَّفْرِقَةِ فِي الصِّفَةِ . وَهُوَ مَقَامُ مَنْ رَوِيَ : ﴿ **خَلَقَ (اللّٰهُ) آدَمَ عَلَى صُوْرَةِ الرَّحْمٰنِ** ﴾ = وَهٰذَا مَقَامُ الْوِرَاثَةِ ، وَلَا تَقَعُ إِلَّا بَيْنَ غَيْرَيْنِ : مَقَامُ الْحِجَابِ بِمَغِيْبِ الْوَاحِدِ وَظُهُوْرِ الثَّانِي ، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْمِثْلِ . — وَفِيْمَا قَرَّرْنَا دَلِيْلٌ عَلَى مَا أَضْمَرْنَا . فَافْهَمْ !

ثُمَّ أَظْهَرَ (الْحَقُّ) مِنَ النُّوْنِ الشَّطْرَ الْأَسْفَلَ ، وَهُوَ الشَّطْرُ الظَّاهِرُ لَنَا مِنَ الْفَلَكِ الدَّائِرِ مِنْ نِصْفِ الدَّائِرَةِ . وَمَرْكَزُ الْعَالَمِ فِي الْوَسَطِ ، مِنَ الْخَطِّ الَّذِي يَمْتَدُّ مِنْ طَرْفِ الشَّطْرِ إِلَى الطَّرْفِ الثَّانِي . وَالشَّطْرُ الثَّانِي ، الْمَسْتُوْرُ فِي النُّقْطَةِ ، هُوَ الشَّطْرُ الْغَائِبُ عَنَّا مِنْ تَحْتٍ ، نَقِيْضُ الْخَطِّ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْنَا ؛ إِذْ كَانَتْ رُؤْيَتُنَا مِنْ حَيْثُ الْفِعْلِ ، فِي جِهَةٍ . فَالشَّطْرُ الْمَوْجُوْدُ فِي الْخَطِّ هُوَ الْمَشْرِقُ ؛ وَالشَّطْرُ الْمَجْمُوْعُ فِي النُّقْطَةِ هُوَ الْمَغْرِبُ ، وَهُوَ مَطْلَعُ وُجُوْدِ الْأَسْرَارِ . فَالْمَشْرِقُ — وَهُوَ الظَّاهِرُ الْمُرَكَّبُ — يَنْقَسِمُ ؛ وَالْمَغْرِبُ — وَهُوَ الْبَاطِنُ الْبَسِيْطِ ، لَا يَنْقَسِمُ . وَفِيْهِ أَقُوْلُ :

عَجَبًا لِلظَّاهِرِ يَنْقَسِمُ ... وَلِبَاطِنِهِ لَا يَنْقَسِمُ
فَالظَّاهِرُ شَمْسٌ فِي حَمَلٍ ... وَالْبَاطِنُ فِي أَسَدٍ جَلَمُ

حَقِّقْ وَانْظُرْ مَعْنًى سَـتَرَتْ مِنْ تَحْتِ كَثَائِفِهَـا الظُّلَـمُ
إِنْ كَـانَ خَفِىٰ هُوَ ذَاكَ بَدَا عَجَبًا وَاللهِ ! هُمَـا الْقَسَـمُ
فَافْزَعْ لِلشَّمْسِ وَدَعْ قَمَـرًا فِي الْوِتْـرِ يَلُـوْحُ وَيَنْعَـدِمُ

وَلِذٰلِكَ يَتَعَلَّقُ الْعِلْمُ (الْوَاحِدُ) بِالْمَعْلُوْمَاتِ (الْكَثِيْرَةِ) ؛ وَالْإِرَادَةُ الْوَاحِدَةُ بِالْمُرَادَاتِ (الْكَثِيْرَةِ) ؛ وَالْقُدْرَةُ الْوَاحِدَةُ بِالْمَقْدُوْرَاتِ (الْكَثِيْرَةِ) . فَتَقَعُ الْقِسْمَةُ وَالتِّعْدَادُ فِي الْمَقْدُوْرَاتِ وَالْمَعْلُوْمَاتِ وَالْمُرَادَاتِ – وَهُوَ الشَّطْرُ الْمَوْجُوْدُ فِي الرَّقْمِ . وَيَقَعُ الْاِتِّحَادُ (= الْوَحْدَةُ) وَالتَّنَزُّهُ عَنِ الْأَوْصَافِ الْبَاطِنِيَّةِ ، مِنْ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ وَإِرَادَةٍ . وَفِي هٰذَا إِشَارَةٌ . فَافْهَمْ !

وَلَمَّا كَانَتِ الْحَاءُ ثَمَانِيَةً – وَهُوَ (رَمْزُ) وُجُوْدِ كَمَالِ الذَّاتِ ، وَلِذٰلِكَ عَبَّرْنَا عَنْهُ بِالْكَلِمَةِ وَالرُّوْحِ ، – فَكَذٰلِكَ النُّوْنُ خَامِسَةٌ فِي الْعَشَرَاتِ (= ٥٠) ، إِذْ يَتَقَدَّمُهَا الْمِيْمُ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ (= ٤٠) . فَالنُّوْنُ جِسْمَانِيٌّ ، مَحَلُّ إِيْجَادِ مَوَادِّ الرُّوْحِ وَالْعَقْلِ وَالنَّفْسِ وَوُجُوْدِ الْفِعْلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ مُسْتَوْدَعٌ فِي النُّوْنِ . وَهِيَ كُلِّيَّةُ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرَةِ ، وَلِهٰذَا ظَهَرَتْ .

تتمة :

(اَلْفَصْلُ بَيْنَ الْمِيْمِ وَالنُّوْنِ بِالْأَلِفِ)

وَإِنَّمَا فُصِلَ (فِي الْاِسْمِ الرَّحْمَانِ) بَيْنَ الْمِيْمِ وَالنُّوْنِ بِالْأَلِفِ : « مآن » – إِذِ الْمِيْمُ مَلَكُوْتِيَّةٌ ، لَمَّا جَعَلْنَاهَا (رَمْزًا) لِلرُّوْحِ ؛ وَالنُّوْنُ مُلْكِيَّةٌ (لَمَّا جَعَلْنَاهَا رَمْزًا لِلْجِسْمِ) ؛ وَالنُّقْطَةُ جَبَرُوْتِيَّةٌ – لِوُجُوْدِ سِرِّ سَلْبِ الدَّعْوَى . كَأَنَّهُ يَقُوْلُ : « أَيْ يَا رُوْحَ – الَّذِي هُوَ الْمِيْمُ – لَمْ نَصْطَفِكَ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، لٰكِنْ عِنَايَةٌ سَبَقَتْ لَكَ فِي وُجُوْدِ عِلْمِي . وَلَوْ شِئْتُ لَاطَّلَعْتُ عَلَى نُقْطَةِ الْعَقْلِ وَنُوْنِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، دُوْنَ وَاسِطَةِ وُجُوْدِكَ . فَاعْرِفْ

نَفْسَكَ ! وَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا اِخْتِصَاصٌ بِكَ مِنِّي ، مِنْ حَيْثُ أَنَا لَا مِنْ حَيْثُ أَنْتَ . فَصَحَّتِ الْاِصْطِفَائِيَّةُ » ؛ فَلَا تَجَلَّىٰ لِغَيْرِهِ أَبَدًا . – فَالْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى مَا أَوْلَى !

فَتَنَبَّهْ – يَا مِسْكِيْنَ ! – فِي وُجُوْدِ الْمِيْمِ دَائِرَةً عَلَى صُوْرَةِ الْجِسْمِ مَعَ التَّقَدُّمِ ، كَيْفَ أَشَارَ بِهِ إِلَى التَّنَزُّهِ عَنِ الْاِنْقِسَامِ ؟ وَانْقِسَامُ الدَّائِرَةِ لَا يَتَنَاهَى ، فَانْقِسَامُ رُوْحِ الْمِيْمِ بِمَعْلُوْمَاتِهِ لَا يَتَنَاهَى ، وَهُوَ فِي ذَاتِهِ لَا يَنْقَسِمُ .

ثُمَّ انْظُرِ الْمِيْمَ ، إِذَا انْفَصَلَ وَحْدَهُ ، كَيْفَ ظَهَرَتْ مِنْهُ مَادَّةُ التَّعْرِيْقِ ، لَمَّا نَزَلَ إِلَى وُجُوْدِ الْفِعْلِ ، فِي عَالَمِ الْخِطَابِ وَالتَّكْلِيْفِ ؟ فَصَارَتِ الْمَادَّةُ فِي حَقِّ الْغَيْرِ لَا فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، إِذِ الدَّائِرَةُ تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً ؛ فَمَا زَادَ فَلَيْسَ فِي حَقِّهِ إِذْ قَدْ ثَبَتَتْ ذَاتُهُ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ . – فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبْدُ إِلَى الْمَادَّةِ ، مُدَّ تَعْرِيْقًا . وَهٰذَا هُوَ وُجُوْدُ التَّحْقِيْقِ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْجُزْءَ الْمُتَّصِلَ بَيْنَ الْمِيْمِ وَالنُّوْنِ : « مٰن » هُوَ مَرْكَزُ أَلِفِ الذَّاتِ . وَخَفِيَتِ الْأَلِفُ لِيَقَعَ الْاِتِّصَالُ بَيْنَ الْمِيْمِ وَالنُّوْنِ بِطَرِيْقِ الْمَادَّةِ ، وَهُوَ الْجُزْءُ الْمُتَّصِلُ . وَلَوْ ظَهَرَتِ الْأَلِفُ لَمَا صَحَّ التَّعْرِيْقُ لِلْمِيْمِ ، لِأَنَّ الْأَلِفَ حَالَتْ بَيْنَهُمَا . وَفِي هٰذَا تَنْبِيْهٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ = وُجُوْدُ الْأَلِفِ الْمُرَادَةِ . – هٰذَا عَلَى مَنْ أَعْرَبَهُ مُبْتَدَأً ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ طَرِيْقِ التَّرْكِيْبِ ؛ وَالصَّحِيْحُ أَنْ يُعْرَبَ بَدَلًا مِنَ « الرَّبِّ » . – فَتَبْقَى الْأَلِفُ هُنَا عِبَارَةً عَنِ الرُّوْحِ – وَالْحَقُّ قَائِمٌ بِالْجَمِيْعِ – ؛ وَ (تَبْقَى) الْمِيْمُ (عِبَارَةً عَنِ) السَّمٰوَاتِ ؛ وَ (تَبْقَى) النُّوْنُ (عِبَارَةً عَنِ) الْأَرْضِ .

وَإِذَا ظَهَرَتِ الْأَلِفُ بَيْنَ الْمِيْمِ وَالنُّوْنِ « مآن » – فَإِنَّ الْاِتِّصَالَ بِالْمِيْمِ لَا بِالنُّوْنِ – ، فَلَا تَأْخُذُ النُّوْنُ صِفَةً أَبَدًا ، مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ ، لِقَطْعِهَا . وَدَلَّ اتِّصَالُهَا بِالْمِيْمِ عَلَى الْأَخْذِ بِلَا وَاسِطَةٍ . وَالْعَدَمُ ، الَّذِي صَحَّ بِهِ الْقَطْعُ ، فِيْهِ يَفْنَىٰ النُّوْنُ . وَيَبْقَى الْمِيْمُ مَحْجُوْبًا عَنْ سِرِّ قِدَمِهِ بِالنُّقْطَةِ الَّتِي فِي وَسَطِهِ : « ه » الَّتِي هِيَ جَوْفُ دَائِرَتِهِ ، بِالنَّظَرِ إِلَى ذَاتِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ ، فِيْمَا ظَهَرَ لَهُ .

سُؤَالٌ وَجَوَابُهُ : (اِخْتِفَاءُ سِرّ الْقِدَمِ فِي الْمِيمِ الْمَلَكُوْتِيَّةِ)

قِيْلَ : فَكَيْفَ عَرَفْتَ سِرَّ قِدَمِهِ وَلَمْ يَعْرِفْهُ هُوَ ، وَهُوَ أَحَقُّ بِمَعْرِفَةِ نَفْسِهِ مِنْكَ إِنْ نَظَرْتَ إِلَى ظَاهِرِكَ ؟ – أَوْ هَلِ الْعَالِمُ بِسِرّ الْقِدَمِ فِيْهِ هُوَ الْمَعْنَى الْمَوْجُوْدُ فِيْكَ ، الْمُتَكَلَّمُ فِيْهِ ، وَهُوَ مِيْمُ الرُّوْحِ ، – فَقَدْ وَقَفَ عَلَى سِرّ قِدَمِهِ ؟

اَلْجَوَابُ عَنْ ذٰلِكَ : إِنَّ الَّذِي عَلِمَ مِنَّا سِرَّ الْقِدَمِ هُوَ الَّذِي حَجَبْنَاهُ هُنَاكَ : فَمِنَ الْوَجْهِ الَّذِي أَثْبَتْنَا لَهُ الْعِلْمَ ، غَيْرَ الْوَجْهِ الَّذِي أَثْبَتْنَا لَهُ مِنْهُ عَدَمَ الْعِلْمِ . – وَنَقُوْلُ : إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ ذٰلِكَ عِلْمًا لَا عَيْنًا . وَهٰذَا مَوْجُوْدٌ : فَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ مَنْ عَلِمَ شَيْئًا أَنْ يَرَاهُ . وَالرُّؤْيَةُ لِلْمَعْلُوْمِ أَتَمُّ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ مِنْ وَجْهٍ ، وَأَوْضَحُ فِي الْمَعْرِفَةِ بِهِ : فَكُلُّ عَيْنٍ عِلْمٌ ؛ وَلَيْسَ كُلُّ عِلْمٍ عَيْنًا . إِذْ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ مَنْ عَلِمَ إِنْ ثَمَّ مَكَّةَ ، رَآهَا ؛ وَإِذَا رَآهَا ، قَطْعًا أَنَّهُ يَعْلَمُهَا . وَلَا أُرِيْدُ الْاِسْمَ . فَلِلْعَيْنِ دَرَجَةٌ عَلَى الْعِلْمِ مَعْلُوْمَةٌ ، كَمَا قِيْلَ :

وَلٰكِنْ لِلْعِيَانِ لَطِيْفُ مَعْنًى ... لِذَا سَأَلَ الْمُعَايَنَةَ الْكَلِيْمُ

بَلْ أَقُوْلُ : إِنَّ حَقِيْقَةَ سِرّ الْقِدَمِ ، الَّذِي هُوَ « حَقُّ الْيَقِيْنِ » لِأَنَّهُ لَا يُعَايَنُ ، – لَمْ يُشَاهِدْهُ (الْمِيْمُ) لِرُجُوْعِهِ لِذَاتِ مُوْجِدِهِ . وَلَوْ عَلِمَ (الْمِيْمُ) ذَاتَ مُوْجِدِهِ لَكَانَ نُقْصًا فِي حَقّهِ ؛ فَغَايَةُ كَمَالِهِ ، فِي مَعْرِفَةِ نَفْسِهِ بِوُجُوْدِهَا ، بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ عَيْنًا . – هٰذَا فَصْلٌ عَجِيْبٌ ، إِنْ تَدَبَّرْتَهُ وَقَفْتَ عَلَى عَجَائِبٍ . فَافْهَمْ !

تكملة :

(اِتّصَالُ اللَّامِ بِالرَّاءِ – فِي الْاِسْمِ « الرَّحْمٰنِ » – نُطْقًا)

اِتَّصَلَتِ اللَّامُ بِالرَّاءِ اِتّصَالَ اِتّحَادٍ نُطْقًا ، مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُمَا صِفَتَيْنِ بَاطِنَتَيْنِ ؛ فَسَهُلَ عَلَيْهِمَا الْإِتّحَادُ . وَوُجِدَتِ الْحَاءُ الَّتِي هِيَ الْكَلِمَةُ ، الْمُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْمَقْدُوْرِ لِلرَّاءِ ،

مُنْفَصِلَةً عَنِ الرَّاءِ الَّتِي هِيَ الْقُدْرَةُ . لِيَتَمَيَّزَ الْمَقْدُوْرُ مِنَ الْقُدْرَةِ ، وَلِئَلَّا تَتَوَهَّمُ الْحَاءُ الْمَقْدُوْرَةُ أَنَّهَا صِفَةُ ذَاتِ الْقُدْرَةِ . فَوَقَعَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْقَدِيْمِ وَالْمُحْدَثِ . فَافْهَمْ – يَرْحَمُكَ اللّٰهُ !

(اَلرَّحْمٰنُ : مُنْكَرًا وَمَعْرُفًا)

ثُمَّ لِتَعْلَمَ أَنَّ « رَحْمَانٌ » هُوَ الْإِسْمُ ، وَهُوَ لِلذَّاتِ ؛ وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ ، اللَّذَانِ لِلتَّعْرِيْفِ ، هُمَا الصِّفَاتُ ؛ وَلِذٰلِكَ يُقَالُ : « رَحْمَانٌ » مَعَ زَوَالِهِمَا ؛ كَمَا يُقَالُ : ذَاتٌ ، وَلَا تُسَمَّى صِفَةٌ مَعَهَا . أُنْظُرْ فِي اسْمِ مُسَيْلِمَةِ الْكَذَّابِ : تَسَمَّى بِرَحْمَانٍ ، وَلَمْ يُهْدَ إِلَى الْأَلِفِ وَاللَّامِ ؛ لِأَنَّ الذَّاتَ مَحَلُّ الدَّعْوَى عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ ، وَبِالصِّفَاتِ يَفْتَضِحُ الْمُدَّعِي .

فَ « رَحْمَانٌ » مَقَامُ الْجَمْعِ ، وَهُوَ مَقَامُ الْجَهْلِ . أَشْرَفُ مَا يُرْتَقَىٰ إِلَيْهِ فِي طَرِيْقِ اللّٰهِ : اَلْجَهْلُ بِهِ – تَعَالَى ! – وَمَعْرِفَةُ الْجَهْلِ بِهِ ، فَإِنَّهَا حَقِيْقَةُ الْعُبُوْدِيَّةِ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ = فَجَرَّدَكَ . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هٰذَا ، قَوْلُهُ – تَعَالَى ! – : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ .

فَبِحَقِيْقَةِ الْإِسْتِخْلَافِ سُلِبَ مُسَيْلِمَةُ وَإِبْلِيْسَ وَالدَّجَّالُ ؛ وَكَانَ مِنْ حَالِهِمْ مَا عُلِمَ . فَلَوِ اسْتَحَقُّوْهُ (أَيِ الْإِسْتِخْلَافُ) ذَاتًا (لَ) مَا سُلِبُوْهُ أَلْبَتَّةَ . وَلٰكِنْ إِنْ نَظَرْتَ بِعَيْنِ التَّنْفِيْذِ وَالْقُبُوْلِ الْكُلِّيِّ ، لَا بِعَيْنِ الْأَمْرِ (فَحَسْبُ) ، وَجَدْتَ الْمُخَالِفَ طَائِعًا ، وَالْمُعْوَجَّ ، مُسْتَقِيْمًا ؛ وَالْكُلُّ دَاخِلٌ فِي الرِّقِّ ، شَاءُوْا أَمْ أَبَوْا . فَأَمَّا إِبْلِيْسُ وَمُسَيْلِمَةُ فَصَرَّحَا بِالْعُبُوْدِيَّةِ ؛ وَالدَّجَّالُ أَبَى . فَتَأَمَّلْ مِنْ أَيْنَ تَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ؟ وَمَا (هِيَ) الْحَقَائِقُ الَّتِي لَاحَتْ لَهُمْ حَتَّى أَوْجَبَتْ لَهُمْ هٰذِهِ الْأَحْوَالُ ؟

تتمة :

(اِخْتِفَاءُ الْأَلِفِ وَاللَّامِ نُطْقًا فِي الْبَسْمَلَةِ)

لَمَّا نَطَقْنَا (دَفْعَةً وَاحِدَةً) بِقَوْلِهِ (– تَعَالَى ! –) : ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لَمْ يَظْهَرْ لِلْأَلِفِ وَاللَّامِ وُجُوْدٌ : فَصَارَ الْاِتِّصَالُ مِنَ الذَّاتِ لِلذَّاتِ ! وَ « اللهُ » وَ « الرَّحْمٰنُ » اِسْمَانِ لِلذَّاتِ : فَرَجَعَ عَلَى نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ! وَلِهٰذَا قَالَ ﷺ : ﴿ وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْكَ ﴾ = لَمَّا انْتَهَى (ﷺ) إِلَى الذَّاتِ لَمْ يَرَ غَيْرًا ؛ وَقَدْ قَالَ : « أَعُوْذُ بِكَ » وَلَا بُدَّ مِنْ مُسْتَعَاذٍ مِنْهُ . فَكَشَفَ (الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ) لَهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : « مِنْكَ ! » . وَ « مِنْكَ » = هُوَ ! وَالدَّلِيْلُ عَلَيْهِ : « أَعُوْذُ » . وَلَا يَصِحُّ (لَهُ ﷺ) أَنْ يُفَصِّلَ : فَإِنَّهُ فِي الذَّاتِ ، وَلَا يَجُوْزُ التَّفْصِيْلُ فِيْهَا .

فَتَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا أَنَّ « كَلِمَةَ اللهِ » هِيَ الْعَبْدُ . فَكَمَا أَنَّ لَفْظَةَ « اللهِ » لِلذَّاتِ دَلِيْلٌ ، كَذٰلِكَ الْعَبْدُ الْجَامِعُ الْكُلِّيُّ . فَالْعَبْدُ هُوَ كَلِمَةُ الْجَلَالَةِ ! قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِيْنَ ، فِي حَالٍ مَّا : « أَنَا اللهُ ! » . وَقَالَهَا أَيْضًا بَعْضُ الصُّوْفِيَّةِ مِنْ مَقَامَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ . وَشَتَّانِ بَيْنَ مَقَامِ الْمَعْنَى وَمَقَامِ الْحَرْفِ الَّذِي وُجِدَ لَهُ . فَقَابَلَ – تَعَالَى ! – الْحَرْفَ بِالْحَرْفِ (فِي قَوْلِهِ) : « أَعُوْذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ! » . وَقَابَلَ الْمَعْنَى بِالْمَعْنَى (فِي قَوْلِهِ) : « وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْكَ ! » . وَهٰذَا غَايَةُ الْمَعْرِفَةِ .

خاتمة :

(اَلْفَرْقُ بَيْنَ اللهِ وَالرَّحْمٰنِ)

وَلَعَلَّكَ تُفَرِّقُ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الرَّحْمٰنِ لَمَّا تَعَرَّضَ لَكَ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ – تَعَالَى ! – ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ وَلَمْ يَقُوْلُوْا : وَمَا اللهُ ؟ وَلَمَّا قِيْلَ لَهُمْ : ﴿ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ قَالُوْا : ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ ؟ وَلِهٰذَا كَانَ النَّعْتُ أَوْلَى مِنَ الْبَدَلِ عِنْدَ قَوْمٍ ؛ وَعِنْدَ آخَرِيْنَ ، الْبَدَلُ أَوْلَى لِقَوْلِهِ – تَعَالَى ! – ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ = فَجَعَلَهُمَا (اِسْمَيْنِ) لِلذَّاتِ .

وَلَمْ تُنْكِرِ الْعَرَبُ كَلِمَةَ « اللهِ » ؛ فَإِنَّهُمُ الْقَائِلُوْنَ : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ = فَعَلِمُوْهُ . وَلَمَّا كَانَ « الرَّحْمٰنُ » يُعْطِي الْاِشْتِقَاقَ مِنَ الرَّحْمَةِ – وَهِيَ صِفَةٌ مَوْجُوْدَةٌ فِيْهِمْ – ، خَافُوْا أَنْ يَكُوْنَ الْمَعْبُوْدُ ، الَّذِي يَدُلُّهُمْ (الرَّسُوْلُ) عَلَيْهِ ، مِنْ جِنْسِهِمْ ؛ فَأَنْكَرُوْا وَقَالُوْا : « وَمَا الرَّحْمٰنُ ؟ » . لَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْ شَرْطِ كُلِّ كَلَامٍ أَنْ يُفْهَمَ مَعْنَاهُ ، وَلِهٰذَا قَالَ : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ لَمَّا كَانَ اللَّفْظَانِ رَاجِعَيْنِ إِلَى ذَاتٍ وَاحِدَةٍ . وَذٰلِكَ حَقِيْقَةُ الْعَبْدِ ، وَالْبَارِي مُنَزَّهٌ عَنْ إِدْرَاكِ التَّوَهُّمِ وَالْعِلْمِ الْمُحِيْطِ بِهِ – جَلَّ عَنْ ذٰلِكَ !

وصل :
فِي قَوْلِهِ : « الرَّحِيْمِ » مِنَ الْبَسْمَلَةِ

« اَلرَّحِيْمُ » صِفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . وَبِهِ كَمَالُ الْوُجُوْدِ . وَبِالرَّحِيْمِ تَمَّتِ الْبَسْمَلَةُ ؛ وَبِتَمَامِهَا تَمَّ الْعَالَمُ خَلْقًا وَإِبْدَاعًا . وَكَانَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – مُبْتَدَأَ وُجُوْدِ الْعَالَمِ عَقْلًا وَنَفْسًا . – « مَتَى كُنْتَ نَبِيًّا ؟ » قَالَ : ﴿ **وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّيْنِ** ﴾ = فَبِهِ بَدَأَ (الْحَقُّ) الْوُجُوْدَ بَاطِنًا ؛ وَبِهِ خَتَمَ (– تَعَالَى ! –) الْمَقَامَ ظَاهِرًا فِي عَالَمِ التَّخْطِيْطِ ، فَقَالَ : ﴿ **لَا رَسُوْلَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ** ﴾ .

فَالرَّحِيْمُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَ « بِسْمِ » هُوَ أَبُوْنَا آدَمُ . وَأَعْنِي فِي مَقَامِ اِبْتِدَاءِ الْأَمْرِ وَنِهَايَتِهِ . وَذٰلِكَ أَنَّ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – هُوَ حَامِلُ الْأَسْمَاءِ ، قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَامِلُ مَعَانِي تِلْكَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي حَمَلَهَا آدَمُ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! – ، وَهِيَ « الْكَلِمُ » ؛ فَقَالَ ﷺ : ﴿ **أُوْتِيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** ﴾ . وَمَنْ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ (هُوَ) أَمْكَنُ وَأَتَمُّ مِمَّنْ أُثْنَى عَلَيْهِ ، كَيَحْيَى وَعِيْسَى – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! – . وَمَنْ حَصَلَ لَهُ الذَّاتُ ، فَالْأَسْمَاءُ تَحْتَ حُكْمِهِ . وَلَيْسَ مَنْ حَصَّلَ الْأَسْمَاءَ أَنْ يَكُوْنَ الْمُسَمَّى مُحَصَّلًا عِنْدَهُ .

وَبِهٰذَا فُضِّلَتِ الصَّحَابَةُ عَلَيْنَا : فَإِنَّهُمْ حَصَّلُوْا الذَّاتَ وَحَصَّلْنَا الْاِسْمَ . وَلَمَّا رَاعَيْنَا الْاِسْمَ ، مُرَاعَاتَهُمُ الذَّاتِ ، ضُوْعِفَ لَنَا الْأَجْرُ – وَالحَسْرَةِ الْغَيْبَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لَهُمْ : فَكَانَ تَضْعِيْفٌ عَلَى تَضْعِيْفٍ . فَنَحْنُ الْإِخْوَانُ ، وَهُمُ الْأَصْحَابُ . وَهُوَ ﷺ إِلَيْنَا بِالْأَشْوَاقِ . وَمَا أَفْرَحَهُ بِلِقَاءِ وَاحِدٍ مِنَّا ! وَكَيْفَ لَا يَفْرَحُ ، وَقَدْ وَرَدَ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ بِالْأَشْوَاقِ إِلَيْهِ ؟ فَهَلْ تُقَاسُ كَرَامَتُهُ بِهِ وَبِرُّهُ وَتَحَفِّيْهِ ؟ وَلِلْعَامِلِ مِنَّا أَجْرُ خَمْسِيْنَ مِمَّنْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَصْحَابِهِ ، لَا مِنْ أَعْيَانِهِمْ لٰكِنْ مِنْ أَمْثَالِهِمْ . فَذٰلِكَ قَوْلُهُ (ﷺ) : ﴿ **بَلْ مِنْكُمْ** ﴾ . فَجِدُّوْا وَاجْتَهِدُوْا حَتَّى يَعْرِفُوْا أَنَّهُمْ خَلَّفُوْا بَعْدَهُمْ رِجَالًا لَوْ أَدْرَكُوْهُ (ﷺ) لَمَا سَبَقُوْهُمْ إِلَيْهِ . وَمِنْ هُنَا تَقَعُ الْمُجَازَاةُ . – وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ !

تنبيه :
(حَمَلَةُ الْعَرْشِ الْمُحِيْطِ فِي الْبَسْمَلَةِ)

ثُمَّ لِتَعْلَمَ أَنَّ « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ » أَرْبَعَةُ أَلْفَاظٍ ، لَهَا أَرْبَعَةُ مَعَانٍ : فَتِلْكَ ثَمَانِيَةٌ . وَهُمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ الْمُحِيْطِ . وَهُمْ مِنَ الْعَرْشِ . وَهُنَا هُمُ الْحَمَلَةُ مِنْ وَجْهٍ ، وَالْعَرْشُ مِنْ وَجْهٍ . فَانْظُرْ وَاسْتَخْرِجْ مِنْ ذَاتِكَ لِذَاتِكَ .

تنبيه :
(مِيْمُ « بِسْمِ » وَمِيْمُ « الرَّحِيْمِ »)

ثُمَّ وَجَدْنَا مِيْمَ « بِسْمِ » الَّذِي هُوَ آدَمُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – مُعَرَّقًا ؛ وَوَجَدْنَا مِيْمَ « الرَّحِيْمِ » مُعَرَّقًا ، الَّذِي هُوَ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيْمًا ! – . فَعَلِمْنَا أَنَّ مَادَّةَ مِيْمِ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – (إِنَّمَا هِيَ) لِوُجُوْدِ عَالَمِ التَّرْكِيْبِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوْثًا . وَعَلِمْنَا أَنَّ مَادَّةَ مِيْمِ مُحَمَّدٍ ﷺ (إِنَّمَا هِيَ) لِوُجُوْدِ الْخِطَابِ عُمُوْمًا ، كَمَا كَانَ آدَمُ ، عِنْدَنَا ، عُمُوْمًا . فَلِهَذاَ امْتَدَّا (= مِيْمُ آدَمَ وَمِيْمُ مُحَمَّدٍ) .

إنباه :
(أَيَّامُ الرَّبِّ وَالْبَسْمَلَةُ)

قَالَ سَيِّدُنَا الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى : ﴿ **إِنْ صَلُحَتْ أُمَّتِي فَلَهَا يَوْمٌ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَلَهَا نِصْفُ يَوْمٍ** ﴾ . وَالْيَوْمُ رَبَّانِيٌّ ، فَإِنَّ « أَيَّامَ الرَّبِّ » كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا نَعُدُّهُ . بِخِلَافِ « أَيَّامِ اللهِ » وَ « أَيَّامِ ذِي الْمَعَارِجِ » ، فَإِنَّ هٰذِهِ الْأَيَّامَ أَكْبَرُ فَلَكًا مِنْ « أَيَّامِ الرَّبِّ » . وَسَيَأْتِي – إِنْ شَاءَ اللهُ – ذِكْرُهَا فِي دَاخِلِ الْكِتَابِ ، فِي (فَصْلِ) « مَعْرِفَةِ الْأَزْمَانِ » . وَصَلَاحُ الْأُمَّةِ بِنَظَرِهَا إِلَيْهِ ﷺ ، وَفَسَادُهَا بِإِعْرَاضِهَا عَنْهُ .

فَوَجَدْنَا « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » يَتَضَمَّنُ أَلْفَ مَعْنًى ، كُلُّ مَعْنًى لَا يَحْصُلُ إِلَّا بَعْدَ انْقِضَاءِ حَوْلٍ . وَلَا بُدَّ مِنْ حُصُوْلِ هٰذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي تَضَمَّنَهَا « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ » ، لِأَنَّهُ مَا ظَهَرَ إِلَّا لِيُعْطِي مَعْنَاهُ ، فَلَا بُدَّ مِنْ كَمَالِ أَلْفِ سَنَةٍ لِهٰذِهِ الْأُمَّةِ . وَهِيَ فِي أَوَّلِ « دَوْرَةِ الْمِيْزَانِ » ، وَمُدَّتُهَا سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ رُوْحَانِيَّةً مُحَقَّقَةً . وَلِهٰذَا ظَهَرَ فِيْهَا (أَيْ فِي الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ) مِنَ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ مَا لَمْ يَظْهَرْ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ . فَإِنَّ الدَّوْرَةَ الَّتِي انْقَضَتْ (قَبْلَ ابْتِدَاءِ الدَّوْرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ) كَانَتْ تُرَابِيَّةً ؛ فَغَايَةُ عِلْمِهِمْ بِالطَّبَائِعِ ، وَالْإِلٰهِيُّوْنَ فِيهِمْ غُرَبَاءُ ، قَلِيْلُوْنَ جِدًّا ، يَكَادُ لَا يَظْهَرُ لَهُمْ عَيْنٌ . ثُمَّ إِنَّ الْمُتَأَلِّهِ مِنْهُمْ مُمْتَزِجٌ بِالطَّبِيْعَةِ وَلَا بُدَّ ، وَالْمُتَأَلِّهُ مِنَّا صِرْفٌ خَالِصٌ لَا سَبِيْلَ لِحُكْمِ الطَّبْعِ عَلَيْهِ .

مفتاح :
(أَلِفُ الذَّاتِ فِي « اللهِ » وَأَلِفُ الْعِلْمِ فِي « الرَّحْمٰنِ »)

ثُمَّ وَجَدْنَا فِي « اللهِ » وَفِي « الرَّحْمٰنِ » أَلِفَيْنِ : أَلِفَ الذَّاتِ وَأَلِفَ الْعِلْمِ . أَلِفُ الذَّاتِ خَفِيَّةٌ ، وَأَلِفُ الْعِلْمِ ظَاهِرَةٌ لِتَجَلِّي الصِّفَةِ عَلَى الْعَالَمِ . ثُمَّ أَيْضًا خَفِيَتْ فِي اللهِ وَلَمْ تَظْهَرْ ، لِرَفْعِ الِالْتِبَاسِ فِي الْخَطِّ بَيْنَ « اللهِ » وَ « اللَّاهِ » .

وَوَجَدْنَا فِي « بِسْمِ » ، الَّذِي هُوَ آدَمُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – ، أَلِفًا وَاحِدَةً خَفِيَتْ لِظُهُوْرِ الْبَاءِ ؛ وَوَجَدْنَا فِي « الرَّحِيْمِ » ، الَّذِي هُوَ **مُحَمَّدٌ** ﷺ ، أَلِفًا وَاحِدَةً ظَاهِرَةً ، وَهِيَ أَلِفُ الْعِلْمِ . – وَنَفْسُ سَيِّدِنَا **مُحَمَّدٍ** ﷺ (هِيَ) الذَّاتُ . – فَخَفِيَتْ فِي آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – الْأَلِفُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُرْسَلًا إِلَى أَحَدٍ ، فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى ظُهُوْرِ الصِّفَةِ . وَظَهَرَتْ فِي سَيِّدِنَا **مُحَمَّدٍ** ﷺ لِكَوْنِهِ مُرْسَلًا ؛ فَطَلَبَ التَّأْيِيْدَ فَأُعْطِيَ الْأَلِفَ ، فَظَهَرَ بِهَا .

ثُمَّ وَجَدْنَا الْبَاءَ مِنْ « بِسْمِ » قَدْ عَمِلَتْ فِي مِيْمِ « الرَّحِيْمِ » : فَكَانَ عَمَلَ آدَمَ فِي **مُحَمَّدٍ** ﷺ وُجُوْدُ التَّرْكِيْبِ . وَفِي « اللهِ » عَمِلَ (« بِسْمِ ») بِسَبَبٍ دَاعٍ ؛ وَفِي « الرَّحْمٰنِ » عَمِلَ بِسَبَبٍ مَدْعُوٍّ . لَمَّا رَأَيْنَا أَنَّ النِّهَايَةَ أَشْرَفُ مِنَ الْبِدَايَةِ ، قُلْنَا : ﴿ **مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ** ﴾ . وَالْاِسْمُ سُلَّمٌ إِلَى الْمُسَمَّىٰ . وَلَمَّا عَلِمْنَا أَنَّ رُوْحَ « الرَّحِيْمِ » عَمِلَ فِي رُوْحِ « بِسْمِ » ، لِكَوْنِهِ ﴿ **نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّيْنِ** ﴾ – وَلَوْلَاهُمَا (أَيْ لَوْلَا الْمَاءُ وَالطِّيْنُ) مَا كَانَ سُمِّيَ آدَمَ – ، عَلِمْنَا أَنَّ « بِسْمِ » هُوَ « الرَّحِيْمُ » : إِذْ لَا يَعْمَلُ شَيْءٌ إِلَّا مِنْ نَفْسِهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ . فَانْعَدَمَتِ النِّهَايَةُ وَالْبِدَايَةُ ، وَالشِّرْكُ وَالتَّوْحِيْدُ ؛ وَظَهَرَ عِزُّ الْاِتِّحَادِ وَسُلْطَانُهُ ! فَمُحَمَّدٌ لِلْجَمْعِ ، وَآدَمُ لِلتَّفْرِيْقِ .

إيضاح :
(أَحْرُفُ « الرَّحِيْمِ » وَدَلَالَتُهَا الْغَيْبِيَّةُ)

اَلدَّلِيْلُ عَلَى أَنَّ الْأَلِفَ فِي قَوْلِهِ : « الرَّحِيْمِ » ، أَلِفُ الْعِلْمِ (هُوَ) قَوْلُهُ (– تَعَالَى ! –) : ﴿ **وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ** ﴾ ؛ وَفِي أَلِفِ « بِاسْمِ » (قَوْلُهُ فِي صَدْرِ الْآيَةِ) : ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ** ﴾ = فَالْأَلِفُ ، الْأَلِفُ ! – ﴿ **وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ** ﴾ – بَاطِنُ التَّوْحِيْدِ ؛ – ﴿ **وَلَآ أَكْثَرَ** ﴾ = يُرِيْدُ ظَاهِرَهُ .

ثُمَّ خَفِيَتِ الْأَلِفُ فِي « آدَمَ – بِاسْمِ » ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَوْجُوْدٍ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مُنَازِعٌ يَدَّعِي مَقَامَهُ ؛ فَدَلَّ بِذَاتِهِ ، مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ ، عَلَى وُجُوْدِ مُوْجِدِهِ لَمَّا كَانَ مُفْتَتَحَ وُجُوْدِنَا . وَذٰلِكَ لَمَّا نَظَرَ (آدَمُ) فِي وُجُوْدِهِ ، تَعَرَّضَ لَهُ أَمْرَانِ : هَلْ أَوْجَدَهُ مَوْجُوْدٌ لَا أَوَّلَ لَهُ ؟ أَوْ

هَلْ أَوْجَدَ هُوَ نَفْسُهُ ؟ وَمُحَالٌ أَنْ يُوْجَدَ هُوَ نَفْسُهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَخْلُوْ أَنْ يُوْجِدَ نَفْسَهُ وَهُوَ مَوْجُوْدٌ ؛ أَوْ يُوْجِدَهَا وَهُوَ مَعْدُوْمٌ . فَإِنْ كَانَ مَوْجُوْدًا فَمَا الَّذِي أَوْجَدَ ؟ وَإِنْ كَانَ مَعْدُوْمًا فَكَيْفَ يَصِحُّ مِنْهُ إِيْجَادٌ وَهُوَ عَدَمٌ ؟ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُوْجِدَهُ غَيْرُهُ ، وَهُوَ الْأَلِفُ . وَلِذٰلِكَ كَانَتِ السِّيْنُ سَاكِنَةً ، وَهُوَ الْعَدَمُ ؛ وَ (كَانَتِ) الْمِيْمُ مُتَحَرِّكَةً ، وَهُوَ أَوَانُ الْإِيْجَابِ .

فَلَمَّا دَلَّ (بِسْمِ – آدَمُ) عَلَيْهِ (أَيْ عَلَى الْأَلِفِ) مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ ، خَفِيَتِ الْأَلِفُ (فِي بِسْمِ) لِقُوَّةِ الدَّلَالَةِ ؛ وَظَهَرَتِ (الْأَلِفُ) فِي « الرَّحِيْمِ » لِضَعْفِ الدَّلَالَةِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ لِوُجُوْدِ الْمُنَازِعِ . فَأَيَّدَهُ (مُوْجِدُهُ الْحَقُّ) بِالْأَلِفِ . فَصَارَ « الرَّحِيْمُ » مُحَمَّدًا ؛ وَالْأَلِفُ مِنْهُ (هُوَ) الْحَقُّ الْمُؤَيِّدُ لَهُ مِن اسْمِهِ « الظَّاهِرِ » . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ .

فَقَالَ (ﷺ) : ﴿ **قُوْلُوْا : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَإِنِّي رَسُوْلُهُ** ﴾ . فَمَنْ آمَنَ بِلَفْظِهِ (أَيْ بِلِسَانِهِ ، أَيْ بِقَوْلِ : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ) ، لَمْ يَخْرُجْ مِنْ رِقِّ الشِّرْكِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؛ وَمَنْ آمَنَ بِمَعْنَاهُ (أَيْ بِقَلْبِهِ ، أَيْ بِمَعْنَى : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ) – اِنْتَظَمَ فِي سِلْكِ التَّوْحِيْدِ ، فَصَحَّتْ لَهُ الْجَنَّةُ الثَّامِنَةُ ، وَكَانَ مِمَّنْ آمَنَ بِنَفْسِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ فِي مِيْزَانِ غَيْرِهِ : إِذْ قَدْ وَقَعَتِ السَّوِيَّةُ . وَاتَّحَدَتِ الْاِصْطِفَائِيَّةُ جَمْعًا ، وَاخْتَلَفَتْ رِسَالَةً .

(نُقَطُ الْبَسْمَلَةِ وَدَلَالَتُهَا الْغَيْبِيَّةُ)

وَوَجَدْنَا « بِسْمِ » ذَا نُقْطَةٍ ، وَ « الرَّحْمٰنُ » كَذٰلِكَ ، وَ « الرَّحِيْمُ » ذَا نُقْطَتَيْنِ . وَ « اللهُ » مُصْمَتٌ . فَلَمْ تُوْجَدِ (النُّقْطَةُ) فِي « اللهِ » لَمَّا كَانَ (مَحَلَّ) الذَّاتِ . وَوُجِدَتِ (النُّقْطَةُ) فِيْمَا بَقِيَ (مِنَ الْبَسْمَلَةِ) لِكَوْنِهِمْ مَحَلَّ الصِّفَاتِ . فَاتَّحَدَتِ (النُّقْطَةُ) فِي « بِسْمِ » = « آدَمَ » لِكَوْنِهِ فَرْدًا غَيْرَ مُرْسَلٍ ؛ وَاتَّحَدَتِ (النُّقْطَةُ كَذٰلِكَ) فِي « الرَّحْمٰنِ » لِأَنَّهُ آدَمُ (الْحَقِيْقِيُّ) ، وَهُوَ الْمُسْتَوَى عَلَى عَرْشِ الْكَائِنَاتِ الْمُرَكَّبَاتِ ؛ وَبَقِيَ الْكَلَامُ عَلَى نُقْطَتَيْ « الرَّحِيْمِ » مَعَ ظُهُوْرِ الْأَلِفِ .

فَالْيَاءُ (فِي « الرَّحِيْمِ » رَمْزُ) « اللَّيَالِي الْعَشْرِ » ؛ وَالنُّقْطَتَانِ : « الشَّفْعُ » ؛ وَالْأَلِفُ : « الْوِتْرُ » . وَالْاِسْمُ (الرَّحِيْمُ) بِكُلِّيَّتِهِ : « وَالْفَجْرِ » ، وَمَعْنَاهُ الْبَاطِنُ الْجَبَرُوْتِيُّ . « وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِى » وَهُوَ الْغَيْبُ الْمَلَكُوْتِيُّ . وَتَرْتِيْبُ النُّقْطَتَيْنِ : الْوَاحِدَةُ مِمَّا تَلِي الْمِيْمَ ، وَالثَّانِيَةُ مِمَّا تَلِي الْأَلِفَ . وَالْمِيْمُ (هُوَ رَمْزُ) وُجُوْدِ الْعَالَمِ الَّذِي بُعِثَ فِيْهِمْ . وَالنُّقْطَةُ الَّتِي تَلِيْهِ (أَيْ تَلِي الْمِيْمَ) : أَبُوْ بَكْرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! – وَالنُّقْطَةُ الَّتِي تَلِي الْأَلِفَ : مُحَمَّدٌ ﷺ .

وَقَدْ تَقَبَّبَتِ الْيَاءُ عَلَيْهِمَا (أَيْ عَلَى النُّقْطَتَيْنِ ، أَيْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَبِي بَكْرٍ) كَالْغَارِ : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ التوبة: ٤٠ فَإِنَّهُ (أَيْ أَبَا بَكْرٍ) وَاقِفٌ مَعَ صِدْقِهِ ؛ وَمُحَمَّدٌ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – وَاقِفٌ مَعَ الْحَقِّ فِي الْحَالِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ : فَهُوَ الْحَكِيْمُ . كَفِعْلِهِ (ﷺ) يَوْمَ بَدْرٍ فِي الدُّعَاءِ وَالْإِلْحَاحِ ، وَأَبُوْ بَكْرٍ عَنْ ذٰلِكَ صَاحٍ . فَإِنَّ الْحَكِيْمَ (هُوَ الَّذِي) يُوَفِّي الْمَوَاطِنَ حَقَّهَا .

وَلَمَّا لَمْ يَصِحَّ اجْتِمَاعُ صَادِقَيْنِ مَعًا ، لِذٰلِكَ لَمْ يُقِمْ أَبُوْ بَكْرٍ فِي حَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَثَبَتَ مَعَ صِدْقِهِ ؛ فَلَوْ فُقِدَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذٰلِكَ الْمَوْطِنِ وَحَضَرَهُ أَبُوْ بَكْرٍ ، لَقَامَ فِي ذٰلِكَ الْمَقَامِ الَّذِي أُقِيْمَ فِيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ . لِأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ أَعْلَى مِنْهُ يَحْجُبُهُ عَنْ ذٰلِكَ . فَهُوَ (– رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! –) صَادِقُ ذٰلِكَ الْوَقْتِ وَحَكِيْمُهُ وَمَا سِوَاهُ تَحْتَ حُكْمِهِ .

فَلَمَّا نَظَرَتْ نُقْطَةُ أَبِي بَكْرٍ إِلَى الطَّالِبِيْنَ (أَثَرَهُمَا) أَسِفَ عَلَيْهِ (أَيْ عَلَى النَّبِيِّ) ؛ فَأَظْهَرَ الشِّدَّةَ ، وَغَلَّبَ الصِّدْقَ ، وَقَالَ : ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ = لِأَثَرِ ذٰلِكَ الْأَسَفِ (عَلَى النَّبِيِّ) : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ = كَمَا أَخْبَرْتَنَا . – وَإِنْ جَعَلَ مُنَازِعٌ أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الْقَائِلُ : لَمْ نُبَالِ ! لَمَّا كَانَ مَقَامُهُ ﷺ الْجَمْعَ وَالتَّفْرِقَةَ مَعًا ؛ وَعَلِمَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ الْأَسَفَ ؛ وَنَظَرَ إِلَى الْأَلِفِ فَتَأَيَّدَ ؛ وَعَلِمَ أَنَّ أَمْرَهُ مُسْتَمِرٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قَالَ : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ .

وَهٰذَا أَشْرَفُ مَقَامٍ يُنْتَهَى إِلَيْهِ (الَّذِي هُوَ) تَقَدُّمُ اللهِ عَلَيْكَ ! « مَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا رَأَيْتُ اللهَ قَبْلَهُ » = شُهُوْدٌ بَكْرِيٌّ ، وِرَاثَةٌ مُحَمَّدِيَّةٌ . وَخَاطَبَ (الرَّسُوْلُ) النَّاسَ بِـ﴿ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ ﴾ وَهُوَ قَوْلُهُ يُخْبِرُ عَنْ رَبِّهِ – تَعَالَى ! – . ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ .

وَالْمَقَالَةُ ، عِنْدَنَا ، إِنَّمَا كَانَتْ لِأَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! – . وَيُؤَيِّدُنَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ **لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيْلًا ، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيْلًا !** ﴾ . فَالنَّبِيُّ ﷺ لَيْسَ بِمُصَاحِبٍ ؛ وَبَعْضُهُمْ أَصْحَابُ بَعْضٍ ، وَهُمْ لَهُ أَنْصَارٌ وَأَعْوَانٌ . فَافْهَمْ إِشَارَتَنَا تُهْدَ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيْلِ !

لطيفة :
(اَلنُّقْطَتَانِ وَالْقَدَمَانِ)

اَلنُّقْطَتَانِ « الرَّحِيْمِيَّةُ » (هُمَا) مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ ؛ وَهُوَ أَخْذُ خَلْعِ النَّعْلَيْنِ ، (نَعْلَيْ) الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . وَالْأَلِفُ : « اَللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ » = وَهِيَ غَيْبُ مُحَمَّدٍ ﷺ . ثُمَّ فَرَقَ فِيْهِ إِلَى « نُقْطَتَيْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ » وَهُوَ قَوْلُهُ – تعالى ! – : ﴿ **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ﴾ = وَهُوَ الْكُرْسِيُّ . وَالْحَاءُ : اَلْعَرْشُ . وَالْمِيمُ : مَا حَوَاهُ (الْعَرْشُ) . وَالْأَلِفُ : حَدُّ الْمُسْتَوَىٰ . وَالرَّاءُ : صَرِيْفُ الْقَلَمِ . وَالنُّوْنُ : اَلدَّوَاةُ الَّتِي فِي اللَّامِ .

فَكَتَبَ (الْقَلَمُ) مَا كَانَ وَمَا يَكُوْنُ فِي قِرْطَاسِ لَوْحِ الرَّحِيْمِ ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوْظُ ، الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِـ« كُلِّ شَيْءٍ » فِي الْكِتَابِ الْعَزِيْزِ ، مِنْ بَابِ الْإِشَارَةِ وَالتَّنْبِيْهِ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ** ﴾ = وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوْظُ ؛ – ﴿ **مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ** ﴾ = وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوْظُ الْجَامِعُ . ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أُوْتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ﴾ = مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا .

وَ (نُقْطَتَا الرَّحِيْمِيَّةِ) هُمَا نُقْطَتَا الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِكُلِّ شَيْءٍ (اَللَّتَانِ هُمَا) غَيْبُ مُحَمَّدٍ (الَّذِي هُوَ) الْأَلِفُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِاللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ .

(اَلْأَنْجَمُ السَّبْعُ فِي الرَّحِيْمِ)

فَالْأَلِفُ (فِي الْإِسْمِ الرَّحِيْمِ) لِلْعِلْمِ ، وَهُوَ الْمُسْتَوَىٰ ؛ وَاللَّامُ لِلْإِرَادَةِ ، وَهُوَ النُّوْنُ – أَعْنِي الدَّوَاةَ – ؛ وَالرَّاءُ لِلْقُدْرَةِ ، وَهُوَ الْقَلَمُ ؛ وَالْحَاءُ لِلْعَرْشِ ؛ وَالْيَاءُ لِلْكُرْسِيِّ ؛ وَرَأْسُ الْمِيْمِ لِلسَّمَاءِ ؛ وَتَعْرِيْقُهُ لِلْأَرْضِ . فَهٰذِهِ سَبْعَةُ أَنْجُمٍ : نَجْمٌ مِنْهَا يُسَبِّحُ فِي فَلَكِ الْجِسْمِ ؛ وَنَجْمٌ فِي فَلَكِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ ؛ وَنَجْمٌ فِي فَلَكِ سِرِّ النَّفْسِ ، وَهُوَ الصِّدِّيْقِيَّةُ ؛ وَنَجْمٌ فِي فَلَكِ الْقَلْبِ ؛ وَنَجْمٌ فِي فَلَكِ الْعَقْلِ ؛ وَنَجْمٌ فِي فَلَكِ الرُّوْحِ .

فَحُلَّ مَا قَفَلْنَا . وَفِيْمَا قَرَّرْنَا مِفْتَاحٌ لِمَا أَضْمَرْنَا . فَاطْلُبْ تَجِدْ ، إِنْ شَاءَ اللّٰهُ ! فَ « بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ » ، وَإِنْ تَعَدَّدَ ، فَهُوَ وَاحِدٌ إِذَا حُقِّقَ مِنْ وَجْهٍ مَّا .

وصل :
(فِي أَسْرَارِ أُمِّ الْقُرْآنِ مِنْ طَرِيْقٍ خَاصٍّ)

وَهِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيْمُ ، وَالْكَافِيَّةُ . وَالْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْهَا . وَهِيَ تَتَضَمَّنُ الرَّبُّ وَالْعَبْدُ . وَلَنَا فِي تَقْسِيْمِهَا قَرِيْضٌ ، مِنْهُ :

لِلنَّيِّرَيْـنِ طُـلُوْعٌ بِالْفُـؤَادِ فَمَـا ... فِي سُـوْرَةِ الْحَمْدِ يَبْدُوْ ثَالِثٌ لَهُمَا
فَالْبَدْرُ مَحْوٌ وَشَمْسُ الذَّاتِ مُشْرِقَةٌ ... لَوْلَا الشُّـرُوْقُ لَقَـدْ أَلْفَيْتَهُ عَدَمَا
هٰذِي النُّجُوْمُ بِأُفُقِ الشَّرْقِ طَالِعَةٌ ... وَالْبَـدْرُ لِلْمَغْـرِبِ الْعَقْلِيِّ قَدْ لَزِمَا
فَإِنْ تَبَـدَّىٰ فَـلَا نَجْـمٌ وَلَا قَمَـرٌ ... يَلُوْحُ فِي الْفَلَكِ الْعُلْوِيِّ مُرْتَسِـمَا

(اَلْكِتَابُ مِنْ بَابِ الْإِشَارَةِ)

فَهِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ . لِأَنَّ الْكِتَابَ عِبَارَةٌ ، مِنْ بَابِ الْإِشَارَةِ ، عَنِ الْمُبْدَعِ الْأَوَّلِ . فَالْكِتَابُ يَتَضَمَّنُ الْفَاتِحَةَ وَغَيْرَهَا ، لِأَنَّهَا مِنْهُ . وَإِنَّمَا صَحَّ لَهَا اِسْمُ « الْفَاتِحَةِ » مِنْ

حَيْثُ إِنَّهَا أَوَّلُ مَا افْتُتِحَ بِهَا كِتَابُ الْوُجُوْدِ . – وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمِثْلِ الْمُنَزَّهِ ، فِي (قَوْلِهِ – تَعَالَى ! –) : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ = بِأَنْ تَكُوْنَ الْكَافُ عَيْنَ الصِّفَةِ . فَلَمَّا أَوْجَدَ (الْحَقُّ) الْمِثْلَ ، الَّذِي هُوَ الْفَاتِحَةُ ، أَوْجَدَ بَعْدَهُ الْكِتَابَ ، وَجَعَلَهُ مِفْتَاحًا لَهُ . فَتَأَمَّلْ !

وَ (الْفَاتِحَةُ أَيْضًا) هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ . لِأَنَّ الْأُمَّ مَحَلُّ الْإِيْجَادِ ، وَالْمَوْجُوْدُ فِيْهَا هُوَ الْقُرْآنُ ، وَالْمُوْجِدُ (هُوَ) الْفَاعِلُ فِي الْأُمِّ . فَالْأُمُّ هِيَ الْجَامِعَةُ الْكُلِّيَّةُ ، وَهِيَ أُمُّ الْكِتَابِ الَّذِي عِنْدَهُ ، فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ . فَانْظُرْ عِيْسَى وَمَرْيَمَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! – وَفَاعِلَ الْإِيْجَادِ ، يَخْرُجُ لَكَ عَكْسُ مَا بَدَا لِحِسِّكَ : فَالْأُمُّ ، عِيْسَى ؛ وَالْاِبْنُ ، الَّذِي هُوَ الْكِتَابُ الْعِنْدِيّ أَوِ الْقُرْآنُ ، (هُوَ) مَرْيَمُ – عَلَيْهَا السَّلَامُ ! – فَافْهَمْ !

وَكَذٰلِكَ الرُّوْحُ ، اِزْدَوَجَ مَعَ النَّفْسِ بِوَاسِطَةِ الْعَقْلِ ؛ فَصَارَتِ النَّفْسُ مَحَلَّ الْإِيْجَادِ حِسًّا ؛ وَالرُّوْحُ مَا أَتَاهَا إِلَّا مِنَ النَّفَسِ : فَالنَّفَسُ (هُوَ) الْأَبُ . فَهٰذِهِ النَّفْسُ هِيَ « الْكِتَابُ الْمَرْقُوْمُ » لِنُفُوْذِ الْخَطِّ . فَظَهَرَ فِي الْاِبْنِ مَا خَطَّ الْقَلَمُ فِي الْأُمِّ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْخَارِجُ عَلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ .

وَالْأُمُّ ، أَيْضًا ، (هِيَ) عِبَارَةٌ عَنْ وُجُوْدِ الْمِثْلِ ، مَحَلِّ الْأَسْرَارِ . فَهُوَ (أَيِ الْمِثْلُ) « اَلرَّقُّ الْمَنْشُوْرُ » الَّذِي أُوْدِعَ فِيْهِ « الْكِتَابُ الْمَسْطُوْرُ » ، الْمُوْدِعَةُ فِيْهِ تِلْكَ الْأَسْرَارُ الْإِلٰهِيَّةُ .

فَالْكِتَابُ ، هُنَا ، أَعْلَى مِنَ الْفَاتِحَةِ : إِذِ الْفَاتِحَةُ دَلِيْلٌ ، اَلْكِتَابُ مَدْلُوْلُهَا . وَشَرَفُ الدَّلِيْلِ بِحَسَبِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ . أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ مِفْتَاحًا لِضِدِّ الْكِتَابِ الْمَعْلُوْمِ – أَنْ لَوْ فُرِضَ لَهُ ضِدٌّ – حُقِّرَ الدَّلِيْلُ لِحَقَارَةِ الْمَدْلُوْلِ ؟ وَلِهٰذَا أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَنْ لَا يُسَافِرَ بِالْمُصْحَفِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ » لِدَلَالَةِ تِلْكَ الْحُرُوْفِ عَلَى كَلَامِ اللهِ – تَعَالَى ! – إِذْ قَدْ سَمَّاهَا الْحَقُّ كَلَامَ اللهِ . وَالْحُرُوْفُ الَّذِي فِيْهِ أَمْثَالُهَا وَأَمْثَالُ الْكَلِمَاتِ ، إِذَا لَمْ يَقْصِدْ

بِهَا الدَّلَالَةَ عَلَى كَلَامِ اللهِ يُسَافِرُ بِهَا إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ ، وَيَدْخُلُ بِهَا مَوَاضِعُ النَّجَاسَاتِ وَأَشْبَاهُهَا وَالْكُنُفُ .

(حَضْرَتَا الْجَمْعِ وَالْأَفْرَادِ فِي الْفَاتِحَةِ)

وَهِيَ (أَيْ الْفَاتِحَةُ) « اَلسَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ » . – اَلصِّفَاتُ ظَهَرَتْ فِي الْوُجُوْدِ فِي وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ : فَحَضْرَةٌ تُفْرِدُ ، وَحَضْرَةٌ تَجْمَعُ . فَمِنَ « الْبَسْمَلَةِ » إِلَى ﴿ ٱلدِّينِ ﴾ : إِفْرَادٌ ؛ وَكَذٰلِكَ مِنِ ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ إِلَى ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تُشْمِلُ (أَيْ تَجْمَعُ) .

قَالَ اللهُ – تَعَالَى ! – (فِي الْحَدِيْثِ الْقُدْسِيِّ) : « **قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ** : **فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ** » . فَلَكَ السُّؤَالُ وَمِنْهُ الْعَطَاءُ . كَمَا أَنَّ لَهُ السُّؤَالُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَكَ الْاِمْتِثَالُ .

« **يَقُوْلُ الْعَبْدُ** : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ = **يَقُوْلُ اللهُ** : « **حَمِدَنِي عَبْدِي** » . **يَقُوْلُ الْعَبْدُ** : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ = **يَقُوْلُ اللهُ** : « **أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي** » . **يَقُوْلُ الْعَبْدُ** : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ = **يَقُوْلُ اللهُ** : « **مَجَّدَنِي عَبْدِي** » – **وَمَرَّةً قَالَ** : « **فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي** » » . – هٰذَا إِفْرَادٌ إِلٰهِيٌّ . – وَفِي رِوَايَةٍ : « **يَقُوْلُ الْعَبْدُ** ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ = **يَقُوْلُ اللهُ** : « **ذَكَرَنِي عَبْدِي** » » .

ثُمَّ قَالَ : « **يَقُوْلُ الْعَبْدُ** : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ = **يَقُوْلُ اللهُ** : « **هٰذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ** » » . فَ « مَا » هِيَ الْعَطَاءُ ؛ وَ « إِيَّاكَ » فِي الْمَوْضِعَيْنِ مُلْحَقٌ بِالْإِفْرَادِ الْإِلٰهِيِّ .

« **يَقُوْلُ الْعَبْدُ** : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ = **فَهٰؤُلَاءِ لِعَبْدِي** » . – هٰذَا هُوَ الْإِفْرَادُ الْعَبْدِيُّ الْمَأْلُوْهُ . – « **وَلِعَبدي مَا سَأَلَ** » = سَأَلَ مَأْلُوْهٌ إِلٰهًا .

فَلَمْ تَبْقَ إِلَّا حَضْرَتَانِ : (حَضْرَةُ الرَّبِّ وَحَضْرَةُ الْعَبْدِ) . فَصَحَّ الْمَثَانِي . فَظَهَرَتْ فِي الْحَقِّ وُجُوْدًا ، وَفِي الْعَبْدِ الْكُلِّي إِيْجَادًا . فَوَصَفَ (الْحَقُّ) نَفْسَهُ بِهَا ، وَلَا مَوْجُوْدَ سِوَاهُ ، فِي الْعَمَاءِ . ثُمَّ وَصَفَ بِهَا عَبْدَهُ حِيْنَ اسْتَخْلَفَهُ . وَلِذٰلِكَ « خَرُّوْا لَهُ سَاجِدِيْنَ » لِتَمَكُّنِ الصُّوْرَةِ ، وَوَقَعَ الْفَرْقُ مِنْ « مَوْضِعِ الْقَدَمَيْنِ » إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَالْقُرْآنُ الْعَظِيْمُ (الَّذِي هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْفَاتِحَةِ) : اَلْجَمْعُ وَالْوُجُوْدُ . وَهُوَ (أَيْ الْجَمْعُ وَالْوُجُوْدُ) إِفْرَادُهُ عَنْكَ وَجَمْعُكَ بِهِ . وَلَيْسَ (ذٰلِكَ) سِوَى قَوْلِهِ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَحَسْبُ . – ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ !

واقعة :
(« اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ » مِنْ طَرِيْقِ الْأَسْرَارِ)

أَرْسَلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عُثْمَانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! – إِلَيَّ آمِرًا بِالْكَلَامِ فِي الْمَنَامِ ، بَعْدَمَا وَقَعَتْ شَفَاعَتِي عَلَى جَمَاعَتِي ، وَنَجَا الْكُلُّ مِنْ أَسْرِ الْهَلَاكِ . وَقُرِّبَ الْمِنْبَرُ الْأَسْنَى وَصَعِدْتُ عَلَيْهِ ، عَنِ الْإِذْنِ الْعَالِيِّ الْمُحَمَّدِيِّ الْأَسْمَى بِالْاِقْتِصَارِ عَلَى لَفْظَةِ « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ » خَاصَّةً . وَنَزَلَ التَّأْيِيْدُ ، وَرَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَلَى يَمِيْنِ الْمِنْبَرِ قَاعِدٌ . فَقَالَ الْعَبْدُ ، بَعْدَمَا أَنْشَدَ وَحَمِدَ وَأَثْنَى وَبَسْمَلَ :

حَقِيْقَةُ « الْحَمْدِ » هِيَ الْعَبْدُ الْمُقَدَّسُ الْمُنَزَّهُ ؛ – « لِلّٰهِ » = إِشَارَةٌ إِلَى الذَّاتِ الْأَزَلِيَّةِ . وَهُوَ (أَيْ « الْحَمْدُ لِلّٰهِ ») مَقَامُ اِنْفِصَالِ وُجُوْدِ الْعَبْدِ مِنْ وُجُوْدِ الْإِلٰهِ ؛ ثُمَّ غَيَّبَهُ (الْحَقُّ) عَنْ وُجُوْدِهِ (الْحَدِيْثِ) بِوُجُوْدِهِ الْأَزَلِيِّ ، وَأَوْصَلَهُ بِهِ ، فَقَالَ : « لِلّٰهِ » = فَاللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى قَوْلِهِ : « الله » ، الْخَافِضَةُ لَهُ ، هِيَ حَقِيْقَةُ الْمَأْلُوْهِ ، فِي بَابِ التَّوَاضُعِ وَالذِّلَّةِ ؛ وَهِيَ حَرْفٌ مِنْ حُرُوْفِ الْمَعَانِي ، لَا مِنْ حُرُوْفِ الْهِجَاءِ . ثُمَّ قَدَّمَهَا – سُبْحَانَهُ ! – عَلَى اسْمِ نَفْسِهِ ، تَشْرِيْفًا لَهَا وَتَهَمُّمًا ، وَتَنْزِيْهًا لِمَعْرِفَتِهَا بِنَفْسِهَا ، وَتَصْدِيْقًا لِتَقْدِيْمِ النَّبِيِّ ﷺ

إِيَّاهَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ **مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ** ﴾ : فَقَدَّمَ مَعْرِفَةَ النَّفْسِ عَلَى مَعْرِفَةِ الرَّبِّ .

ثُمَّ عَمِلَتِ (اللَّامُ) فِي الْإِسْمِ « اللهِ » لِتَحْقِيْقِ الْإِتِّصَالِ وَتَمَكُّنِهَا مِنَ الْمَقَامِ . وَلَمَّا كَانَتْ فِي مَقَامِ الْوُصْلَةِ ، رُبَّمَا تُوُهِّمَ أَنَّ « الْحَمْدَ » غَيْرَ اللَّامِ ، – فَخَفَضَ الْعَبْدَ اِتِّبَاعًا لِحَرَكَةِ اللَّامِ ، فَقُرِئَ : « اَلْحَمْدِ لِلّٰهِ » بِخَفْضِ الدَّالِ . فَكَانَ لَفْظَةُ « الْحَمْدِ » بَدَلًا مِنَ « اللَّامِ » بَدَلَ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ . وَهُمَا لِعَيْنٍ وَاحِدَةٍ : فَالْحَمْدُ هُوَ وُجُوْدُ اللَّامِ ، وَاللَّامُ هِيَ الْحَمْدُ ، فَإِذَا كَانَا شَيْئًا وَاحِدًا ، كَانَ « الْحَمْدُ » فِي مَقَامِ الْوُصْلَةِ مَعَ « اللهِ » لِأَنَّهُ عَيْنُ اللَّامِ : فَكَانَ (الْحَمْدُ فِي مَقَامِ الْوُصْلَةِ) مَعْنًى ، كَمَا كَانَتِ اللَّامُ لَفْظًا وَمَعْنًى .

ثُمَّ حَقِيْقَةُ الْخَفْضِ فِيْهَا (أَيْ فِي اللَّامِ) إِثْبَاتُ الْعُبُوْدِيَّةِ ؛ ثُمَّ أَحْيَانًا يُفْنِيْهَا (الْحَقُّ) عَنْ نَفْسِهَا فَنَاءًا كُلِّيًّا لِيَرْفَعَهَا إِلَى الْمَقَامِ الْأَعْلَى فِي الْأَوَّلِيَّةِ ، ثُمَّ يُبْقِي حَقِيْقَتَهَا فِي الْآخِرِيَّةِ فَيَقُوْلُ « اَلْحَمْدُ لُلّٰهِ » بِرَفْعِ اللَّامِ ، اِتِّبَاعًا لِحَرَكَةِ الدَّالِ . وَهٰذَا مِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّ الْحَمْدَ (هُوَ) اللَّامُ ، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالرِّدَاءِ وَالثَّوْبُ ؛ إِذْ كَانَ هُوَ مَحَلَّ الصِّفَاتِ وَافْتِرَاقِ الْجَمْعِ . فَغَايَةُ مَعْرِفَةِ الْعِبَادِ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ إِنْ وَصَلَتْ ، – « وَالْحَقُّ وَرَاءَ ذٰلِكَ كُلِّهُ » أَوْ قُلْ (إِنْ شِئْتَ) : وَ (الْحَقُّ هُوَ) مَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ !

فَلَمَّا رَفَعَهَا (أَيْ رَفَعَ الْحَقُّ اللَّامَ) بِالْفَنَاءِ عَنْهَا اِبْتِدَاءًا ، أَرَادَ أَنْ يُعَرِّفَهَا ، مَعَ فَنَائِهَا ، أَنَّهَا مَا بَرِحَتْ مِنْ مَقَامِهَا . فَجَعَلَهَا عَامِلَةً ، وَجَعَلَ رَفْعَهَا عَارِضًا فِي حَقِّ الْحَقِّ . فَأَبْقَى الْهَاءَ (مِنَ « لُلّٰهِ ») مَكْسُوْرَةً ، تَدُلُّ عَلَى وُجُوْدِ اللَّامِ فِي مَقَامِ خَفْضِ الْعُبُوْدَةِ ، وَلِهٰذَا شُدَّتِ اللَّامُ الْوُسْطَى بِلَفْظَةِ « لَّا » = أَيْ ذَاتُ الْحَقِّ لَيْسَتْ ذَاتَ الْعَبْدِ ، وَإِنَّمَا هِيَ حَقِيْقَةُ « الْمِثْلِ » لِتَجَلِّي الصُّوْرَةِ .

ثُمَّ الْهَاءُ (مِنْ « لُلّٰهِ ») تَعُوْدُ عَلَى اللَّامِ لَمَّا هِيَ مَعْمُوْلُهَا . فَلَوْ كَانَ الْهَاءُ كِنَايَةً عَنْ ذَاتِ الْحَقِّ لَمْ تَعْمَلْ فِيْهَا اللَّامُ ، بَلْ هُوَ (– سُبْحَانَهُ ! –) الْعَامِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ . فَإِذَا كَانَتِ اللَّامُ هِيَ نَفْسُ الْحَمْدِ – وَ (كَانَ) الْهَاءُ مَعْمُوْلَ اللَّامِ – فَالْهَاءُ هِيَ اللَّامُ . وَقَدْ

كَانَتِ اللَّامُ هِيَ الْحَمْدُ ، فَالْهَاءُ (هِيَ) الْحَمْدُ بِلَا مَزِيْدٍ . وَقَدْ قُلْنَا : إِنَّ اللَّامَ الْمُشَدَّدَةَ ، لِنَفْيِ الْجَمْعِ الْمُتَّحِدِ ، (هِيَ) مَوْضِعُ الْفَصْلِ .

فَخَرَجَ مِنْ مَضْمُوْنِ هٰذَا الْكَلَامِ : أَنَّ « الْحَمْدَ » هُوَ قَوْلُهُ : « لِلّٰهِ » ؛ وَأَنَّ قَوْلَهُ : « لِلّٰهِ » هُوَ قَوْلُهُ : « اَلْحَمْدُ » ! فَغَايَةُ الْعَبْدِ أَنْ حَمِدَ نَفْسَهُ الَّذِي رَأَى فِي الْمِرْآةِ ، إِذْ لَا طَاقَةَ لِلْمُحْدَثِ عَلَى حَمْلِ الْقَدِيْمِ . فَأَحْدَثَ (الْحَقُّ) الْمِثْلَ عَلَى الصُّوْرَةِ ، وَصَارَ الْمُوْجِدُ مِرْآةً . فَلَمَّا تَجَلَّتْ صُوْرَةُ الْمِثْلِ فِي مِرْآةِ الذَّاتِ ، قَالَ لَهَا ، حِيْنَ أَبْصَرَتِ الذَّاتَ ، فَعَطِسَتْ فَمَيَّزَتْ نَفْسَهَا : « اَحْمَدِي مَنْ رَأَيْتِ ! » . فَحَمِدَتْ نَفْسَهَا فَقَالَتْ : « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ! » . فَقَالَ لَهَا : « يَرْحَمُكَ رَبُّكَ ، يَا آدَمُ ! لِهٰذَا خَلَقْتُكَ » . – « فَسَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ » .

وَلِهٰذَا قَالَ (– تَعَالَى ! –) عَقِيْبَ قَوْلِهِ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ = فَقَدَّمَ الرَّحْمَةَ ؛ ثُمَّ قَالَ : ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ = فَأَخَّرَ غَضَبَهُ . – فَسَبَقَتِ الرَّحْمَةُ الْغَضَبَ فِي أَوَّلِ اِفْتِتَاحِ الْوُجُوْدِ . فَسَبَقَتِ الرَّحْمَةُ إِلَى آدَمَ قَبْلَ الْعُقُوْبَةِ عَلَى أَكْلِ الشَّجَرَةِ ، ثُمَّ رُحِمَ بَعْدَ ذٰلِكَ . فَجَاءَتْ رَحْمَتَانِ بَيْنَهُمَا غَضَبٌ . فَتَطْلُبُ الرَّحْمَتَانِ أَنْ تَمْتَزِجَا لِأَنَّهُمَا مِثْلَانِ ؛ فَانْضَمَّتْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ ، فَانْعَدَمَ الْغَضَبُ بَيْنَهُمَا ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي يُسْرَيْنِ بَيْنَهُمَا عُسْرٌ :

إِذَا ضَاقَ بِكَ الْأَمْرُ ... فَكِّرْ فِي ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾
فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْـرَيْنِ ... إِذَا ذَكَـرْتَـهُ فَافْـرَحْ

فَالرَّحْمَةُ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَوْجُوْدِ الْأَوَّلِ (= اَلْمُبْدَعِ الْأَوَّلِ = الْعَقْلِ الْأَوَّلِ) الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالْمَطْلُوْبِ . وَ « الْمَغْضُوْبُ عَلَيهِمْ » = اَلنَّفْسُ الْأَمَّارَةُ – وَ « الضَّالُّوْنَ » عَالَمُ التَّرْكِيْبِ مَا دَامَتْ هِيَ (أَيِ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ) مَغْضُوْبَةٌ عَلَيْهَا .

إِذِ الْبَارِي مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يُنَزَّهَ : إِذْ لَا غَيْرَ وَلَا مَوْجُوْدَ إِلَّا هُوَ . وَلِهٰذَا أَشَارَ ﷺ بِقَوْلِهِ : « **اَلْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيْهِ** » لِوُجُوْدِ الصُّوْرَةِ عَلَى كَمَالِهَا ، إِذْ هِيَ مَحَلُّ الْمَعْرِفَةِ ، وَهِيَ الْمُوْصِلَةُ ؛

وَلَوْ أَوْجَدَهُ (– تَعَالَى ! –) عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الصُّوْرَةِ ، لَكَانَ جَمَادًا . – فَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي مَنَّ عَلَى الْعَارِفِيْنَ بِهِ ، الْوَاقِفِيْنَ مَعَهُ ، بِمَوَادِّ الْعِنَايَةِ ، أَزَلًا وَأَبَدًا !

تنبيه :

(اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَالْحَمْدُ بِاللّٰهِ مِنْ طَرِيْقِ الْأَسْرَارِ)

اَللَّامُ تُفْنِي الرَّسْمَ ، كَمَا أَنَّ الْبَاءَ تُبْقِيْهِ . وَلِهٰذَا قَالَ أَبُوْ الْعَبَّاسِ بْنِ الْعَرِيْفِ : « اَلْعُلَمَاءُ لِي ، وَالْعَارِفُوْنَ بِي » . فَأَثْبَتَ الْمَقَامَ الْأَعْلَى لِلَّامِ . فَإِنَّهُ قَالَ فِي كَلَامِهِ : « وَالْعَارِفُوْنَ بِالْهِمَمِ » . ثُمَّ قَالَ فِي حَقِّ اللَّامِ : « وَالْحَقُّ وَرَاءَ ذٰلِكَ كُلِّهِ » . ثُمَّ زَادَ تَنْبِيْهًا عَلَى ذٰلِكَ ، وَلَمْ يُقْنِعْ بِهٰذَا وَحْدَهُ فَقَالَ : « وَالْهِمَمُ لِلْوُصُوْلِ » . وَالْهِمَّةُ لِلْعَارِفِيْنَ الْبَائِيِّيْنَ . وَقَالَ فِي الْعُلَمَاءِ اللَّامِيِّيْنَ : « وَإِنَّمَا يَتَبَيَّنُ الْحَقُّ عِنْدَ اِضْمِحْلَالِ الرَّسْمِ » . وَهٰذَا هُوَ مَقَامُ اللَّامِ ، (مَقَامُ) فَنَاءِ الرَّسْمِ .

فَ « الْحَمْدُ لِلّٰهِ » أَعْلَى مِنَ « الْحَمْدِ بِاللّٰهِ » . فَإِنَّ « الْحَمْدَ بِاللّٰهِ » يُبْقِيْكَ ، وَ « الْحَمْدُ لِلّٰهِ » يُفْنِيْكَ . فَإِذَا قَالَ الْعَالِمُ : اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ – أَيْ لَا حَامِدَ لِلّٰهِ إِلَّا هُوَ ! – فَأَحْرَى أَنْ لَا يَكُوْنَ ثَمَّ مَحْمُوْدٌ سِوَاهُ . وَتَقُوْلُ الْعَامَّةُ : اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ – أَيْ لَا مَحْمُوْدَ إِلَّا اللّٰهُ ! – وَهِيَ الْحَامِدَةُ . فَاشْتَرَكَا (أَيْ الْعَالِمُ وَالْعَامَّةُ) فِي صُوْرَةِ اللَّفْظِ . فَالْعُلَمَاءُ أَفْنَتِ الْحَامِدِيْنَ الْمَخْلُوْقِيْنَ وَالْمَحْمُوْدِيْنَ ، وَالْعَامَّةُ أَفْنَتِ الْمَحْمُوْدِيْنَ مِنَ الْخَلْقِ خَاصَّةً . وَأَمَّا الْعَارِفُوْنَ فَلَا يَتَمَكَّنُ لَهُمْ أَنْ يَقُوْلُوْا : اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ إِلَّا مِثْلَ الْعَامَّةِ ، وَإِنَّمَا مَقَامُهُمْ : اَلْحَمْدُ بِاللّٰهِ ، لِبَقَاءِ نُفُوْسِهِمْ عِنْدَهُمْ . – فَتَحَقَّقْ هٰذَا الْفَصْلَ ، فَإِنَّهُ مِنْ لُبَابِ الْمَعْرِفَةِ .

وصل :

(فِي قَوْلِهِ : ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾)

أَثْبَتَ بِقَوْلِهِ عِنْدَنَا ، وَفِي قُلُوْبِنَا : ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ حَضْرَةَ الرُّبُوْبِيَّةِ . وَهٰذَا مَقَامُ الْعَارِفِ ، وَرُسُوْخُ قَدَمِ النَّفْسِ . وَهُوَ مَوْضِعُ الصِّفَةِ . فَإِنَّ قَوْلَنَا : « لِلّٰهِ » (هِيَ كَلِمَةٌ) ذَاتِيَّةُ الْمَشْهَدِ ، عَالِمِيَّةُ الْمَحْتِدِ . ثُمَّ اَتْبَعَهُ بِقَوْلِهِ : « رَبِّ الْعَالَمِيْنَ » = أَيْ مُرَبِّيْهِمْ وَمُغَذِّيْهِمْ . — وَ « الْعَالَمِيْنَ » عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ مَا سِوَى اللّٰهِ .

وَالتَّرْبِيَةُ تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : تَرْبِيَةٌ بِوَاسِطَةٍ ، وَ (تَرْبِيَةٌ) بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ . فَأَمَّا الْكَلِمَةُ (أَيْ الرُّوْحُ الْكُلِّيُّ) فَلَا يَتَصَوَّرُ وَاسِطَةٌ فِي حَقِّهِ أَلْبَتَّةَ . وَأَمَّا مَنْ دُوْنَهُ فَلَا بُدَّ مِنَ الْوَاسِطَةِ . ثُمَّ تَنْقَسِمُ التَّرْبِيَةُ قِسْمَيْنِ ، الَّتِي بِالْوَاسِطَةِ خَاصَّةً : قِسْمٌ مَحْمُوْدٌ ، وَقِسْمٌ مَذْمُوْمٌ . وَمِنَ الْقَدِيْمِ — تَعَالَى ! — إِلَى النَّفْسِ — وَالنَّفْسُ دَاخِلَةٌ فِي الْحَدِّ — مَا ثَمَّ إِلَّا (قِسْمٌ تَرْبَوِيٌّ) مَحْمُوْدٌ خَاصَّةً . وَأَمَّا (الْقِسْمُ) الْمَذْمُوْمُ وَالْمَحْمُوْدُ (مِنَ التَّرْبِيَةِ) فَمِنَ النَّفْسِ إِلَى عَالَمِ الْحِسِّ . فَكَانَتِ النَّفْسُ مَحَلًّا قَابِلًا لِوُجُوْدِ التَّغْيِيْرِ وَالتَّطْهِيْرِ .

(اَلْكَلِمَةُ مُسْتَوْدِعُ الْأَسْرَارِ وَالْحِكَمِ)

(وَنَعُوْدُ) فَنَقُوْلُ : إِنَّ اللّٰهَ — تَعَالَى ! — لَمَّا أَوْجَدَ الْكَلِمَةَ ، الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِالرُّوْحِ الْكُلِّي ، إِيْجَادَ إِبْدَاعٍ ، أَوْجَدَهَا فِي مَقَامِ الْجَهْلِ وَمَحَلِّ السَّلْبِ ، أَيْ أَعْمَاهُ عَنْ رُؤْيَةِ نَفْسِهِ . فَبَقِيَ لَا يَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ صَدَرَ ؟ وَلَا كَيْفَ صَدَرَ ؟ وَكَانَ الْغِذَاءُ فِيْهِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ . فَحَرَّكَ اللّٰهُ هِمَّتَهُ لِطَلَبِ مَا عِنْدَهُ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ عِنْدَهُ . فَأَخَذَ فِي الرِّحْلَةِ بِهِمَّتِهِ . فَأَشْهَدَهُ الْحَقُّ — تَعَالَى ! — ذَاتَهُ . فَسَكَنَ . وَعَرَفَ أَنَّ الَّذِي طَلَبَ لَمْ يَزَلْ مَوْصُوْفًا . — قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بْنُ مَسْعُوْد الْإِلْبِيْرِي :

قَدْ يَرْحَلُ الْمَرْءُ إِلَى مَطْلُوْبِهِ   وَالسَّبَبُ الْمَطْلُوْبُ فِي الرَّاحِلِ

وَعَلِمَ (الْكَلِمَةَ) مَا أَوْدَعَ اللهُ فِيْهِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْحِكَمِ ؛ وَتَحَقَّقَ عِنْدَهُ حُدُوْثُهُ ؛ وَعَرَفَ ذَاتَهُ مَعْرِفَةً إِحَاطِيَّةً . فَكَانَتْ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ لَهُ غِذَاءًا مُعَيَّنًا ، يَتَقَوَّتُ بِهِ ، وَتَدُوْمُ حَيَاتُهُ إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ .

فَقَالَ لَهُ (الْحَقُّ) عِنْدَ ذٰلِكَ التَّجَلِّي الْأَقْدَسِ : مَا اسْمِي عِنْدَكَ ؟ فَقَالَ : « أَنْتَ رَبِّي ! » . فَلَمْ يَعْرِفْهُ إِلَّا فِي حَضْرَةِ الرُّبُوْبِيَّةِ ؛ وَتَفَرَّدَ الْقَدِيْمُ بِالْأُلُوْهِيَّةِ ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا هُوَ . فَقَالَ لَهُ – سُبْحَانَهُ ! – : « أَنْتَ مَرْبُوْبِي وَأَنَا رَبُّكَ ؛ أَعْطَيْتُكَ أَسْمَائِي وَصِفَاتِي : فَمَنْ رَآكَ رَآنِي ، وَمَنْ أَطَاعَكَ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَلِمَكَ عَلِمَنِي ، وَمَنْ جهِلَكَ جَهِلَنِي . فَغَايَةُ مَنْ دُوْنَكَ ، أَنْ يَتَوَصَّلُوْا إِلَى مَعْرِفَةِ نُفُوْسِهِمْ مِنْكَ . وَغَايَةُ مَعْرِفَتِهِمْ بِكَ ، اَلْعِلْمُ بِوُجُوْدِكَ ، لَا بِكَيْفِيَّتِكَ . كَذٰلِكَ أَنْتَ مَعِي : لَا تَتَعَدَّى مَعْرِفَةَ نَفْسِكَ ، وَلَا تَرَى غَيْرَكَ ، وَلَا يَحْصُلُ لَكَ الْعِلْمُ بِي إِلَّا مِنْ حَيْثُ الْوُجُوْدِ . وَلَوْ أَحَطْتَ عِلْمًا بِي لَكُنْتَ أَنَا ، وَلَكُنْتُ مُحَاطًا ، وَكَانَتْ إِنِّيَّتِي إِنِّيَّتُكَ ، وَلَيْسَتْ إِنِّيَّتُكَ إِنِّيَّتِي .

فَ (أَنَا) أُمِدُّكَ بِالْأَسْرَارِ الْإِلٰهِيَّةِ وَأُرَبِّيْكَ بِهَا ، فَتَجِدُهَا مَجْعُوْلَةً فِيْكَ فَتَعْرِفَهَا . وَقَدْ حَجَبْتُكَ عَنْ مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ إِمْدَادِي لَكَ بِهَا ، إِذْ لَا طَاقَةَ لَكَ بِحَمْلِ مُشَاهَدَتِهَا ، إِذْ لَوْ عَرَفْتَهَا لَاتَّحَدَتِ الْإِنِّيَّةُ ، وَاتِّحَادُ الْإِنِّيَّةِ مُحَالٌ ، فَمُشَاهَدَتُكَ لِذٰلِكَ مُحَالٌ . هَلْ تَرْجِعُ إِنِّيَّةُ الْمُرَكَّبِ إِنِّيَّةَ الْبَسِيْطِ ؟ لَا سَبِيْلَ إِلَى قَلْبِ الْحَقَائِقِ . فَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ دُوْنَكَ فِي حُكْمِ التَّبَعِيَّةِ لَكَ ، كَمَا أَنْتَ فِي حُكْمِ التَّبَعِيَّةِ لِي . فَأَنْتَ ثَوْبِي ، وَأَنْتَ رِدَائِي ، وَأَنْتَ غِطَائِي ! » .

(مَأْسَاةُ الرُّوْحِ فِي السَّمَاءِ)

فَقَالَ لَهُ الرُّوْحُ : « رَبِّي سَمِعْتُكَ تَذْكُرُ أَنَّ لِي مُلْكًا ، فَأَيْنَ هُوَ ؟ » . فَاسْتَخْرَجَ (الْحَقُّ) لَهُ النَّفْسَ مِنْهُ (أَيْ مِنَ الرُّوْحِ) ، وَهِيَ الْمَفْعُوْلُ عَنِ الْانْبِعَاثِ . فَقَالَ (الرُّوْحُ) : « هٰذَا بَعْضِي وَأَنَا كُلُّهُ ، كَمَا أَنَا مِنْكَ ، وَ (أَنْتَ) لَسْتَ مِنِّي ! » – قَالَ (الْحَقُّ) :

« صَدَقْتَ ، يَا رُوْحِي ! » – قَالَ (الرُّوْحُ) : « بِكَ نَطَقْتُ ، يَا رَبِّي ! إِنَّكَ رَبَّيْتَنِي ، وَحَجَبْتَ عَنِّي سِرَّ الْإِمْدَادِ وَالتَّرْبِيَةِ ، وَانْفَرَدْتَ أَنْتَ بِهِ . فَاجْعَلْ إِمْدَادِي مَحْجُوْبًا عَنْ هٰذَا الْمُلْكِ ، حَتَّى يَجْهَلَنِي كَمَا جَهِلْتُكَ » . فَخَلَقَ (الْحَقُّ) فِي النَّفْسِ صِفَةَ الْقَبُوْلِ وَالْاِفْتِقَارِ ، وَوَزَّرَ الْعَقْلَ إِلَى الرُّوْحِ الْمُقَدَّسِ .

ثُمَّ اطَّلَعَ الرُّوْحُ عَلَى النَّفْسِ ، فَقَالَ لَهَا : « مَنْ أَنَا ؟ » – قَالَتْ : « رَبِّي ! بِكَ حَيَاتِي ، وَبِكَ بَقَائِي ! » فَتَاهَ الرُّوْحُ بِمُلْكِهِ ، وَقَامَ فِيْهِ مُقَامَ رَبِّهِ فِيْهِ ، وَتَخَيَّلَ أَنَّ ذٰلِكَ هُوَ نَفْسُ الْإِمْدَادِ . فَأَرَادَ الْحَقُّ أَنْ يُعَرِّفَهُ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى خِلَافِ مَا تَخَيَّلَ ، وَأَنَّهُ لَوْ أَعْطَاهُ سِرَّ الْإِمْدَادِ ، كَمَا سَأَلَ ، لَمَا انْفَرَدَتِ الْأُلُوْهِيَّةُ عَنْهُ بِشَيْءٍ ، وَلَا تَّحَدَتِ الْإِنِّيَّةُ . –

فَلَمَّا أَرَادَ ذٰلِكَ ، خَلَقَ (الْحَقُّ) الْهَوَى فِي مُقَابَلَتِهِ ؛ وَخَلَقَ الشَّهْوَةَ فِي مُقَابَلَةِ الْعَقْلِ ، وَوَزَّرَهَا لِلْهَوَى ؛ وَجَعَلَ (الْحَقُّ) فِي النَّفْسِ صُوْرَةَ الْقَبُوْلِ لِجَمِيْعِ الْوَارِدَاتِ عُمُوْمًا . فَحَصَلَتِ النَّفْسُ بَيْنَ رَبَّيْنِ قَوِيَّيْنِ (= الرُّوْحُ وَالْهَوَاءُ) ، لَهُمَا وَزِيْرَانِ عَظِيْمَانِ . وَمَا زَالَ هٰذَا يُنَادِيْهَا ، وَهٰذَا يُنَادِيْهَا ، وَالْكُلُّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ! قَالَ – تَعَالَى ! – ﴿ **كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ** ﴾ وَ ﴿ **كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ** ﴾ . وَلِهٰذَا كَانَتِ النَّفْسُ مَحَلَّ التَّغْيِيْرِ وَالتَّطْهِيْرِ ، قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا** ﴾ فِي أَثَرِ قَوْلِهِ : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا** ﴾ . فَإِنْ أَجَابَتِ (النَّفْسُ) مُنَادِى الْهَوَى كَانَ التَّغْيِيْرُ ؛ وَإِنْ أَجَابَتْ مُنَادِى الرُّوْحِ كَانَ التَّطْهِيْرُ شَرْعًا وَتَوْحِيْدًا .

فَلَمَّا رَأَى الرُّوْحُ (أَنَّهُ) يُنَادِي وَلَا يَسْمَعُ مُجِيْبًا ، فَقَالَ : « مَا مَنَعَ مُلْكِي مِنْ إِجَابَتِي ؟ » قَالَ لَهُ الْوَزِيْرُ (الْعَقْلُ) : « فِي مُقَابَلَتِكَ مَلِكٌ مُطَاعٌ ، عَظِيْمُ السُّلْطَانِ ، يُسَمَّى الْهَوَى ، عَطِيَّتُهُ مُعَجَّلَةٌ ، لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيْرِهَا ، فَبَسَطَ لَهَا (أَيْ لِلنَّفْسِ) حَضْرَتَهُ ، وَدَعَاهَا فَأَجَابَتْهُ » . – فَرَجَعَ الرُّوْحُ بِالشَّكْوَى إِلَى اللهِ – تَعَالَى ! – . فَثَبَتَتْ عُبُوْدِيَّتُهُ . وَذٰلِكَ كَانَ الْمُرَادُ .

(اَلْأَرْبَابُ وَالْمَرْبُوبُوْنَ فِي شَتَّى الْعَوَالِمِ)

وَتَنَزَّلَتِ الْأَرْبَابُ وَالْمَرْبُوبُوْنَ ، كُلٌّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ مَقَامِهِ وَقَدْرِهِ : فَعَالَمُ الشَّهَادَةِ الْمُنْفَصِلِ ، رَبُّهُمْ عَالَمُ الْخِطَابِ ؛ وَعَالَمُ الشَّهَادَةِ الْمُتَّصِلِ ، رَبُّهُمْ عَالَمُ الْجَبَرُوْتِ ؛ وَعَالَمُ الْجَبَرُوْتِ ، رَبُّهُمْ عَالَمُ الْمَلَكُوْتِ ؛ وَعَالَمُ الْمَلَكُوْتِ ، رَبُّهُمُ الْكَلِمَةُ ؛ وَالْكَلِمَةُ ، رَبُّهَا رَبُّ الْكُلِّ ، الْوَاحِدُ الصَّمَدُ . –وَقَدْ أَشْبَعْنَا الْقَوْلَ فِي هٰذَا الْفَصْلِ فِي كِتَابِنَا « **التَّدْبِيْرَاتُ الْإِلٰهِيَّةُ فِي إِصْلَاحِ الْمَمْلَكَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ** » . فَأَضْرَبْنَا عَنْ تَتْمِيْمِ هٰذَا الْفَصْلِ هُنَا مَخَافَةَ التَّطْوِيْلِ ؛ وَكَذٰلِكَ ذَكَرْنَاهُ أَيْضًا فِي « **تَفْسِيْرِ الْقُرْآنِ** » . – فَسُبْحَانَ مَنْ تَفَرَّدَ بِتَرْبِيَةِ عِبَادِهِ ، وَحَجَبَ مَنْ حَجَبَ مِنْهُمْ بِالْوَسَائِطِ .

وَخَرَجَ مِنْ هٰذَا الْفَصْلِ ، لِمَنْ عَرَفَ رُوْحَهُ وَمَعْنَاهُ ، أَنَّ « الرَّبَّ » هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ ! ؛ وَأَنَّ « الْعَالَمِيْنَ » هُوَ « الْمِثْلُ الْكُلِّيُّ » (= الْكَلِمَةُ ، الرُّوْحُ الْكُلِّيُّ) ، وَلِذٰلِكَ أَوْجَدَهُ فِي « الْعَالَمِيْنَ » عَلَى ثَمَانِيَةَ أَحْرُفٍ عَرْشًا ؛ وَاسْتَوَى عَلَيْهِ بِاللُّطْفِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْحَنَّانِ وَالرَّحْمَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ ، الْمُؤَكَّدَةِ بِـ (الرَّحْمَةِ) الرَّحِيْمِيَّةِ ، لِتَمْيِيْزِ الدَّارِ الْحَيْوَانِ ، لِقَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ – فَعَمَّ بِالرَّحْمٰنِ وَخَصَّ بِالرَّحِيْمِ . فَالرَّحْمٰنُ ، فِي عَالَمِهِ ، بِالْوَسَائِطِ وَغَيْرِهَا ؛ وَالرَّحِيْمُ ، فِي كَلِمَاتِهِ ، بِلَا وَاسِطَةٍ لِوُجُوْدِ الْاِخْتِصَاصِ وَشَرَفِ الْعِنَايَةِ . فَافْهَمْ ! وَإِلَّا سَلِّمْ تَسْلَمْ !

وصل :

(فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾)

يُرِيْدُ (اللهُ بِهٰذِهِ الْآيَةِ) يَوْمَ الْجَزَاءِ . وَحَضْرَةُ الْمُلْكِ ، مِنْ مَقَامِ التَّفْرِقَةِ . وَهِيَ جَمْعٌ : فَإِنَّهُ لَا تَقَعُ التَّفْرِقَةُ إِلَّا فِي الْجَمْعِ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ** ﴾ = فَهِيَ (أَيِ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ) مَقَامُ الْجَمْعِ ، وَقَدْ قَبِلَتْ سُلْطَانَ التَّفْرِقَةِ ، فَهِيَ مَقَامُ

التَّفْرِقَةِ . – فَافْتَرَقَ الْجَمْعُ إِلَى أَمْرٍ وَنَهْيٍ : خِطَابًا ؛ وَسَخَطٍ وَرِضًى : إِرَادَةً ؛ وَطَاعَةٍ وَعِصْيَانٍ : فِعْلَ مَأْلُوْهٍ ؛ وَوَعْدٍ وَوَعِيْدٍ : فِعْلَ إِلٰهٍ .

وَ « الْمٰلِكُ » فِي هٰذَا الْيَوْمِ (أَيْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْمُؤَجَّلَةِ) مَنْ حَقَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ ، وَاخْتَصَّ بِهَا ، وَلَمْ يَقُلْ : نَفْسِي ، وَقَالَ : أُمَّتِي . وَ « الْمٰلِكُ » فِي وُجُوْدِنَا ، الْمَطْلُوْبُ لِلْقِيَامَةِ الْمُعَجَّلَةِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي طَرِيْقِ التَّصَوُّفِ ، هُوَ الرُّوْحُ الْقُدْسِيُّ . وَيَوْمُ الْقِيَامَةِ (هُوَ) وَقْتُ إِيْجَادِهِ الْجَزَاءَ ، أَوْ طُوْلِبَ بِهِ إِنْ كَانَتْ عُقُوْبَةً ، لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ . فَإِنْ كَانَتِ الطَّاعَةُ فَجَنَّاتٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَأَعْنَابٍ ؛ وَإِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ الْكُفْرَانِيَّةُ ، فَجَهَنَّمُ مِنْ أَغْلَالٍ وَعَذَابٍ ؛ – مِنْ مَقَامِ الدَّعْوَى فِي الصُّوْرَتَيْنِ .

(اَلْمٰلِكُ فِي وُجُوْدِنَا)

فَنَفْرِضُ الْكَلَامَ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ عَلَى حَدِّ « الْمَلِكِ » وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، وَهَلْ تَرْتَقِي النَّفْسُ مِنْ « يَوْمِ الدِّيْنِ » إِلَى الْفَنَاءِ عَنْهُ ؟ فَأَقُوْلُ : إِنَّ الْمَلِكَ (هُوَ) مَنْ صَحَّ لَهُ الْمُلْكُ بِطَرِيْقِ الْمِلْكِ وَسَجَدَ لَهُ الْمَلَكُ ، وَهُوَ الرُّوْحُ . فَلَمَّا نَازَعَهُ الْهَوَى ، وَاسْتَعَانَ بِالنَّفْسِ عَلَيْهِ ، عَزَمَ الرُّوْحُ عَلَى قَتْلِ الْهَوَى ، وَاسْتَعَدَّ . فَلَمَّا بَرَزَ الرُّوْحُ بِجُنُوْدِ التَّوْحِيْدِ وَالْمَلَإِ الْأَعْلَى ؛ وَبَرَزَ الْهَوَى كَذٰلِكَ بِجُنُوْدِ الْأَمَانِيِّ وَالْغُرُوْرِ وَالْمَلَإِ الْأَسْفَلِ ؛ – قَالَ الرُّوْحُ لِلْهَوَى : « مِنِّي إِلَيْكَ ! فَإِنْ ظَفَرْتُ بِكَ ، فَالْقَوْمُ لِي ؛ وَإِنْ ظَفَرْتَ أَنْتَ وَهَزَمْتَنِي ، فَالْمُلْكُ لَكَ . وَلَا يَهْلِكُ الْقَوْمُ بَيْنَنَا » . – فَبَرَزَ الرُّوْحُ وَالْهَوَى ، فَقَتَلَهُ الرُّوْحُ بِسَيْفِ الْعَدَمِ . وَظَفَرَ (الرُّوْحُ) بِالنَّفْسِ بَعْدَ إِبَايَةٍ مِنْهَا وَجُهْدٍ كَبِيْرٍ . فَأَسْلَمَتِ (النَّفْسُ) تَحْتَ سَيْفِهِ ، فَسَلِمَتْ وَأَسْلَمَتْ وَتَطَهَّرَتْ وَتَقَدَّسَتْ .

وَآمَنَتِ الْحَوَّاسُ لِإِيْمَانِهَا . وَدَخَلُوْا (جَمِيْعًا) فِي رِقِّ الْانْقِيَادِ ، وَأَذْعَنُوْا ؛ وَسُلِبَتْ عَنْهُمْ أَرْدِيَةُ الدَّعَاوَى الْفَاسِدَةَ ؛ وَاتَّحَدَتْ كَلِمَتُهُمْ . وَصَارَ الرُّوْحُ وَالنَّفْسُ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ . وَصَحَّ لَهُ (أَيْ لِلرُّوْحِ) اِسْمُ « الْمَلِكِ » حَقِيْقَةً فَقَالَ لَهُ (الْحَقُّ) : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ؛ فَرَدَّهُ إِلَى مَقَامِهِ ، وَنَقَلَهُ مِنِ افْتِرَاقِ الشَّرْعِ إِلَى جَمْعِ التَّوْحِيْدِ .

وَالْمَلِكُ ، عَلَى الْحَقِيْقَةِ ، هُوَ الْحَقُّ – تَعَالَى ! – ، الْمَالِكُ لِلْكُلِّ وَمُصَرِّفُهُ . وَهُوَ الشَّفِيْعُ لِنَفْسِهِ عَامَّةً وَخَاصَّةً : خَاصَّةً فِي الدُّنْيَا ، وَعَامَّةً فِي الْآخِرَةِ مِنْ وَجْهٍ مَّا . وَلِذٰلِكَ قَدَّمَ (– تَعَالَى ! –) عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ... ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لِتَأْنَسَ أَفْئِدَةُ الْمَحْجُوْبِيْنَ عَنْ رُؤْيَةِ « رَبِّ الْعَالَمِيْنَ » . أَلَا تَرَاهُ يَقُوْلُ يَوْمَ الدِّيْنِ : « شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّوْنَ ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُوْنَ ، وَبَقِيَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ » . وَلَمْ يَقُلْ : وَبَقِيَ الْجَبَّارُ وَلَا الْقَهَّارُ ، لِيَقَعَ التَّأْنِيْسُ قَبْلَ إِيْجَادِ الْفِعْلِ فِي قُلُوْبِهِمْ .

فَمَنْ عَرَفَ الْمَعْنَى فِي هٰذَا الْوُجُوْدِ ، صَحَّ لَهُ الْاِخْتِصَاصُ (بِالشَّفَاعَةِ) فِي « مَقَامِ أَرْحَمِ » . وَمَنْ جَهِلَهَا (أَيْ الشَّفَاعَةَ الْخَاصَّةَ) فِي هٰذَا الْوُجُوْدِ ، دَخَلَ فِي (الشَّفَاعَةِ) الْعَامَّةِ فِي الْحَشْرِ الْأَكْبَرِ ، فَتَجَلَّى فِي « مَقَامِ الرَّاحِمِيْنَ » . فَعَادَ الْفَرْقُ جَمْعًا ، وَالْفَتْقُ رَتْقًا ، وَالشَّفْعُ وِتْرًا بِشَفَاعَةِ « أَرْحَمِ الرَّاحِمِيْنَ » : مِنْ جَهَنَّمَ « ظَاهِرُ السُّوْرِ » إِلَى جَنَّةِ « بَاطِنِهِ » .

فَإِذَا وَقَعَ الْجِدَارُ ، وَانْهَدَمَ السُّوْرُ ، وَامْتَزَجَتِ الْأَنْهَارُ ، وَالْتَقَتِ الْبَحْرَانِ ، وَعُدِمَ الْبَرْزَخُ : صَارَ الْعَذَابُ نَعِيْمًا ، وَ (صَارَتْ) جَهَنَّمُ جَنَّةً ! فَلَا عَذَابٌ وَلَا عِقَابٌ ، إِلَّا نَعِيْمٌ وَأَمَانٌ ، بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ ، وَتَرَنُّمِ أَطْيَارٍ بِأَلْحَانٍ ، عَلَى الْمَقَاصِيْرِ وَالْأَفْنَانِ ، وَلَثْمِ الْحُوْرِ وَالْوِلْدَانِ ، وَعُدِمَ مَالِكٌ وَبَقِيَ رِضْوَانٌ ، وَصَارَتْ جَهَنَّمُ تَتَنَعَّمُ فِي حَظَائِرِ الْجِنَانِ ، وَاتَّضَحَ سِرُّ إِبْلِيْسَ فِيْهِمْ ، فَإِذَا هُوَ وَمَنْ سُجِدَ لَهُ سِيَّانٌ ، فَإِنَّهُمَا مَا تَصَرَّفَا إِلَّا عَنْ قَضَاءٍ سَابِقٍ ، وَقَدْرٍ لَاحِقٍ ، لَا مُحِيْصَ لَهُمَا عَنْهُ ، فَلَا بُدَّ لَهُمَا مِنْهُ . « وَحَاجَّ آدَمُ مُوْسَىٰ » .

وصل :

فِي قَوْلِهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَ ! – ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾

لَمَّا ثَبَتَ وُجُوْدُهُ (– تَعَالَى ! –) بِـ ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ ؛ وَغِذَاؤُهُ بِـ ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ؛ وَاصْطِفَاؤُهُ بِـ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ؛ وَتَمْجِيْدُهُ بِـ ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ؛ – أَرَادَ (سُبْحَانَهُ !)

تأْكِيْدَ تِكْرَارِ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ ، رَغْبَةً فِي الْمَزِيْدِ ، فَقَالَ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ = وَهٰذَا مَقَامُ الشُّكْرِ . أَيْ لَكَ نُقِرُّ بِالْعُبُوْدِيَّةِ وَنُؤْوِي – وَحْدَكَ لَا شَرِيْكَ لَكَ ؛ وَإِلَيْكَ نُؤْوِي فِي الْاِسْتِعَانَةِ لَا إِلَى غَيْرِكَ . عَلَى مَنْ أَنْزَلْتَهُمْ مِنِّي مَنْزِلَتِي مِنْكَ ، فَأَنَا أُمِدُّهُمْ بِكَ لَا بِنَفْسِي . فَأَنْتَ الْمُمِدُّ لَا أَنَا . – وَأَثْبَتَ (الْعَبْدُ الْكُلِّيُّ) لَهُ (= لِلْحَقِّ) بِهٰذِهِ الْآيَةِ نَفْيَ الشَّرِيْكِ .

(اَلْيَاءُ مِنْ « إِيَّاكَ » هِيَ الْعَبْدُ الْكُلِّيُّ)

فَالْيَاءُ مِنْ « إِيَّاكَ » (هِيَ) الْعَبْدُ الْكُلِّيُّ ، قَدِ انْحَصَرَتْ مَا بَيْنَ أَلِفَيْ تَوْحِيْدٍ – حَتَّى لَا يَكُوْنَ لَهَا (أَيْ لِلْيَاءِ ، رَمْزُ الْعَبْدِ الْكُلِّيِّ) دَعْوَى بِرُؤْيَةِ غَيْرٍ : فَأَحَاطَ بِهَا التَّوْحِيْدُ . – وَالْكَافُ ضَمِيْرُ الْحَقِّ . فَالْكَافُ وَالْأَلِفَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، فَهُمْ مَدْلُوْلُ الذَّاتِ .

ثُمَّ كَانَ « نَعْبُدُ » صِفَةَ فِعْلِ الْيَاءِ فِي الضَّمِيْرِ الَّذِي فِيْهِ . وَالْعَبْدُ فِعْلُ الْحَقِّ : فَلَمْ يَبْقَ فِي الْوُجُوْدِ إِلَّا الْحَضْرَةُ الْإِلٰهِيَّةُ خَاصَّةً . غَيْرُ أَنَّهُ فِي قَوْلِهِ (– تَعَالَى ! –) : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ = فِي حَقِّ نَفْسِهِ لِلْإِبْدَاعِ الْأَوَّلِ ، حَيْثُ لَا يَتَصَوَّرُ غَيْرُهُ ؛ (وَفِي قَوْلِهِ) : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ = فِي حَقِّ غَيْرِهِ لِلْخَلْقِ الْمُشْتَقِّ مِنْهُ ، وَهُوَ مَحَلُّ « سِرِّ الْخِلَافَةِ » . فَفِي : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ = سَجَدَتِ الْمَلَائِكَةُ ، وَأَبَى مَنِ اسْتَكْبَرَ .

وصل :

فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ **– آمين ! –**

فَلَمَّا قَالَ (الْعَبْدُ الْكُلِّيُّ) لَهُ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، قَالَ (الْحَقُّ) لَهُ : وَمَا عِبَادَتِي ؟ قَالَ (الْعَبْدُ) : ثُبُوْتُ التَّوْحِيْدِ فِي الْجَمْعِ وَالتَّفْرِقَةِ . –

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْدَ النَّفْسِ أَنَّ النَّجَاةَ فِي التَّوْحِيْدِ الَّذِي هُوَ « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمُ » – وَهُوَ شُهُوْدُ الذَّاتِ بِفَنَائِهَا ، أَوْ بَقَائِهَا إِنْ عَقِلَتْ – قَالَتْ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ . فَتَعَرَّضَ لَهَا (أَيْ لِلنَّفْسِ) ، بِقَوْلِهَا : « الْمُسْتَقِيْمَ » ، صِرَاطَانِ : مُعْوَجٌّ ، وَهُوَ صِرَاطُ الدَّعْوَى ؛ وَمُسْتَقِيْمٌ ، وَهُوَ التَّوْحِيْدُ . فَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَيْزٌ بَيْنَ الطَّرِيْقَيْنِ إِلَّا بِحَسَبِ السَّالِكِيْنَ عَلَيْهِمَا . فَرَأَتِ (النَّفْسُ) – رَبَّهَا سَالِكًا لِلْمُسْتَقِيْمِ ، فَعَرَفَتْهُ بِهِ ؛ وَنَظَرَتْ نَفْسَهَا ، فَوَجَدَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا الَّذِي هُوَ الرُّوْحُ ، مُقَارَنَةً فِي اللَّطَافَةِ ؛ وَنَظَرَتْ إِلَى الْمُعْوَجِّ عِنْدَ عَالَمِ التَّرْكِيْبِ ؛ فَذَٰلِكَ قَوْلُهَا : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ . – وَهٰذَا عَالَمُهَا الْمُتَّصِلُ بِهَا ، الْمُرَكَّبُ : « مَغْضُوْبٌ عَلَيْهِ » ؛ وَ (الْعَالَمُ) الْمُنْفَصِلُ عَنْهَا ، (أَهْلُهُ) « ضَالُّوْنَ » عَنْهَا ، بِنَظَرِهِمْ إِلَى (الْعَالَمِ) الْمُتَّصِلِ (بِالنَّفْسِ) ، الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِ .

فَوَقَفَتِ (النَّفْسُ) عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطَيْنِ ؛ وَرَأَتْ غَايَةَ الْمُعْوَجِّ الْهَلَاكَ ؛ وَغَايَةَ الْمُسْتَقِيْمِ النَّجَاةَ ؛ وَعَلِمَتْ أَنَّ عَالَمَهَا يَتْبَعُهَا حَيْثُ سَلَكَتْ . فَلَمَّا أَرَادَتِ (النَّفْسُ) السُّلُوْكَ عَلَى (الصِّرَاطِ) الْمُسْتَقِيْمِ ، وَأَنْ تَعْتَكِفَ فِي حَضْرَةِ رَبِّهَا ، وَأَنَّ ذٰلِكَ لَهَا وَمِنْ نَفْسِهَا بِقَوْلِهَا : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » ، – عَجَزَتْ وَقُصِّرَ بِهَا . فَطَلَبَتِ (النَّفْسُ) الْاِسْتِعَانَةَ بِقَوْلِهَا : « وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » . فَنَبَّهَهَا رَبُّهَا عَلَى « اهْدِنَا » . فَتَيَقَّظَتِ (النَّفْسُ) فَقَالَتْ : « اِهْدِنَا » . فَوَصَفَتْ مَا رَأَتْ بِقَوْلِهَا : « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ » = الَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ ذَاتِكَ . – قَالَ صَاحِبُ (كِتَابِ) « الْمَوَاقِفِ » : « لَا تَأْتَمِرْ لِلْعِلْمِ » وَقَالَ : « أَنْتَ لِمَا هَلَكْتَ فِيْهِ » .

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وَقُرِئَ فِي الشَّاذِّ : « صِرَاطَ مَنْ أُنْعِمَ عَلَيْهِ » = إِشَارَةً إِلَى الرُّوْحِ الْقُدْسِيِّ . وَتَفْسِيْرُ الْكُلِّ : مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ رَسُوْلٍ وَنَبِيٍّ . – ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ = لَيْسَ كَذٰلِكَ . ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

يَقُوْلُ – تَعَالَى ! – : ﴿ **فَهٰؤُلَاءِ لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ** ﴾ . فَأَجَابَهَا (أَيْ أَجَابَ الْحَقُّ النَّفْسَ) ، وَأَقَامَ مُعْوَجَّهَا ، وَأَوْضَحَ صِرَاطَهَا ، وَرَفَعَ بِسَاطَهَا . يَقُوْلُ رَبُّهَا إِثْرَ تَمَامِ دُعَائِهَا : « آمِيْنَ ! » . فَحَصَلَتِ الْإِجَابَةُ بِالْأَمْنِ تَأْمِيْنَ الْمَلَائِكَةِ ؛ وَصَارَ تَأْمِيْنُ الرُّوْحِ

تَابِعًا لَهُ اِتِّبَاعَ الْأَجْنَادِ بَلْ أَطْوَعُ ، لِكَوْنِ الْإِرَادَةِ مُتَّحِدَةً ؛ وَصَحَّ لَهَا (أَيْ لِلنَّفْسِ) النُّطْقُ ، فَسَمَّاهَا (الرُّوْحُ) النَّفْسَ النَّاطِقَةَ ، وَهِيَ عَرْشُ الرُّوْحِ ؛ وَالْعَقْلُ ، صُوْرَةُ الْاِسْتِوَاءِ . — فَافْهَمْ ! وَإِلَّا فَسَلِّمْ تَسْلَمْ . ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

فُصُوْلُ تَأْنِيْسٍ وَقَوَاعِدُ تَأْسِيْسٍ
(تَأْوِيْلُ بَعْضِ آيَاتٍ مِنْ أَوَائِلِ سُوْرَةِ الْبَقَرَةِ)

نَظَرُ الْجَمَالِ بِعَيْنِ الْوِصَالِ (فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ) . — قَالَ — تَعَالَى ! — : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧ ﴾ .

إِيْجَازُ الْبَيَانِ فِيْهِ : يَا مُحَمَّدُ ، « إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا » = سَتَرُوْا مَحَبَّتَهُمْ فِيَّ عَنْهُمْ ، فَ « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ » بِوَعِيْدِكَ الَّذِي أَرْسَلْتُكَ بِهِ « أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ : لَا يُؤْمِنُونَ » بِكَلَامِكَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْقِلُوْنَ غَيْرِي . وَأَنْتَ تُنْذِرُهُمْ بِخَلْقِي ، وَهُمْ مَا عَقَلُوْهُ وَلَا شَاهَدُوْهُ !

وَكَيْفَ يُؤْمِنُوْنَ بِكَ (يَا مُحَمَّدُ) ؟ وَقَدْ « خَتَمْتُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ » = فَلَمْ أَجْعَلْ فِيْهَا مُتَّسِعًا لِغَيْرِي ؛ — « وَعَلَى سَمْعِهِمْ » = فَلَا يَسْمَعُوْنَ كَلَامًا فِي الْعَالَمِ إِلَّا مِنِّي ؛ « وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ » = مِنْ بَهَائِي عِنْدَ مُشَاهَدَتِي ؛ « فَلَا يُبْصِرُوْنَ » سِوَايَ ؛ —

« وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ » عِنْدِي : (إِذْ) أَرُدُّهُمْ بَعْدَ هٰذَا الْمَشْهَدِ السَّنِيِّ إِلَى إِنْذَارِكَ ، وَأَحْجُبُهُمْ عَنِّي كَمَا فَعَلْتُ بِكَ بَعْدَ « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » قُرْبًا ، (حَيْثُ) أَنْزَلْتُكَ إِلَى مَنْ يُكَذِّبُكَ ، وَيَرُدُّ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَيْهِ مِنِّي فِي وَجْهِكَ ، وَتَسْمَعُ فِيَّ مَا يُضِيْقُ بِهِ صَدْرُكَ . فَأَيْنَ ذٰلِكَ الشَّرْحُ الَّذِي شَاهَدْتَهُ فِي إِسْرَائِكَ ؟

فَهٰكَذَا أُمَنَائِي عَلَى خَلْقِي ، الَّذِيْنَ أَخْفَيْتُهُمْ . رِضَايَ عَنْهُمْ ، فَلَا أَسْخُطُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا !

بَسْطُ مَا أَوْجَزْنَاهُ فِي هٰذَا الْبَابِ
(اَلْأَوْلِيَاءُ فِي صِفَةِ الْأَعْدَاءِ)

أُنْظُرْ كَيْفَ أَخْفَى – سُبْحَانَهُ ! – أَوْلِيَاءَهُ فِي صِفَةِ أَعْدَائِهِ . وَذٰلِكَ (أَنَّهُ) لَمَّا أَبْدَعَ « الْأُمَنَاءَ » مِنِ اسْمِهِ « اللَّطِيْفِ » ، وَتَجَلَّى لَهُمْ فِي اسْمِهِ « الْجَمِيْلِ » فَأَحَبُّوْهُ – تَعَالَى ! – . وَالْغَيْرَةُ مِنْ صِفَاتِ الْمَحَبَّةِ ، فِي الْمَحْبُوْبِ وَالْمُحِبِّ بِوَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ . فَسَتَرُوْا مَحَبَّتَهُ (– تَعَالَى ! –) غَيْرَةً مِنْهُمْ عَلَيْهِ ، كَالشِّبْلِي وَأَمْثَالِهِ ؛ وَسَتَرَهُمُ (الْحَقُّ) بِهٰذِهِ الْغَيْرَةِ عَنْ أَنْ يُعْرَفُوْا .

فَقَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ = أَيْ سَتَرُوْا مَا بَدَا لَهُمْ فِي مُشَاهَدَتِهِمْ مِنْ أَسْرَارِ الْوُصْلَةِ . فَقَالَ : لَابُدَّ (مِنْ) أَنْ أَحْجُبَكُمْ عَنْ ذَاتِي بِصِفَاتِي . فَتَأَهَّبُوْا ! كَذٰلِكَ فَمَا اسْتَعَدُّوْا . فَأَنْذَرْتُهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِي ، الرُّسُلِ فِي ذٰلِكَ الْعَالَمِ ، فَمَا عَرَفُوْا : لِأَنَّهُمْ فِي عَيْنِ الْجَمْعِ . وَخَاطَبَهُمُ (الْحَقُّ) مِنْ عَيْنِ التَّفْرِقَةِ ، وَهُمْ مَا عَرَفُوْا عَالَمَ التَّفْصِيْلِ . فَلَمْ يَسْتَعِدُّوْا . وَكَانَ الْحُبُّ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى قُلُوْبِهِمْ سُلْطَانُهُ ، غَيْرَةً مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ .

فَأَخْبَرَ (– تَعَالَى ! –) نَبِيَّهُ ﷺ ، رُوْحًا وَقُرْآنًا ، بِالسَّبَبِ الَّذِي أَصَمَّهُمْ عَنْ إِجَابَةِ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ فَلَمْ يَسَعْهَا غَيْرُهُ ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ = فَلَا يَسْمَعُوْنَ سِوَى كَلَامِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَالَمِ ، فَيَشْهَدُوْنَهُ فِي الْعَالَمِ مُتَكَلِّمًا بِلُغَاتِهِمْ ؛ – ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ ﴾ = مِنْ سَنَاهُ – إِذْ هُوَ النُّوْرُ – وَبَهَائِهِ ؛ إِذْ لَهُ الْجَلَالُ وَالْهَيْبَةُ : يُرِيْدُ الصِّفَةَ ، الَّتِي تَجَلَّى لَهُمْ فِيْهَا ، الْمُتَقَدِّمَةَ .

فَأَبْقَاهُمُ (الْحَقُّ) غَرْقَى فِي بُحُورِ اللَّذَّاتِ بِمُشَاهَدَةِ الذَّاتِ . فَقَالَ لَهُمْ : لَابُدَّ لَكُمْ مِنْ « عَذَابٍ عَظِيْمٍ » ! فَمَا فَهِمُوْا مَا الْعَذَابُ ، لِاتِّحَادِ الصِّفَةِ عِنْدَهُمْ . فَأَوْجَدَ لَهُمُ (الْحَقُّ) عَالَمَ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ ، وَحِيْنَئِذٍ عَلَّمَهُمْ « جَمِيْعَ الْأَسْمَاءِ » ، وَأَنْزَلَهُمْ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانِيِّ ، وَفِيْهِ عَذَابُهُمْ ، وَقَدْ كَانُوْا مَخْبُوْئِيْنَ عِنْدَهُ فِي خَزَائِنِ غُيُوْبِهِ ؛ فَلَمَّا أَبْصَرَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ خَرَّتْ سُجُوْدًا لَهُمْ ، فَعَلَّمُوْهُمُ الْأَسْمَاءَ .

فَأَمَّا أَبُوْ يَزِيْد ، فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْاِسْتِوَاءَ ، وَلَا أَطَاقَ الْعَذَابَ ، فَصَعِقَ مِنْ حِيْنِهِ . فَقَالَ – تَعَالَى ! – : « رُدُّوْا عَلَيَّ حَبِيْبِي فَإِنَّهُ لَا صَبْرَ لَهُ عَنِّي ! » . فَحُجِبَ بِالشَّوْقِ وَالْمُخَاطَبَةِ . وَبَقِيَ « لِلْكُفَّارِ » .

فَنَزَلُوْا مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ . فَبَدَتْ لَهُمُ « الْقَدَمَانِ » . فَنَزَلُوْا عَلَيْهِمَا فِي « الثُّلُثِ لِلْبَاقِي مِنْ لَيْلَةِ » هٰذِهِ النَّشْأَةِ الْجِسْمِيَّةِ ، « إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا » النَّفْسِيِّ . فَخَاطَبُوْا أَهْلَ الثِّقَلِ الَّذِيْنَ لَا يَقْدِرُوْنَ عَلَى الْعُرُوْجِ : « هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَيُتَابَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرَ لَهُ ؟ » حَتَّى يَنْصَدِعَ الْفَجْرُ . فَإِذَا انْصَدَعَ ، ظَهَرَ الرُّوْحُ الْعَقْلِيُّ النُّوْرِيُّ ؛ فَرَجَعُوْا مِنْ حَيْثُ جَاءُوْا . قَالَ ﷺ : ﴿ **مَنْ كَانَ مُوَاصِلًا فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ** ﴾ : فَذٰلِكَ أَوَانُ « بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُوْرِ » – . فَكُلُّ عَبْدٍ لَمْ يَحْذَرْ مَكْرَ اللهِ فَهُوَ مَخْدُوْعٌ . فَافْهَمْ !

فصل :
(فِي تَأْوِيْلِ قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – :)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

أَبْدَعَ اللهُ الْمُبْدَعَاتِ ؛ وَتَجَلَّى بِلِسَانِ الْأَحَدِيَّةِ فِي الرُّبُوْبِيَّةِ فَقَالَ : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ؟ وَالْمُخَاطَبُ فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ ، فَقَالَ : ﴿بَلَىٰ﴾ ! فَكَانَ كَمِثْلِ الصَّدَا . فَإِنَّهُمْ (أَيْ الْمُخَاطَبُوْنَ فِي عَالَمِ الْإِبْدَاعِ) أَجَابُوْهُ بِهِ (أَيْ أَجَابُوا اللهَ بِاللهِ !) . فَإِنَّ الْوُجُوْدَ الْمُحْدَثَ خَيَالٌ مَنْصُوْبٌ ؛ وَهٰذَا الْإِشْهَادُ (فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾) كَانَ إِشْهَادَ رَحْمَةٍ ، لِأَنَّهُ مَا قَالَ لَهُمْ : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) وَحْدِي ؟ إِبْقَاءًا عَلَيْهِمْ ، لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ يُشْرِكُوْنَ بِهِ بِمَا فِيْهِمْ مِنَ الْحَظِّ الطَّبِيْعِيِّ ، وَبِمَا فِيْهِمْ مِنْ قُبُوْلِ الْاِقْتِدَارِ الْإِلٰهِيِّ . وَمَا يَعْلَمُهُ إِلَّا قَلِيْلٌ .

فَلَمَّا بَرَزَتْ صُوَرُ الْعَالَمِ مِنَ الْعِلْمِ الْأَزَلِيِّ إِلَى الْعَيْنِ الْأَبَدِيِّ ، مِنْ وَرَاءِ سِتَارَةِ الْغَيْرَةِ وَالْعِزَّةِ ، بَعْدَمَا أَسْرَجَ (الْحَقُّ) السُّرُجَ ، وَأَنَارَ بَيْتَ الْوُجُوْدِ ، وَبَقِيَ هُوَ فِي ظُلْمَةِ الْغُيُوْبِ . فَشُوْهِدَتِ الصُّوَرُ مُتَحَرِّكَةً ، نَاطِقَةً بِلُغَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ . وَالصُّوَرُ تَنْبَعِثُ مِنَ الظُّلْمَةِ ؛ فَإِذَا انْقَضَى زَمَانُهَا عَادَتْ إِلَى الظُّلْمَةِ . هٰكَذَا حَتَّى السَّحَرِ .

فَأَرَادَ الْفَطِنُ أَنْ يَقِفَ عَلَى حَقِيْقَةِ مَا شَاهَدَهُ بَصَرُهُ ، فَإِنَّ لِلْحِسِّ أَغَالِيْطُ . فَقَرُبَ مِنَ السِّتَارَةِ ، فَرَأَى نُطْقَهَا غَيْبًا فِيْهَا . فَعَلِمَ أَنْ ثَمَّ سِرًّا عَجِيْبًا ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ فَعَرَفَهُ ، وَعَرَفَ الرَّسُوْلَ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ وَظَائِفِ التَّكْلِيْفِ . فَأَوَّلُ وَظِيْفَةٍ (كَانَتْ هِيَ) كَلِمَةُ التَّوْحِيْدِ ، فَأَقَرَّ الْكُلُّ بِهَا . فَمَا جَحَدَ أَحَدٌ الصَّانِعَ ، وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُهُمْ عَلَيْهِ . فَابْتَلَاهُمْ (الْحَقُّ آنَئِذٍ) : بِأَنْ خَاطَبَهُمْ بِلِسَانِ الشِّرْكِ (= بِلِسَانِ الْفَرْقِ) بِشَهَادَةِ الرَّسُوْلِ . فَوَقَعَ الْإِنْكَارُ بِاخْتِصَاصِ الْجِنْسِ .

فَتَفَرَّقَ أَهْلُ الْإِنْكَارِ عَلَى طَرِيْقَيْنِ . فَمِنْهُمْ مَنْ نَظَرَ فِي الظَّوَاهِرِ ، فَلَمْ يَرَ تَفْضِيْلًا فِي شَيْءٍ ظَاهِرٍ : فَأَنْكَرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ نَظَرَ بَاطِنًا عَقْلًا ، فَرَأَى الْاِشْتِرَاكَ فِي الْمَعْقُوْلَاتِ ، وَنَسِيَ الْاِخْتِصَاصَ : فَأَنْكَرَ . فَأَرْسَلَهُ (أَيْ أَرْسَلَ الْحَقُّ رَسُوْلَهُ) بِالسَّيْفِ ، « فَقَذَفَ فِي قُلُوْبِهِمُ الرُّعْبَ مِنَ الْمَوْتِ » ، وَدَاخَلَهُمُ الشَّكُّ عَلَى قَدْرِ نَظَرِهِمْ . فَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى نَفْيِ كَلِمَةِ الْإِشْرَاكِ قَطْعًا : فَذٰلِكَ كَافِرٌ . وَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَمَرَّ عَلَيْهَا مُشَاهَدَةً : فَذٰلِكَ عَالِمٌ بِاللهِ . وَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى ثَبْتِهَا نَظَرًا : فَذٰلِكَ عَارِفٌ بِاللهِ . وَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَمَرَّ

عَلَى ثَبْتِهَا اِعْتِقَادًا : فَتِلْكَ الْعَامَّةُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ خَافَ الْقَتْلَ ، فَلَفَّظَ وَلَمْ يَعْتَقِدْ ، فَنَادَى عَلَيْهِ لِسَانُ الْحَقِّ فَقَالَ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ ظَاهِرًا ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بَاطِنًا ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ بِلُزُوْمِ الدَّعْوَى وَبِجَهْلِهِمُ الْقَائِمُ بِهِمْ بِأَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ ، وَأَنِّي أَرُدُّ أَعْمَالَهُمْ عَلَيْهِمْ ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ الْيَوْمَ بِذٰلِكَ . ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ = شَكٌّ مِمَّا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُوْلِي . ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ = شَكًّا وَحِجَابًا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ فِيْهِ ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ مِمَّا حَقَّقْنَا لَدَيْهِمْ ، وَلَمْ تَسْبُقْ لَهُمْ عِنَايَةٌ فِي اللَّوْحِ الْقَاضِي (أَيْ فِي لَوْحِ الْقَضَاءِ) .

وصل :
(اَلْمُنَافِقُوْنَ : مِنْ طَرِيْقِ الْأَسْرَارِ)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

لَمَّا أَكْمَلَ (الْحَقُّ) الْوُجُوْدَ بِثَمَانِيَةٍ ، بَرَزَ فِي مَيْدَانِ التَّنَعُّمِ فَارِسُ الدَّعْوَى . فَلَمْ يَكُنْ فِي جَيْشِ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا ﴾ مَنْ يَبْرُزُ إِلَيْهِ . فَمَلَكَ الْكُلَّ ، وَصَبَوْا إِلَيْهِ وَإِلَى دِيْنِهِ بَاطِنًا . فَعُوْقِبُوْا بِطَلَبِ الْإِقْرَارِ ، وَإِلَّا قُتِلُوْا فَأَقَرُّوْا لَفْظًا . فَحَصَلَ لَهُمُ « الْعَذَابُ الْأَلِيْمُ » دُنْيًا وَآخِرَةً . –

« فَإِنَّهُ قِيْلَ لَهُمْ : لَا تُفْسِدُوْا فِي الْأَرْضِ » = أَرْضِ الْأَشْبَاحِ ، – « قَالُوْا » مِنْ خَيَالِهِمْ : « إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ » ! فَقَالَ اللهُ – تَعَالَى ! – : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُوْنَ » عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ ، إِذْ لَمْ يَسْتَمْتِعُوْا بِها عَلَى مَا يُرِيْدُوْنَ ، – « وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُوْنَ » بِاتِّحَادِ الْأَشْيَاءِ ، وَلَوْ شَعَرُوْا (لَـ) مَا آمَنُوْا وَلَا كَفَرُوْا !

وصل :
(اَلْمُنَافِقُوْنَ : مِنْ طَرِيْقِ الْأَسْرَارِ)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمَّا انْتَظَمُوْا فِي سِلْكِ الْأَغْيَارِ ، أَتَاهُمُ النِّدَاءُ أَنْ يَقِفُوْا عَلَى مَنَازِلِ الشُّهَدَاءِ . فَسَمِعُوْا الْخِطَابَ فِي الْأَيْنِيَّةِ : « آمِنُوْا كَمَا آمَنَ النَّاسُ » . فَحَجَبُوْا عَنْ أَخْذِ الْعَهْدِ (الْغَيْبِيِّ الْأَزَلِيِّ) بِعَهْدِ الْحِسِّ وَالدَّاعِي الْجِنْسِيِّ . وَأَصَمَّهُمْ ذٰلِكَ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ وَأَغْطَشَ لَيْلُ جَهَالَتِهِمْ ، فَقَالُوْا : « أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ » .

لَمَّا عُدِلَ بِهِمْ عَنْ طَرِيْقِ التَّقْدِيْسِ ، وَوَقَفُوْا مَعَ الْهَوَى ، قَالَ اللّٰهُ لَنَا : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ » الْأَحْلَامُ لَمَّا مَلَكَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ ، وَحُجِبُوْا عَنِ الْاِلْتِذَاذِ بِسِمَاعِ وَقْعِ الرَّذَاذِ عَلَى الْأَفْلَاذِ بِالطُّوْرِ . – « وَلٰكِنْ لَّا يَعْلَمُوْنَ » = لِيَتَمَيَّزَ الْعَالِي مِمَّنْ هُوَ دُوْنَهُ . وَإِلَّا ، فَأَيَّةُ فَائِدَةٍ لِقَوْلِهِ (– تَعَالَى ! –) لِشَيْءٍ يُرِيْدُهُ ، إِذَا أَرَادَهُ : « أَنْ يَقُوْلَ لَهُ : كُنْ ! فَيَكُوْنُ » ذٰلِكَ الشَّيْءُ ، – إِلَّا إِيْجَادَ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَحْسَنِ قَانُوْنٍ ؟ فَسُبْحَانَ مَنِ انْفَرَدَ بِالْإِيْجَادِ وَالْاِخْتِرَاعِ ، وَالْإِتْقَانِ وَالْإِبْدَاعِ .

وصل : فِي دَعْوَى الْمُدَّعِيْنَ
(اَلْمُنَافِقُوْنَ : مِنْ طَرِيْقِ الْأَسْرَارِ)

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾

اَلْاِيْمَانُ ، فِي هٰذَا الْمَقَامِ ، عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ : إِيْمَانُ تَقْلِيْدٍ ، وَإِيْمَانُ عِلْمٍ ، وَإِيْمَانُ عَيْنٍ ، وَإِيْمَانُ حَقٍّ ، وَإِيْمَانُ حَقِيْقَةٍ . فَالتَّقْلِيْدُ : لِلْعَوَّامِ . وَالْعِلْمُ : لِأَصْحَابِ الدَّلِيْلِ .

وَالْعَيْنُ : لِأَهْلِ الْمُشَاهَدَةِ . وَالْحَقُّ : لِلْعَارِفِيْنَ . وَالْحَقِيْقَةُ : لِلْوَاقِفِيْنَ . وَحَقِيْقَةُ الْحَقِيْقَةِ – وَهُوَ (الْقِسْمُ) السَّادِسُ (مِنْ أَقْسَامِ الْإِيْمَانِ) – لِلْعُلَمَاءِ الْمُرْسَلِيْنَ أَصْلًا وَوَرَاثَةً . مُنِعَ كَشْفُهَا : فَلَا سَبِيْلَ إِلَى إِيْضَاحِهَا . فَكَانَتْ صِفَاتُ الدَّعَاوَى : « إِذَا لَقُوْا » هٰؤُلَاءِ الْخَمْسَةَ (مِنْ أَصْحَابِ الْإِيْمَانِ) « قَالُوْا آمَنَّا » = فَالْقَلْبُ : لِلْعَوَّامِ . وَسِرُّ الْقَلْبِ : لِأَصْحَابِ الدَّلِيْلِ . وَالرُّوْحُ : لِأَهْلِ الْمُشَاهَدَةِ . وَسِرُّ الرُّوْحِ : لِلْعَارِفِيْنَ . وَسِرُّ السِّرِّ : لِلْوَاقِفِيْنَ . وَالسِّرُّ الْأَعْظَمِ : لِأَهْلِ الْغَيْرَةِ وَالْحِجَابِ .

وَالْمُنَافِقُوْنَ تَعَرَّوْا عَنِ الْاِيْمَانِ ، وَانْتَظَمُوْا فِي الْإِسْلَامِ ؛ وَإِيْمَانُهُمْ مَا جَاوَزَ خِزَانَةَ خَيَالِهِمْ . فَاتَّخَذُوْا أَصْنَامًا فِي ذَوَاتِهِمْ ، أَقَامُوْهَا مُقَامَ آلِهَتِهِمْ . – « فَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِيْنِهِمْ قَالُوْا » بِاسْتِيْلَاءِ الْغَفْلَةِ عَلَيْهِمْ ، وَخُلُوِّ الْمَحَلِّ عَنْ مَرَاتِبِ الْاِيْمَانِ : « إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ ! » . فَوَقَعَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ مِنْ قَوْلِهِمْ : « إِلَى شَيَاطِيْنِهِمْ » فِي حَالِ الْخَلْوَةِ . فَلَمَّا قَامَتِ الْأَضْدَادُ عِنْدَهُمْ ، وَعَامِلُوْا الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، – عَامِلُوْا الْحَقَّ بِسِتْرِ الْبَاطِلِ ، وَعَامِلُوْا الْبَاطِلَ بِإِفْشَاءِ الْحَقِّ : فَصَحَّ لَهُمُ النِّفَاقُ . وَلَوْ خَاطَبُوْا ذَاتَهُمْ فِي ذَاتِهِمْ (لَ) مَا صَحَّ عَلَيْهِمْ هٰذَا ، وَلَكَانُوْا مِنْ أَهْلِ الْحَقَائِقِ .

فَأَوْقَعَ اللهُ الْجَوَابَ عَلَى الْاِسْتِهْزَاءِ ، فَقَالَ : « اَللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ) » = وَهُوَ اسْتِهْزَاءُهُمْ . – عَجَبًا ! كَيْفَ قَالُوْا : « إِنَّا مَعَكُمْ » وَهُمْ عَدَمٌ ؟ لَوْ عَايَنُوْا إِيْمَانَ الْحَقِيْقَةِ ، لَعَايَنُوْا الْخَالِقَ فِي الْخَلِيْقَةِ ، وَلَا « خَلَوْا » ، وَلَا نَطَقُوْا ، وَلَا صَمَتُوْا . بَلْ كَانُوْا يَقُوْمُوْنَ مَقَامَ مَنْ شَاهَدَ ؛ وَهُوَ رُوْحٌ جَامِعٌ ، صَاحِبُ الْمَادَّةِ . فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ حَقِيْقَةَ اللِّقَاءِ ، فَإِنَّهُ مُؤَذِّنٌ بِافْتِرَاقٍ مُتَقَدِّمٍ .

ثُمَّ اجْتَمَعُوْا (أَيْ الْمُنَافِقُوْنَ) بِصِفَةٍ لَمْ يَعْرِفُوْهَا ؛ بَلْ ظَهَرَ لَهُمْ مِنْهَا ظَاهِرٌ حَسَنٌ ، فَتَأَدَّبُوْا مَعَهَا ، وَلَمْ يُطِيْقُوْا أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، فَقَالُوْا : « آمَنَّا ! » . ثُمَّ نُكِسُوْا عَلَى رُءُوْسِهِمْ فِي « الْخَلْوَةِ مَعَ الشَّيْطَنَةِ » ، وَهِيَ (أَيْ الشَّيْطَنَةُ) الْبُعْدُ ، مِثْلُ اللِّقَاءِ (حَيْثُ إِنَّهُ مُؤَذِّنٌ بِافْتِرَاقٍ مُتَقَدِّمٍ) ، – « فَقَالُوْا : إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِئُوْنَ » بِالصِّفَةِ الَّتِي لَقِيْنَا .

فَتَدَبَّرْ هٰذِهِ الْآيَةَ مِنْ حَقِيْقَةِ الْحَقِيْقَةِ ، عِنْدَ طُلُوْعِ الْفَجْرِ وَزَوَالِ الشَّكِّ ، بِزَوَالِ السِّتَارَةِ وَرَفْعِ الْمَوَاعِنِ ، – يَلُحْ لَكَ السِّرُّ فِي « سُبْحَانَ » وَ « النِّسَاءِ » وَ « الشَّمْسِ » : فَتَجِدُ الَّذِيْنَ لَقُوْا كَمِثْلِ الَّذِيْنَ لُقُوْا . فَتَصْمُتُ . وَإِنْ تَكَلَّمْتَ هَلَكْتَ . – وَهٰذِهِ حَقِيْقَةُ الْحَقِيْقَةِ الَّتِي مُنِعَ كَشْفِهَا ، إِلَّا لِمَنْ شَمَّ مِنْهَا رَائِحَةً ذَوْقًا . فَلَا بَأْسَ . فَانْظُرْ وَتَدَبَّرْ تُرْشَدْ ، إِنْ شَاءَ اللّٰهُ !

تَمَّ الْجُزْءُ الْعَاشِرُ

الجزء الحادي عشر من الفتح المكي



الْبَابُ السَّادِسُ :

فِي مَعْرِفَةِ بَدْءِ الْخَلْقِ الرُّوْحَانِيِّ ، – وَمَنْ هُوَ أَوَّلُ مَوْجُوْدٍ فِيْهِ ؟ وَمِمَّ وُجِدَ ؟ وَفِيْمَ وُجِدَ ؟ وَعَلَى أَيِّ مِثَالٍ وُجِدَ ؟ وَلِمَ وُجِدَ ؟ وَمَا غَايَتُهُ ؟ وَمَعْرِفَةُ أَفْلَاكِ الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ

أُنْظُرْ إِلَى هٰذَا الْوُجُوْدِ الْمُحْكَمِ ... وَوُجُوْدِنَا مِثْلَ الرِّدَاءِ الْمُعْلَمِ
وَانْظُرْ إِلَى خُلَفَائِهِ فِي مُلْكِهِمْ ... مِنْ مُفْصِحٍ طَلْقِ اللِّسَانِ وَأَعْجَمِ
مَا مِنْهُمُ أَحَدٌ يُحِبُّ إِلٰهَهُ ... إِلَّا وَيَمْزُجُهُ بِحُبِّ الدِّرْهَمِ
فَيُقَالُ : هٰذَا عَبْدُ مَعْرِفَةٍ وَذَا ... عَبْدُ الْجِنَانِ وَذَا عُبَيْدُ جَهَنَّمِ
إِلَّا الْقَلِيْلَ مِنَ الْقَلِيْلِ فَإِنَّهُمْ ... سَكْرَىٰ بِهِ مِنْ غَيْرِ حِسٍّ تَوَهُّمِ
فَهُمُ عَبِيْدُ اللهِ لَا يَدْرِي بِهِمْ ... أَحَدٌ سِوَاهُ ، لَا عَبِيْدُ الْمُنْعِمِ
فَأَفَادَهُمْ لَمَّا أَرَادَ رُجُوْعَهُمْ ... لِقُصُوْرِهِمْ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ مُبْهَمِ
عِلْمِ الْمُقَدَّمِ فِي الْبَسَائِطِ وَحْدَهُ ... وَأَسَاسِهِ ذُو عَنْهُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
وَحَقِيْقَةِ الظَّرْفِ الَّذِي سَتَرَتْهُ عَنْ ... أَمْثَالِهِ ، وَمِثَالُهُ لَمْ يُكْتَمِ

وَالْعِلْمِ بِالسَّـبَبِ الَّذِي وُجِدَتْ لَهُ عَيْنُ الْعَـوَالِمِ فِي الطِّـرَازِ الْأَقْدَمِ
وَنِهَـايَةِ الْأَمْـرِ ، الَّذِي لَا غَـايَةَ تُدْرَىٰ لَهُ فِيْهِ ، الْعَظِيْمِ الْأَعْظَمِ
وَعُلُـوْمِ أَفْلَاكِ الْوُجُـوْدِ ، كَبِيْرِهِ وَصَـغِيْرِهِ ، الْأَعْلَىٰ الَّذِي لَمْ يُذْمَمِ
هذِي عُلُوْمٌ مَنْ تَحَقَّقَ ، كَشْفُهَـا يَهْدِي الْقُلُوْبَ إِلَى السَّبِيْلِ الْأَقْوَمِ
فَالْحَمْـدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَنَـا جَـامِعٌ لِعُلُوْمِهَا وَلِعِلْـمِ مَـالَمْ يُعْـلَمِ

إِيجَازُ الْبَيَانِ بِضَرْبٍ مِنَ الْإِجْمَالِ

بَدْءُ الْخَلْقِ : اَلْهَبَاءُ . وَأَوَّلُ مَوْجُودٍ فِيْهِ : اَلْحَقِيْقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الرَّحْمَانِيَّةُ ، وَلَا « أَيْنَ » يَحْصُرُهَا لِعَدَمِ التَّحَيُّزِ . – وَمِمَّ وُجِدَ (الْعَالَمُ) ؟ وُجِدَ مِنَ الْحَقِيْقَةِ الْمَعْلُوْمَةِ ، الَّتِي لَا تَتَّصِفُ بِالْوُجُوْدِ وَلَا بِالْعَدَمِ . – وَفِيْمَ وُجِدَ ؟ (وُجِدَ) فِي الْهَبَاءِ . – وَعَلَى أَيِّ مِثَالٍ وُجِدَ ؟ (وُجِدَ عَلَى مِثَالٍ) الصُّوْرَةِ الْمَعْلُوْمَةِ فِي نَفْسِ الْحَقِّ . – وَلِمَ وُجِدَ ؟ (وُجِدَ) لِإِظْهَارِ الْحَقَائِقِ الْإِلٰهِيَّةِ . – وَمَا غَايَتُهُ ؟ (غَايَتُهُ) التَّخْلِيْصُ مِنَ الْمَزْجَةِ ، فَيَعْرِفَ كُلُّ عَالَمٍ حَظَّهُ مِنْ مُنْشِئِهِ مِنْ غَيْرِ امْتِزَاجٍ . فَغَايَتُهُ (أَيْ غَايَةُ الْعَالَمِ) إِظْهَارُ حَقَائِقِهِ (أَيْ حَقَائِقِ الْحَقِّ أَوْ حَقَائِقِ الْخَلْقِ) ، وَمَعْرِفَةُ أَفْلَاكِ الْأَكْبَرِ مِنَ الْعَالَمِ – وَهُوَ مَا عَدَا الْإِنْسَانَ فِي اِصْطِلَاحِ الْجَمَاعَةِ – وَالْعَالَمِ الْأَصْغَرِ – يَعْنِي الْإِنْسَانَ – رُوْحَ الْعَالَمِ وَعِلَّتَهُ وَسَبَبَهُ . – وَأَفْلَاكُهُ (أَيْ أَفْلَاكُ الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ) : مَقَامَاتُهُ وَحَرَكَاتُهُ وَتَفْصِيلُ طَبَقَاتِهِ . – فَهٰذَا (مُوْجِزُ) جَمِيْعِ مَا يَتَضَمَّنُهُ هٰذَا الْبَابُ .

(اَلْإِنْسَانُ عَالَمٌ صَغِيْرٌ)

فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ عَالَمٌ صَغِيْرٌ مِنْ طَرِيْقِ الْجِسْمِ ، كَذٰلِكَ هُوَ أَيْضًا حَقِيْرٌ مِنْ طَرِيْقِ الْحُدُوْثِ . وَصَحَّ لَهُ التَّأَلُّهُ لِأَنَّهُ خَلِيْفَةُ اللهِ فِي الْعَالَمِ ؛ وَالْعَالَمُ مُسَخَّرٌ لَهُ ، مَأْلُوْهٌ ؛ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ مَأْلُوْهٌ لِلّٰهِ – تَعَالَى ! – .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَكْمَلَ نَشْأَةِ الْإِنْسَانِ إِنَّمَا هِيَ فِي الدُّنْيَا . وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَكُلُّ إِنْسَانٍ مِنَ الْفِرْقَتَيْنِ ، عَلَى النِّصْفِ : فِي الْحَالِ ، لَا فِي الْعِلْمِ . فَإِنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ عَالِمَةٌ بِنَقِيْضِ حَالِهَا . فَلَيْسَ الْإِنْسَانُ إِلَّا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ مَعًا : سَعَادَةٌ وَشَقَاءٌ ، نَعِيْمٌ وَعَذَابٌ ، مُنَعَّمٌ وَمُعَذَّبٌ . وَلِهٰذَا (كَانَتْ) مَعْرِفَةُ الدُّنْيَا أَتَمَّ ، وَتَجَلِّي الْآخِرَةِ (كَانَ) أَعْلَى . فَافْهَمْ ! وَحُلَّ هٰذَا الْقُفْلَ . – وَلَنَا (فِي هٰذَا الْمَقَامِ) رَمْزٌ لِمَنْ تَفَطَّنَ . وَهُوَ لَفْظَةٌ بَشِيْعٌ شَنِيْعٌ ، وَمَعْنَاهُ (حُسْنٌ) بَدِيْعٌ :

رُوْحُ الْوُجُـوْدِ الْكَبِـيْرِ   هٰذَا الْوُجُـوْدُ الصَّـغِيْرُ
لَوْلَاهُ مَـا قَـالَ : إِنِّي   أَنَـا الْكَـبِيْرُ الْقَـدِيْرُ
لَا يَحْجُبَنَّكَ حُـدُوْثِي   وَلَا الْفَنَـا وَالنُّشُـوْرُ
فَـإِنَّـنِي إِنْ تَـأَمَّـلْ   تَنِي الْمُحِـيْطُ الْكَبِيْرُ
فَلِلْقَـدِيْمِ بِـذَاتِي   وَلِلْجَـدِيْدِ ظُهُـوْرُ
وَاللهُ فَـرْدٌ قَـدِيْمٌ   لَا يَعْـتَرِيْهِ قُصُـوْرُ
وَالْكَوْنُ خَـلْقٌ جَـدِيْدٌ   فِي قَبْضَتَيْـهِ أَسِـيْرُ
فَجَـاءَ مِنْ هٰـذَا أَنِّي   أَنَـا الْوُجُـوْدُ الْحَقِـيْرُ
وَإِنَّ كُـلَّ وُجُـوْدٍ   عَلَى وُجُـوْدِي يَـدُوْرُ
فَـلَا كَلَيْـلِيَ لَيْـلٌ   وَلَا كَنُـوْرِيَ نُـوْرُ
فَمَنْ يَقُـلْ فِيَّ عَبْـدٌ   أَنَـا الْعُـبَيْدُ الْفَقِـيْرُ
أَوْ قَـالَ : إِنِّي وُجُـوْدٌ   أَنَـا الْوُجُـوْدُ الْخَبِـيْرُ
فَصِـحْنِي مَلْـكاً تَجِـدْنِي   أَوْ سُـوْقَةً مَـا تَجُـوْرُ
فَيَـا جَهُـوْلًا بِقَـدْرِي   أَنْتَ الْعَـلِيْمُ الْبَصِـيْرُ ؟
بَلِّـغْ وُجُـوْدِيَ عَنِّي   وَالْقَـوْلُ صِـدْقٌ وَزُوْرُ
وَقُـلْ لِقَـوْمِكِ : إِنِّي   أَنَـا الرَّحِـيْمُ الْغَفُـوْرُ
وَقُـلْ : بِـأَنَّ عَـذَابِي   هُوَ الْعَـذَابُ الْمُبِـيْرُ

وَقُــلْ : بِأَنِّي ضَـعِيْفٌ   لَا أَسْـتَطِيْعُ ، أَسِــيْرُ
فَكَيْفَ يُنْعَمُ شَـخْصٌ   عَـلَىٰ يَدِي أَوْ يَبُــوْرُ ؟

بَسْطُ الْبَابِ وَبَيَانُهُ
– وَمِنَ اللهِ التَّأْيِيْدُ وَالْعَوْنُ –
(اَلْمَعْلُوْمَاتُ الْوُجُوْدِيَّةُ الْأَرْبَعَةُ)

اِعْلَمُوْا أَنَّ الْمَعْلُوْمَاتِ أَرْبَعَةٌ . اَلْحَقُّ – تَعَالَى ! – . وَهُوَ الْمَوْصُوْفُ بِالْوُجُوْدِ الْمُطْلَقِ ، لِأَنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – لَيْسَ مَعْلُوْلًا لِشَيْءٍ وَلَا عِلَّةً (لِشَيْءٍ) : بَلْ هُوَ (خَالِقُ الْعِلَلِ وَ) مَوْجُوْدٌ بِذَاتِهِ (مِنْ ذَاتِهِ) . وَالْعِلْمُ بِهِ (– تَعَالَى ! –) عِبَارَةٌ عَنِ الْعِلْمِ بِوُجُوْدِهِ ، وَوُجُوْدُهُ لَيْسَ غَيْرَ ذَاتِهِ . (وَ) مَعَ أَنَّهُ (– سُبْحَانَهُ ! –) غَيْرُ مَعْلُوْمِ الذَّاتِ ، لٰكِنْ يُعْلَمُ (بِ) مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ ، أَعْنِي صِفَاتِ الْمَعَانِي ، وَهِيَ صِفَاتُ الْكَمَالِ . وَأَمَّا الْعِلْمُ بِحَقِيْقَةِ الذَّاتِ فَمَمْنُوْعٌ : (إِذْ حَقِيْقَةُ الذَّاتِ) لَا تُعْلَمُ بِدَلِيْلٍ ، وَلَا بِبُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ ، وَلَا يَأْخُذُهَا حَدٌّ ؛ فَإِنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – لَا يُشْبِهُ شَيْئًا ، وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ : فَكَيْفَ يَعْرِفُ مَنْ يُشْبِهُ الْأَشْيَاءَ مَنْ لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ ، وَلَا يُشْبِهُ شَيْئًا ؟ فَمَعْرِفَتُكَ بِهِ (– تَعَالَى ! –) إِنَّمَا هِيَ أَنَّهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ . وَقَدْ وَرَدَ الْمَنْعُ مِنَ الشَّرْعِ فِي « التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِ اللهِ » .

(حَقِيْقَةُ الْحَقَائِقِ)

وَ (هُنَاكَ) مَعْلُوْمٌ ثَانٍ : وَهُوَ الْحَقِيْقَةُ الْكُلِّيَّةُ ، الَّتِي هِيَ لِلْحَقِّ وَلِلْعَالَمِ : لَا تَتَّصِفُ بِالْوُجُوْدِ وَلَا بِالْعَدَمِ ، وَلَا بِالْحُدُوْثِ وَلَا بِالْقِدَمِ ؛ هِيَ فِي الْقَدِيْمِ – إِذَا وُصِفَ بِهَا – قَدِيْمَةٌ ؛ وَفِي الْمُحْدَثِ – إِذَا وُصِفَ بِهَا – مُحْدَثَةٌ . لَا تُعْلَمُ الْمَعْلُوْمَاتُ ، قَدِيْمُهَا وَحَدِيْثُهَا ، حَتَّى تُعْلَمَ هٰذِهِ الْحَقِيْقَةُ ؛ وَلَا تُوْجَدُ هٰذِهِ الْحَقِيْقَةُ حَتَّى تُوْجَدَ الْأَشْيَاءُ الْمَوْصُوْفَةُ بِهَا . فَإِنْ

وُجِدَ شَيْءٌ عَنْ غَيْرِ عَدَمٍ مُتَقَدِّمٍ ، كَوُجُوْدِ الْحَقِّ وَصِفَاتِهِ ، قِيْلَ فِيْهَا : (إِنَّهَا) مَوْجُوْدٌ قَدِيْمٌ ، لِاتِّصَافِ الْحَقِّ بِهَا ؛ وَإِنْ وُجِدَ شَيْءٌ عَنْ عَدَمٍ ، كَوُجُوْدِ مَا سِوَى اللهِ ، وَهُوَ الْمُحْدَثُ الْمَوْجُوْدُ بِغَيْرِهِ – قِيْلَ فِيْهَا : (إِنَّهَا) مُحْدَثَةٌ . وَهِيَ ، فِي كُلِّ مَوْجُوْدٍ ، بِحَقِيْقَتِهَا (الْكُلِّيَّةِ) : فَإِنَّهَا لَا تَقْبَلُ التَّجَزِّي ، فَمَا فِيْهَا كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ ؛ وَلَا يُتَوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا ، مُجَرَّدَةً عَنِ الصُّوْرَةِ ، بِدَلِيْلٍ وَلَا بِبُرْهَانٍ . فَمِنْ هٰذِهِ الْحَقِيْقَةِ (الْكُلِّيَّةِ الَّتِي هِيَ حَقِيْقَةُ الْحَقَائِقِ) وُجِدَ الْعَالَمُ ، بِوَسَاطَةِ الْحَقِّ – تَعَالَى ! – . وَ (هٰذِهِ الْحَقِيْقَةُ) لَيْسَتْ بِمَوْجُوْدَةٍ (فِي ذَاتِهَا) فَيَكُوْنُ الْحَقُّ قَدْ أَوْجَدَنَا مِنْ مَوْجُوْدٍ قَدِيْمٍ ، فَيَثْبُتُ لَنَا الْقِدَمُ .

وَكَذٰلِكَ لِتَعْلَمَ أَيْضًا أَنَّ هٰذِهِ الْحَقِيْقَةَ (الْكُلِّيَّةَ) لَا تَتَّصِفُ بِالتَّقَدُّمِ عَلَى الْعَالَمِ ، وَلَا الْعَالَمُ (يَتَّصِفُ) بِالتَّأَخُّرِ عَنْهَا ؛ وَلٰكِنَّهَا أَصْلُ الْمَوْجُوْدَاتِ عُمُوْمًا ، وَهِيَ أَصْلُ الْجَوْهَرِ ، وَفَلَكُ الْحَيَاةِ ، وَالْحَقُّ الْمَخْلُوْقُ بِهِ ، وَغَيْرُ ذٰلِكَ . وَهِيَ الْفَلَكُ الْمُحِيْطُ الْمَعْقُوْلُ . فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهَا الْعَالَمُ ، صَدَقْتَ ؛ أَوْ إِنَّهَا لَيْسَتِ الْعَالَمَ ، صَدَقْتَ ؛ أَوْ إِنَّهَا الْحَقُّ أَوْ لَيْسَتِ الْحَقَّ ، – صَدَقْتَ . تَقْبَلُ هٰذَا كُلَّهُ ؛ وَتَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ أَشْخَاصِ الْعَالَمِ ؛ وَتَتَنَزَّهُ بِتَنْزِيْهِ الْحَقِّ .

وَإِنْ أَرَدْتَ مِثَالَهَا حَتَّى يَقْرُبَ إِلَى فَهْمِكَ : فَانْظُرْ فِي الْعُوْدِيَّةِ فِي الْخَشَبَةِ وَالْكُرْسِيِّ وَالْمَحْبَرَةِ وَالْمِنْبَرِ وَالتَّابُوْتِ ؛ وَ (انْظُرْ) كَذٰلِكَ التَّرْبِيْعَ وَأَمْثَالَهُ فِي الْأَشْكَالِ ، فِي كُلِّ مُرَبَّعٍ مَثَلًا ، مِنْ بَيْتٍ وَتَابُوْتٍ وَوَرَقَةٍ . وَالتَّرْبِيْعُ وَالْعُوْدِيَّةُ (هُمَا) بِحَقِيْقَتِهَا فِي كُلِّ شَخْصٍ مِنْ هٰذِهِ الْأَشْخَاصِ (مِنْ غَيْرِ تَجْزِيْءٍ وَلَا تَعَدُّدٍ وَلَا تَبْعِيْضٍ) . – وَ (انْظُرْ) كَذٰلِكَ الْأَلْوَانَ : بَيَاضُ الثَّوْبِ وَالْجَوْهَرِ وَالْكَاغَدِ وَالدَّقِيْقِ وَالدِّهَانِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَّصِفَ الْبَيَاضِيَّةُ ، الْمَعْقُوْلَةُ فِي الثَّوْبِ ، بِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْهَا فِيْهِ (أَيْ فِي الثَّوْبُ) ؛ بَلْ حَقِيْقَتُهَا (أَيْ حَقِيْقَةُ الْبَيَاضِيَّةِ) ظَهَرَتْ فِي الثَّوْبِ ، ظُهُوْرَهَا فِي الْكَاغَدِ . – وَكَذٰلِكَ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ ، وَجَمِيْعُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا . فَ (هَأَنَذَا) قَدْ بَيَّنْتُ لَكَ هٰذَا الْمَعْلُوْمَ (الْكُلِّيَّ مِنَ الْمَعْلُوْمَاتِ الْأَرْبَعَةِ) . وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِيْهِ كَثِيْرًا فِي كِتَابِنَا الْمَوْسُوْمِ بِإِنْشَاءِ الْجَدَاوِلِ وَالدَّوَائِرِ .

وَ (هُنَاكَ أَيْضًا) مَعْلُوْمٌ ثَالِثٌ ، وَهُوَ الْعَالَمُ كُلُّهُ : اَلْأَمْلَاكُ وَالْأَفْلَاكُ وَمَا تَحْوِيْهِ مِنَ الْعَوَالِمِ ، وَالْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيْهِمَا مِنَ الْعَالَمِ . وَهُوَ الْمُلْكُ الْأَكْبَرُ . وَ (هُنَاكَ أَخِيْرًا) مَعْلُوْمٌ رَابِعٌ ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الْخَلِيْفَةُ الَّذِي جَعَلَهُ اللّٰهُ فِي هٰذَا الْعَالَمِ الْمَقْهُوْرِ تَحْتَ تَسْخِيْرِهِ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ ﴾ .

فَمَنْ عَلِمَ هٰذِهِ الْمَعْلُوْمَاتِ ، فَمَا بَقِيَ لَهُ مَعْلُوْمٌ أَصْلًا يَطْلُبُهُ . فَمِنْهَا (أَيْ مِنْ هٰذِهِ الْمَعْلُوْمَاتِ الْأَرْبَعَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ) مَا لَا نَعْلَمُ إِلَّا وُجُوْدَهُ ، وَهُوَ الْحَقُّ – تَعَالَى ! – ؛ وَتُعْلَمُ أَفْعَالُهُ وَصِفَاتُهُ بِضَرْبٍ مِنَ الْأَمْثِلَةِ . وَمِنْهَا مَا لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالْمِثَالِ : كَالْعِلْمِ بِالْحَقِيْقَةِ الْكُلِّيَّةِ . وَمِنْهَا مَا يُعْلَمُ بِهٰذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ ، وَبِالْمَاهِيَّةِ وَالْكَيْفِيَّةِ : وَهُوَ الْعَالَمُ وَالْإِنْسَانُ .

وصل :
(بَدْءُ الْعَالَمِ وَمِثَالُهُ : اَلْهَبَاءُ وَالْحَقِيْقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ)

﴿ **كَانَ اللّٰهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ** ﴾ ؛ ثُمَّ أُدْرِجَ فِيْهِ (أَيْ فِي هٰذَا الْحَدِيْثِ) : « وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ » . – لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ (– سُبْحَانَهُ ! –) مِنْ إِيْجَادِهِ الْعَالَمَ ، صِفَةٌ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا ؛ بَلْ كَانَ مَوْصُوْفًا لِنَفْسِهِ ، وَمُسَمًّى قَبْلَ خَلْقِهِ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي يَدْعُوْهُ بِهَا خَلْقُهُ . فَلَمَّا أَرَادَ (– تَعَالَى ! –) وُجُوْدَ الْعَالَمِ ، وَبَدَأَهُ عَلَى حَدِّ مَا عَلِمَهُ بِعِلْمِهِ بِنَفْسِهِ ، اِنْفَعَلَ عَنْ تِلْكَ الْإِرَادَةِ الْمُقَدَّسَةِ ، بِضَرْبِ تَجَلٍّ مِنْ تَجَلِّيَاتِ التَّنْزِيْهِ ، إِلَى الْحَقِيْقَةِ الْكُلِّيَّةِ ، – (نَقُوْلُ) : اِنْفَعَلَ عَنْهَا حَقِيْقَةٌ تُسَمَّى الْهَبَاءَ ، هِيَ بِمَنْزِلَةِ طَرْحِ الْبَنَّاءِ الْجِصَّ ، لِيَفْتَحَ فِيْهَا مَا شَاءَ مِنَ الْأَشْكَالِ وَالصُّوَرِ . وَهٰذَا هُوَ أَوَّلُ مَوْجُوْدٍ فِي الْعَالَمِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ ! – وَسَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ (التُّسْتَرِي) – رَحِمَهُ اللّٰهُ ! – ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَهْلِ التَّحْقِيْقِ ، أَهْلُ الْكَشْفِ وَالْوُجُوْدِ .

ثُمَّ إِنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – تَجَلَّى بِنُوْرِهِ إِلَى ذٰلِكَ الْهَبَاءِ – وَيُسَمِّيْهِ (وَيُسَمُّوْنَهُ) أَصْحَابُ الْأَفْكَارِ : الْهَيُوْلَى الْكُلَّ – وَالْعَالَمُ كُلُّهُ فِيْهِ بِالْقُوَّةِ وَالصَّلَاحِيَّةِ ، فَقَبِلَ مِنْهُ – تَعَالَى ! – كُلَّ

شَيْءٍ فِي ذٰلِكَ الْهَبَاءِ عَلَى حَسَبِ قُوَّتِهِ وَاسْتِعْدَادِهِ ، كَمَا تَقْبَلُ زَوَايَا الْبَيْتِ نُورَ السِّرَاجِ ؛ وَعَلَى قَدْرِ قُرْبِهِ مِنْ ذٰلِكَ النُّورِ يَشْتَدُّ ضَوْءُهُ وَقَبُوْلُهُ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ﴾ = فَشَبَّهَ نُوْرَهُ بِالْمِصْبَاحِ . – فَلَمْ يَكُنْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ (– تَعَالَى ! –) قَبُوْلًا فِي ذٰلِكَ الْهَبَاءِ ، إِلَّا حَقِيْقَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمُسَمَّاةُ بِالْعَقْلِ . فَكَانَ سَيِّدَ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ ، وَأَوَّلَ ظَاهِرٍ فِي الْوُجُوْدِ . فَكَانَ وُجُوْدُهُ مِنْ ذٰلِكَ النُّوْرِ الْإِلٰهِيِّ ، وَمِنَ الْهَبَاءِ ، وَمِنَ الْحَقِيْقَةِ الْكُلِّيَّةِ . وَفِي الْهَبَاءِ وُجِدَ عَيْنُهُ ، وَعَيْنُ الْعَالَمِ مِنْ تَجَلِّيْهِ ؛ وَأَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ : عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَسْرَارُ الْأَنْبِيَاءِ .

وَأَمَّا الْمِثَالُ الَّذِي وُجِدَ عَلَيْهِ الْعَالَمُ كُلُّهُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيْلٍ ، فَهُوَ الْعِلْمُ الْقَائِمُ بِنَفْسِ الْحَقِّ – تَعَالَى ! – . فَإِنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – عَلِمَنَا بِعِلْمِهِ بِنَفْسِهِ ، وَأَوْجَدَنَا عَلَى حَدِّ مَا عَلِمَنَا ؛ وَنَحْنُ عَلَى هٰذَا الشَّكْلِ الْمُعَيَّنِ فِي عِلْمِهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذٰلِكَ لَأَخَذَ هٰذَا الشَّكْلَ بِالْاِتِّفَاقِ لَا عَنْ قَصْدٍ ، لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُهُ . وَمَا يَتَمَكَّنُ أَنْ تَخْرُجَ صُوْرَةٌ فِي الْوُجُوْدِ بِحُكْمِ الْاِتِّفَاقِ . فَلَوْلَا أَنَّ هٰذَا الشَّكْلَ الْمُعَيَّنَ مَعْلُوْمٌ لِلّٰهِ – سُبْحَانَهُ ! – وَمُرَادٌ لَهُ ، (لَ) مَا أَوْجَدَنَا عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَأْخُذْ هٰذَا الشَّكْلَ (الْمُمَيِّزَ لَهُ) مِنْ غَيْرِهِ . إِذْ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ (– تَعَالَى ! –) « كَانَ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ » = فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مَا بَرَزَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ مِنَ الصُّوْرَةِ . فَعِلْمُهُ (– تَعَالَى ! –) بِنَفْسِهِ ، عِلْمُهُ بِنَا أَزَلًا ، لَا عَنْ عَدَمٍ : فَعِلْمُهُ بِنَا كَذٰلِكَ . فَمِثَالُنَا الَّذِي هُوَ عَيْنُ عِلْمِهِ بِنَا ، قَدِيْمٌ بِقِدَمِ الْحَقِّ ، لِأَنَّهُ صِفَةٌ لَهُ ؛ وَلَا تَقُوْمُ بِنَفْسِهِ الْحَوَادِثُ – جَلَّ اللّٰهُ عَنْ ذٰلِكَ ! – .

(غَايَةُ الْعَالَمِ)

وَأَمَّا قَوْلُنَا : وَلِمَ وُجِدَ (الْعَالَمُ) ؟ وَمَا غَايَتُهُ ؟ (فَالْجَوَابُ) : يَقُوْلُ اللّٰهُ – عَزَّ وَجَلَّ ! – ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فَصَرَّحَ بِالسَّبَبِ الَّذِي لِأَجْلِهِ أَوْجَدَنَا . وَهٰكَذَا الْعَالَمُ كُلُّهُ . وَخَصَّصَنَا (– تَعَالَى ! –) وَالْجِنَّ بِالذِّكْرِ . وَالْجِنُّ هُنَا كُلُّ مُسْتَتِرٍ ، مِنْ مَلَكٍ وَغَيْرِهِ . وَقَدْ قَالَ – تَعَالَى ! – فِي حَقِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ . وَكَذٰلِكَ قَالَ : ﴿ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا ﴾ . وَذٰلِكَ لَمَّا كَانَ عَرَضًا ، وَأَمَّا لَوْ كَانَ أَمْرًا لَأَطَاعُوْا وَحَمَلُوْهَا ، فَإِنَّهُ لَا تَتَصَوَّرُ مِنْهُمْ مَعْصِيَةٌ ، جُبِلُوْا عَلَى ذٰلِكَ ، وَالْجِنُّ النَّارِيُّ وَالْإِنْسُ مَا جُبِلَا عَلَى ذٰلِكَ .

(اَلْعَالَمُ كُلُّهُ حَيٌّ نَاطِقٌ)

وَكَذٰلِكَ مِنَ الْإِنْسِ ، أَصْحَابُ الْأَفْكَارِ ، مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْأَدِلَّةِ ، الْمَقْصُوْرَةِ عَلَى الْحَوَّاسِ وَالضَّرُوْرِيَّاتِ وَالْبَدِيْهِيَّاتِ ، يَقُوْلُوْنَ : لَابُدَّ أَنْ يَكُوْنَ الْمُكَلَّفُ عَاقِلًا ، بِحَيْثُ يَفْهَمُ مَا يُخَاطَبُ بِهِ . وَصَدَقُوْا . وَكَذٰلِكَ هُوَ الْأَمْرُ عِنْدَنَا ، (إِذِ) الْعَالَمُ كُلُّهُ عَاقِلٌ ، حَيٌّ ، نَاطِقٌ . (وَهٰذَا ثَابِتٌ) مِنْ جِهَةِ الْكَشْفِ ، بِخَرْقِ الْعَادَةِ الَّتِي النَّاسُ عَلَيْهَا ، أَعْنِي حُصُوْلَ الْعِلْمِ بِهٰذَا عِنْدَنَا . غَيْرَ أَنَّهُمْ قَالُوْا : هٰذَا جَمَادٌ لَا يَعْقِلُ ، وَوَقَفُوْا عِنْدَ مَا أَعْطَاهُمْ بَصَرُهُمْ . وَالْأَمْرُ عِنْدَنَا بِخِلَافِ ذٰلِكَ .

فَإِذَا جَاءَ عَنْ نَبِيٍّ أَنَّ حَجَرًا كَلَّمَهُ ، وَكَتِفُ شَاةٍ ، أَوْ جِذْعُ نَخْلَةٍ ، وَبَهِيْمَةٌ ، – يَقُوْلُوْنَ : خَلَقَ اللهُ فِيْهِ الْحَيَاةَ وَالْعِلْمَ فِي ذٰلِكَ الْوَقْتِ . وَالْأَمْرُ عِنْدَنَا لَيْسَ كَذٰلِكَ ، بَلْ سِرُّ الْحَيَاةِ (سَارٍ) فِي جَمِيْعِ الْعَالَمِ ، وَأَنَّ كُلَّ « مَنْ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ مِنْ رَطْبٍ وَيَابِسٍ يَشْهَدُ لَهُ » = وَلَا يَشْهَدُ إِلَّا مَنْ عَلِمَ . هٰذَا (ثَابِتٌ) عَنْ كَشْفٍ عِنْدَنَا ، لَا عَنِ اسْتِنْبَاطٍ مِنْ نَظَرٍ بِمَا يَقْتَضِيْهِ ظَاهِرُ خَبَرٍ ، وَلَا غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهِ فَلْيَسْلُكْ طَرِيْقَ الرِّجَالِ ، وَلْيَلْزِمِ الْخَلْوَةَ وَالذِّكْرَ ، فَإِنَّ اللهَ سَيُطْلِعُهُ عَلَى هٰذَا كُلِّهِ عَيْنًا ، فَيَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ فِي عَمَايَةٍ عَنْ إِدْرَاكِ هٰذِهِ الْحَقَائِقِ .

(وُجُوْدُ الْعَالَمِ ظُهُوْرُ سُلْطَانِ الْأَسْمَاءِ)

فَأَوْجَدَ الْعَالَمَ – سُبْحَانَهُ ! – لِيَظْهَرَ سُلْطَانُ الْأَسْمَاءِ : فَإِنَّ قُدْرَةً بِلَا مَقْدُوْرٍ ، وَجُوْدًا بِلَا عَطَاءٍ ، وَرَازِقًا بِلَا مَرْزُوْقٍ ، وَمُغِيْثًا بِلَا مُغَاثٍ ، وَرَحِيْمًا بِلَا مَرْحُوْمٍ – حَقَائِقُ مُعَطَّلَةُ التَّأْثِيْرِ .

وَجَعَلَ (الْحَقُّ) الْعَالَمَ فِي الدُّنْيَا مُمْتَزِجًا : مَزْجَ الْقَبْضَتَيْنِ فِي الْعَجِنَةِ ؛ ثُمَّ فَصَّلَ الْأَشْخَاصَ مِنْهَا ، فَدَخَّلَ مِنْ هٰذِهِ (الْقَبْضَةِ) فِي هٰذِهِ (الْقَبْضَةِ) : مِنْ كُلِّ قَبْضَةٍ فِي أُخْتِهَا . فَجُهِلَتِ الْأَحْوَالُ . وَفِي هٰذَا تَفَاضَلَتِ الْعُلَمَاءُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْخَبِيْثِ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَالطَّيِّبُ مِنَ الْخَبِيْثِ . وَغَايَتُهُ ، التَّخْلِيْصُ مِنْ هٰذِهِ الْمَزْجَةِ ، وَتَمْيِيْزُ الْقَبْضَتَيْنِ حَتَّى تَنْفَرِدَ هٰذِهِ (الْقَبْضَةُ) بِعَالَمِهَا ، وَهٰذِهِ (الْقَبْضَةُ) بِعَالَمِهَا ، كَمَا قَالَ اللهُ – تَعَالَى ! – : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ﴾ .

فَمَنْ بَقِيَ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ (تِلْكَ) الْمَزْجَةِ حَتَّى مَاتَ عَلَيْهَا ، لَمْ يُحْشَرْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ « الْآمِنِيْنَ » . وَلٰكِنَّهُ ، مِنْهُمْ (أَيْ مِنَ النَّاسِ) مَنْ يَتَخَلَّصُ مِنَ الْمَزْجَةِ فِي الْحِسَابِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْهَا إِلَّا فِي جَهَنَّمَ . فَإِذَا تَخَلَّصَ أُخْرِجَ . فَهٰؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الشَّفَاعَةِ . – وَأَمَّا مَنْ تَمَيَّزَ هُنَا فِي إِحْدَى الْقَبْضَتَيْنِ ، اِنْقَلَبَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، بِحَقِيْقَتِهِ ، مِنْ قَبْرِهِ ، إِلَى نَعِيْمٍ أَوْ إِلَى عَذَابٍ وَجَحِيْمٍ : فَإِنَّهُ قَدْ تَخَلَّصَ .

فَهٰذَا (بَيَانُ) غَايَةِ الْعَالَمِ . وَهَاتَانِ (الْقَبْضَتَانِ هُمَا) حَقِيْقَتَانِ رَاجِعَتَانِ إِلَى صِفَةٍ ، هُوَ الْحَقُّ عَلَيْهَا فِي ذَاتِهِ (كَالْقَدَمَيْنِ) . وَمِنْ هُنَا قُلْنَا : يَرَوْنَهُ (إِقْرَأْ : يَرَاهُ) أَهْلُ النَّارِ مُعَذِّبًا ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُنَعِّمًا . وَهٰذَا سِرٌّ شَرِيْفٌ ، رُبَّمَا تَقِفُ عَلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عِنْدَ الْمُشَاهَدَةِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ ! وَقَدْ نَالَهَا الْمُحَقِّقُوْنَ فِي هٰذِهِ الدَّارِ .

(اَلْعَوَالِمُ الْعُلْوِيَّةُ وَالسُّفْلِيَّةُ وَنَظَائِرُهَا مِنَ الْإِنْسَانِ)

وَأَمَّا قَوْلُنَا فِي هٰذَا الْبَابِ : وَمَعْرِفَةُ أَفْلَاكِ الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ الَّذِي هُوَ الْإِنْسَانُ ، – فَأَعْنِي بِهِ عَوَالِمُ كُلِّيَاتُهُ وَأَجْنَاسُهُ ؛ وَأُمَرَاؤُهُ (هُمُ) الَّذِيْنَ لَهُمُ التَّأْثِيْرُ فِي غَيْرِهِمْ . وَجَعَلْتُهَا (أَيْ أَفْلَاكَ الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ) مُقَابِلَةً : هٰذَا نُسْخَةٌ مِنْ هٰذَا . وَقَدْ ضَرَبْنَا لَهَا دَوَائِرُ ، عَلَى صُوَرِ الْأَفْلَاكِ وَتَرْتِيْبِهَا ، فِي كِتَابِ « إِنْشَاءِ الدَّوَائِرِ وَالْجَدَاوِلِ »

الَّذِي بَدَأْنَا وَضْعَهُ بِتُوْنِسَ ، بِمَحَلِّ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْعَزِيْزِ (الْمَهْدَوِي الْقُرَشِي) ، وَلِيُّنَا وَصَفِيُّنَا – رَحِمَهُ اللهُ ! – . فَلْنَلِقْ مِنْهُ ، فِي هٰذَا الْبَابِ ، مَا يَلِيْقُ بِهٰذَا الْمُخْتَصَرِ .

فَنَقُوْلُ أَنَّ الْعَوَالِمَ أَرْبَعَةٌ : اَلْعَالَمُ الْأَعْلَى، وَهُوَ عَالَمُ الْبَقَاءِ . ثُمَّ عَالَمُ الْاِسْتِحَالَةِ ، وَهُوَ عَالَمُ الْفَنَاءِ . ثُمَّ عَالَمُ التَّعْمِيْرِ وَهُوَ عَالَمُ الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ . ثُمَّ عَالَمُ النِّسَبِ . وَهٰذِهِ الْعَوَالِمُ فِي مَوْطِنَيْنِ : فِي الْعَالَمِ الْأَكْبَرِ ، وَهُوَ مَا خَرَجَ عَنِ الْإِنْسَانِ ؛ وَفِي الْعَالَمِ الْأَصْغَرِ ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ .

فَأَمَّا الْعَالَمُ الْأَعْلَى فَ (هُوَ) الْحَقِيْقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ ، وَفَلَكُهَا الْحَيَاةُ ؛ نَظِيْرُهَا مِنَ الْإِنْسَانِ اللَّطِيْفَةُ وَالرُّوْحُ الْقُدْسِيُّ . وَمِنْهُمُ الْعَرْشُ الْمُحِيْطُ ، وَنَظِيْرُهُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، الْجِسْمُ . وَمِنْ ذٰلِكَ الْكُرْسِيُّ ، وَنَظِيْرُهُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، النَّفْسُ . وَمِنْ ذٰلِكَ الْبَيْتُ الْمَعْمُوْرُ ، وَنَظِيْرُهُ مِنَ الْإِنْسَانِ الْقَلْبُ . وَمِنْ ذٰلِكَ الْمَلَائِكَةُ ، وَنَظِيْرُهَا مِنَ الْإِنْسَانِ ، الْأَرْوَاحُ الَّتِي فِيْهِ وَالْقُوَى . وَمِنْ ذٰلِكَ زُحَلٌ وَفَلَكُهُ ، نَظِيْرُهُمَا مِنَ الْإِنْسَانِ ، الْقُوَّةُ الْعِلْمِيَّةُ وَالنَّفَسُ . وَمِنْ ذٰلِكَ الْمُشْتَرِي وَفَلَكُهُ ، نَظِيْرُهُمَا الْقُوَّةُ الذَّاكِرَةُ وَمُؤَخِّرُ الدِّمَاغِ . وَمِنْ ذٰلِكَ الْأَحْمَرُ وَفَلَكُهُ ، وَنَظِيْرُهُمَا الْقُوَّةُ الْعَاقِلَةِ وَالْيَافُوْخِ . وَمِنْ ذٰلِكَ الشَّمْسُ وَفَلَكُهَا ، نَظِيْرُهُمَا الْقُوَّةُ الْمُفَكِّرَةُ وَوَسَطِ الدِّمَاغِ . ثُمَّ الزُّهْرَةُ وَفَلَكُهَا ، نَظِيْرُهُمَا الْقُوَّةُ الْوَهمِيَّةُ وَالرُّوْحُ الْحَيَوَانِيُّ . ثُمَّ الْكَاتِبُ وَفَلَكُهُ ، نَظِيْرُهُمَا الْقُوَّةُ الْخَيَالِيَّةُ وَمُقَدَّمُ الدِّمَاغِ . ثُمَّ الْقَمَرُ وَفَلَكُهُ ، نَظِيْرُهُمَا الْقُوَّةُ الْحِسِّيَّةُ وَالْجَوَارِحُ الَّتِي تُحِسُّ . – فَهٰذِهِ طَبَقَاتُ الْعَالَمِ الْأَعْلَى وَنَظَائِرُهُ مِنَ الْإِنْسَانِ .

وَأَمَّا عَالَمُ الْاِسْتِحَالَةِ : فَمِنْ ذٰلِكَ كُرَةُ الْأَثِيْرِ ، وَرُوْحُهَا الْحَرَارَةُ وَالْيُبُوْسَةُ ، وَهِيَ كُرَةُ النَّارِ – وَنَظِيْرُهَا (مِنَ الْإِنْسَانِ) الصَّفْرَاءُ ، وَرُوْحُهَا الْقُوَّةُ الْهَاضِمَةُ . وَمِنْ ذٰلِكَ الْهَوَاءُ ، وَرُوْحُهُ الْحَرَارَةُ وَالرُّطُوْبَةُ ، وَنَظِيْرُهُ الدَّمُ ، وَرُوْحُهُ الْقُوَّةُ الْجَاذِبَةِ . وَمِنْ ذٰلِكَ الْمَاءُ ، وَرُوْحُهُ الْبُرُوْدَةُ وَالرُّطُوْبَةُ ، نَظِيْرُهُ الْبُلْغَمُ ، وَرُوْحُهُ الْقُوَّةُ الدَّافِعَةُ . وَمِنْ ذٰلِكَ التُّرَابُ ، وَرُوْحُهُ الْبُرُوْدَةُ وَالْيُبُوْسَةُ ، نَظِيْرُهُ السَّوْدَاءُ ، وَرُوْحُهَا الْقُوَّةُ الْمَاسِكَةُ .

وَأَمَّا الْأَرْضُ فَسَبْعُ طِبَاقٍ : أَرْضٌ سَوْدَاءُ ، وَأَرْضٌ غَبْرَاءُ ، وَأَرْضٌ حَمْرَاءُ ، وَأَرْضٌ صَفْرَاءُ ، وَأَرْضٌ بَيْضَاءُ ، وَأَرْضٌ زَرْقَاءُ ، وَأَرْضٌ خَضْرَاءُ . نَظِيْرُ هٰذِهِ السَّبْعَةِ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي جِسْمِهِ : اَلْجِلْدُ وَالشَّحْمُ وَاللَّحْمُ وَالْعُرُوْقُ وَالْعَصَبُ وَالْعَضْلَاتُ وَالْعِظَامُ .

وَأَمَّا عَالَمُ التَّعْمِيْرِ : فَمِنْهُمُ الرُّوْحَانِيُّوْنَ ؛ نَظِيْرُهُمُ الْقُوَّى الَّتِي فِي الْإِنْسَانِ . وَمِنْهُمْ عَالَمُ الْحَيَوَانِ ؛ نَظِيْرُهُ مَا يُحِسُّ مِنَ الْإِنْسَانِ . وَمِنْهُمْ عَالَمُ النَّبَاتِ ؛ نَظِيْرُهُ مَا يَنْمُوْ مِنَ الْإِنْسَانِ . وَمِنْ ذٰلِكَ عَالَمُ الْجَمَادِ ؛ نَظِيْرُهُ مَا لَا يُحِسُّ مِنَ الْإِنْسَانِ .

وَأَمَّا عَالَمُ النِّسَبِ : فَمِنْهُمُ الْعَرَضُ ؛ نَظِيْرُهُ الْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَلْوَانُ وَالْأَكْوَانُ . ثُمَّ الْكَيْفُ ؛ نَظِيْرُهُ الْأَحْوَالُ : مِثْلُ الصَّحِيْحِ وَالسَّقِيْمِ . ثُمَّ الْكَمُّ ؛ نَظِيْرُهُ السَّاقُ أَطْوَلُ مِنَ الذِّرَاعِ . ثُمَّ الْأَيْنَ ؛ نَظِيْرُهُ الْعُنُقُ مَكَانٌ لِلرَّأْسِ ، وَالسَّاقُ مَكَانٌ لِلْفَخِذِ . ثُمَّ الزَّمَانُ ؛ نَظِيْرُهُ حَرَّكْتُ رَأْسِيْ وَقْتَ تَحْرِيْكِ يَدِيْ . ثُمَّ الْإِضَافَةُ ؛ نَظِيْرُهَا : هٰذَا أَبِي فَأَنَا ابْنُهُ . ثُمَّ الْوَضْعُ ؛ نَظِيْرُهُ لُغَتِي وَلَحْنِي . ثُمَّ أَنْ يَفْعَلَ ؛ نَظِيْرُهُ أَكَلْتُ . ثُمَّ أَنْ يَنْفَعِلَ ؛ نَظِيْرُهُ شَبِعْتُ . وَمِنْهُمُ اخْتِلَافُ الصُّوَرِ فِي الْأُمَّهَاتِ ، كَالْفِيْلِ وَالْحِمَارِ وَالْأَسَدِ وَالصُّرْصُرِ ؛ نَظِيْرُ هٰذَا : الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الَّتِي تَقْبَلُ الصُّوَرَ الْمَعْنَوِيَّةَ مِنْ مَذْمُوْمٍ وَمَحْمُوْدٍ : هٰذَا فَطِنٌ فَهُوَ فِيْلٌ ؛ هٰذَا بَلِيْدٌ فَهُوَ حِمَارٌ ؛ هٰذَا شُجَاعٌ فَهُوَ أَسَدٌ ؛ هٰذَا جِبَانٌ فَهُوَ صُرْصُرٌ .

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾



الْبَابُ السَّابِعُ :

فِي مَعْرِفَةِ بَدْءِ الْجُسُوْمِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَهُوَ آخِرُ جِنْسٍ مَوْجُوْدٍ مِنَ الْعَالَمِ الْكَبِيْرِ وَآخِرُ صِنْفٍ مِنَ الْمُوَلَّدَاتِ

نَشَأَتْ حَقِيْقَةُ بَاطِنِ الْإِنْسَانِ   مَلِكًا قَوِيًّا ظَاهِرَ السُّلْطَانِ
ثُمَّ اسْتَوَتْ فِي عَرْشِ آدَمَ ذَاتُهُ   مِثْلَ اسْتِوَاءِ الْعَرْشِ بِالرَّحْمَانِ
فَبَدَتْ حَقِيْقَةُ جِسْمِهِ فِي عَيْنِهَا   وَبِهَا انْتَهَى مُلْكُ الْوُجُوْدِ الثَّانِي
وَبَدَتْ مَعَارِفُ عِلْمِهِ فِي لَفْظِهِ   عِنْدَ الْكِرَامِ وَحَامِلِ الشَّنَآنِ
فَتَصَاغَرَتْ لِعُلُوْمِهِ أَحْلَامُهُمْ   وَتَكَبَّرَ الْمَلْعُوْنُ مِنْ شَيْطَانِ
بَاؤُوْا بِقُرْبِ اللهِ فِي مَلَكُوْتِهِ   إِلَّا الشُّوَيْطِنَ بَاءَ بِالْخُسْرَانِ

(عُمْرُ الْعَالَمِ الطَّبِيْعِيِّ)

اِعْلَمْ – أَيَّدَكَ اللهُ ! – أَنَّهُ لَمَّا مَضَى مِنْ عُمْرِ الْعَالَمِ الطَّبِيْعِيِّ ، الْمُقَيَّدِ بِالزَّمَانِ ، الْمَحْصُوْرِ بِالْمَكَانِ ، إِحْدَى وَسَبْعُوْنَ أَلْفَ سَنَةٍ مِنَ السِّنِيْنَ الْمَعْرُوْفَةِ فِي الدُّنْيَا ؛ وَهٰذِهِ الْمُدَّةُ (هِيَ) أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ أَيَّامٍ غَيْرِ هٰذَا الْاِسْمِ ؛ وَ (هِيَ) مِنْ أَيَّامِ

« ذِي الْمَعَارِجِ » يَوْمٌ وَخُمُسَا يَوْمٍ . وَفِي هٰذِهِ الْأَيَّامِ يَقَعُ التَّفَاضُلُ ، قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ . –

فَأَصْغَرُ الْأَيَّامِ هِيَ الَّتِي تَعُدُّهَا : حَرَكَةُ الْفَلَكِ الْمُحِيطِ ، الَّذِي يَظْهَرُ فِي يَوْمِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ . فَأَقْصَرُ يَوْمٍ عِنْدَ الْعَرَبِ – وَهُوَ هٰذَا – لِأَكْبَرِ فَلَكٍ ، وَذٰلِكَ لِحِكْمِهِ عَلَى مَا فِي جَوْفِهِ مِنَ الْأَفْلَاكِ ، إِذْ كَانَتْ حَرَكَةُ مَا دُوْنَهُ ، فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، حَرَكَةً قَسْرِيَّةً لَهُ ، قَهَرَ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاكِ الَّتِي يُحِيْطُ بِهَا .

(اَلْحَرَكَةُ الطَّبِيْعِيَّةُ وَالْقَسْرِيَّةُ لِلْأَفْلَاكِ)

وَلِكُلِّ فَلَكٍ حَرَكَةٌ طَبِيْعِيَّةٌ ، تَكُوْنُ لَهُ مَعَ الْحَرَكَةِ الْقَسْرِيَّةِ . فَكُلُّ فَلَكٍ دُوْنَهُ ، ذُوْ حَرَكَتَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ : حَرَكَةٌ طَبِيْعِيَّةٌ وَحَرَكَةٌ قَسْرِيَّةٌ . وَلِكُلِّ حَرَكَةٍ طَبِيْعِيَّةٍ ، فِي كُلِّ فَلَكٍ ، يَوْمٌ مَخْصُوْصٌ ، يُعَدُّ مِقْدَارُهُ بِالْأَيَّامِ الْحَادِثَةِ عَنِ الْفَلَكِ الْمُحِيْطِ ، الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ **مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ . وَكُلُّهَا تَقْطَعُ فِي الْفَلَكِ الْمُحِيْطِ ؛ فَكُلَّمَا قَطَعَتْهُ عَلَى الْكَمَالِ ، كَانَ يَوْمًا لَهَا ؛ وَيَدُوْرُ الدَّوْرُ . فَأَصْغَرُ الْأَيَّامِ مِنْهَا هُوَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُوْنَ يَوْمًا « مِمَّا تَعُدُّوْنَ » ، وَهُوَ مِقْدَارُ قَطْعِ حَرَكَةِ الْقَمَرِ فِي الْفَلَكِ الْمُحِيْطِ .

وَنَصَبَ اللهُ هٰذِهِ الْكَوَاكِبَ السَّبْعَةَ فِي السَّمٰوَاتِ ، لِيُدْرِكَ الْبَصَرُ قَطْعَ فَلَكِهَا فِي الْفَلَكِ الْمُحِيْطِ ، « لِتَعْلَمَ عَدَدَ السِّنِيْنَ وَالْحِسَابِ » . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ** ﴾ ﴿ **وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا** ﴾ ﴿ **ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ** ﴾ . فَلِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنْهَا يَوْمٌ مُقَدَّرٌ ، يَفْضُلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، عَلَى قَدْرِ سُرْعَةِ حَرَكَاتِهَا الطَّبِيْعِيَّةِ ، أَوْ صُغْرِ أَفْلَاكِهَا وَكِبْرِهَا .

(خَلْقُ الْقَلَمِ وَاللَّوْحِ)

فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ! – لَمَّا خَلَقَ الْقَلَمَ وَاللَّوْحَ ، وَسَمَّاهُمَا الْعَقْلَ وَالرُّوْحَ .

فَأَعْطَى الرُّوْحَ صِفَتَيْنِ : صِفَةً عِلْمِيَّةً وَصِفَةً عَمَلِيَّةً ، وَجَعَلَ الْعَقْلَ لَهَا مُعَلِّمًا وَمُفِيْدًا ، إِفَادَةَ مُشَاهَدَةٍ حَالِيَّةٍ ، كَمَا تَسْتَفِيْدُ مِنْ صُوْرَةِ السِّكِّيْنِ الْقَطْعَ ، مِنْ غَيْرِ نُطْقٍ يَكُوْنُ مِنْهُ فِي ذٰلِكَ . وَخَلَقَ – تَعَالَى ! – جَوْهَرًا دُوْنَ النَّفْسِ ، الَّذِي هُوَ الرُّوْحُ الْمَذْكُوْرُ ، سَمَّاهُ الْهَبَاءَ – وَهٰذِهِ الْإِسْمِيَّةُ لَهُ نَقَلْنَاهَا مِنْ كَلَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ ! –

(خَلْقُ الْهَبَاءِ)

وَأَمَّا الْهَبَاءُ ، فَمَذْكُوْرٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ . – كَذٰلِكَ لَمَّا رَآهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – أَعْنِي هٰذِهِ الْجَوْهَرَةَ – مُنْبَثَّةً فِي جَمِيْعِ الصُّوَرِ الطَّبِيْعِيَّةِ كُلِّهَا ، وَأَنَّهَا لَا تَخْلُوْ صُوْرَةٌ مِنْهَا ، إِذْ لَا تَكُوْنُ صُوْرَةٌ إِلَّا فِي هٰذِهِ الْجَوْهَرَةِ ، – سَمَّاهَا هَبَاءً . وَهِيَ مَعَ كُلِّ صُوْرَةٍ بِحَقِيْقَتِهَا : لَا تَنْقَسِمُ وَلَا تَتَجَزَّى وَلَا تَتَّصِفُ بِالنَّقْصِ . بَلْ هِيَ كَالْبَيَاضِ الْمَوْجُوْدِ فِي كُلِّ أَبْيَضٍ بِذَاتِهِ وَحَقِيْقَتِهِ ، وَلَا يُقَالُ : قَدْ نَقَصَ مِنَ الْبَيَاضِ قَدْرَ مَا حَصَلَ مِنْهُ فِي هٰذَا الْأَبْيَضِ . فَهٰذَا مَثَلُ حَالِ هٰذِهِ الْجَوْهَرَةِ .

(اَلْمَرَاتِبُ الْأَرْبَعَةُ بَيْنَ الرُّوْحِ وَالْهَبَاءِ)

وَعَيَّنَ اللّٰهُ – سُبْحَانَهُ ! – بَيْنَ هٰذَا الرُّوْحِ ، الْمَوْصُوْفِ بِالصِّفَتَيْنِ (الصِّفَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالصِّفَةِ الْعَمَلِيَّةِ) ، وَبَيْنَ الْهَبَاءِ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ ، وَجَعَلَ كُلَّ مَرْتَبَةٍ مَنْزِلًا لِأَرْبَعَةِ أَمْلَاكٍ ؛ وَجَعَلَ هٰؤُلَاءِ الْأَمْلَاكَ كَالْوُلَاةِ عَلَى مَا أَحْدَثَهُ – سُبْحَانَهُ ! – دُوْنَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ ، مِنْ « عِلِّيِّيْنَ » إِلَى « أَسْفَلَ سَافِلِيْنَ » . وَوَهَبَ كُلَّ مَلَكٍ ، مِنْ هٰؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ ، عِلْمَ مَا يُرِيْدُ إِمْضَاءَهُ فِي الْعَالَمِ .

فَأَوَّلُ شَيْءٍ أَوْجَدَهُ اللّٰهُ فِي الْأَعْيَانِ ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ عِلْمُ هٰؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ وَتَدْبِيْرُهُمْ ، اَلْجِسْمُ الْكُلُّ ؛ وَأَوَّلُ شَكْلٍ فَتَحَ (اللّٰهُ) فِي هٰذَا الْجِسْمِ : الشَّكْلَ الْكُرِّيَّ الْمُسْتَدِيْرَ ، إِذْ كَانَ أَفْضَلَ الْأَشْكَالِ . ثُمَّ نَزَلَ – سُبْحَانَهُ ! – بِالْإِيْجَادِ وَالْخَلْقِ ، إِلَى تَمَامِ الصَّنْعَةِ .

وَجَعَلَ جَمِيْعَ مَا خَلَقَهُ – تَعَالَى ! – مَمْلَكَةً لِهٰؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ ، وَوَلَّاهُمْ أُمُوْرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَعَصَمَهُمْ عَنِ الْمُخَالَفَةِ فِيْمَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، فَأَخْبَرَنَا – سُبْحَانَهُ ! – أَنَّهُمْ ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .

(خَلْقُ الْمُوَلَّدَاتِ)

وَلَمَّا انْتَهَى خَلْقُ الْمُوَلَّدَاتِ ، مِنَ الْجَمَادَاتِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ ، بِانْتِهَاءِ إِحْدَى وَسَبْعِيْنَ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ سِنِيّ الدُّنْيَا مِمَّا نَعُدُّ ؛ وَرَتَّبَ الْعَالَمَ تَرْتِيْبًا حِكْمِيًّا ؛ وَلَمْ يَجْمَعْ – سُبْحَانَهُ ! – لِشَيْءٍ مِمَّا خَلَقَهُ ، مِنْ أَوَّلِ مَوْجُوْدٍ إِلَى آخِرِ مَوْلُوْدٍ – وَهُوَ الْحَيَوَانُ – بَيْنَ يَدَيْهِ – تَعَالَى ! – إِلَّا لِلْإِنْسَانِ ، وَهِيَ هٰذِهِ النَّشْأَةُ الْبَدَنِيَّةُ التُّرَابِيَّةُ ؛ بَلْ خَلَقَ كُلَّ مَا سِوَاهَا إِمَّا عَنْ أَمْرٍ إِلٰهِيّ ، أَوْ عَنْ يَدٍ وَاحِدَةٍ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ = فَهٰذَا عَنْ أَمْرٍ إِلٰهِيّ . وَوُرِدَ فِي الْخَبَرِ ، أَنَّ اللّٰهَ – عَزَّ وَجَلَّ ! – « خَلَقَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ ، وَغَرَسَ شَجَرَةَ طُوْبَى بِيَدِهِ » . وَخَلَقَ آدَمَ ، الَّذِي هُوَ الْإِنْسَانُ ، بِيَدَيْهِ . فَقَالَ – تَعَالَى ! – لِإِبْلِيْسَ ، عَلَى جِهَةِ التَّشْرِيْفِ لِآدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ .

(اَلْفَلَكُ الْأَدْنَى وَالْبُرُوْجُ الْإِثْنَا عَشَرَ)

وَلَمَّا خَلَقَ اللّٰهُ الْفَلَكَ الْأَدْنَى ، الَّذِي هُوَ الْأَوَّلُ الْمَذْكُوْرُ آنِفًا ، قَسَّمَهُ اثْنَى عَشَرَ قِسْمًا سَمَّاهَا بُرُوْجًا ، قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ . فَجَعَلَ كُلَّ قِسْمٍ بُرْجًا . وَجَعَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامَ تَرْجِعُ إِلَى أَرْبَعَةٍ فِي الطَّبِيْعَةِ . ثُمَّ كَرَّرَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَرْبَعَةِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْهَا . وَجَعَلَ هٰذِهِ الْأَقْسَامَ كَالْمَنَازِلِ وَالْمَنَاهِلِ ، الَّتِي يَنْزِلُ فِيْهَا الْمُسَافِرُوْنَ وَيَسِيْرُ فِيْهَا السَّائِرُوْنَ ، فِي حَالِ سَيْرِهِمْ وَسَفَرِهِمْ ، لِيَنْزِلَ فِي هٰذِهِ الْأَقْسَامِ ، عِنْدَ سَيْرِ الْكَوَاكِبِ فِيْهَا وَسَبَاحَتِهِمْ . مَا يُحْدِثُ اللّٰهُ فِي جَوْفِ هٰذَا الْفَلَكِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الَّتِي تَقْطَعُ بِسَيْرِهَا فِي هٰذِهِ الْبُرُوْجِ ، لِيَحْدُثَ اللّٰهُ عِنْدَ قَطْعِهَا وَسَيْرِهَا مَا شَاءَ أَنْ يَحْدُثَ

مِنَ الْعَالَمِ الطَّبِيْعِيِّ وَالْعُنْصُرِيِّ . وَجَعَلَهَا عَلَامَاتٍ عَلَى إِثْرِ حَرَكَةِ فَلَكِ الْبُرُوْجِ . – فَاعْلَمْ !

(اَلطَّبَائِعُ وَالْعَنَاصِرُ الْأَرْبَعَةُ)

فَقِسْمٌ مِنْ هٰذِهِ الْأَرْبَعَةِ ، طَبِيْعَتُهُ الْحَرَارَةُ وَالْيُبُوْسَةُ . وَالثَّانِي (طَبِيْعَتُهُ) الْبُرُوْدَةُ وَالْيُبُوْسَةُ . وَالثَّالِثُ (طَبِيْعَتُهُ) الْحَرَارَةُ وَالرُّطُوْبَةُ . وَالرَّابِعُ (طَبِيْعَتُهُ) الْبُرُوْدَةُ وَالرُّطُوْبَةُ . وَجَعَلَ (اللهُ) الْخَامِسَ وَالتَّاسِعَ مِنْ هٰذِهِ الْأَقْسَامِ (= الْبُرُوْجِ) ، مِثْلَ الْأَوَّلِ . وَجَعَلَ السَّادِسَ وَالْعَاشِرَ مِثْلَ الثَّانِي . وَجَعَلَ السَّابِعَ وَالْحَادِي عَشَرَ مِثْلَ الثَّالِثِ . وَجَعَلَ الثَّامِنَ وَالثَّانِي عَشَرَ مِثْلَ الرَّابِعِ . – أَعْنِي (الْمِثْلِيَّةَ) فِي الطَّبِيْعَةِ .

فَحَصَرَ (الْحَقُّ) الْأَجْسَامَ الطَّبِيْعِيَّةَ بِخِلَافٍ ، وَالْأَجْسَامَ الْعُنْصُرِيَّةَ بِلَا خِلَافٍ ، فِي هٰذِهِ (الْأَرْكَانِ) الْأَرْبَعَةِ الَّتِي هِيَ الْحَرَارَةُ وَالْبُرُوْدَةُ وَالرُّطُوْبَةُ وَالْيُبُوْسَةُ . وَمَعَ كَوْنِهَا أَرْبَعًا أُمَّهَاتٍ ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ اثْنَيْنِ مِنْهَا أَصْلًا فِي وُجُوْدِ الْإِثْنَيْنِ الْآخَرَيْنِ : فَانْفَعَلَتِ الْيُبُوْسَةُ عَنِ الْحَرَارَةِ ، وَ (انْفَعَلَتِ) الرُّطُوْبَةُ عَنِ الْبُرُوْدَةِ . فَالرُّطُوْبَةُ وَالْيُبُوْسَةُ مَوْجُوْدَتَانِ عَنْ سَبَبَيْنِ هُمَا الْحَرَارَةُ وَالْبُرُوْدَةُ . وَلِهٰذَا ذَكَرَ اللهُ ، فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ = لِأَنَّ الْمُسَبَّبَ يَلْزِمُ (عَنْهُ) ، مِنْ (حَيْثُ) كَوْنُهُ مُسَبَّبًا ، وُجُوْدُ السَّبَبِ ؛ أَوْ (مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ) مُنْفَعِلًا ، (يَلْزِمُ عَنْهُ) وُجُوْدُ الْفَاعِلِ – كَيْفَ شِئْتَ فَقُلْ . وَلَا يَلْزِمُ مِنْ وُجُوْدِ السَّبَبِ وُجُوْدُ الْمُسَبَّبِ .

(الْفَلَكُ الْأَطْلَسُ)

وَلَمَّا خَلَقَ اللهُ هٰذَا الْفَلَكَ الْأَوَّلَ ، دَارَ دَوْرَةً غَيْرَ مَعْلُوْمَةِ الْاِنْتِهَاءِ إِلَّا للهُ – تَعَالَى ! – لِأَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مَحْدُوْدٌ مِنَ الْأَجْرَامِ يَقْطَعُ فِيْهِ ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ الْأَجْرَامِ

الشَّفَّافَةِ . فَتَتَعَدَّدُ الْحَرَكَاتُ وَتَتَمَيَّزُ . وَلَا كَانَ قَدْ خَلَقَ اللهُ فِي جَوْفِهِ شَيْئًا ، فَتَتَمَيَّزُ الْحَرَكَاتُ وَتَنْتَهِي عِنْدَ مَنْ يَكُوْنُ فِي جَوْفِهِ ؛ وَلَوْ كَانَ (قَدْ خَلَقَ اللهُ فِي جَوْفِ هٰذَا الْفَلَكِ الْأَوَّلِ شَيْئًا) لَمْ تَتَمَيَّزِ (الْحَرَكَاتُ فِيْهِ) أَصْلًا ، لِأَنَّهُ أَطْلَسُ لَا كَوْكَبَ فِيْهِ ، مُتَشَابِهُ الْأَجْزَاءِ . فَلَا يُعْرَفُ مِقْدَارُ الْحَرَكَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْهُ ، وَلَا تَتَعَيَّنُ . فَلَوْ كَانَ فِيْهِ جُزْءٌ مُخَالِفٌ لِسَائِرِ أَجْزَائِهِ (لَ) عُدَّ (تْ) بِهِ حَرَكَاتُهُ بِلَا شَكٍّ ؛ وَلٰكِنَّ عَلِمَ اللهُ قَدْرَهَا وَانْتِهَاءَهَا وَكُرُوْرَهَا . فَحَدَثَ عَنْ تِلْكَ الْحَرَكَةِ الْيَوْمُ ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ فِي هٰذَا الْيَوْمِ .

ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ حَرَكَاتُ هٰذَا الْفَلَكِ . فَخَلَقَ اللهُ مَلَائِكَةً ، خَمْسَةً وَثَلَاثِيْنَ مَلَكًا أَضَافَهُمْ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْأَمْلَاكِ السِّتَّةَ عَشَرَ . فَكَانَ الْجَمِيْعُ أَحَدًا وَخَمْسِيْنَ مَلَكًا . مِنْ جُمْلَةِ هٰؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ : جِبْرِيْلُ وَمِيْكَائِيْلُ وَإِسْرَافِيْلُ وَعِزْرَائِيْلُ . ثُمَّ خَلَقَ (اللهُ) تِسْعَ مِائَةَ مَلَكٍ وَأَرْبَعًا وَسَبْعِيْنَ ، وَأَضَافَهُمْ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْأَمْلَاكِ . وَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ؛ وَأَمَرَهُمْ بِمَا يُجْرِي عَلَى أَيْدِيْهِمْ فِي خَلْقِهِ ، فَقَالُوْا : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ . وَقَالَ فِيْهِمْ : ﴿ **لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ** ﴾ . فَهٰؤُلَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، هُمُ الْوُلَاةُ خَاصَّةً . وَخَلَقَ اللهُ مَلَائِكَةً هُمْ عُمَّارُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لِعِبَادَتِهِ ، فَمَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَوْضِعٌ إِلَّا وَفِيْهِ مَلَكٌ ؛ وَلَا يَزَالُ الْحَقُّ يَخْلُقُ مِنْ أَنْفَاسِ الْعَالَمِ مَلَائِكَةً مَا دَامُوْا مُتَنَفِّسِيْنَ .

(خَلْقُ الدَّارِ الدُّنْيَا)

وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ حَرَكَاتِ هٰذَا الْفَلَكِ الْأَوَّلِ – وَمُدَّتُهُ أَرْبَعٌ وَخَمْسُوْنَ أَلْفَ سَنَةٍ « مِمَّا تَعُدُّوْنَ » – خَلَقَ اللهُ الدَّارَ الدُّنْيَا ، وَجَعَلَ لَهَا أَمَدًا مَعْلُوْمًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَتَنْقَضِي صُوْرَتُهَا ، وَتَسْتَحِيْلُ مِنْ كَوْنِهَا دَارًا لَنَا وَقُبُوْلِهَا صُوْرَةً مَخْصُوْصَةً – وَهِيَ الَّتِي نُشَاهِدُهَا الْيَوْمَ – إِلَى أَنْ « تُبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ » . –

(خَلْقُ الدَّارِ الْآخِرَةِ)

وَلَمَّا انْقَضَى مِنْ مُدَّةِ حَرَكَاتِ هٰذَا الْفَلَكِ ثَلَاثٌ وَسِتُّوْنَ أَلْفَ سَنَةٍ « مِمَّا تَعُدُّوْنَ » ، خَلَقَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، الْجَنَّةَ وَالنَّارَ اللَّتَيْنِ أَعَدَّهُمَا اللهُ لِعِبَادِهِ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ . فَكَانَ بَيْنَ خَلْقِ الدُّنْيَا وَخَلْقِ الْآخِرَةِ تِسْعَ آلَافِ سَنَةً « مِمَّا تَعُدُّوْنَ » . وَلِهٰذَا سُمِّيَتْ « آخِرَةً » لِتَأَخُّرِ خَلْقِهَا عَنْ خَلْقِ الدُّنْيَا ؛ وَسُمِّيَتِ الدُّنْيَا « الْأُوْلَى » لِأَنَّهَا خُلِقَتْ قَبْلَهَا . قَالَ – تَعَالَى ! – ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يُخَاطِبُ نَبِيَّهُ ﷺ . وَلَمْ يَجْعَلِ (الْحَقُّ) لِلْآخِرَةِ مُدَّةً يَنْتَهِي إِلَيْهَا بَقَاؤُهَا ، فَلَهَا الْبَقَاءُ الدَّائِمُ .

(سَقْفُ الْجَنَّةِ الْفَلَكُ الْأَطْلَسُ)

وَجَعَلَ (الْحَقُّ) سَقْفَ الْجَنَّةِ هٰذَا الْفَلَكُ ، وَهُوَ الْعَرْشُ عِنْدَهُمُ الَّذِي لَا تَتَعَيَّنُ حَرَكَتُهُ وَلَا تَتَمَيَّزُ ؛ فَحَرَكَتُهُ دَائِمَةٌ لَا تَنْقَضِي . وَمَا مِنْ خَلْقٍ ذَكَرْنَاهُ خُلِقَ إِلَّا وَتَعَلَّقَ الْقَصْدُ الثَّانِيُّ مِنْهُ : وُجُوْدُ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ الْخَلِيْفَةُ فِي الْعَالَمِ . وَإِنَّمَا قُلْتُ : « الْقَصْدَ الثَّانِيَ » إِذْ كَانَ الْقَصْدُ الْأَوَّلُ (مِنَ الْخَلْقِ) مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَعِبَادَتَهُ ، الَّتِي لَهَا خُلِقَ الْعَالَمُ كُلُّهُ . فَمَا « مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » . وَمَعْنَى الْقَصْدِ الثَّانِي وَ (الْقَصْدِ) الْأَوَّلِ التَّعَلُّقُ الْإِرَادِيُّ ، لَا حُدُوْثُ الْإِرَادَةِ ، لِأَنَّ الْإِرَادَةَ لِلّٰهِ صِفَةٌ قَدِيْمَةٌ أَزَلِيَّةٌ ، اِتَّصَفَتْ بِهَا ذَاتُهُ ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ .

(حَرَكَةُ السَّمٰوَاتِ وَحَرَكَةُ الْأَرْضِ)

وَلَمَّا خَلَقَ اللهُ هٰذِهِ الْأَفْلَاكَ وَالسَّمٰوَاتِ ؛ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَرَتَّبَ فِيْهَا أَنْوَارَهَا وَسُرُجَهَا ، وَعَمَّرَهَا بِمَلَائِكَتِهِ ، وَحَرَّكَهَا – تَعَالَى ! – ، فَتَحَرَّكَتْ طَائِعَةً لِلّٰهِ ، آتِيَةً إِلَيْهِ طَلَبًا لِلْكَمَالِ فِي الْعُبُوْدِيَّةِ الَّتِي تَلِيْقُ بِهَا . لِأَنَّهُ – تَعَالَى ! – دَعَاهَا (أَيْ السَّمَاءَ) وَدَعَا الْأَرْضَ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ ، لِأَمْرٍ حُدَّ لَهُمَا ، – ﴿ قَالَتَآ

أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ . فَهُمَا آتِيَانِ أَبَدًا ، فَلَا تَزَالَانِ مُتَحَرِّكَتَيْنِ . غَيْرُ أَنَّ حَرَكَةَ الْأَرْضِ خَفِيَّةٌ عِنْدَنَا ، وَحَرَكَتُهَا حَوْلَ الْوَسَطِ لِأَنَّهَا أُكَرٌ .

فَأَمَّا السَّمَاءُ فَأَتَتْ طَائِعَةً عِنْدَ أَمْرِ اللهِ لَهَا بِالْإِتْيَانِ . وَأَمَّا الْأَرْضُ فَأَتَتْ طَائِعَةً ، لَمَّا عَلِمَتْ نَفْسَهَا مَقْهُوْرَةً ، وَأَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يُؤْتِيَ (اللهُ) بِهَا بِقَوْلِهِ : ﴿أَوْ كَرْهًا ﴾ ، فَكَانَتِ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى ! – ﴿أَوْ كَرْهًا ﴾ ، فَأَتَتْ طَائِعَةً كَرْهًا ! ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ .

(خَلْقُ الْأَرْضِ وَتَقْدِيْرُ أَقْوَاتِهَا)

وَقَدْ كَانَ (– تَعَالَى ! –) خَلَقَ الْأَرْضَ ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ مِنْ أَجْلِ الْمُوَلَّدَاتِ ، فَجَعَلَهَا خِزَانَةً لِأَقْوَاتِهِمْ . وَقَدْ ذَكَرْنَا تَرْتِيْبَ نَشْءِ الْعَالَمِ فِي كِتَابِ « **عُقْلَةِ الْمُسْتَوْفِز** » . فَكَانَ مِنْ تَقْدِيْرِ أَقْوَاتِهَا (أَيْ أَقْوَاتِ الْأَرْضِ) وُجُوْدُ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالنَّارِ ، وَمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ الْبُخَارَاتِ وَالسَّحَبِ وَالْبُرُوْقِ وَالرُّعُوْدِ وَالْآثَارِ الْعُلْوِيَّةِ ، وَ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنَ النَّارِ ، وَالطَّيْرَ ، وَالدَّوَابَّ الْبَرِّيَّةَ وَالْبَحْرِيَّةَ ، وَالْحَشَرَاتِ مِنْ عَفُوْنَاتِ الْأَرْضِ ، لِيَصْفُوْ الْهَوَاءَ لَنَا مِنْ بُخَارَاتِ الْعُفُوْنَاتِ الَّتِي لَوْ خَالَطَتِ الْهَوَاءَ ، الَّذِي أَوْدَعَ اللهُ حَيَاةَ هٰذَا الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَعَافِيَتَهُ فِيْهِ ، لَكَانَ سَقِيْمًا مَرِيْضًا مَعْلُوْلًا . فَصَفَّى لَهُ الْجَوَّ – سُبْحَانَهُ ! – لُطْفًا مِنْهُ بِتَكْوِيْنِ هٰذِهِ الْمُعَفَّنَاتِ ، فَقَلَّتِ الْأَسْقَامُ وَالْعِلَلُ .

(خَلْقُ الْإِنْسَانِ)

وَلَمَّا اسْتَوَتِ الْمَمْلَكَةُ وَتَهَيَّأَتْ ؛ وَمَا عَرَفَ أَحَدٌ مِنْ هٰؤُلَاءِ الْمَخْلُوْقَاتِ كُلُّهَا مِنْ أَيِّ جِنْسٍ يَكُوْنُ هٰذَا الْخَلِيْفَةُ الَّذِي مَهَّدَ اللهُ هٰذِهِ الْمَمْلَكَةَ لِوُجُوْدِهِ . فَلَمَّا وَصَلَ الْوَقْتُ الْمُعَيَّنُ فِي عِلْمِهِ لِإِيْجَادِ هٰذَا الْخَلِيْفَةِ ، بَعْدَ أَنْ مَضَى مِنْ عُمْرِ الدُّنْيَا سَبْعَ عَشْرَةَ

أَلْف سَنَةٍ ، وَمِنْ عُمْرِ الْآخِرَةِ ، الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي الدَّوَامِ ، ثَمَانُ آلَافِ سَنَةٍ ، – أَمَرَ اللهُ بَعْضَ مَلَائِكَتِهِ أَنْ يَأْتِيَهُ بِقَبْضَةٍ مِنْ كُلِّ أَجْنَاسِ تُرْبَةِ الْأَرْضِ . فَأَتَاهُ بِهَا (بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ) ، فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ مَعْلُوْمٍ عِنْدَ النَّاسِ . فَأَخَذَهَا – سُبْحَانَهُ ! – وَخَمَّرَهَا بِيَدَيْهِ . – فَ (هٰذَا) هُوَ قَوْلُهُ (– تَعَالَى ! –) : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ .

وَقَدْ كَانَ الْحَقُّ قَدْ أَوْدَعَ عِنْدَ كُلِّ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، الَّذِيْنَ ذَكَرْنَاهُمْ ، وَدِيْعَةً لِآدَمَ . وَقَالَ لَهُمْ : ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ . وَهٰذِهِ الْوَدَائِعُ الَّتِي بِأَيْدِيْكُمْ (هِيَ) لَهُ . فَإِذَا خَلَقْتُهُ فَلْيُؤَدِّ إِلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا عِنْدَهُ مِمَّا أَمِنْتُكُمْ عَلَيْهِ . ثُمَّ ﴿ إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوْا لَهُ سَاجِدِيْنَ ﴾ . فَلَمَّا خَمَّرَ الْحَقُّ – تَعَالَى ! – بِيَدَيْهِ طِيْنَةَ آدَمَ حَتَّى تَغَيَّرَ رِيحُهَا – وَهُوَ الْمَسْنُوْنُ ، وَذٰلِكَ (هُوَ) الْجُزْءُ الْهَوَائِيُّ الَّذِي فِي النَّشْأَةِ – جَعَلَ ظَهْرَهُ مَحَلًّا لِلْأَشْقِيَاءِ وَالسُّعَدَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، فَأَوْدَعَ فِيْهِ مَا كَانَ فِي قَبْضَتَيْهِ . فَإِنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – أَخْبَرَنَا أَنَّ فِي قَبْضَةِ يَمِيْنِهِ السُّعَدَاءُ ، وَفِي قَبْضَةِ الْيَدِ الْأُخْرَى الْأَشْقِيَاءُ ، ﴿ وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِيْنٌ مُبَارَكَةٌ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ هٰؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُوْنَ ؛ وَهٰؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُوْنَ ﴾ .

وَأَوْدَعَ (اللهُ) الْكُلَّ طِيْنَةَ آدَمَ ؛ وَجَمَعَ فِيْهِ الْأَضْدَادَ بِحُكْمِ الْمُجَاوَرَةِ ؛ وَأَنْشَأَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ الْمُسْتَقِيْمَةِ ، وَذٰلِكَ فِي دَوْلَةِ السُّنْبُلَةِ . وَجَعَلَهُ ذَا جِهَاتٍ سِتٍّ : اَلْفَوْقُ ، وَهُوَ مَا يَلِي رَأْسَهُ ؛ وَالتَّحْتُ يُقَابِلُهُ ، وَهُوَ مَا يَلِي رِجْلَيْهِ ؛ وَالْيَمِيْنُ ، وَهُوَ مَا يَلِي جَانِبَهُ الْأَقْوَى ؛ وَالشِّمَالُ يُقَابِلُهُ ، وَهُوَ مَايَلِي جَانِبَهُ الْأَضْعَفَ ؛ وَالْأَمَامُ ، وَهُوَ مَا يَلِي الْوَجْهَ ، وَيُقَابِلُهُ الْقَفَا . – وَصَوَّرَهُ (– سُبْحَانَهُ ! –) وَعَدَّلَهُ وَسَوَّاهُ ، « ثُمَّ نَفَخَ فِيْهِ مِنْ رُوْحِهِ » الْمُضَافِ إِلَيْهِ . فَحَدَثَ عِنْدَ هٰذَا النَّفْخِ فِيْهِ ، بِسَرَيَانِهِ فِي أَجْزَائِهِ ، أَرْكَانُ الْأَخْلَاطِ الَّتِي هِيَ الصَّفْرَاءُ وَالسَّوْدَاءُ وَالدَّمُ وَالْبُلْغَمُ .

فَكَانَتِ الصَّفْرَاءُ عَنِ الرُّكْنِ النَّارِيِّ ، الَّذِي أَنْشَأَهُ اللهُ مِنْهُ ، فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ . وَكَانَتِ السَّوْدَاءُ عَنِ التُّرَابِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ . وَكَانَ الدَّمُ مِنَ الْهَوَاءِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿مَّسْنُونٍ﴾ . وَكَانَ الْبَلْغَمُ مِنَ الْمَاءِ ، الَّذِي

عُجِنَ بِهِ التُّرَابُ فَصَارَ طِيْنًا . – ثُمَّ أَحْدَثَ (الْحَقُّ) فِيْهِ الْقُوَّةَ الْجَاذِبِيَّةَ ، الَّتِي بِهَا يَجْذِبُ الْحَيَوَانُ الْأَغْذِيَّةَ . ثُمَّ الْقُوَّةَ الْمَاسِكَةَ ، وَبِهَا يُمْسِكُ مَا يَتَغَذَّى بِهِ الْحَيَوَانُ . ثُمَّ الْقُوَّةَ الْهَاضِمَةَ ، وَبِهَا يَهْضُمُ الْغِذَاءَ . ثُمَّ الْقُوَّةَ الدَّافِعَةَ ، وَبِهَا يَدْفَعُ الْفَضَلَاتِ عَنْ نَفْسِهِ ، مِنْ عَرَقٍ وَبُخَارٍ وَرِيَاحٍ وَبُرَازٍ ، وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ .

وَأَمَّا سَرَيَانُ الْأَبْخِرَةِ وَتَقْسِيْمُ الدَّمِ فِي الْعُرُوْقِ مِنَ الْكَبِدِ ، وَمَا يُخَلِّصُهُ كُلُّ جُزْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ ، فَبِالْقُوَّةِ الْجَاذِبَةِ لَا الدَّافِعَةِ . فَحَظُّ الْقُوَّةِ الدَّافِعَةِ ، مَا تُخْرِجُهُ ، كَمَا قُلْنَا ، مِنَ الْفَضَلَاتِ لَا غَيْرَ . – ثُمَّ أَحْدَثَ (الْحَقُّ) فِيْهِ الْقُوَّةَ الْغَاذِيَةَ وَالْمُنَمِّيَةَ وَالْحَاسِّيَّةَ وَالْخَيَالِيَّةَ وَالْوَهْمِيَّةَ وَالْحَافِظَةَ وَالذَّاكِرَةَ . وَهٰذَا كُلُّهُ فِي الْإِنْسَانِ بِمَا هُوَ حَيَوَانٌ ، لَا بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ فَقَطْ . غَيْرَ أَنَّ هٰذِهِ الْقُوَّى الْأَرْبَعَةَ : قُوَّةُ الْخَيَالِ وَالْوَهْمِ وَالْحِفْظِ وَالذِّكْرِ ، هِيَ فِي الْإِنْسَانِ أَقْوَى مِنْهَا فِي الْحَيَوَانِ .

ثُمَّ خَصَّ (اللّٰهُ) آدَمَ ، الَّذِي هُوَ الْإِنْسَانُ ، بِالْقُوَّةِ الْمُصَوِّرَةِ وَالْمُفَكِّرَةِ وَالْعَاقِلَةِ ، فَتَمَيَّزَ (الْإِنْسَانُ بِهَا) عَنِ الْحَيَوَانِ . وَجَعَلَ (الْحَقُّ) هٰذِهِ الْقُوَّى كُلَّهَا ، فِي هٰذَا الْجِسْمِ ، آلَاتٍ لِلنَّفْسِ النَّاطِقَةِ ، لِتَصِلَ بِذٰلِكَ إِلَى جَمِيْعِ مَنَافِعِهَا الْمَحْسُوْسَةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ . ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ** ﴾ = وَهُوَ (طَوْرُ) الْإِنْسَانِيَّةِ . فَجَعَلَهُ (الْحَقُّ) دِرَاكًا بِهٰذِهِ الْقُوَّى : حَيًّا ، عَالِمًا ، قَادِرًا ، مُرِيْدًا ، مُتَكَلِّمًا ، سَمِيْعًا ، بَصِيْرًا – عَلَى حَدٍّ مَعْلُوْمٍ فِي اكْتِسَابِهِ ﴿ **فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ** ﴾ .

ثُمَّ إِنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – مَا سَمَّى نَفْسَهُ بِاسْمٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ إِلَّا وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ ، مِنَ التَّخَلُّقِ بِذٰلِكَ الْاِسْمِ ، حَظًّا مِنْهُ يَظْهَرُ بِهِ فِي الْعَالَمِ ، عَلَى قَدْرِ مَا يَلِيْقُ بِهِ . وَلِذٰلِكَ تَأَوَّلَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : « إِنَّ اللّٰهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِهِ » عَلَى هٰذَا الْمَعْنَى . وَأَنْزَلَهُ (أَيْ أَنْزَلَ الْحَقُّ آدَمَ) خَلِيْفَةً عَنْهُ فِي أَرْضِهِ ، إِذْ كَانَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَالَمِ التَّغْيِيْرِ وَالْاِسْتِحَالَاتِ ، بِخِلَافِ الْعَالَمِ الْأَعْلَى . فَيَحْدُثُ فِيْهِمْ (أَيْ فِي سُكَّانِ الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ) مِنَ الْأَحْكَامِ بِحَسَبِ مَا يَحْدُثُ فِي الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ (نَفْسِهِ) مِنَ التَّغْيِيْرِ : فَيَظْهَرُ لِذٰلِكَ حُكْمُ جَمِيْعِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ . فَلِذٰلِكَ كَانَ (آدَمُ) خَلِيْفَةً فِي الْأَرْضِ دُوْنَ السَّمَاءِ وَالْجَنَّةِ .

ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ : مِنْ عِلْمِ الْأَسْمَاءِ ، وَسُجُوْدِ الْمَلَائِكَةِ ، وَإِبَانَةِ إِبْلِيْسَ . يَأْتِي ذِكْرُ ذٰلِكَ كُلِّهِ فِي مَوْضِعِهِ ، إِنْ شَاءَ اللّٰهُ !

(اَلْجُسُوْمُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَأَنْوَاعُهَا)

فَإِنَّ هٰذَا الْبَابَ مَخْصُوْصٌ بِابْتِدَاءِ الْجُسُوْمِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ : جِسْمُ آدَمَ ، وَجِسْمُ حَوَّاءَ ، وَجِسْمُ عِيْسَى ، وَأَجْسَامُ بَنِي آدَمَ . وَكُلُّ جِسْمٍ مِنْ هٰذِهِ الْأَرْبَعَةِ ، نَشْؤُهُ يُخَالِفُ نَشْءَ (الْجِسْمِ) الْآخَرِ فِي السَّبَبِيَّةِ ، مَعَ الْاِجْتِمَاعِ فِي الصُّوْرَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوْحَانِيَّةِ . وَإِنَّمَا سُقْنَا هٰذَا وَنَبَّهْنَا عَلَيْهِ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ الضَّعِيْفُ الْعَقْلُ أَنَّ الْقُدْرَةَ الْإِلٰهِيَّةَ ، أَوْ أَنَّ الْحَقَائِقَ لَا تُعْطِي أَنْ تَكُوْنَ هٰذِهِ النَّشْأَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَّا عَنْ سَبَبٍ وَاحِدٍ ، يُعْطِى بِذَاتِهِ النَّشْءَ . فَرَّدَ اللّٰهُ هٰذِهِ الشُّبْهَةَ بِأَنْ أَظْهَرَ هٰذَا النَّشْءَ الْإِنْسَانِيَّ فِي آدَمَ بِطَرِيْقٍ لَمْ يَظْهَرْ بِهِ جِسْمُ حَوَّاءَ ؛ وَأَظْهَرَ جِسْمَ حَوَّاءَ بِطَرِيْقٍ لَمْ يَظْهَرْ (بِهِ) جِسْمُ وَلَدِ آدَمَ ؛ وَأَظْهَرَ جِسْمَ أَوْلَادِ آدَمَ بِطَرِيْقٍ لَمْ يَظْهَرْ بِهِ جِسْمُ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . وَيَنْطَلِقُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ اِسْمُ الْإِنْسَانِ بِالْحَدِّ وَالْحَقِيْقَةِ . ذٰلِكَ « لِيُعْلَمَ أَنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ » ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ .

ثُمَّ إِنَّ اللّٰهَ قَدْ جَمَعَ هٰذِهِ الْأَرْبَعَةَ الْأَنْوَاعَ مِنَ الْخَلْقِ ، فِي آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِي « سُوْرَةِ الْحُجُرَاتِ » فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم ﴾ – يُرِيْدُ آدَمَ ؛ ﴿ مِّن ذَكَرٖ ﴾ – يُرِيْدُ حَوَّاءَ ؛ ﴿ وَأُنثَىٰ ﴾ – يُرِيْدُ عِيْسَى ؛ – وَمِنَ الْمَجْمُوْعِ : ﴿ مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ – يُرِيْدُ بَنِي آدَمَ بِطَرِيْقِ النِّكَاحِ وَالتَّوَالُدِ . فَهٰذِهِ الْآيَةُ مِنْ « جَوَامِعِ الْكَلِمِ » وَ « فَصْلِ الْخِطَابِ » الَّذِي أُوْتِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ .

(جِسْمُ آدَمَ وَجِسْمُ حَوَّاءَ)

وَلَمَّا ظَهَرَ جِسْمُ آدَمَ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ ، وَلَمْ تَكُنْ فِيْهِ شَهْوَةُ نِكَاحٍ ؛ وَكَانَ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ الْحَقِّ إِيْجَادُ التَّوَالُدِ وَالتَّنَاسُلِ وَالنِّكَاحِ فِي هٰذِهِ الدَّارِ . وَالنِّكَاحُ فِي هٰذِهِ الدَّارِ إِنَّمَا

هُوَ لِبَقَاءِ النَّوْعِ . – فَاسْتَخْرَجَ ، مِنْ ضِلَعِ آدَمَ الْقُصَيْرَى ، حَوَّاءَ . فَقَصُرَتْ (الْمَرْأَةُ) بِذٰلِكَ عَنْ دَرَجَةِ الرَّجُلِ كَمَا قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ . فَمَا تُلْحَقُ (النِّسَاءُ) بِهِمْ (أَيْ بِالرِّجَالِ) أَبَدًا ! وَكَانَتْ (حَوَّاءُ) مِنَ الضِّلَعِ لِلْإِنْحِنَاءِ الَّذِي فِي الضُّلُوْعِ ، لِتَحْنُوْ بِذٰلِكَ عَلَى وَلَدِهَا وَزَوْجِهَا . فَحُنُوُّ الرَّجُلِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، حُنُوُّهُ عَلَى نَفْسِهِ ، لِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْهُ ؛ وَحُنُوُّ الْمَرْأَةِ عَلَى الرَّجُلِ لِكَوْنِهَا خُلِقَتْ مِنَ الضِّلَعِ ، وَالضِّلَعُ فِيْهِ انْحِنَاءٌ وَانْعِطَافٌ .

(. . . وَحُبُّ آدَمَ وَحُبُّ حَوَّاءَ)

وَعَمَّرَ اللهُ الْمَوْضِعَ مِنْ آدَمَ ، الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ حَوَّاءَ ، بِالشَّهْوَةِ إِلَيْهَا ، إِذْ لَا يَبْقَى فِي الْوُجُوْدِ خَلَاءٌ . فَلَمَّا عَمَّرَهُ بِالْهَوَاءِ ، حَنَّ (آدَمُ) إِلَيْهَا حَنِيْنَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، لِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْهُ ؛ وَحَنَّتْ حَوَّاءُ إِلَيْهِ ، لِكَوْنِهِ (أَيْ آدَمَ) مَوْطِنَهَا الَّذِي نَشَأَتْ فِيْهِ . فَحُبُّ حَوَّاءَ (هُوَ) حُبُّ الْمَوْطِنِ ، وَحُبُّ آدَمَ (هُوَ) حُبُّ نَفْسِهِ . وَلِذٰلِكَ يَظْهَرُ حُبُّ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ ، إِذْ كَانَتْ عَيْنَهُ . وَأُعْطِيَتِ الْمَرْأَةُ الْقُوَّةَ الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِالْحَيَاءِ فِي مَحَبَّةِ الرِّجَالِ ، فَقَوِيَتْ عَلَى الْإِخْفَاءِ ، لِأَنَّ الْمَوْطِنَ لَا يَتَّحِدُ بِهَا ، اِتِّحَادَ آدَمَ بِهَا .

فَصَوَّرَ (الْحَقُّ) ، فِي ذٰلِكَ الضِّلَعِ ، جَمِيْعَ مَا صَوَّرَهُ وَخَلَقَهُ فِي جِسْمِ آدَمَ . فَكَانَ نَشْءُ جِسْمِ آدَمَ ، فِي صُوْرَتِهِ ، كَنَشْءِ الْفَاخُوْرِيِّ فِيْمَا يَنْشَئُهُ مِنَ الطِّيْنِ وَالطَّبْخِ . وَكَانَ نَشْءُ جِسْمِ حَوَّاءَ نَشْءَ النَّجَّارِ فِيْمَا يَنْحَتُهُ مِنَ الصُّوَرِ فِي الْخُشُبِ . فَلَمَّا نَحَتَهَا فِي الضِّلَعِ ، وَأَقَامَ صُوْرَتَهَا ، وَسَوَّاهَا ، وَعَدَلَهَا – نَفَخَ فِيْهَا مِنْ رُوْحِهِ . فَقَامَتْ (حَوَّاءُ) حَيَّةً ، نَاطِقَةً ، أُنْثَى ؛ لِيَجْعَلَهَا مَحَلًّا لِلزِّرَاعَةِ وَالْحَرْثِ لِوُجُوْدِ الْإِنْبَاتِ الَّذِي هُوَ التَّنَاسُلُ . فَسَكَنَ (آدَمُ) إِلَيْهَا وَسَكَنَتْ إِلَيْهِ . وَكَانَتْ لِبَاسًا لَهُ ، وَكَانَ لِبَاسًا لَهَا . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ . وَسَرَتِ الشَّهْوَةُ مِنْهُ فِي جَمِيْعِ أَجْزَائِهِ ، فَطَلَبَهَا .

(تَكْوِيْنُ الْجِسْمِ الثَّالِثِ)

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا (آدَمُ) ، وَأَلْقَى الْمَاءَ فِي الرَّحِمِ ، وَدَارَ بِتِلْكَ النُّطْفَةِ مِنَ الْمَاءِ دَمُ الْحَيْضِ الَّذِي كَتَبَهُ اللّٰهُ عَلَى النِّسَاءِ ، – تَكَوَّنَ فِي ذٰلِكَ الْجِسْمِ جِسْمٌ ثَالِثٌ عَلَى غَيْرِ مَا تَكَوَّنَ مِنْهُ جِسْمُ آدَمَ وَجِسْمُ حَوَّاءَ . فَهٰذَا هُوَ الْجِسْمُ الثَّالِثُ . فَتَوَلَّاهُ اللّٰهُ بِالنَّشْءِ فِي الرَّحِمِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ : بِالْاِنْتِقَالِ مِنْ مَاءٍ ، إِلَى نُطْفَةٍ ، إِلَى عَلَقَةٍ ، إِلَى مَضْغَةٍ ، إِلَى عِظَمٍ ، ثُمَّ كَسَا (اللّٰهُ) الْعِظَمَ لَحْمًا . فَلَمَّا أَتَمَّ (اللّٰهُ) نَشْأَتَهُ الْحَيَوَانِيَّةَ ، أَنْشَأَهُ خَلْقًا آخَرَ : فَنَفَخَ فِيْهِ الرُّوْحَ الْإِنْسَانِيَّ ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ !

وَلَوْلَا طُوْلَ الْأَمْرُ لَبَيَّنَّا تَكْوِيْنَهُ (أَيْ تَكْوِيْنَ الْإِنْسَانِ) فِي الرَّحِمِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ؛ وَمَنْ يَتَوَلَّى ذٰلِكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، الْمُوَكَّلِيْنَ بِإِنْشَاءِ الصُّوَرِ فِي الْأَرْحَامِ إِلَى حِيْنِ الْخُرُوْجِ ؟ وَلٰكِنْ كَانَ الْغَرَضُ الْإِعْلَامُ بِأَنَّ الْأَجْسَامَ الْإِنْسَانِيَّةَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فِي الْحَدِّ وَالْحَقِيْقَةِ وَالصُّوَرِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ ، فَإِنَّ أَسْبَابَ تَأْلِيْفِهَا مُخْتَلِفَةٌ ، لِئَلَّا يُتَخَيَّلُ أَنَّ ذٰلِكَ لِذَاتِ السَّبَبِ – تَعَالَى اللّٰهُ ! – بَلْ ذٰلِكَ رَاجِعٌ إِلَى فَاعِلٍ مُخْتَارٍ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، كَيْفَ يَشَاءُ ، مِنْ غَيْرِ تَحْجِيْرٍ وَلَا قُصُوْرٍ عَلَى أَمْرٍ دُوْنَ أَمْرٍ ، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ .

(تَكْوِيْنُ جِسْمِ عِيْسَى)

وَلَمَّا قَالَ أَهْلُ الطَّبِيْعَةِ : إِنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ لَا يَتَكَوَّنُ مِنْهُ شَيْءٌ ؛ وَأَنَّ الْجَنِيْنَ الْكَائِنَ فِي الرَّحِمِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ ؛ – لِذٰلِكَ جَعَلْنَا تَكْوِيْنَ جِسْمِ عِيْسَى تَكْوِيْنًا آخَرَ ، وَإِنْ كَانَ تَدْبِيْرُهُ فِي الرَّحِمِ تَدْبِيْرَ أَجْسَامِ الْبَنِيْنَ . فَإِنْ كَانَ (تَكْوِيْنُ جِسْمِ عِيْسَى) مِنْ مَاءِ الْمَرْأَةِ « إِذْ تَمَثَّلَ لَهَا الرُّوْحُ بَشَرًا سَوِيًّا » ؛ أَوْ كَانَ عَنْ نَفْخٍ بِغَيْرِ مَاءٍ ؛ – فَعَلَى كُلِّ وَجْهٍ ، هُوَ (أَعْنِي جِسْمَ عِيْسَى) جِسْمٌ رَابِعٌ ، مُغَايِرٌ فِي النَّشْءِ غَيْرَهُ مِنْ أَجْسَامِ النَّوْعِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ ﴾ – أَيْ صِفَةَ نَشْءِ عِيْسَى ، ﴿ عِندَ ٱللَّهِ

﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ – اَلضَّمِيْرُ يَعُوْدُ عَلَى آدَمَ ، وَوَقَعَ الشَّبَهُ فِي خَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ؛ – أَيْ صِفَةُ نَشْئِهِ (= عِيْسَى) صِفَةُ نَشْءِ آدَمَ ، إِلَّا أَنَّ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ « كُنْ ! » .

ثُمَّ إِنَّ عِيْسَى ، عَلَى مَا قِيْلَ ، لَمْ يَلْبَثْ فِي بَطْنِ أُمِّهِ لَبْثَ الْبَنِيْنَ الْمُعْتَادِ ؛ لِأَنَّهُ أَسْرَعَ إِلَيْهِ التَّكْوِيْنُ ، لَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَهُ آيَةً (لِلنَّاسِ) ، وَيَرُدُّ بِهِ عَلَى الطَّبِيْعِيِّيْنَ حَيْثُ حَكَمُوْا عَلَى الطَّبِيْعَةِ بِمَا أَعْطَتْهُمْ مِنَ الْعَادَةِ ، لَا بِمَا تَقْتَضِيْهِ مِمَّا أَوْدَعَ اللهُ فِيْهَا مِنَ الْأَسْرَارِ وَالتَّكْوِيْنَاتِ الْعَجِيْبَةِ . وَلَقَدْ أَنْصَفَ بَعْضُ حُذَّاقِ هٰذَا الشَّأْنِ الطَّبِيْعَةَ فَقَالَ : « لَا نَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا أَعْطَتْنَا خَاصَّةً ، وَفِيْهَا مَا لَا نَعْلَمُ » .

(اَلْإِنْسَانُ فِي الْأَرْضِ نَظِيْرُ الْعَقْلِ فِي السَّمَاءِ)

فَهٰذَا قَدْ ذَكَرْنَا اِبْتِدَاءَ الْجُسُوْمِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَأَنَّهَا أَرْبَعَةُ أَجْسَامٍ ، مُخْتَلِفَةِ النَّشْءِ كَمَا قَرَّرْنَا ؛ وَأَنَّهُ (أَعْنِي الْإِنْسَانَ) آخِرُ الْمُوَلَّدَاتِ . فَهُوَ نَظِيْرُ الْعَقْلِ الْأَوَّلِ ، وَبِهِ اِرْتَبَطَ . لِأَنَّ الْوُجُوْدَ دَائِرَةٌ ، فَكَانَ اِبْتِدَاءُ الدَّائِرَةِ وُجُوْدَ الْعَقْلِ الْأَوَّلِ ، الَّذِي وَرَدَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ » ، فَهُوَ أَوَّلُ الْأَجْنَاسِ ؛ وَانْتَهَى الْخَلْقُ إِلَى الْجِنْسِ الْإِنْسَانِيِّ . فَكَمُلَتِ الدَّائِرَةُ ؛ وَاتَّصَلَ الْإِنْسَانُ بِالْعَقْلِ ؛ كَمَا يَتَّصِلُ آخِرُ الدَّائِرَةِ بِأَوَّلِهَا ، فَكَانَتْ دَائِرَةً . وَمَا بَيْنَ طَرَفَيْ الدَّائِرَةِ جَمِيْعُ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ أَجْنَاسِ الْعَالَمِ ، بَيْنَ الْعَقْلِ الْأَوَّلِ ، الَّذِي هُوَ الْقَلَمُ أَيْضًا ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ الْمَوْجُوْدُ الْآخِرُ .

وَلَمَّا كَانَتِ الْخُطُوْطُ الْخَارِجَةُ مِنَ النُّقْطَةِ ، الَّتِي فِي وَسَطِ الدَّائِرَةِ ، إِلَى الْمُحِيْطِ الَّذِي وُجِدَ عَنْهَا ، تَخْرُجُ عَلَى السَّوَاءِ لِكُلِّ جُزْءٍ مِنَ الْمُحِيْطِ : كَذٰلِكَ نِسْبَةُ الْحَقِّ – تَعَالَى ! – إِلَى جَمِيْعِ الْمَوْجُوْدَاتِ (هِيَ) نِسْبَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَلَا يَقَعُ هُنَاكَ تَغْيِيْرٌ اَلْبَتَّةَ . كَانَتِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا نَاظِرَةً إِلَيْهِ وَقَابِلَةً مِنْهُ مَا يَهَبُهَا ، (كَ) نَظَرِ أَجْزَاءِ الْمُحِيْطِ إِلَى النُّقْطَةِ .

وَأَقَامَ – سُبْحَانَهُ ! – هٰذِهِ الصُّوْرَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ بِالْحَرَكَةِ الْمُسْتَقِيْمَةِ ، (كَ) صُوْرَةِ الْعَمَدِ الَّذِي لِلْخَيْمَةِ ، فَجَعَلَهُ (عَمَدًا) لِقُبَّةِ هٰذِهِ السَّمٰوَاتِ ؛ فَهُوَ – سُبْحَانَهُ ! – يُمْسِكُهَا أَنْ تَزُوْلَ بِسَبَبِهِ . فَعَبَّرْنَا عَنْهُ (أَيْ عَنِ الْإِنْسَانِ) بِالْعَمَدِ . فَإِذَا فَنِيَتْ هٰذِهِ الصُّوْرَةُ (الْإِنْسَانِيَّةُ) ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُتَنَفِّسٌ ، « اِنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » . لِأَنَّ الْعَمَدَ زَالَ ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ .

وَلَمَّا انْتَقَلَتِ الْعِمَارَةُ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ بِانْتِقَالِ الْإِنْسَانِ إِلَيْهَا ؛ وَخَرَجَتِ الدُّنْيَا بِانْتِقَالِهِ عَنْهَا ؛ – عَلِمْنَا قَطْعًا أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الْعَيْنُ الْمَقْصُوْدَةُ لِلّٰهِ مِنَ الْعَالَمِ ، وَأَنَّهُ الْخَلِيْفَةُ حَقًّا ، وَأَنَّهُ مَحَلُّ ظُهُوْرِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ . وَهُوَ الْجَامِعُ لِحَقَائِقِ الْعَالَمِ كُلِّهِ : مِنْ مَلَكٍ وَفَلَكٍ وَرُوْحٍ وَجِسْمٍ وَطَبِيْعَةٍ وَجَمَادٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ ، (هٰذَا ، بِالْإِضَافَةِ) إِلَى مَا خُصَّ بِهِ مِنْ عِلْمِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ ، مَعَ صِغَرِ حَجْمِهِ وَجِرْمِهِ . وَإِنَّمَا قَالَ اللّٰهُ فِيْهِ : بِأَنَّ « خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » لِكَوْنِ الْإِنْسَانِ مُتَوَلِّدًا عَنِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؛ فَهُمَا لَهُ كَالْأَبَوَيْنِ ، فَرَفَعَ اللّٰهُ مِقْدَارَهَا (لِأَجْلِهِ) ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . فَلَمْ يُرِدِ (الْحَقُّ الْكِبَرَ) فِي الْجِرْمِيَّةِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مَعْلُوْمٌ حِسًّا .

(إِبْتِلَاءُ الْإِنْسَانِ الْأَكْبَرِ)

غَيْرُ أَنَّ اللّٰهَ – تَعَالَى ! – اِبْتَلَاهُ (أَيِ الْإِنْسَانَ) بِبَلَاءٍ مَّا ابْتَلَى بِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ، إِمَّا لِأَنْ يُسْعِدَهُ أَوْ (لِأَنْ) يُشْقِيَهِ ، عَلَى حَسَبِ مَا يُوَفِّقُهُ إِلَى اسْتِعْمَالِهِ . فَكَانَ الْبَلَاءُ الَّذِي اِبْتَلَاهُ (اللّٰهُ) بِهِ أَنْ خَلَقَ فِيْهِ قُوَّةً تُسَمَّى الْفِكْرَ ؛ وَجَعَلَ هٰذِهِ الْقُوَّةَ خَادِمَةً لِقُوَّةٍ أُخْرَى تُسَمَّى الْعَقْلَ . وَجَبَّرَ (اللّٰهُ) الْعَقْلَ ، مَعَ سِيَادَتِهِ عَلَى الْفِكْرِ ، أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ مَا يُعْطِيْهِ . وَلَمْ يَجْعَلِ (اللّٰهُ) لِلْفِكْرِ مَجَالًا إِلَّا فِي الْقُوَّةِ الْخَيَالِيَّةِ . وَجَعَلَ – سُبْحَانَهُ ! – الْقُوَّةَ الْخَيَالِيَّةَ مَحَلًّا جَامِعًا لِمَا تُعْطِيْهَا الْقُوَّةُ الْحَسَّاسَةُ . وَجَعَلَ لَهُ قُوَّةً يُقَالُ لَهَا : الْمُصَوِّرَةُ ، فَلَا يَحْصُلُ فِي الْقُوَّةِ الْخَيَالِيَّةِ (شَيْءٌ) إِلَّا مَا أَعْطَاهُ الْحِسُّ ، أَوْ أَعْطَتْهُ الْقُوَّةُ الْمُصَوِّرَةُ . وَمَادَّةُ الْمُصَوِّرَةِ مِنَ الْمَحْسُوْسَاتِ ، فَتُرَكِّبُ صُوَرًا لَمْ يُوْجَدْ لَهَا عَيْنٌ ، لٰكِنْ أَجْزَاؤُهَا

كُلَّهَا مَوْجُوْدَةٌ حِسًّا .

وَذٰلِكَ لِأَنَّ الْعَقْلَ خُلِقَ سَاذِجًا ، لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْعُلُوْمِ النَّظَرِيَّةِ شَيْءٌ . وَقِيْلَ لِلْفِكْرِ : مَيِّزْ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ الَّذِي (هُوَ) فِي هٰذِهِ الْقُوَّةِ الْخَيَالِيَّةِ . فَيَنْظُرُ (الْفِكْرُ) بِحَسَبِ مَا يَقَعُ لَهُ ؛ فَقَدْ يَحْصُلُ فِي شُبْهَةٍ ، وَقَدْ يَحْصُلُ فِي دَلِيْلٍ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِذٰلِكَ . وَلٰكِنْ فِي زَعْمِهِ أَنَّهُ عَالِمٌ بِصُوَرِ الشُّبَهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ ، وَأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى عِلْمٍ ؛ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى قُصُورِ الْمَوَادِّ الَّتِي اسْتَنَدَ إِلَيْهَا فِي اقْتِنَاءِ الْعُلُوْمِ . فَيَقْبَلُهَا الْعَقْلُ مِنْهُ ، وَيَحْكُمُ بِهَا : فَيَكُوْنُ جَهْلُهُ أَكْثَرَ مِنْ عِلْمِهِ بِمَا لَا يَتَقَارَبُ !

ثُمَّ إِنَّ اللهَ كَلَّفَ هٰذَا الْعَقْلَ مَعْرِفَتَهُ – سُبْحَانَهُ ! – لِيَرْجِعَ إِلَيْهِ فِيْهَا ، لَا إِلَى غَيْرِهِ . فَفَهِمَ الْعَقْلُ نَقِيْضَ مَا أَرَادَ بِهِ الْحَقُّ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى ! – ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ – ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . فَاسْتَنَدَ إِلَى الْفِكْرِ ، وَجَعَلَهُ إِمَامًا يَقْتَدِى بِهِ ، وَغَفَلَ عَنِ الْحَقِّ فِي مُرَادِهِ بِالتَّفَكُّرِ : إِنَّهُ خَاطَبَهُ أَنْ يَتَفَكَّرَ ، فَيَرَى أَنَّ عِلْمَهُ بِاللهِ لَا سَبِيْلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِتَعْرِيْفِ اللهِ ! فَيَكْشِفُ لَهُ عَنِ الْأَمْرِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ . فَلَمْ يَفْهَمْ كُلُّ عَقْلٍ هٰذَا الْفَهْمَ ، إِلَّا عُقُوْلُ خَاصَّةِ اللهِ ، مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ .

يَا لَيْتَ شِعْرِي ! هَلْ بِأَفْكَارِهِمْ « قَالُوْا : بَلَى ! » حِيْنَ أَشْهَدَهُمْ (الْحَقُّ) عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي « قَبْضَةِ الذُّرِّيَّةِ » مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ؟ لَا ، وَاللهِ ، بَلْ عِنَايَةٌ (مِنَ اللهِ) إِشْهَادُهُ إِيَّاهُمْ ذٰلِكَ ، عِنْدَ أَخْذِهِ إِيَّاهُمْ عَنْهُمْ مِنْ ظُهُوْرِهِمْ . وَ (لٰكِنْ) لَمَّا رَجَعُوْا إِلَى الْأَخْذِ عَنْ قُوَّاهُمُ الْمُفَكِّرَةِ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ ، لَمْ يَجْتَمِعُوْا قَطُّ عَلَى حُكْمٍ وَاحِدٍ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ ، وَذَهَبَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ إِلَى مَذْهَبٍ . وَكَثُرَتِ الْقَالَةُ فِي الْجَنَابِ الْإِلٰهِيِّ الْأَحْمَى . وَاجْتَرَؤُا (أَيْ أَصْحَابُ الْفِكْرِ ، الْآخِذُوْنَ عَنْ أَفْكَارِهِمْ لَا عَنِ اللهِ) غَايَةَ الْجُرْأَةِ عَلَى اللهِ . – وَهٰذَا كُلُّهُ مِنَ الْاِبْتِلَاءِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، مِنْ خَلْقِهِ (– تَعَالَى ! –) الْفِكْرَ فِي الْإِنْسَانِ .

وَ (أَمَّا) أَهْلُ اللهِ (فَقَدِ) افْتَقَرُوْا إِلَيْهِ (– تَعَالَى ! –) فِيْمَا كَلَّفَهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ بِهِ فِي مَعْرِفَتِهِ . وَعَلِمُوْا أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُمْ (هُوَ) رُجُوْعَهُمْ إِلَيْهِ (– سُبْحَانَهُ ! –) فِي ذٰلِكَ ،

وَفِي كُلِّ حَالٍ . فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : « سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ سَبِيْلًا إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا الْعَجْزَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ! » . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : « اَلْعَجْزُ عَنْ دَرْكِ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ ! » . وَقَالَ ﷺ : ﴿ **لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ** ! ﴾ . وَقَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا** ﴾ . فَرَجَعُوْا إِلَى اللهِ فِي الْمَعْرِفَةِ بِهِ ، وَتَرَكُوْا الْفِكْرَ فِي مَرْتَبَتِهِ ، وَوَفَّوْهُ حَقَّهُ : لَمْ يَنْقُلُوْهُ إِلَى مَا لَا يَنْبَغِي لَهُ التَّفَكُّرُ فِيْهِ .

وَقَدْ وَرَدَ النَّهْيُ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِ اللهِ . وَاللهُ يَقُوْلُ : ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ** ﴾ . فَوَهَبَهُمُ اللهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ مَا وَهَبَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ مِنْ مَخْلُوْقَاتِهِ وَمَظَاهِرِهِ مَا أَشْهَدَهُمْ . فَعَلِمُوْا أَنَّهُ مَا يَسْتَحِيْلُ عَقْلًا مِنْ طَرِيْقِ الْفِكْرِ ، لَا يَسْتَحِيْلُ نِسْبَةً إِلٰهِيَّةً ، كَمَا سَنُوْرِدُ مِنْ ذٰلِكَ طَرْفًا فِي بَابِ « الْأَرْضِ الْمَخْلُوْقَةِ مِنْ بَقِيَّةِ طِيْنَةِ آدَمَ » وَغَيْرِهَا .

فَالَّذِي يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَدِيْنَ اللهَ بِهِ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَعْلَمَ « أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ » مِنْ مُمْكِنٍ وَمُحَالٍ وَلَا كُلِّ مُحَالٍ . نَافِذُ الْاِقْتِدَارِ . وَاسِعُ الْعَطَاءِ . لَيْسَ لِإِيْجَادِهِ (– تَعَالَى ! –) تِكْرَارٌ ، بَلْ أَمْثَالٌ تَحْدُثُ فِي جَوْهَرٍ أَوْجَدَهُ ، وَشَاءَ بَقَاءَهُ ؛ وَلَوْ شَاءَ (لَ) أَفْنَاهُ مَعَ الْأَنْفَاسِ . – ﴿ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ .



الْبَابُ الثَّامِنُ :

فِي مَعْرِفَةِ الْأَرْضِ الَّتِي خُلِقَتْ مِنْ بَقِيَّةِ خَمِيْرَةِ طِيْنَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ أَرْضُ الْحَقِيْقَةِ وَذِكْرُ بَعْضِ مَا فِيْهَا مِنَ الْغَرَائِبِ وَالْعَجَائِبِ

يَا أُخْتِ بَلْ يَا عَمَّتِي الْمَعْقُوْلَةْ … أَنْتِ الْأُمَيْمَةُ عِنْدَنَا الْمَجْهُوْلَةْ
نَظَرَ الْبَنُوْنَ إِلَيْكِ أُخْتَ أَبِيْهِمْ … فَتَنَافَسُوْا عَنْ هِمَّةٍ مَعْلُوْلَةْ
إِلَّا الْقَلِيْلَ مِنَ الْبَنِيْنَ فَإِنَّهُمْ … عَطَفُوْا عَلَيْكِ بِأَنْفُسٍ مَجْبُوْلَةْ
يَا عَمَّتِي قُلْ كَيْفَ أَظْهَرَ سِرَّهُ … فِيْكِ الْأُخَيُّ مُحَقِّقًا تَنْزِيْلَةْ
حَتَّىٰ بَدَا مِنْ مِثْلِ ذَاتِكَ عَالَمٌ … قَدْ يَرْتَضِي رَبُّ الْوَرَىٰ تَوْكِيْلَةْ
أَنْتِ الْإِمَامَةُ وَالْإِمَامُ أَخُوْكِ وَالْ … مَأْمُوْمُ أَمْثَالٌ لَهُ مَسْلُوْلَةْ

(اَلنَّخْلَةُ أُخْتُ آدَمَ)

اِعْلَمْ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ! – لَمَّا خَلَقَ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – الَّذِي هُوَ أَوَّلُ جِسْمٍ إِنْسَانِيٍّ تَكَوَّنَ ، وَجَعَلَهُ أَصْلًا لِوُجُوْدِ الْأَجْسَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَفَضَلَتْ مِنْ خَمِيْرَةِ طِيْنَتِهِ

فَضْلَةٌ خَلَقَ مِنْهَا النَّخْلَةَ ؛ فَهِيَ أُخْتٌ لِآدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – وَهِيَ لَنَا عَمَّةٌ ! وَسَمَّاهَا الشَّرْعُ « عَمَّةً » وَشَبَّهَهَا بِـ« الْمُؤْمِنِ » . وَلَهَا أَسْرَارٌ عَجِيْبَةٌ دُوْنَ سَائِرِ النَّبَاتِ . –

وَفَضَلَ مِنَ الطِّيْنَةِ ، بَعْدَ خَلْقِ النَّخْلَةِ ، قَدْرُ السِّمْسِمَةِ فِي الْخَفَاءِ ، فَمَدَّ اللّٰهُ فِي تِلْكَ الْفَضْلَةِ أَرْضًا وَاسِعَةَ الْفَضَاءِ ، إِذَا جُعِلَ الْعَرْشُ وَمَا حَوَاهُ وَالْكُرْسِيُّ وَالسَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُوْنَ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَالْجَنَّاتُ كُلُّهَا وَالنَّارُ ، فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ : كَانَ الْجَمِيْعُ فِيْهَا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ ! وَفِيْهَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ مَا لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ ، وَيَبْهَرُ الْعُقُوْلَ أَمْرُهُ . وَفِي كُلِّ نَفَسٍ خَلَقَ اللّٰهُ فِيْهَا عَوَالِمَ « يُسَبِّحُوْنَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُوْنَ » .

وَفِي هٰذِهِ الْأَرْضِ ظَهَرَتْ عُظْمَةُ اللّٰهِ ؛ وَعَظُمَتْ ، عِنْدَ الْمُشَاهِدِ لَهَا ، قُدْرَتُهُ . وَكَثِيْرٌ مِنَ الْمُحَالَاتِ الْعَقْلِيَّةِ ، الَّتِي قَامَ الدَّلِيْلُ الصَّحِيْحُ الْعَقْلِيُّ عَلَى إِحَالَتِهَا ، هِيَ مَوْجُوْدَةٌ فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ . وَهِيَ مَسْرَحُ عُيُوْنِ الْعَارِفِيْنَ ، الْعُلَمَاءِ بِاللّٰهِ ؛ وَفِيْهَا يَجُوْلُوْنَ . وَخَلَقَ اللّٰهُ مِنْ جُمْلَةِ عَوَالِمِهَا عَالَمًا عَلَى صُوَرِنَا ، إِذَا أَبْصَرَهُمُ الْعَارِفُ يُشَاهِدُ نَفْسَهُ فِيْهَا . وَقَدْ أَشَارَ إِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ عَبْدُ اللّٰهِ بْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ ! – فِيْمَا رُوِيَ عَنْهُ فِي حَدِيْثِ « هٰذِهِ الْكَعْبَةُ ، وَأَنَّهَا بَيْتٌ وَاحِدٌ مِنْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَيْتًا » وَ« أَنَّ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِنَ السَّبْعِ الْأَرَضِيْنَ خَلْقًا مِثْلَنَا ، حَتَّى أَنَّ فِيْهِمُ ابْنُ عَبَّاسٍ مِثْلِي » . وَصَدَقَتْ هٰذِهِ الرِّوَايَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَشْفِ .

(مَجْلِسُ الرَّحْمَةِ فِي أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ)

فَلْنَرْجِعْ إِلَى ذِكْرِ هٰذِهِ الْأَرْضِ وَاتِّسَاعِهَا ، وَكَثْرَةِ عَالَمِهَا الْمَخْلُوْقِيْنَ فِيْهَا وَمِنْهَا ، وَ (مَا) يَقَعُ لِلْعَارِفِيْنَ فِيْهَا (مِنْ) تَجَلِّيَاتٍ إِلٰهِيَّةٍ . – أَخْبَرَ بَعْضُ الْعَارِفِيْنَ بِأَمْرٍ عَرَفَهُ شُهُوْدًا ، قَالَ : « دَخَلْتُ فِيْهَا يَوْمًا مَجْلِسًا يُسَمَّى مَجْلِسَ الرَّحْمَةِ لَمْ أَرَ مَجْلِسًا قَطُّ أَعْجَبُ مِنْهُ . فَبَيْنَا أَنَا فِيْهِ ، إِذْ ظَهَرَ لِي تَجَلٍّ إِلٰهِيٌّ ، لَمْ يَأْخُذْنِي عَنِّي ، بَلْ أَبْقَانِي مَعِي . وَهٰذَا

مِنْ خَاصِّيَّةِ هٰذِهِ الْأَرْضِ . فَإِنَّ التَّجَلِّيَاتِ الْوَارِدَةَ عَلَى الْعَارِفِيْنَ فِي هٰذِهِ الدَّارِ ، فِي هٰذِهِ الْهَيَاكِلِ ، تَأْخُذُهُمْ عَنْهُمْ وَتُفْنِيْهِمْ عَنْ شُهُوْدِهِمْ ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، وَكُلِّ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذٰلِكَ . وَكَذٰلِكَ عَالَمُ السَّمٰوَاتِ الْعُلَى وَالْكُرْسِيُّ الْأَزْهَى وَعَالَمُ الْعَرْشِ الْمُحِيْطِ الْأَعْلَى ، إِذَا وَقَعَ لَهُمْ تَجَلٍّ إِلٰهِيٌّ أَخَذَهُمْ عَنْهُمْ وَصَعِقُوْا . وَهٰذِهِ الْأَرْضُ ، إِذَا حَصَلَ فِيْهَا صَاحِبُ الْكَشْفِ ، الْعَارِفِ ، وَوَقَعَ لَهُ تَجَلٍّ ، لَمْ يُفْنِهِ عَنْ شُهُوْدِهِ ، وَلَا اخْتَطَفَهُ عَنْ وُجُوْدِهِ ، وَجُمِعَ لَهُ بَيْنَ الرُّؤْيَةِ وَالْكَلَامِ » .

قَالَ : « وَاتَّفَقَ لِي ، فِي هٰذَا الْمَجْلِسِ ، أُمُوْرٌ وَأَسْرَارٌ لَا يَسَعُنِي ذِكْرُهَا لِغُمُوْضِ مَعَانِيْهَا ، وَعَدَمِ وُصُوْلِ الْإِدْرَاكَاتِ قَبْلَ أَنْ يَشْهَدَ ، مِثْلَ هٰذِهِ ، الْمُشَاهِدُ لَهَا وَفِيْهَا مِنَ الْبَسَاتِيْنِ وَالْجَنَّاتِ وَالْحَيَوَانِ وَالْمَعَادِنِ ، مَا لَا يَعْلَمُ قَدْرَ ذٰلِكَ إِلَّا اللّٰهُ – تَعَالَى ! – . وَكُلُّ مَا فِيْهَا ، مِنْ هٰذَا كُلِّهِ ، حَيٌّ ، نَاطِقٌ ، كَحَيَاةِ كُلِّ حَيٍّ نَاطِقٍ ، مَا هُوَ مِثْلُ مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ (عَلَيْهِ) فِي الدُّنْيَا . وَهِيَ (أَيْ أَرْضُ الْحَقِيْقَةُ) بَاقِيَةٌ لَا تَفْنَى وَلَا تَتَبَدَّلُ ، وَلَا يَمُوْتُ عَالَمُهَا .

وَلَيْسَتْ تَقْبَلُ هٰذِهِ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنَ الْأَجْسَامِ الطَّبِيْعِيَّةِ الطِّيْنِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ ، سِوَى عَالَمِهَا أَوْ عَالَمِ الْأَرْوَاحِ مِنَّا بِالْخَاصِّيَّةِ . وَإِذَا دَخَلَهَا الْعَارِفُوْنَ (فَ) إِنَّمَا يَدْخُلُوْنَهَا بِأَرْوَاحِهِمْ لَا بِأَجْسَامِهِمْ ، فَيَتْرُكُوْنَ هَيَاكِلَهُمْ فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ الدُّنْيَا ، وَيَتَجَرَّدُوْنَ » .

(مَرَاسِمُ الدُّخُوْلِ فِي أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ)

« وَفِي تِلْكَ الْأَرْضِ ، صُوَرٌ عَجِيْبَةُ النَّشْءِ ، بَدِيْعَةُ الْخَلْقِ ، قَائِمُوْنَ عَلَى أَفْوَاهِ (= نَوَاصِي) السِّكَكِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى هٰذَا الْعَالَمِ الَّذِي نَحْنُ فِيْهِ ، مِنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ . فَإِذَا أَرَادَ وَاحِدٌ مِنَّا الدُّخُوْلَ لِتِلْكَ الْأَرْضِ ، مِنَ الْعَارِفِيْنَ ، مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ : مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ أَوْ مَلَكٍ ، أَوْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِشَرْطِ الْمَعْرِفَةِ وَتَجَرَّدَ عَنْ هَيْكَلِهِ ، – وَجَدَ تِلْكَ الصُّوَرَ عَلَى أَفْوَاهِ السِّكَكِ ، قَائِمِيْنَ مُوَكَّلِيْنَ بِهَا ، قَدْ نَصَبَهُمُ اللّٰهُ – سُبْحَانَهُ ! –

لِذٰلِكَ الشُّغْلِ . فَيُبَادِرُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلَى هٰذَا الدَّاخِلِ ، فَيَخْلَعُ عَلَيْهِ حُلَّةً عَلَى قَدْرِ مَقَامِهِ ، وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ ، وَيَجُوْلُ بِهِ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ ، « وَيَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ » ، وَيَعْتَبِرُ فِي مَصْنُوْعَاتِ اللهِ . وَلَا يَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ وَلَا مَدَرٍ وَلَا شَيْءٍ – وَيُرِيْدُ أَنْ يُكَلِّمَهُ – إِلَّا كَلَّمَهُ كَمَا يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ . وَلَهُمْ لُغَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ » .

« وَتُعْطِى هٰذِهِ الْأَرْضُ بِالْخَاصِّيَّةِ لِكُلِّ مَنْ دَخَلَهَا الْفَهْمَ بِجَمِيْعِ مَا فِيْهَا مِنَ الْأَلْسِنَةِ . فَإِذَا قَضَى مِنْهَا (الْعَارِفُ) وَطَرَهُ ، وَأَرَادَ الرُّجُوْعَ إِلَى مَوْضِعِهِ ، مَشَى مَعَهُ رَفِيْقُهُ إِلَى أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي دَخَلَ مِنْهُ . يُوَادِعُهُ (= يُوَدِّعُهُ) ، وَيَخْلَعُ عَنْهُ تِلْكَ الْحُلَّةَ الَّتِي كَسَاهُ ، وَيَنْصَرِفُ عَنْهُ وَقَدْ حَصَّلَ عُلُوْمًا جَمَّةً وَدَلَائِلَ ، وَزَادَ فِي عِلْمِهِ بِاللهِ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مُشَاهَدَةً . وَمَا رَأَيْتُ الْفَهْمَ يَنْفُذُ أَسْرَعُ مِمَّا يَنْفُذُ إِذَا حَصَلَ (الْعَارِفُ) فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ » .

(حِكَايَةُ الشَّيْخِ أَوْحَدُ الدِّيْنِ الْكِرْمَانِي مَعَ شَيْخِهِ)

وَقَدْ ظَهَرَ عِنْدَنَا ، فِي هٰذِهِ الدَّارِ وَهٰذِهِ النَّشْأَةِ ، مَا يَعْضُدُ هٰذَا الْقَوْلَ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا شَاهَدْنَاهُ وَلَا أَذْكُرُهُ . وَمِنْهَا مَا حَدَّثَنِي أَوْحَدُ الدِّيْنِ حَامِدُ بْنُ أَبِي الْفَخْرِ الْكِرْمَانِيِّ – وَفَّقَهُ اللهُ ! – قَالَ : « كُنْتُ أَخْدُمُ شَيْخًا وَأَنَا شَابٌّ . فَمَرِضَ الشَّيْخُ ، وَكَانَ فِي مَحَارَةٍ ، وَقَدْ أَخَذَهُ الْبَطْنُ . فَلَمَّا وَصَلْنَا تِكْرِيْتَ قُلْتُ لَهُ : يَا سَيِّدِي ، اتْرُكْنِي أَطْلُبُ لَكَ دَوَاءًا مُمْسِكًا مِنْ صَاحِبِ مَارِسْتَانِ سِنْجَارٍ مِنَ السَّبِيْلِ . فَلَمَّا رَأَى احْتِرَاقِي قَالَ : رَحْ إِلَيْهِ ! »

قَالَ (أَوْحَدُ الدِّيْنِ) : « فَرَحْتُ إِلَى صَاحِبِ السَّبِيْلِ وَهُوَ ، فِي خِيْمَتِهِ ، جَالِسٌ ، وَرِجَالُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ قَائِمُوْنَ ، وَالشَّمْعَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَكَانَ لَا يَعْرِفُنِي وَلَا أَعْرِفُهُ . فَرَآنِي وَاقِفًا بَيْنَ الْجَمَاعَةِ . فَقَامَ إِلَيَّ ، وَأَخَذَ بِيَدِي ، وَأَكْرَمَنِي . وَسَأَلَنِي : مَا حَاجَتُكَ ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ حَالَ الشَّيْخِ . فَاسْتَحْضَرَ الدَّوَاءَ ، وَأَعْطَانِي إِيَّاهُ ، وَخَرَجَ مَعِي فِي خِدْمَتِي ، وَالْخَادِمُ بِالشَّمْعَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَخِفْتُ أَنْ يَرَاهُ الشَّيْخُ فَيَحْرَجُ . فَحَلَفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ ، فَرَجَعَ » .

« فَجِئْتُ الشَّيْخَ وَأَعْطَيْتُهُ الدَّوَاءَ ، وَذَكَرْتُ لَهُ كَرَامَةَ الْأَمِيْرِ ، صَاحِبِ السَّبِيْلِ ، بِي . فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقَالَ لِي : يَا وَلَدِي إِنِّي أَشْفَقْتُ عَلَيْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنِ احْتِرَاقِكَ مِنْ أَجْلِي ، فَأَذِنْتُ لَكَ . فَلَمَّا مَشَيْتَ خِفْتُ أَنْ يُخْجِلَكَ الْأَمِيْرُ بِعَدَمِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ . فَتَجَرَّدْتُ عَنْ هَيْكَلِي هٰذَا ، وَدَخَلْتُ فِي هَيْكَلِ ذٰلِكَ الْأَمِيْرِ ، وَقَعَدْتُ فِي مَوْضِعِهِ . فَلَمَّا جِئْتَ أَكْرَمْتُكَ ، وَفَعَلْتُ مَعَكَ مَا رَأَيْتَ . ثُمَّ عُدْتُ إِلَى هَيْكَلِي هٰذَا . وَلَا حَاجَةَ لِي فِي هٰذَا الدَّوَاءِ ، وَمَا اَسْتَعْمِلُهُ » . – فَهٰذَا شَخْصٌ قَدْ ظَهَرَ فِي صُوْرَةِ غَيْرِهِ ، فَكَيْفَ أَهْلُ تِلْكَ الْأَرْضِ (= أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ) ؟

(تُرْبَةُ أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ وَثَمَرُهَا)

قَالَ لِي بَعْضُ الْعَارِفِيْنَ : « لَمَّا دَخَلْتُ هٰذِهِ الْأَرْضَ ، رَأَيْتُ فِيْهَا أَرْضًا كُلَّهَا مِسْكٌ عِطْرٌ ؛ لَوْ شَمَّهُ أَحَدٌ مِنَّا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَهَلَكَ لِقُوَّةِ رَائِحَتِهِ . تَمْتَدُّ (رَائِحَتُهُ) مَا شَاءَ اللّٰهُ أَنْ تَمْتَدَّ . – وَدَخَلْتُ فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ أَرْضًا مِنَ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ اللَّيِّنِ ، فِيْهَا أَشْجَارٌ كُلُّهَا ذَهَبٌ ، وَثَمَرُهَا ذَهَبٌ . فَيَأْخُذُ (الْإِنْسَانُ) التُّفَّاحَةَ أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الثَّمَرِ ، فَيَأْكُلُهَا فَيَجِدُ مِنْ لَذَّةِ طَعْمِهَا وَحُسْنِ رَائِحَتِهَا وَنَعْمَتِهَا مَا لَا يَصِفُهَا وَاصِفٌ ، تَقْصُرُ فَاكِهَةُ الْجَنَّةِ عَنْهَا : فَكَيْفَ فَاكِهَةُ الدُّنْيَا ؟ وَالْجِسْمُ وَالشَّكْلُ وَالصُّوْرَةُ ذَهَبٌ . وَالصُّوْرَةُ وَالشَّكْلُ كَصُوْرَةِ الثَّمَرَةِ وَشَكْلِهَا عِنْدَنَا ، وَتَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ . وَفِي الثَّمَرَةِ مِنَ النَّقْشِ الْبَدِيْعِ وَالزِّيْنَةِ الْحَسَنَةِ مَا لَا تَتَوَهَّمُهُ نَفْسٌ ، فَأَحْرَى أَنْ تَشْهَدَهُ عَيْنٌ » .

« وَرَأَيْتُ مِنْ كِبَرِ ثَمَرِهَا بِحَيْثُ لَوْ جُعِلَتِ الثَّمَرَةُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَحَجَبَتْ أَهْلَ الْأَرْضِ عَنْ رُؤْيَةِ السَّمَاءِ ؛ وَلَوْ جُعِلَتْ عَلَى الْأَرْضِ لَفَضَلَتْ عَلَيْهَا أَضْعَافًا ؛ وَإِذَا قَبَضَ عَلَيْهَا الَّذِي يُرِيْدُ أَكْلَهَا ، بِهٰذِهِ الْيَدِ الْمَعْهُوْدَةِ فِي الْقَدْرِ ، عَمَّهَا بِقَبْضَتِهِ لِنَعْمَتِهَا . (هِيَ) أَلْطَفُ مِنَ الْهَوَاءِ . يُطْبِقُ (الرَّجُلُ) عَلَيْهَا يَدَهُ ، مَعَ هٰذَا الْعِظَمِ ! وَهٰذَا مِمَّا تُحِيْلُهُ الْعُقُوْلُ هُنَا فِي نَظَرِهَا . –

وَلَمَّا شَاهَدَهَا ذُوْ النُّوْنِ الْمِصْرِي ، نَطَقَ بِمَا حُكِيَ عَنْهُ مِنْ إِيْرَادِ الْكَبِيْرِ عَلَى الصَّغِيْرِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَغَّرَ الْكَبِيْرُ ، أَوْ يُكَبَّرَ الصَّغِيْرُ ، أَوْ يُوَسَّعَ الضَّيِّقُ ، أَوْ يُضَيَّقَ الْوَاسِعُ . فَالْعِظَمُ فِي التُّفَّاحَةِ ، عَلَى مَا ذَكَرْتُهُ ، بَاقٍ ؛ وَالْقَبْضُ عَلَيْهَا بِالْيَدِ الصَّغِيْرَةِ ، وَالْإِحَاطَةُ بِهَا ، مَوْجُوْدٌ ؛ وَالْكَيْفِيَّةُ مَشْهُوْدَةٌ مَجْهُوْلَةٌ ، لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا اللهُ . وَهٰذَا الْعِلْمُ مِمَّا انْفَرَدَ الْحَقُّ بِهِ . وَالْيَوْمُ الْوَاحِدُ الزَّمَانِيُّ عِنْدَنَا هُوَ عِدَّةُ سِنِيْنَ عِنْدَهُمْ . وَأَزْمِنَةُ تِلْكَ الْأَرْضِ مُخْتَلِفَةٌ » .

قَالَ : « وَدَخَلْتُ فِيْهَا أَرْضًا مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءُ فِي الصُّوْرَةِ ، ذَاتَ شَجَرٍ وَأَنْهَارٍ وَثَمَرٍ شَهِيٍّ . كُلُّ ذٰلِكَ فِضَّةٌ . وَأَجْسَامُ أَهْلِهَا مِنْهَا كُلُّهَا فِضَّةٌ . وَكَذٰلِكَ كُلُّ أَرْضٍ : شَجَرُهَا وَثَمَرُهَا وَأَنْهَارُهَا وَبِحَارُهَا وَخَلْقُهَا مِنْ جِنْسِهَا . فَإِذَا تُنُوْوِلَتْ (ثَمَارُهَا) وَأُكِلَتْ وُجِدَ فِيْهَا ، مِنَ الطَّعْمِ وَالرَّوَائِحِ وَالنَّعْمَةِ ، مِثْلُ سَائِرِ الْمَأْكُوْلَاتِ ، غَيْرُ أَنَّ اللَّذَّةَ لَا تُوْصَفُ وَلَا تُحْكَى . –

وَدَخَلْتُ فِيْهَا أَرْضًا مِنَ الْكَافُوْرِ الْأَبْيَضِ . وَهِيَ ، فِي أَمَاكِنٍ مِنْهَا ، أَشَدُّ حَرَارَةً مِنَ النَّارِ ، يَخُوْضُهَا الْإِنْسَانُ وَلَا تَحْرُقُهُ ؛ وَأَمَاكِنٌ مِنْهَا مُعْتَدِلَةً ، وَأَمَاكِنٌ بَارِدَةً . وَكُلُّ أَرْضٍ مِنْ هٰذِهِ الْأَرْضِيْنَ ، الَّتِي هِيَ أَمَاكِنٌ فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ الْكَبِيْرَةِ ، لَوْ جُعِلَتِ السَّمَاءُ فِيْهَا لَكَانَتْ كَحَلَقَةٍ فِي فَلَاةٍ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا . وَمَا فِي جَمِيْعِ أَرَاضِيْهَا أَحْسَنُ عِنْدِي ، وَلَا أَوْفَقُ لِمِزَاجِي مِنْ أَرْضِ الزَّعْفَرَانِ . وَمَا رَأَيْتُ عَالَمًا مِنْ عَالَمِ كُلِّ أَرْضٍ أَبْسَطَ نُفُوْسًا مِنْهُمْ ، وَلَا أَكْثَرَ بَشَاشَةً بِالْوَارِدِ عَلَيْهِمْ ، يَتَلَقَّوْنَهُ بِالتَّرْحِيْبِ وَالتَّأْهِيْلِ .

وَمِنْ عَجَائِبِ مَطْعُوْمَاتِهَا ، أَنَّهُ أَيُّ شَيْءٍ أَكَلْتَ مِنْهَا ، إِذَا قَطَعْتَ مِنَ الثَّمَرَةِ قِطْعَةً نَبْتُتُ ، فِي زَمَانِ قَطْعِكَ إِيَّاهَا مَكَانَهَا ، مَا سَدَّ تِلْكَ الثَّلَمَةَ . أَوْ تَقْطِفُ بِيَدِكَ ثَمَرَةً مِنْ ثَمَرِهَا ، فَزَمَانُ قَطْفِكَ إِيَّاهَا يَتَكَوَّنُ مِثْلُهَا ، بِحَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِهَا إِلَّا الْفَطِنُ ؛ فَلَا يَظْهَرُ فِيْهَا نَقْصٌ أَصْلًا » .

(نِسَاءُ أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ وَبِحَارُهَا وَمَرَاكِبُهَا)

« وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى نِسَائِهَا ، تَرَى أَنَّ النِّسَاءَ الْكَائِنِيْنَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْحُوْرِ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِنَّ ، كَنِسَائِنَا مِنَ الْبَشَرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحُوْرِ فِي الْجِنَانِ . وَأَمَّا مُجَامَعَتُهُنَّ فَلَا يُشْبِهُ لَذَّتَهَا لَذَّةٌ . وَأَهْلُهَا أَعْشَقُ الْخَلْقِ فِيْمَنْ يَرِدُ عَلَيْهِمْ . وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ تَكْلِيْفٌ . بَلْ هُمْ مَجْبُوْلُوْنَ عَلَى تَعْظِيْمِ الْحَقِّ وَجَلَالِهِ – تَعَالَى ! – . لَوْ رَامُوْا خِلَافَ ذٰلِكَ (لَـ) مَا اسْتَطَاعُوْا » .

« وَأَمَّا أَبْنِيَتُهُمْ فَمِنْهَا مَا يَحْدُثُ عَنْ هِمَمِهِمْ ؛ وَمِنْهَا مَا يَحْدُثُ كَمَا تُبْنَىٰ عِنْدَنَا (الْأَبْنِيَةُ) مِنَ اتِّخَاذِ الْآلَاتِ وَحُسْنِ الصَّنْعَةِ .

ثُمَّ أَنَّ بِحَارَهَا لَا يَمْتَزِجُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، كَمَا قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ . فَتَعَايَنَ مُنْتَهَى بَحْرِ الذَّهَبِ تَصْطَفِقُ أَمْوَاجُهُ ، وَيُبَاشِرُهُ بِالْمُجَاوَرَةِ بَحْرُ الْحَدِيْدِ : فَلَا يَدْخُلُ مِنْ وَاحِدٍ فِي الْآخَرِ شَيْءٌ . وَمَاؤُهُمْ أَلْطَفُ مِنَ الْهَوَاءِ ، فِي الْحَرَكَةِ وَالسَّيَلَانِ ؛ وَهُوَ ، مِنَ الصَّفَاءِ ، بِحَيْثُ أَنْ لَا يَخْفَى عَنْكَ مِنْ دَوَابِّهِ ، وَلَا مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي يَجْرِي الْبَحْرُ عَلَيْهَا ، شَيْءٌ . فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْرَبَ مِنْهُ وَجَدْتَ لَهُ مِنَ اللَّذَّةِ مَا لَا تَجِدُهُ لِمَشْرُوْبٍ أَصْلًا » .

« وَخَلْقُهَا يَنْبُتُوْنَ فِيْهَا كَسَائِرِ النَّبَاتَاتِ ، مِنْ غَيْرِ تَنَاسُلٍ ؛ بَلْ يَتَكَوَّنُوْنَ مِنْ أَرْضِهَا تَكَوُّنَ الْحَشَرَاتِ عِنْدَنَا . وَلَا يَنْعَقِدُ ، مِنْ مَائِهِمْ ، فِي نِكَاحِهِمْ ، وَلَدٌ . وَإِنَّ نِكَاحَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِمُجَرَّدِ الشَّهْوَةِ وَالنَّعِيْمِ . وَأَمَّا مَرَاكِبُهُمْ فَتَعْظُمُ وَتَصْغُرُ ، بِحَسَبِ مَا يُرِيْدُهُ الرَّاكِبُ . وَإِذَا سَافَرُوْا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، فَإِنَّهُمْ يُسَافِرُوْنَ بَرًّا وَبَحْرًا . وَسُرْعَةُ مَشْيِهِمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أَسْرَعُ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ لِلْمُبْصَرِ » .

« وَخَلْقُهَا مُتَفَاوِتُوْنَ فِي الْأَحْوَالِ : فَفِيْهِمْ مَنْ تَغْلُبُ عَلَيْهِمُ الشَّهَوَاتُ ؛ وَفِيْهِمْ مَنْ يَغْلُبُ عَلَيْهِمْ تَعْظِيْمُ جَنَابِ الْحَقِّ . – وَرَأَيْتُ فِيْهَا أَلْوَانًا لَا أَعْرِفُهَا فِي أَلْوَانِ الدُّنْيَا . وَرَأَيْتُ فِيْهَا مَعَادِنَ تُشْبِهُ الذَّهَبَ ، وَمَا هِيَ بِذَهَبٍ وَلَا نُحَاسٍ . وَ (رَأَيْتُ فِيْهَا) أَحْجَارًا مِنَ اللَّآلِيءِ يَنْفُذُهَا الْبَصَرُ لِصَفَائِهَا ، شَفَّافَةً ، مِنَ الْيَوَاقِيْتِ الْحُمْرِ » .

(عَجَائِبُ أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ)

« وَمِنْ أَعْجَبِ مَا فِيْهَا إِدْرَاكُ الْأَلْوَانِ فِي الْأَجْسَامِ السُّفْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ كَالْهَوَاءِ . وَيَتَعَلَّقُ الْإِدْرَاكُ بِأَلْوَانِهَا ، كَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَلْوَانِ الَّتِي فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيْفَةِ . – وَعَلَى أَبْوَابِ مَدَائِنِهَا عُقُوْدٌ مِنَ الْأَحْجَارِ الْيَاقُوْتِيَّةِ ، كُلُّ حَجَرٍ مِنْهَا يَزِيْدُ عَلَى الْخَمْسِ مِائَةَ ذِرَاعٍ . وَعُلُوُّ الْبَابِ فِي الْهَوَاءِ عَظِيْمٌ . وَعَلَيْهِ مُعَلَّقٌ مِنَ الْأَسْلِحَةِ وَالْعُدَدِ مَا لَوِ اجْتَمَعَ مُلْكُ الْأَرْضِ كُلُّهَا مَا وَفَّى بِهَا » .

« وَعِنْدَهُمْ ظُلْمَةٌ وَنُوْرٌ مِنْ غَيْرِ شَمْسٍ تَتَعَاقَبُ ؛ وَبِتَعَاقُبِهِمَا يَعْرِفُوْنَ الزَّمَانَ . وَظُلْمَتُهُمْ لَا تَحْجُبُ الْبَصَرَ عَنْ مُدْرَكِهِ ، كَمَا لَا يَحْجُبُهُ النُّوْرُ . وَيَغْزُوْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ غَيْرِ شَحَنَاءٍ وَلَا عَدَاوَةٍ وَلَا فَسَادِ بَنِيَّةٍ . وَإِذَا سَافَرُوْا فِي الْبَحْرِ وَغَرِقُوْا ، لَا يَعْدُوْ عَلَيْهِمُ الْمَاءُ كَمَا يَعْدُوْ عَلَيْنَا ، بَلْ يَمْشُوْنَ فِيْهِ كَمَشْيِ دَوَابِّهِ ، حَتَّى يَلْحَقُوْنَ (= يَلْحَقُوْا) بِالسَّاحِلِ . وَتَحُلُّ بِتِلْكَ الْأَرْضِ زَلَازِلُ ، لَوْ حُلَّتْ بِنَا لَانْقَلَبَتِ الْأَرْضُ ، وَهَلَكَ مَا كَانَ عَلَيْهَا » .

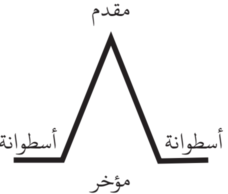
وَقَالَ : « لَقَدْ كُنْتُ يَوْمًا مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ – فِي حَدِيْثٍ . وَجَاءَتْ زَلْزَلَةٌ شَدِيْدَةٌ بِحَيْثُ إِنِّي رَأَيْتُ الْأَبْنِيَةَ تَتَحَرَّكُ كُلُّهَا تَحَرُّكًا لَا يَقْدِرُ الْبَصَرُ يَتَمَكَّنُ مِنْ رُؤْيَتِهَا ، لِسُرْعَةِ الْحَرَكَةِ مُرُوْرًا وَكُرُوْرًا ؛ وَمَا عِنْدَنَا خَبَرٌ (بِهٰذَا كُلِّهِ) ؛ وَكَأَنَّا عَلَى الْأَرْضِ ، قِطْعَةٌ مِنْهَا ؛ إِلَى أَنْ فَرَغَتِ الزَّلْزَلَةُ . فَلَمَّا فَرَغَتْ ، وَسَكَنَتِ الْأَرْضُ ، أَخَذَتِ الْجَمَاعَةُ بِيَدِي ، وَعَزَّتْنِي فِي ابْنَةٍ لِي اسْمُهَا فَاطِمَةٌ . فَقُلْتُ لِلْجَمَاعَةِ : « إِنِّي تَرَكْتُهَا فِي عَافِيَةٍ عِنْدَ وَالِدَتِهَا » . قَالُوْا : « صَدَقْتَ ! وَلٰكِنْ هٰذِهِ الْأَرْضُ مَا تُزَلْزِلُ بِنَا ، وَعِنْدَنَا أَحَدٌ ، إِلَّا مَاتَ ذٰلِكَ الشَّخْصُ ، أَوْ مَاتَ لَهُ أَحَدٌ ؛ وَإِنَّ هٰذِهِ الزَّلْزَلَةَ لِمَوْتِ اِبْنَتِكَ . فَانْظُرْ فِي أَمْرِهَا » .

« فَقَعَدْتُ مَعَهُمْ مَا شَاءَ اللهُ . وَصَاحِبِي يَنْتَظِرُنِي . فَلَمَّا أَرَدْتُ فِرَاقَهُمْ مَشَوْا مَعِي إِلَى فَمِّ السِّكَّةِ ، وَأَخَذُوْا خِلْعَتَهُمْ ، وَجِئْتُ إِلَى بَيْتِي . فَلَقِيْتُ صَاحِبِي ، فَقَالَ لِي : إِنَّ فَاطِمَةَ تُنَازِعُ . فَدَخَلْتُ عَلَيْهَا ، فَقَضَتْ . وَكُنْتُ مُجَاوِرًا بِمَكَّةَ . فَجَهَّزْنَاهَا وَدَفَنَّاهَا بِالْمُعَلَّى » . – فَهٰذَا مِنْ أَعْجَبِ مَا أُخْبِرْتُ عَنْ تِلْكَ الْأَرْضِ .

(قَالَ) : « وَرَأَيْتُ بِهَا كَعْبَةً يَطُوْفُ بِهَا أَهْلُهَا ، غَيْرَ مَكْسُوَّةٍ ؛ وَتَكُوْنُ أَكْبَرَ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي بِمَكَّةَ ، ذَاتَ أَرْكَانٍ أَرْبَعَةٍ . تُكَلِّمُهُمْ إِذَا طَافُوْا بِهَا ، وَتُحَيِّيْهِمْ ، وَتُفِيْدُهُمْ عُلُوْمًا لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ » .

« وَرَأَيْتُ فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ بَحْرًا مِنْ تُرَابٍ ، يَجْرِي مِثْلُ مَا يَجْرِي الْمَاءُ . وَرَأَيْتُ حِجَارَةً صِغَارًا وَكِبَارًا ، يَجْرِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ كَمَا يَجْرِي الْحَدِيْدُ إِلَى الْمِغْنَاطِيْسِ ؛ فَتَتَأَلَّفُ هٰذِهِ ، وَلَا يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ بِطَبْعِهِ ، إِلَّا إِنْ فَصَلَهَا فَاصِلٌ مِثْلُ مَا يُفْصَلُ الْحَدِيْدُ عَنِ الْمُغْنَاطِيْسِ ، لَيْس فِي قُوَّتِهِ أَنْ يَمْتَنِعَ . فَإِذَا تُرِكَتْ (حِجَارَةُ هٰذِهِ الْأَرْضِ) وَطَبْعَهَا ، جَرَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، عَلَى مِقْدَارٍ ، مِنَ الْمِسَاحَةِ ، مَخْصُوْصٍ ، فَتُضَمُّ هٰذِهِ الْحِجَارَةُ ، بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَيَنْشَأُ مِنْهَا صُوْرَةَ سَفِيْنَةٍ » .

« وَرَأَيْتُ مِنْهَا مَرْكَبًا صَغِيْرًا وَشِيْنِيَيْنِ . فَإِذَا الْتَأَمَتِ السَّفِيْنَةُ مِنْ تِلْكَ الْحِجَارَةِ ، رَمَوْا بِهَا فِي بَحْرِ التُّرَابِ وَرَكَبُوْا فِيْهَا وَسَافَرُوْا حَيْثُ يَشْتَهُوْنَ مِنَ الْبِلَادِ . غَيْرُ أَنَّ قَاعَ السَّفِيْنَةِ مِنْ رَمْلٍ أَوْ تُرَابٍ ، يَلْصَقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ لُصُوْقَ الْخَاصِّيَّةِ . فَمَا رَأَيْتُ ، فِيْمَا رَأَيْتُ ، أَعْجَبُ مِنْ جَرَيَانِ هٰذِهِ السُّفُنِ فِي ذٰلِكَ الْبَحْرِ . وَصُوْرَةُ الْإِنْشَاءِ ، فِي الْمَرَاكِبِ ، سَوَاءٌ . غَيْرُ أَنَّ لَهُمْ فِي جَنَاحَيْ السَّفِيْنَةِ ، مِمَّا يَلِي مُؤَخِّرَهَا ، أُسْطُوَانِتَيْنِ عَظِيْمَتَيْنِ ، تَعْلُوْ الْمَرْكَبَ أَكْثَرَ مِنَ الْقَامَةِ . وَأَرْضُ الْمُرَكَّبِ ، مِنْ جِهَةِ مُؤَخِّرِهِ ، مَا بَيْنَ الْأُسْطُوانَتَيْنِ ، – مَفْتُوْحٌ ، مُتَسَاوٍ مَعَ الْبَحْرِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيْهِ مِنْ رَمْلِ ذٰلِكَ الْبَحْرِ شَيْءٌ أَصْلًا بِالْخَاصِّيَّةِ . وَهٰذَا شَكْلُهُ :



(مَدَائِنُ أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ)

« وَفِي هٰذِهِ الْأَرْضِ مَدَائِنٌ تُسَمَّى مَدَائِنُ النُّوْرِ ، لَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْعَارِفِيْنَ إِلَّا كُلُّ مُصْطَفٍى مُخْتَارٍ . وَهِيَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَدِيْنَةٍ ؛ وَهِيَ عَلَى سَطْحٍ وَاحِدٍ ؛ وَبُنْيَانُهَا عَجِيْبٌ .

وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ عَمَدُوْا إِلَى مَوْضِعٍ فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ ، فَبَنُوْا فِيْهِ مَدِيْنَةً صَغِيْرَةً لَهَا أَسْوَارٌ عَظِيْمَةٌ ، يَسِيْرُ الرَّاكِبُ فِيْهَا ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدُوْرَ بِهَا ، مَسِيْرَةَ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ . فَلَمَّا أَقَامُوْهَا جَعَلُوْهَا خِزَانَةً لِمَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ وَعُدَدِهِمْ . وَأَقَامُوْا عَلَى بُعْدٍ ، مِنْ جَوَانِبِهَا ، أَبْرَاجًا تَعْلُوْ عَلَى أَبْرَاجِ الْمَدِيْنَةِ بِمَا دَارَ بِهَا ؛ وَمَدُّوْا الْبِنَاءَ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى صَارَ لِلْمَدِيْنَةِ كَالسَّقْفِ لِلْبَيْتِ . وَجَعَلُوْا ذٰلِكَ السَّقْفَ أَرْضًا بَنُوْا عَلَيْهِ مَدِيْنَةً أَعْظَمَ مِنَ الَّتِي بَنَوْا أَوَّلًا ؛ وَعَمَرُوْهَا وَاتَّخَذُوْهَا مَسْكَنًا . فَضَاقَتْ عَنْهُمْ ، فَبَنُوْا عَلَيْهَا مَدِيْنَةً أُخْرَى أَكْبَرَ مِنْهَا . وَمَا زَالَ يَكْثُرُ عُمَّارُهَا ، وَهُمْ يَصْعَدُوْنَ بِالْبُنْيَانِ طَبَقَةً فَوْقَ أُخْرَى ، حَتَّى بَلَغَتْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَدِيْنَةٍ » .

« ثُمَّ إِنِّي غِبْتُ عَنْهُمْ مُدَّةً . ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى . فَوَجَدْتُهُمْ قَدْ زَادُوْا مَدِيْنَتَيْنِ ، وَاحِدَةٌ فَوْقَ أُخْرَى » .

(مُلُوْكُ أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ)

(قَالَ) : « وَلَهُمْ مُلُوْكٌ فِيهِمْ لُطْفٌ وَحَنَّانٌ . صَحِبْتُ مِنْهُمْ جَمَاعَةً . مِنْهُمُ التَّالِي وَهُوَ التَّابِعُ . بِمَنْزِلَةِ الْقَيْلِ فِي حِمْيَرٍ . وَلَمْ أَرَ مَلِكًا أَكْثَرَ مِنْهُ ذِكْرًا لِلّٰهِ – تَعَالَى ! – . قَدْ شَغَلَهُ ذِكْرُ اللهِ عَنْ تَدْبِيْرِ مُلْكِهِ . اِنْتَفَعْتُ بِهِ . وَكَانَ كَثِيْرَ الْمُجَالَسَةِ لِي . – وَمِنْهُمْ ذُوْ الْعُرْفِ . وَهُوَ مَلِكٌ عَظِيْمٌ . لَمْ أَرَ فِي مُلُوْكِ الْأَرْضِ أَكْثَرَ مَنْ تَأْتِي إِلَيْهِ الرُّسُلُ مِنَ الْمُلُوْكِ مِنْهُ . وَهُوَ كَثِيْرُ الْحَرَكَةِ . هَيِّنٌ . لَيِّنٌ . يَصِلُ إِلَيْهِ كُلُّ أَحَدٍ . يَتَلَطَّفُ فِي النُّزُوْلِ . لٰكِنَّهُ إِذَا غَضِبَ ، لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ . أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا شَاءَ » .

« وَرَأَيْتُ لِبَحْرِهَا مَلِكًا مَنِيْعَ الْحِمَى يُسَمَّى السَّابِحَ . هُوَ قَلِيْلُ الْمُجَالَسَةِ مَعَ مَنْ يَقْصُدُ إِلَيْهِ . وَمَا لَهُ ذٰلِكَ الْاِلْتِفَاتُ إِلَى أَحَدٍ . غَيْرَ أَنَّهُ مَعَ مَا يَخْطُرُ لَهُ ، لَا مَعَ مَا يُرَادُ مِنْهُ . وَيُجَاوِرُهُ سُلْطَانٌ عَظِيْمٌ ، اِسْمُهُ السَّابِقُ . إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ الْوَافِدُ ، قَامَ إِلَيْهِ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَبَشَّ فِي وَجْهِهِ ، وَأَظْهَرَ السُّرُوْرَ بِقُدُوْمِهِ ، وَقَامَ لَهُ بِجَمِيْعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

يَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ . فَقُلْتُ لَهُ (مَا السَّبَبُ) فِي ذٰلِكَ ؟ فَقَالَ لِي : أَكْرَهُ أَنْ أَرَى فِي وَجْهِ السَّائِلِ ذِلَّةَ السُّؤَالِ لِمَخْلُوْقٍ ، غَيْرَةً أَنْ يَذِلَّ أَحَدٌ لِغَيْرِ اللهِ . وَمَا كُلُّ أَحَدٍ يَقِفُ مَعَ اللهِ عَلَى قَدَمِ التَّوْحِيْدِ . وَإِنَّ أَكْثَرَ الْوُجُوْهِ مَصْرُوْفَةٌ إِلَى الْأَسْبَابِ الْمَوْضُوْعَةِ ، مَعَ الْحِجَابِ عَنِ اللهِ . فَهٰذَا يَجْعَلُنِي أَنْ أُبَادِرَ إِلَى مَا تَرَى مِنْ كَرَامَةِ الْوَافِدِ » .

قَالَ : « وَدَخَلْتُ عَلَى مَلِكٍ آخَرٍ يُدْعَى الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللهِ . لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْوَافِدِ عَلَيْهِ لِاسْتِيْلَاءِ عُظْمَةِ الْحَقِّ عَلَى قَلْبِهِ . فَلَا يَشْعُرُ بِالْوَافِدِ . وَمَا يَفِدُ عَلَيْهِ ، مَنْ يَفِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَارِفِيْنَ ، إِلَّا لِيَنْظُرُوْا إِلَى حَالِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا . تَرَاهُ وَاقِفًا ، قَدْ عَقَدَ يَدَيْهِ إِلَى صَدْرِهِ ، عَقْدَ الْعَبْدِ الذَّلِيْلِ الْجَانِي ، مُطْرِقًا إِلَى مَوْضِعِ قَدَمَيْهِ ؛ لَا تَتَحَرَّكُ مِنْهُ شَعْرَةٌ ، وَلَا يَضْطَرِبُ مِنْهُ مَفْصِلٌ . كَمَا قِيْلَ فِي قَوْمٍ ، هٰذِهِ حَالَتُهُمْ مَعَ سُلْطَانِهِمْ :

كَأَنَّمَا الطَّيْرُ مِنْهُمْ فَوْقَ أَرْؤُسِهِمْ ... لَا خَوْفَ ظُلْمٍ وَلٰكِنْ خَوْفَ إِجْلَالِ

يَتَعَلَّمُ الْعَارِفُوْنَ مِنْهُ حَالَ الْمُرَاقَبَةِ » .

قَالَ : « وَرَأَيْتُ مَلِكًا يُدْعَى بِالرَّادِعِ . مُهِيْبَ الْمَنْظَرِ ، لَطِيْفَ الْمَخْبَرِ ، شَدِيْدَ الْغَيْرَةِ . دَائِمَ الْفِكْرَةِ فِيْمَا كَلَّفَ النَّظَرُ فِيْهِ . إِذَا رَأَى أَحَدًا يَخْرُجُ عَنْ طَرِيْقِ الْحَقِّ ، رَدَّهُ إِلَى الْحَقِّ » . –

قَالَ : « صَحِبْتُهُ ، وَانْتَفَعْتُ بِهِ . وَجَالَسْتُ مِنْ مُلُوْكِهِمْ كَثِيْرًا ، وَرَأَيْتُ مِنْهُمْ مِنَ الْعَجَائِبِ ، مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى مَا عِنْدَهُمْ مِنْ تَعْظِيْمِ اللهِ ، مَا لَوْ سَطَرْنَاهُ لَأَعْيَا الْكَاتِبُ وَالسَّامِعُ . فَاقْتَصَرْنَا عَلَى هٰذَا الْقَدْرِ مِنْ عَجَائِبِ هٰذِهِ الْأَرْضِ . وَمَدَائِنُهَا لَا تُحْصَى كَثْرَةً . وَمَدَائِنُهَا أَكْثَرُ مِنْ ضِيَاعِهَا . وَجَمِيْعُ مَنْ يَمْلِكُهَا مِنَ الْمُلُوْكِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ سُلْطَانًا . مِنْهُمْ مَنْ ذَكَرْنَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَكَتْنَا عَنْهُ . وَلِكُلِّ سُلْطَانٍ سِيْرَةٌ وَأَحْكَامٌ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ » .

(تَرْتِيْبُ مَمْلَكَةِ أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ)

قَالَ : « وَحَضَرْتُ يَوْمًا فِي دِيْوَانِهِمْ لِأَرَى تَرْتِيْبَهُمْ . فَمِمَّا رَأَيْتُ أَنَّ الْمَلِكَ مِنْهُمْ هُوَ الَّذِي يَقُوْمُ بِرِزْقِ رَعِيَّتِهِ ، بَلَغُوْا مَا بَلَغُوْا . فَرَأَيْتُهُمْ إِذَا اسْتَوَى الطَّعَامُ ، وَقَفَ خَلْقٌ لَا يُحْصَى عَدَدُهُمْ كَثْرَةً ، يُسَمُّوْنَهُمُ الْجُبَاةَ ، وَهُمْ رُسُلُ أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ . فَيُعْطِيْهِ الْأَمِيْنُ مِنَ الْمَطْبَخِ عَلَى قَدْرِ عَائِلَتِهِ ، وَيَأْخُذُهُ الْجَابِي وَيَنْصَرِفُ » .

« وَأَمَّا الَّذِي يُقَسِّمُهُ (أَيْ يُقَسِّمُ رِزْقَ الرَّعِيَّةِ) عَلَيْهِمْ ، (فَهُوَ) شَخْصٌ وَاحِدٌ لَا غَيْرَ . لَهُ مِنَ الْأَيْدِي عَلَى قَدْرِ الْجُبَاةِ . فَيَغْرِفُ فِي الزَّمَنِ الْوَاحِدِ لِكُلِّ شَخْصٍ طَعَامَهُ فِي وِعَائِهِ وَيَنْصَرِفُ ؛ وَمَا فَضَلَ مِنْ ذٰلِكَ (الطَّعَامِ) يَرْفَعُ إِلَى خِزَانَةٍ . فَإِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ ذٰلِكَ الْقَاسِمُ ، دَخَلَ الْخِزَانَةَ وَأَخَذَ مَا فَضَلَ (مِنَ الطَّعَامِ) وَخَرَجَ بِهِ إِلَى الصَّعَالِيْكِ الَّذِيْنَ عَلَى بَابِ دَارِ الْمَلِكِ ، فَيُلْقِيْهِ إِلَيْهِمْ ، فَيَأْكُلُوْهُ . وَهٰكَذَا فِي كُلِّ يَوْمٍ » .

« وَلِكُلِّ مَلِكٍ شَخْصٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ ، هُوَ (قَائِمٌ) عَلَى الْخِزَانَةِ ، يَدْعُوْنَهُ الْخَازِنَ ، بِيَدِهِ جَمِيْعُ مَا يَمْلِكُهُ ذٰلِكَ الْمَلِكُ . وَمِنْ شَرْعِهِمْ ، أَنَّهُ إِذَا وَلَّاهُ (الْمَلِكُ ، أَيْ إِذَا وَلَّى الْخَازِنَ) لَيْسَ لَهُ عَزْلُهُ (أَيْ لَيْسَ لِلْمَلِكِ عَزْلُ الْخَازِنِ بَعْدَ تَوْلِيَّتِهِ) .

وَرَأَيْتُ فِيْهِمْ شَخْصًا أَعْجَبَتْنِي حَرَكَاتُهُ ؛ وَهُوَ جَالِسٌ إِلَى جَانِبِ الْمَلِكِ ؛ وَكُنْتُ عَلَى يَمِيْنِ الْمَلِكِ . فَسَأَلْتُهُ : مَا مَنْزِلَةُ هٰذَا عِنْدَكُمْ ؟ فَتَبَسَّمَ وَقَالَ : أَعْجَبَكَ ؟ قُلْتُ لَهُ : نَعَمْ ! قَالَ : هٰذَا الْمِعْمَارُ الَّذِي يَبْنِي لَنَا الْمَسَاكِنَ وَالْمُدُنَ ؛ وَجَمِيْعُ مَا تَرَاهُ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ . – وَرَأَيْتُ فِي سُوْقِ صَيَارِفِهِمْ أَنَّهُ لَا يَنْتَقِدُ لَهُمْ سِكَّتَهُمْ إِلَّا وَاحِدٌ فِي الْمَدِيْنَةِ كُلِّهَا ، وَفِيْمَا تَحْتَ يَدِ ذٰلِكَ الْمَلِكِ مِنَ الْمُدُنِ » . قَالَ : « وَهٰكَذَا رَأَيْتُ سِيْرَتَهُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ : لَا يَقُوْمُ بِهِ إِلَّا وَاحِدٌ ، لٰكِنْ لَهُ وَزَعَةٌ » . –

(اَلْمُسْتَحِيْلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا جَائِزٌ وَاقِعٌ فِي أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ)

« وَأَهْلُ هٰذِهِ الْأَرْضِ (= أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ) أَعْرَفُ النَّاسِ بِاللهِ . وَكُلُّ مَا أَحَالَهُ الْعَقْلُ ، بِدَلِيْلِهِ عِنْدَنَا ، وَجَدْنَاهُ فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ (= أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ) مُمْكِنًا قَدْ وَقَعَ . وَ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ .

فَعَلِمْنَا أَنَّ الْعُقُوْلَ قَاصِرَةٌ ، وَأَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى جَمْعِ الضِّدَّيْنِ ، وَوُجُوْدِ الْجِسْمِ فِي مَكَانَيْنِ ، وَقِيَامِ الْعَرَضِ بِنَفْسِهِ ، وَانْتِقَالِهِ ، وَقِيَامِ الْمَعْنَى بِالْمَعْنَى . وَكُلُّ حَدِيْثٍ وَآيَةٍ وُرِدَتْ عِنْدَنَا ، مِمَّا صَرَفَهَا الْعَقْلُ عَنْ ظَاهِرِهَا ، وَجَدْنَاهَا عَلَى ظَاهِرِهَا فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ . وَكُلُّ جَسَدٍ يَتَشَكَّلُ فِيْهِ الرُّوْحَانِيُّ - مِنْ مَلَكٍ وَجِنٍّ - ، وَكُلُّ صُوْرَةٍ يَرَى الْإِنْسَانُ فِيْهَا نَفْسَهُ فِي النَّوْمِ : فَمِنْ أَجْسَادِ هٰذِهِ الْأَرْضِ (= أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ) . لَهَا (أَيْ لِلْأَرْوَاحِ الْبَشَرِيَّةِ) مِنْ هٰذِهِ الْأَرْضِ ، مَوْضِعٌ مَخْصُوْصٌ (فِي أَرْضِ الْحَقِيْقَةِ) . وَلَهُمْ (أَيْ لِسُكَّانِ أَرضِ الْحَقِيْقَةِ) رَقَائِقُ مُمْتَدَّةٌ إِلَى جَمِيْعِ الْعَالَمِ ، وَعَلَى كُلِّ رَقِيْقَةٍ أَمِيْنٌ ؛ فَإِذَا عَايَنَ ذٰلِكَ الْأَمِيْنُ رُوْحًا مِنَ الْأَرْوَاحِ قَدِ اسْتَعَدَّ لِصُوْرَةٍ مِنْ هٰذِهِ الصُّوَرِ الَّتِي بِيَدِهِ ، كَسَاهَا إِيَّاهَا : كَصُوْرَةِ دِحْيَةَ لِجِبْرِيْلَ » .

« وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ الْأَرْضَ مَدَّهَا الْحَقُّ - تَعَالَى ! - فِي الْبَرْزَخِ ، وَعَيَّنَ مِنْهَا مَوْضِعًا لِهٰذِهِ الْأَجْسَادِ الَّتِي تَلْبَسُهَا الرُّوْحَانِيَّاتُ ، وَتَنْتَقِلُ إِلَيْهَا النُّفُوْسُ عِنْدَ النَّوْمِ وَبَعْدَ الْمَوْتِ : فَنَحْنُ مِنْ بَعْضِ عَالَمِهَا . وَمِنْ هٰذِهِ الْأَرْضِ طَرَفٌ يَدْخُلُ فِي الْجَنَّةِ يُسَمَّى السُّوْقَ (= سُوْقَ الصُّوَرِ) .

وَنَحْنُ نُبَيِّنُ لَكَ مِثَالَ صُوْرَةِ امْتِدَادِ الطَّرَفِ الَّذِي يَلِي الْعَالَمَ مِنْ هٰذِهِ الْأَرْضِ : وَذٰلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا نَظَرَ إِلَى السِّرَاجِ أَوِ الشَّمْسِ أَوِالْقَمَرِ ؛ ثُمَّ حَالَ بِأَهْدَابِ أَجْفَانِهِ بَيْنَ النَّاظِرِ وَالْجِسْمِ الْمُسْتَنِيرِ ، - يَبْصُرُ مِنْ ذٰلِكَ الْجِسْمِ الْمُسْتَنِيْرِ إِلَى عَيْنَيْهِ شِبْهَ الْخُطُوْطِ مِنَ النُّوْرِ ، تَتَّصِلُ مِنَ السِّرَاجِ إِلَى عَيْنَيْهِ مُتَعَدِّدَةً ؛ فَإِذَا رَفَعَ تِلْكَ الْأَهْدَابَ مِنْ مُقَابَلَةِ النَّاظِرِ ، قَلِيْلًا قَلِيْلًا ، يَرَى تِلْكَ الْخُطُوْطَ الْمُمْتَدَّةَ تَنْقَبِضُ إِلَى الْجِسْمِ الْمُسْتَنِيْرِ » .

« فَالْجِسْمُ الْمُسْتَنِيرُ ، مِثَالٌ لِلْمَوْضِعِ الْمُعَيَّنِ مِنْ هٰذِهِ الْأَرْضِ لِتِلْكَ الصُّوَرِ ؛ وَالنَّاظِرُ ، مِثَالُ الْعَالَمِ ؛ وَامْتِدَادُ تِلْكَ الْخُطُوْطِ (هُوَ) كَصُوَرِ الْأَجْسَادِ الَّتِي تَنْتَقِلُ إِلَيْهَا ، فِي النَّوْمِ ، وَبَعْدَ الْمَوْتِ ، وَفِي سُوْقِ الْجَنَّةِ (= سُوْقِ الصُّوَرِ) ، وَالَّتِي تَلْبَسُهَا الْأَرْوَاحُ . وَقَصْدُكَ إِلَى رُؤْيَةِ تِلْكَ الْخُطُوْطِ بِذٰلِكَ الْفِعْلِ ، مِنْ إِرْسَالِ الْأَهْدَابِ الْحَائِلَةِ بَيْنَ النَّاظِرِ وَالْجِسْمِ النَّيِّرِ ، (هُوَ) مِثَالُ الْاِسْتِعْدَادِ . وَانْبِعَاثِ تِلْكَ الْخُطُوْطِ ، عِنْدَ هٰذِهِ الْحَالِ ، (هُوَ) اِنْبِعَاثُ الصُّوَرِ عِنْدَ الْاِسْتِعْدَادِ . وَانْقِبَاضُ الْخُطُوْطِ إِلَى الْجِسْمِ النَّيِّرِ ، عِنْدَ رَفْعِ الْحَائِلِ ، (هُوَ) رُجُوْعُ الصُّوَرِ إِلَى تِلْكَ الْأَرْضِ عِنْدَ زَوَالِ الْاِسْتِعْدَادِ » . - وَلَيْسَ بَعْدَ هٰذَا الْبَيَانِ بَيَانٌ ! وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي عَجَائِبِ هٰذِهِ الْأَرْضِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْمَعَارِفِ ، فِي كِتَابٍ كَبِيْرٍ لَنَا فِيْهَا خَاصَّةً . -

اِنْتَهَى الْجُزْءُ الْحَادِي عَشَرَ

الجزء الثاني عشر



الْبَابُ التَّاسِعُ :
فِي مَعْرِفَةِ وُجُوْدِ الْأَرْوَاحِ الْمَارِجِيَّةِ النَّارِيَّةِ

مَرَجَ النَّـارَ وَالنَّبَاتَ فَقَامَتْ صُوْرَةُ الْجِنِّ بَرْزَخًا بَيْنَ شَيْئَيْنْ
بَيْنَ رُوْحٍ مُجَسَّـمٍ ذِي مَكَـانٍ فِي حَضِيْضٍ وَبَيْنَ رُوْحٍ بِلَا أَيْنْ
فَالَّذِي قَـابَلَ التَّجَسُّمَ مِنْهَـا طَلَبَ الْقُوْتَ لِلتَّغَذِّي بِلَا مَيْنْ
وَالَّذِي قَـابَلَ الْمَلَائِكَ مِنْهَـا قَبِلَ الْقَلْبَ بِالتَّشَكُّلِ فِي الْعَيْنْ
وَلِهَـذَا يُطِيْعُ وَقْـتًا وَيَعْـصِي وَيُجَـازَى مُخَالَفُوْهُمْ بِنَـارَيْنْ

(خَلْقُ الْجَانِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسَانِ)

قَالَ اللهُ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ . وَوَرَدَ فِي الْحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُوْرٍ ؛ وَخَلَقَ اللهُ الْجَانَّ مِنْ نَارٍ ؛ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِمَّا قِيْلَ لَكُمْ » . فَأَمَّا قَوْلُهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ : « مِمَّا قِيْلَ

لَكُمْ » وَلَمْ يَقُلْ مِثْلَ مَا قَالَ فِي خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجَانِّ ، – طَلَبًا لِلْاِخْتِصَارِ ، فَإِنَّهُ « أُوْتِيَ جَوامِعَ الْكَلِمِ » ، وَهٰذَا مِنْهَا . فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ يَخْتَلِفْ أَصْلُ خَلْقِهَا ، وَلَا الْجَانُّ . وَأَمَّا الْإِنسَانُ (فَقَدِ) اخْتَلَفَ خَلْقُهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْخَلْقِ : فَخَلْقُ آدَمَ لَا يُشَبِّهُ خَلْقَ حَوَّاءَ ؛ وَخَلْقُ حَوَّاءَ لَا يُشَبِّهُ خَلْقَ سَائِرِ بَنِي آدَمَ ؛ وَخَلْقُ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – لَا يُشَبِّهُ خَلْقَ مَنْ ذَكَرْنَا . فَقَصَدَ الرَّسُوْلُ ﷺ الْاِخْتِصَارَ ، وَأَحَالَ عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ تَفْصِيْلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ . فآدَمُ مِنْ طِيْنٍ ؛ وَحَوَّاءُ مِنْ ضِلَعٍ ؛ وَعِيْسَى مِنْ نَفْخِ رُوْحِ (الْقُدُسِ) ؛ وَبَنُوْ آدَمَ مِنْ « مَاءٍ مَهِيْنٍ » .

(الْاِلْتِحَامُ الْمَعْنَوِيُّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

وَلَمَّا أَنْشَأَ اللّٰهُ الْأَرْكَانَ الْأَرْبَعَةَ ؛ وَعَلَا الدُّخَانَ إِلَى مُقَعَّرِ فَلَكِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ ؛ وَفَتَقَ فِي ذٰلِكَ الدُّخَانِ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، مَيَّزَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ ، « وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَها » بَعْدَمَا « قَدَّرَ فِي الْأَرْضِ أَقْوَاتِهَا » ، وَذٰلِكَ كُلُّهُ « فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ » . ثُمَّ قَالَ (– تَعَالَى ! –) « لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا » = أَيْ أَجِيبَا إِذَا دُعِيْتُمَا لِمَا يُرَادُ مِنْكُمَا مِمَّا أُمِّنْتُمَا عَلَيْهِ أَنْ تُبْرِزَاهُ – فَقَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِيْنَ » .

فَجَعَلَ – سُبْحَانَهُ ! – بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ اِلْتِحَامًا مَعْنَوِيًّا ، وَتَوَجُّهًا لِمَا يُرِيْدُ – سُبْحَانَهُ ! – أَنْ يُوْجِدَهُ فِي هٰذِهِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُوَلَّدَاتِ ، مِنْ مَعْدِنٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ . وَجَعَلَ الْأَرْضَ كَالْأَهْلِ ، وَجَعَلَ السَّمَاءَ كَالْبَعْلِ . وَالسَّمَاءُ تُلْقِي إِلَى الْأَرْضِ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي أُوْحِيَ اللّٰهُ فِيْهَا ، كَمَا يُلْقِي الرَّجُلُ الْمَاءَ بِالْجِمَاعِ فِي الْمَرْأَةِ ؛ وَتُبْرِزُ الْأَرْضُ عِنْدَ الْإِلْقَاءِ مَا خَبَأَهُ الْحَقُّ فِيْهَا مِنَ التَّكْوِيْنَاتِ عَلَى طَبَقَاتِهَا .

(اَلْعَنَاصِرُ الْأَرْبَعَةُ وَتَكْوِيْنُ الْجَانِّ وَالْإِنْسَانِ)

فَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ الْهَوَاءَ لَمَّا اشْتَعَلَ وَحَمِيَ ، اِتَّقَدَ مِثْلُ السِّرَاجِ . وَهُوَ اِشْتِعَالُ النَّارِ ، ذٰلِكَ اللَّهْبُ (أَيْ ذٰلِكَ اللَّهْبُ هُوَ اِشْتِعَالُ النَّارِ) ، الَّذِي هُوَ احْتِرَاقُ الْهَوَاءِ (أَيْ

النَّاشِئُ عَنِ احْتِرَاقِ الْهَوَاءِ) ، وَ (هٰذَا) هُوَ الْمَارِجُ . وَإِنَّمَا سُمِّيَ (الْجَانُّ) مَارِجًا لِأَنَّهُ نَارٌ مُخْتَلِطٌ بِهَوَاءٍ ، وَهُوَ الْهَوَاءُ الْمُشْتَعِلُ ، فَإِنَّ الْمَرْجَ (هُوَ) الْاِخْتِلَاطُ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْمَرْجُ مَرْجًا لِاخْتِلَاطِ النَّبَاتِ فِيْهِ .

فَهُوَ مِنْ عُنْصُرَيْنِ ، هَوَاءٌ وَنَارٌ . أَعْنِي الْجَانَّ . كَمَا كَانَ آدَمُ مِنْ عُنْصُرَيْنِ ، مَاءٌ وَتُرَابٌ ، عُجِنَ بِهِ (بِهِمَا) فَحَدَثَ لَهُ اِسْمُ الطِّيْنِ . كَمَا حَدَثَ لِامْتِزَاجِ النَّارِ بِالْهَوَاءِ اِسْمُ الْمَارِجِ . فَفَتَحَ – سُبْحَانَهُ ! – فِي ذٰلِكَ الْمَارِجِ صُوْرَةَ الْجَانِّ . فَبِمَا فِيْهِ مِنَ الْهَوَاءِ ، يَتَشَكَّلُ (الْجَانُّ) فِي أَيِّ صُوْرَةٍ شَاءَ ؛ وَبِمَا فِيْهِ مِنَ النَّارِ ، سَخُفَ وَعَظُمَ لُطْفُهُ . وَكَانَ فِيْهِ طَلَبُ الْقَهْرِ وَالْاِسْتِكْبَارِ وَالْعِزَّةِ ، فَإِنَّ النَّارَ أَرْفَعُ الْأَرْكَانِ مَكَانًا ؛ وَلَهُ سُلْطَانٌ عَلَى إِحَالَةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقْتَضِيْهَا الطَّبِيْعَةُ ؛ وَهُوَ السَّبَبُ الْمُوْجِبُ لِكَوْنِهِ اِسْتَكْبَرَ عَنِ السُّجُوْدِ لِآدَمَ عِنْدَمَا أَمَرَهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ ! – ، بِتَأْوِيْلٍ أَدَّاهُ أَنْ يَقُوْلَ : ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ = يَعْنِي بِحُكْمِ الْأَصْلِ الَّذِي فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَيْنَ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ .

وَمَا عَلِمَ (الْجَانُّ) أَنَّ سُلْطَانَ الْمَاءِ ، الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ ، أَقْوَى مِنْهُ : فَإِنَّهُ يُذْهِبُهُ ؛ وَأَنَّ التُّرَابَ أَثْبَتُ مِنْهُ (أَيْ مِنَ النَّارِ) لِلْبَرْدِ وَالْيُبْسِ . فَلِآدَمَ الْقُوَّةُ وَالثُّبُوْتُ ، لِغَلَبَةِ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ أَوْجَدَهُ اللهُ مِنْهُمَا ، وَإِنْ كَانَ فِيْهِ بَقِيَّةُ الْأَرْكَانِ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ لَهَا ذٰلِكَ السُّلْطَانُ ، وَهُوَ الْهَوَاءُ وَالنَّارُ كَمَا كَانَ فِي الْجَانِّ ، مِنْ بَقِيَّةِ الْأَرْكَانِ . وَلِذَا سُمِّيَ (الْجَانُّ) مَارِجًا ، وَلٰكِنْ لَيْسَ لَهَا فِي نَشْأَتِهِ ذٰلِكَ السُّلْطَانُ .

وَأُعْطِيَ آدَمُ التَّوَاضُعَ لِلطِّيْنِيَّةِ بِالطَّبْعِ ؛ فَإِنْ تَكَبَّرَ فَلِأَمْرٍ يَعْرُضُ لَهُ ، يَقْبَلُهُ بِمَا فِيْهِ مِنَ النَّارِيَّةِ ، كَمَا يَقْبَلُ اخْتِلَافَ الصُّوَرِ فِي خَيَالِهِ وَفِي أَحْوَالِهِ (لِمَا فِيْهِ) مِنَ الْهَوَائِيَّةِ . وَأَعْطَى الْجَانَّ التَّكَبُّرَ بِالطَّبْعِ لِلنَّارِيَّةِ (الَّتِي فِيْهِ) ؛ فَإِنْ تَوَاضَعَ فَلِأَمْرٍ يَعْرُضُ لَهُ ، يَقْبَلُهُ لِمَا فِيْهِ مِنَ التُّرَابِيَّةِ ، كَمَا يَقْبَلُ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِغْوَاءِ إِنْ كَانَ شَيْطَانًا ، وَالثَّبَاتَ عَلَى الطَّاعَاتِ إِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْطَانًا .

(اَلْجَانُّ عِنْدَ تِلَاوَةِ سُوْرَةِ الرَّحْمٰنِ)

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا تَلَا سُوْرَةَ « الرَّحْمٰنِ » عَلَى أَصْحَابِهِ ، قَالَ : « إِنِّي تَلَوْتُهَا عَلَى الْجِنِّ فَكَانُوْا أَحْسَنَ اسْتِمَاعًا لَهَا مِنْكُمْ ، فَكَانُوْا يَقُوْلُوْنَ : وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَاءِ رَبِّنَا نُكَذِّبُ ! إِذَا قُلْتُ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ » . (فَكَانُوْا) ثَابِتِيْنَ عَلَيْهِ مَا تَزَلْزَلُوْا عِنْدَمَا كَانَ يَقُوْلُ لَهُمْ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – فِي تِلَاوَتِهِ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وَذٰلِكَ بِمَا فِيْهِ (أَيِ الْجَانِّ) مِنَ التُّرَابِيَّةِ ، وَبِمَا فِيْهِ مِنَ الْمَائِيَّةِ (اللَّتَيْنِ) ذَهَبَتَا بِحَمِيَّةِ النَّارِيَّةِ . فَمِنْهُمُ الطَّائِعُ وَالْعَاصِي ، مِثْلُنَا ؛ وَلَهُمُ التَّشَكُّلُ فِي الصُّوَرِ كَالْمَلَائِكَةِ .

(اَلصُّوْرَةُ الْأَصْلِيَّةُ الَّتِي يُنْسَبُ إِلَيْهَا الرُّوْحَانِيُّ)

وَأَخَذَ اللهُ بِأَبْصَارِنَا عَنْهُمْ فَلَا نَرَاهُمْ ، إِلَّا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْشِفَ لِبَعْضِ عِبَادِهِ فَيَرَاهُمْ . وَلَمَّا كَانُوْا (أَيِ الْجَانُّ) مِنْ عَالَمِ السَّخَافَةِ وَاللُّطْفِ ، قَبِلُوْا التَّشْكِيْلَ فِيْمَا يُرِيْدُوْنَهُ مِنَ الصُّوَرِ الْحِسِّيَّةِ . فَالصُّوْرَةُ الْأَصْلِيَّةُ الَّتِي يُنْسَبُ إِلَيْهَا الرُّوْحَانِيُّ ، إِنَّمَا هِيَ أَوَّلُ صُوْرَةٍ قَبِلَ عِنْدَمَا أَوْجَدَهُ اللهُ ، ثُمَّ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الصُّوَرُ ، بِحَسَبِ مَا يُرِيْدُ اللهُ أَنْ يَدْخُلَ فِيْهَا . وَلَوْ كَشَفَ اللهُ عَنْ أَبْصَارِنَا حَتَّى نَرَى مَا تُصَوِّرُهُ الْقُوَّةُ الْمُصَوِّرَةُ ، الَّتِي وَكَّلَهَا اللهُ بِالتَّصْوِيْرِ ، فِي خَيَالِ الْمُتَخَيِّلِ مِنَّا ، – لَرَأَيْتَ ، مَعَ الْآنَاتِ ، الْإِنْسَانَ فِي صُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ ، لَا يُشْبِهُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

(التَّنَاسُلُ فِي الْجَانِّ وَالْإِنْسَانِ)

وَلَمَّا نُفِخَ الرُّوْحُ فِي اللَّهَبِ ، وَهُوَ (أَيِ اللَّهَبُ) كَثِيْرُ الْاِضْطِرَابِ لِسَخَافَتِهِ – زَادَهُ النَّفْخُ اِضْطِرَابًا – وَغَلَبِ الْهَوَاءِ عَلَيْهِ ، وَعَدَمِ قَرَارِهِ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ، – ظَهَرَ عَالَمُ الْجَانِّ عَلَى تِلْكَ الصُّوْرَةِ . وَكَمَا وَقَعَ التَّنَاسُلُ فِي الْبَشَرِ بِإِلْقَاءِ الْمَاءِ فِي الرَّحِمِ ، فَكَانَتِ

الذُّرِّيَّةُ وَالتَّوَالُدُ فِي هٰذَا الصَّنْفِ الْبَشَرِيّ الْآدَمِيّ ، – كَذٰلِكَ وَقَعَ التَّنَاسُلُ فِي الْجَانِّ بِإِلْقَاءِ الْهَوَاءِ فِي رَحِمِ الْأُنْثَى مِنْهُمْ ، فَكَانَتِ الذُّرِّيَّةُ وَالتَّوَالُدُ فِي صَنْفِ الْجَانِّ . وَكَانَ وُجُوْدُهُمْ بِالْقَوْسِ ، وَهُوَ نَارِيٌّ . هٰكَذَا ذَكَرَ الْوَارِدُ – حَفَظَهُ اللهُ ! – .

(مَا بَيْنَ خَلْقِ الْجَانِّ وَالْإِنْسَانِ مِنَ السِّنِيْنَ)

فَكَانَ بَيْنَ خَلْقِ الْجَانِّ وَخَلْقِ آدَمَ سِتُّوْنَ أَلْفَ سَنَةٍ . وَكَانَ يَنْبَغِي ، عَلَى مَا يَزْعَمُ بَعْضُ النَّاسِ ، أَنْ يَنْقَطِعَ التَّوَالُدُ مِنَ الْجَانِّ بَعْدَ اِنْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ آلَافِ سَنَةٍ ، وَ (أَنْ) يَنْقَضِيَ التَّوَالُدُ مِنَ الْبَشَرِ بَعْدَ اِنْقِضَاءِ سَبْعَةِ آلَافِ سَنَةٍ . وَلَمْ يَقَعِ الْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ . بَلِ الْأَمْرُ رَاجِعٌ إِلَى مَا يُرِيْدُهُ اللهُ . فَالتَّوَالُدُ فِي الْجِنِّ ، إِلَى الْيَوْمَ بَاقٍ . وَكَذٰلِكَ (التَّوَالُدُ إِلَى الْيَوْمَ بَاقٍ) فِيْنَا . وَلَمْ يُتَحَقَّقْ مَبْدَأُ آدَمَ (وَ) كَمْ لَهُ (أَيْ لِذُرِّيَّتِهِ) مِنَ السِّنِيْنَ ؟ وَكَمْ بَقِيَ إِلَى انْقِضَاءِ الدُّنْيَا وَفَنَاءِ الْبَشَرِ عَنْ ظَهْرِهَا وَانْقِلَابِهِمْ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ؟ وَلَيْسَ هٰذَا بِمَذْهَبِ الرَّاسِخِيْنَ فِي الْعِلْمِ ، وَإِنَّمَا قَالَ بِهِ شِرْذِمَةٌ لَا يُعْتَدُّ بِقَوْلِهَا .

(اَلْجَانُّ بَرْزَخٌ بَيْنَ الْمَلَكِ وَالْإِنْسَانِ)

فَالْمَلَائِكَةُ أَرْوَاحٌ مَنْفُوْخَةٌ فِي أَنْوَارٍ ؛ وَالْجَانُّ أَرْوَاحٌ مَنْفُوْخَةٌ فِي رِيَاحٍ ؛ وَالْأُنَاسِي أَرْوَاحٌ مَنْفُوْخَةٌ فِي أَشْبَاحٍ . – وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمْ يُفْصَلْ عَنِ الْمَوْجُوْدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْجَانِّ أُنْثَى ، كَمَا فُصِلَتْ حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ . قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْمَوْجُوْدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْجَانِّ فَرْجًا فِي نَفْسِهِ ، فَنَكَحَ بَعْضَهُ بِبَعْضِهِ ، فَوَلَدَ مِثْلَ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا . ثُمَّ نَكَحَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . فَكَانَ خَلْقُهُ خُنْثَى . وَلِذٰلِكَ هُمْ (أَيْ) الْجَانُّ مِنْ عَالَمِ الْبَرْزَخِ : لَهُمْ شَبَهٌ بِالْبَشَرِ وَشَبَهٌ بِالْمَلَائِكَةِ ، كَالْخُنْثَى يُشَبِّهُ الذَّكَرَ وَيُشَبِّهُ الْأُنْثَى . –

وَقَدْ رَوَيْنَا ، فِيْمَا رُوِّيْنَاهُ مِنَ الْأَخْبَارِ ، عَنْ بَعْضِ أَئِمَّةِ الدِّيْنِ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا وَمَعَهُ وَلَدَانِ – وَكَانَ خُنْثَى – الْوَاحِدُ مِنْ ظَهْرِهِ ، وَالْآخَرُ مِنْ بَطْنِهِ : نَكَحَ فَوُلِدَ لَهُ ، وَنُكِحَ

فَوَلَدَ . وَسُمِّيَ (الْخُنْثَى) خُنْثَى مِنَ الْاِنْخِنَاثِ ، وَهُوَ الْاِسْتِرْخَاءُ وَالرَّخَاوَةُ ، وَعَدَمُ الْقُوَّةِ وَالشِّدَّةِ . فَلَمْ تَقْوَ فِيهِ (أَيْ فِي الْخُنْثَى) قُوَّةُ الذُّكُوْرِيَّةِ فَيَكُوْنُ ذَكَرًا ، وَلَمْ تَقْوَ فِيْهِ قُوَّةُ الْأُنُوْثَةِ فَيَكُوْنُ أُنْثَى . فَاسْتَرْخَى عَنْ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ ، فَسُمِّيَ خُنْثَى . – وَاللهُ أَعْلَمُ ! – .

(غِذَاءُ الْجَانِّ وَنِكَاحُهُمْ)

وَلَمَّا غَلَبَ عَلَى الْجَانِّ عُنْصُرُ الْهَوَاءِ وَالنَّارِ ، لِذٰلِكَ كَانَ غَذَاؤُهُمْ مَا يَحْمِلُهُ الْهَوَاءُ مِمَّا فِي الْعِظَامِ مِنَ الدَّسَمِ ، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَهُمْ فِيْهَا رِزْقًا . فَإِنَّا نُشَاهِدُ جَوْهَرَ الْعَظْمِ وَمَا يَحْمِلُهُ مِنَ اللَّحْمِ لَا يَنْتَقِصُ مِنْهُ شَيْءٌ ، فَعَلِمْنَا قَطْعًا أَنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَهُمْ (أَيْ لِلْجَانِّ) فِيْهَا رِزْقًا . وَلِهٰذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْعِظَامِ : « إِنَّهَا زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ » ، وَفِي حَدِيْثٍ : « إِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَهُمْ فِيْهَا رِزْقًا » . وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ الْمُكَاشِفِيْنَ أَنَّهُ رَأَى الْجِنَّ يَأْتُوْنَ إِلَى الْعَظْمِ فَيَشُمُّوْنَهُ كَمَا تَشُمُّ السِّبَاعُ ، ثُمَّ يَرْجِعُوْنَ وَقَدْ أَخَذُوْا رِزْقَهُمْ . وَغَذَاؤُهُمْ فِي ذٰلِكَ الشَّمِّ . – فَسُبْحَانَ اللَّطِيْفِ الْخَبِيْرِ !

وَأَمَّا اِجْتِمَاعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، عِنْدَ النِّكَاحِ ، فَالْتِوَاءٌ : مِثْلُ مَا تَبْصُرُ الدُّخَانَ الْخَارِجَ مِنَ الْأَتُّوْنِ أَوْ مِنْ فُرْنِ الْفَخَّارِ ؛ يَدْخُلُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ، فَيَلْتَذُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الشَّخْصَيْنِ بِذٰلِكَ التَّدَاخُلِ ؛ وَيَكُوْنُ مَا يُلْقُوْنَهُ كَلَقَاحِ النَّخْلَةِ بِمُجَرَّدِ الرَّائِحَةِ ، كَغَذَائِهِمْ سَوَاءًا (بِسَوَاءٍ) .

(قَبَائِلُ الْجَانِّ وَعَشَائِرُهُمْ)

وَهُمْ قَبَائِلٌ وَعَشَائِرٌ ؛ وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُمْ مَحْصُوْرُوْنَ فِي اثْنَتَيْ عَشَرَ قَبِيْلَةٍ أُصُوْلًا ، ثُمَّ يَتَفَرَّعُوْنَ إِلَى أَفْخَاذٍ . وَتَقَعُ بَيْنَهُمْ حُرُوْبٌ عَظِيْمَةٌ ؛ وَبَعْضُ الزَّوَابِعِ قَدْ يَكُوْنُ عَيْنَ حَرْبِهِمْ . فَإِنَّ الزَّوْبَعَةَ (هِيَ) تَقَابُلُ رِيْحَيْنِ ، تَمْنَعُ كُلُّ وَاحِدَةٍ صَاحِبَتَهَا أَنْ تَخْتَرِقَهَا ، فَيُؤَدِّيْ ذٰلِكَ الْمَنْعُ إِلَى الدَّوْرِ الْمَشْهُوْدِ فِي الْغَبَرَةِ فِي الْحِسِّ ، الَّتِي آثَارُهَا تَقَابُلُ الرِّيْحَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ . فَمِثْلُ ذٰلِكَ يَكُوْنُ حَرْبُهُمْ ؛ وَمَا كُلُّ زَوْبَعَةٍ حَرْبُهُمْ . –

وَقِصَّةُ عَمْرِو الْجِنِّي – رَحِمَهُ اللهُ ! – مَشْهُوْرَةٌ مَرْوِيَّةٌ ، وَقَتْلُهُ فِي الزَّوْبَعَةِ الَّتِي أُبْصِرَتْ فَانْقَشَعَتْ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى الْمَوْتِ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ مَاتَ ، وَكَانَ عَبْدًا صَالِحًا مِنَ الْجَانِّ . وَلَوْ كَانَ هٰذَا الْكِتَابُ مَبْنَاهُ عَلَى إِيْرَادِ أَخْبَارٍ وَحِكَايَاتٍ لَذَكَرْنَا مِنْهَا طَرْفًا ؛ وَإِنَّمَا هٰذَا كِتَابُ عِلْمِ الْمَعَانِي . فَلْتَنْظُرْ حِكَايَاتِهِمْ فِي تَوَارِيْخِ الْأَدَبِ وَأَشْعَارَهُمْ .

(تَشَكُّلُ الْعَالَمِ الرُّوْحَانِيِّ)

ثُم نَرْجِعُ وَنَقُوْلُ : وَإِنَّ هٰذَا الْعَالَمَ الرُّوْحَانِيَّ إِذَا تَشَكَّلَ وَظَهَرَ فِي صُوْرَةٍ حِسِّيَّةٍ ، يُقَيِّدُهُ الْبَصَرُ بِحَيْثُ لَا يَقْدِرُ (الرُّوْحَانِيُّ) أَنْ يَخْرُجَ عَنْ تِلْكَ الصُّوْرَةِ مَا دَامَ الْبَصَرُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِالْخَاصِّيَّةِ ، وَلٰكِنْ مِنَ الْإِنْسَانِ . فَإِذَا قَيَّدَهُ (الْبَصَرُ مِنَ الْإِنْسَانِ) وَلَمْ يَبْرَحْ نَاظِرًا إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ لَهُ (أَيْ لِلرُّوْحَانِيِّ) مَوْضِعٌ يَتَوَارَى فِيْهِ ، – أَظْهَرَ لَهُ هٰذَا الرُّوْحَانِيُّ صُوْرَةً جَعَلَهَا عَلَيْهِ كَالسِّتْرِ . ثُمَّ يُخَيِّلُ (الرُّوْحَانِيُّ) لَهُ مَشْيَ تِلْكَ الصُّوْرَةِ إِلَى جِهَةٍ مَخْصُوْصَةٍ ، فَيُتْبِعُهَا (الْإِنْسَانُ) بَصَرَهُ ، فَإِذَا اَتْبَعَهَا بَصَرَهُ خَرَجَ الرُّوْحَانِيُّ عَنْ تَقْيِيْدِهِ ، فَغَابَ عَنْهُ ؛ وَبِمَغِيْبِهِ تَزُوْلُ تِلْكَ الصُّوْرَةُ عَنْ نَظَرِ النَّاظِرِ الَّذِي اَتْبَعَهَا بَصَرَهُ . فَإِنَّهَا (أَيْ الصُّوْرَةُ) لِلرُّوْحَانِيِّ ، كَالنُّوْرِ مَعَ السِّرَاجِ الْمُنْتَشِرِ فِي الزَّوَايَا نُوْرُهُ ، فَإِذَا غَابَ جِسْمُ السِّرَاجِ ، فُقِدَ ذٰلِكَ النُّوْرُ . فَهٰكَذَا هٰذِهِ الصُّوْرَةُ . فَمَنْ يَعْرِفُ هٰذَا ، وَيُحِبُّ تَقْيِيْدَهُ (أَيْ تَقْيِيْدَ الرُّوْحَانِيِّ بِبَصَرِهِ) لَا يُتْبِعُ الصُّوْرَةَ بَصَرَهُ . وَهٰذَا مِنَ الْأَسْرَارِ الْإِلٰهِيَّةِ الَّتِي لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِتَعْرِيْفِ اللهِ . وَلَيْسَتِ الصُّوْرَةُ غَيْرَ عَيْنِ الرُّوْحَانِيِّ ، بَلْ هِيَ عَيْنُهُ وَلَوْ كَانَتْ فِي أَلْفِ مَكَانٍ ، أَوْ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمُخْتَلِفَةَ الْأَشْكَالِ .

وَإِذَا اتَّفَقَ قَتْلُ صُوْرَةٍ مِنْ تِلْكَ الصُّوَرِ ، وَمَاتَتِ (الصُّوْرَةُ) فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ ، – اِنْتَقَلَ ذٰلِكَ الرُّوْحَانِيُّ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَى الْبَرْزَخِ ، كَمَا نَنْتَقِلُ نَحْنُ بِالْمَوْتِ ، وَلَا يَبْقَى لَهُ فِي عَالَمِ الدُّنْيَا حَدِيْثٌ ، مِثْلُنَا سَوَاءًا (بِسَوَاءٍ) . وَتُسَمَّى تِلْكَ الصُّوَرُ الْمَحْسُوْسَةُ ، الَّتِي تَظْهَرُ فِيْهَا الرُّوْحَانِيَّاتُ ، أَجْسَادًا ، وَهُوَ قَوْلُهُ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الجَّانِ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَإِنِ اشْتَرَكُوْا فِي الرُّوْحَانِيَّةِ ، أَنَّ الجْانَّ غَذاؤُهُمْ مَا تَحْمِلُهُ الأَجْسَامُ الطَّبِيْعِيَّةُ مِنَ الْمَطَاعِمِ ، وَالْمَلَائِكَةُ لَيْسَتْ كَذٰلِكَ . وَلِهٰذَا ذَكَرَ اللهُ فِي قِصَّةِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيْمَ الخَلِيْلَ : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ = يَعْنِي إِلَى الْعِجْلِ الحَنِيْذِ ، أَيْ لَا يَأْكُلُوْنَ مِنْهُ ، وَخَافَ !

(نَشْأَةُ عَالَمِ الجَانِّ)

وَحِيْنَ جاءَ وَقْتُ إِنْشَاءِ عَالَمِ الجْانِّ ، تَوَجَّهَ مِنَ الْأُمَنَاءِ الَّذِيْنَ فِي الْفَلَكِ الْأَوَّلِ ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، ثَلَاثَةٌ . ثُمَّ أَخَذُوْا مِنْ نَوَّابِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ مَا يَحْتَاجُوْنَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ فِي هٰذَا النَّشْءِ . ثُمَّ نَزَلُوْا إِلَى السَّمٰوَاتِ ؛ فَأَخَذُوْا مِنَ النَّوَّابِ اثْنَيْنِ ، مِنَ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ وَالسَّادِسَةِ مِنْ هُنَاكَ . وَنَزَلُوْا إِلَى الْأَرْكَانِ ، فَهَيَّئُوْا الْمَحَلَّ ؛ وَاتَّبَعَتْهُمْ ثَلَاثَةٌ أُخَرُ مِنَ الْأُمَنَاءِ ؛ وَأَخَذُوْا مِنَ (السَّمَاءِ) الثَّانِيَةِ مَا يَحْتَاجُوْنَ إِلَيْهِ مِنْ نَوَّابِهِمْ . ثُمَّ نَزَلُوْا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ وَالخَامِسَةِ مِنْ هُنَاكَ ، فَأَخَذُوْا مَلَكَيْنِ . وَمَرُّوْا بِالسَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، فَأَخَذُوْا نَائِبًا آخَرَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَنَزَلُوْا إِلَى الْأَرْكَانِ لِيُكَمِّلُوْا التَّسْوِيَةَ . فَنَزَلَتِ السِّتَّةُ الْبَاقِيَةُ وَأَخَذَتْ مَا بَقِيَ مِنَ النَّوَّابِ فِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ وَفِي السَّمٰوَاتِ . فَاجْتَمَعَ الْكُلُّ عَلَى تَسْوِيَةِ هٰذِهِ النَّشْأَةِ ، بِإِذْنِ الْعَلِيْمِ الحَكِيْمِ .

فَلَمَّا تَمَّتْ نَشْأَتُهُ (أَيْ نَشْأَةُ عَالَمِ الجْانِّ) ، وَاسْتَقَامَتْ بُنْيَتُهُ ، – تَوَجَّهَ الرُّوْحُ مِنْ عَالَمِ الْأَمْرِ فَنَفَخَ فِي تِلْكَ الصُّوْرَةِ رُوْحًا ، سَرَتْ فِيْهِ ، بِوُجُوْدِهَا : الحَيَاةُ . فَقَامَ نَاطِقًا بِالحَمْدِ وَالثَّنَاءِ لِمَنْ أَوْجَدَهُ : جِبِلَّةً جُبِلَ عَلَيْهَا . وَفِي نَفْسِهِ عِزَّةً وَعَظَمَةً لَا يَعْرِفُ سَبَبَهَا وَلَا عَلَى مَنْ يَعْتَزُّ بِهَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ مَخْلُوْقٌ آخَرَ مِنْ عَالَمِ الطَّبَائِعِ سِوَاهُ . فَبَقِيَ عَابِدًا لِرَبِّهِ ، مُصِرًّا عَلَى عِزَّتِهِ ، مُتَوَاضِعًا لِرُبُوْبِيَّةِ مُوْجِدِهِ ، بِمَا يَعْرُضُ لَهُ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ فِي نَشْأَتِهِ ، إِلَى أَنْ خُلِقَ آدَمَ .

فَلَمَّا رَأَى الجْانُّ صُوْرَتَهُ ، غَلَبَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ – اسْمُهُ الحَارِثُ – بُغْضُ تِلْكَ النَّشْأَةِ ، وَتَجَهَّمَ وَجْهُهُ لِرُؤْيَةِ تِلْكَ الصُّوْرَةِ الْآدَمِيَّةِ ، وَظَهَرَ ذٰلِكَ مِنْهُ لِجِنْسِهِ ، فَعَتَبُوْهُ

لِذٰلِكَ لَمَّا رَأَوْهُ عَلَيْهِ مِنَ الْغَمِّ وَالْحُزْنِ لَهَا . فَلَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ آدَمَ مَا كَانَ ، أَظْهَرَ الْحَارِثُ مَا كَانَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنْهُ ، وَأَبَى عَنِ امْتِثَالِ أَمْرِ خَالِقِهِ بِالسُّجُوْدِ لِآدَمَ ، وَاسْتَكْبَرَ عَلَى آدَمَ بِنَشْأَتِهِ ، وَافْتَخَرَ بِأَصْلِهِ . وَغَابَ عَنْهُ سِرُّ قُوَّةِ الْمَاءِ الَّذِي جَعَلَ اللّٰهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، وَمِنْهُ كَانَتْ حَيَاةُ الْجَانِّ وَهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ .

(خَلْقُ آدَمَ وَنَشْأَةُ الْإِنْسَانِ)

وَتَأَمَّلْ ، إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَهْمِ ، قَوْلَهُ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ = فَحَيَّ الْعَرْشَ (بِالْمَاءِ) وَمَا حَوَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَخْلُوْقَاتِ . – ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ – فَجَاءَ بِالنَّكِرَةِ ؛ – وَلَا يُسَبِّحُ إِلَّا حَيٌّ . وَرَدَ فِي الْحَدِيْثِ الْحَسَنِ عَنْ رَسُوْلِ اللّٰهِ ﷺ : « أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ : يَا رَبِّ ! » – فِي حَدِيْثٍ طَوِيْلٍ – « هَلْ خَلَقْتَ شَيْئًا أَشَدُّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! اَلْمَاءُ » = فَجَعَلَ الْمَاءَ أَقْوَى مِنَ النَّارِ . فَلَوْ كَانَ عُنْصُرُ الْهَوَاءِ فِي نَشْأَةِ الْجَانِّ غَيْرَ مُشْتَعِلٍ بِالنَّارِ ، لَكَانَ الْجَانُّ أَقْوَى مِنْ بَنِي آدَمَ ، فَإِنَّ الْهَوَاءَ أَقْوَى مِنَ الْمَاءِ . فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ فِي هٰذَا الْحَدِيْثِ : « يَا رَبِّ ! فَهَلْ خَلَقْتَ شَيْئًا أَشَدُّ مِنَ الْمَاءِ ؟ قَالَ نَعَمْ ! اَلْهَوَاءُ . ثُمَّ قَالَتْ : يَا رَبِّ ! فَهَلْ خَلَقْتَ شَيْئًا أَشَدُّ مِنَ الْهَوَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! اِبْنُ آدَمَ » . – الْحَدِيْثُ .

فَجَعَلَ (اللّٰهُ) النَّشْأَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ أَقْوَى مِنَ الْهَوَاءِ ، وَجَعَلَ الْمَاءَ أَقْوَى مِنَ النَّارِ ، وَهُوَ (أَيِ الْمَاءُ) الْعُنْصُرُ الْأَعْظَمُ فِي الْإِنْسَانِ ، كَمَا أَنَّ النَّارَ (هِيَ) الْعُنْصُرُ الْأَعْظَمُ فِي الْجَانِّ . وَلِهٰذَا قَالَ (– تَعَالَى ! –) فِي الشَّيْطَانِ : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ = فَلَمْ يُنْسِبْ إِلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ شَيْئًا . وَلَمْ يَرُدَّ عَلَى الْعَزِيْزِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وَلَا أَكْذَبَهُ ، مَعَ ضَعْفِ عَقْلِ الْمَرْأَةِ عَنْ عَقْلِ الرَّجُلِ ، « فَإِنَّ النِّسَاءَ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِيْنٍ » ، فَمَا ظَنُّكَ بِقُوَّةِ الرَّجُلِ ؟

وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ النَّشْأَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ تُعْطِي التُّؤَدَةَ فِي الْأُمُوْرِ ، وَالْأَنَاةَ وَالْفِكْرَ وَالتَّدْبِيْرَ ، لِغَلَبَةِ الْعُنْصُرَيْنِ ، الْمَاءُ وَالتُّرَابُ ، عَلَى مِزَاجِهِ . فَيَكُوْنُ (الْإِنْسَانُ) وَافِرَ

الْعَقْلِ لِأَنَّ التُّرَابَ يُثَبِّطُهُ وَيُمْسِكُهُ ، وَالْمَاءَ يُلَيِّنُهُ وَيُسَهِّلُهُ . وَالْجَانُّ لَيْسَ كَذٰلِكَ . فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَقْلِهِ مَا يُمْسِكُهُ عَلَيْهِ ذٰلِكَ الْإِمْسَاكَ الَّذِي لِلْإِنْسَانِ . وَلِهٰذَا يُقَالُ : فُلَانٌ خَفِيْفُ الْعَقْلِ ، وَسَخِيْفُ الْعَقْلِ ، – إِذَا كَانَ ضَعِيْفَ الرَّأْيِ ، هِلْبَاجَةً ! وَهٰذَا هُوَ نَعْتُ الْجَانِّ ، وَبِهِ ضَلَّ عَنْ طَرِيْقِ الْهُدَى ، لِخِفَّةِ عَقْلِهِ ، وَعَدَمِ تَثَبُّتِهِ فِي نَظَرِهِ ، فَقَالَ : ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ = فَجَمَعَ بَيْنَ الْجَهْلِ وَسُوْءِ الْأَدَبِ لِخِفَّتِهِ .

(الشَّيْطَانُ الْأَوَّلُ مِنَ الْجَانِّ)

فَمَنْ عَصَى مِنَ الْجَانِّ كَانَ شَيْطَانًا ، أَيْ مَبْعُوْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سُمِّيَ شَيْطَانًا مِنَ الْجِنِّ الْحَارِثُ ، فَأَبْلَسَهُ اللهُ ، أَيْ طَرَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَطَرَدَ الرَّحْمَةَ عَنْهُ ؛ وَمِنْهُ تَفَرَّعَتِ الشَّيَاطِيْنُ بِأَجْمَعِهَا . فَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، مِثْلُ هَامَةَ بْنِ أَلْهَامِ بْنِ لَاقِيْسِ بْنِ إِبْلِيْسَ ، اِلْتَحَقَ بِالْمُؤْمِنِيْنَ مِنَ الْجِنِّ ؛ وَمَنْ بَقِيَ عَلَى كُفْرِهِ كَانَ شَيْطَانًا . وَهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ بَيْنَ عُلَمَاءِ الشَّرِيْعَةِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُسْلِمُ أَبَدًا ، وَتَأَوَّلَ قَوْلَهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – فِي شَيْطَانِهِ ، وَهُوَ الْقَرِيْنُ الْمُوَكَّلُ بِهِ : « إِنَّ اللهَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ » = رُوِيَ بِرَفْعِ الْمِيْمِ وَفَتْحِهَا أَيْضًا ، – فَتَأَوَّلَ هٰذَا الْقَائِلُ الرَّفْعَ بِأَنَّهُ (ﷺ) قَالَ : « فَأَسْلَمُ مِنْهُ » = أَيْ لَيْسَ لَهُ عَلَيَّ سَبِيْلَ ؛ وَهٰكَذَا تَأَوَّلَهُ الْمُخَالِفُ ، وَتَأَوَّلَ الْفَتْحَ فِيْهِ عَلَى الْاِنْقِيَادِ ، قَالَ : فَمَعْنَاهُ اِنْقَادَ مَعَ كَوْنِهِ عَدُوًّا ، فَهُوَ بِعَيْنِهِ لَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ ، جَبْرًا مِنَ اللهِ وَعِصْمَةً لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ . – وَقَالَ الْمُخَالِفُ : مَعْنَى « فَأَسْلَمَ » – بِالْفَتْحِ – أَيْ آمَنَ بِاللهِ ، كَمَا يُسْلِمُ الْكَافِرُ عِنْدَنَا فَيَرْجِعُ مُؤْمِنًا ، وَهُوَ الْأَوْلَى وَالْأَوْجَهُ .

(إِبْلِيْسُ أَوَّلُ الْأَشْقِيَاءِ مِنَ الْجِنِّ)

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَزْعَمُوْنَ أَنَّهُ (أَيْ الْحَارِثَ) أَوَّلُ الْجِنِّ ، (وَهُوَ) بِمَنْزِلَةِ آدَمَ مِنَ النَّاسِ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ (الْأَمْرُ) عِنْدَنَا ، بَلِ (الْحَارِثُ) هُوَ وَاحِدٌ مِنَ الْجِنِّ ، وَإِنَّ الْأَوَّلَ فِيْهِمُ ، (الَّذِي) بِمَنْزِلَةِ آدَمَ فِي الْبَشَرِ ، إِنَّمَا هُوَ غَيْرُهُ . وَلِذٰلِكَ قَالَ – تَعَالَى ! – :

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ = أَيْ مِنْ هٰذَا الصَّنْفِ مِنَ الْمَخْلُوْقِيْنَ ، كَمَا كَانَ قَابِيْلَ مِنَ الْبَشَرِ وَكَتَبَهُ اللهُ شَقِيًّا ، فَهُوَ أَوَّلُ الْأَشْقِيَاءِ مِنَ الْبَشَرِ ، وَإِبْلِيْسُ أَوَّلُ الْأَشْقِيَاءِ مِنَ الْجِنِّ . وَعَذَابُ الشَّيَاطِيْنِ مِنَ الْجِنِّ فِي جَهَنَّمَ ، أَكْثَرُ مَا يَكُوْنُ بِالزَّمْهَرِيْرِ لَا بِالْحَرُوْرِ ، وَقَدْ يُعَذَّبُ (الشَّيْطَانُ) بِالنَّارِ ؛ وَبَنُوْ آدَمَ أَكْثَرُ عَذَابُهُمْ بِالنَّارِ .

وَوَقَفْتُ يَوْمًا عَلَى مَخْبُوْلِ الْعَقْلِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ، وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ ، وَهُوَ يَقُوْلُ لِلنَّاسِ : « لَا تَقِفُوْا مَعَ قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ = لِإِبْلِيْسَ فَقَطْ ، بَلِ انْظُرُوْا فِي إِشَارَتِهِ – سُبْحَانَهُ ! – لَكُمْ ، بِقَوْلِهِ لِإِبْلِيْسَ : « جَهَنَّمَ مِنْكَ » ، فَإِنَّهُ مَخْلُوْقٌ مِنَ النَّارِ ، فَيَعُوْدُ – لَعَنَهُ اللهُ ! – إِلَى أَصْلِهِ ؛ وَإِنْ عُذِّبَ (إِبْلِيْسُ) بِهِ ، فَعَذَابُ الْفَخَّارِ بِالنَّارِ أَشَدُّ . فَتَحَفَّظُوْا ! » .

فَمَا نَظَرَ هٰذَا الْوَلِيُّ مِنْ ذِكْرِ جَهَنَّمَ إِلَّا النَّارَ خَاصَّةً ، وَغَفَلَ عَنْ أَنَّ جَهَنَّمَ اِسْمٌ لِحَرُوْرِهَا وَزَمْهَرِيْرِهَا . – وَلِجَهَامَتِهَا (بِجُمْلَتِهَا) سُمِّيَتْ جَهَنَّمَ ، لِأَنَّهَا كَرِيْهَةُ الْمَنْظَرِ . وَالْجَهَامُ (هُوَ) السَّحَابُ الَّذِي قَدْ هَرَقَ مَاءَهُ ؛ وَالْغَيْثُ (هُوَ) رَحْمَةُ اللهِ . فَلَمَّا أَزَالَ اللهُ الْغَيْثَ مِنَ السَّحَابِ بِإِنْزَالِهِ ، أَطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْجَهَامِ ، لِزَوَالِ الرَّحْمَةِ – الَّذِي هُوَ الْغَيْثُ – مِنْهُ . كَذٰلِكَ الرَّحْمَةُ : أَزَالَهَا اللهُ مِنْ جَهَنَّمَ فَكَانَتْ كَرِيْهَةَ الْمَنْظَرِ وَالْمَخْبَرِ . – وَسُمِّيَتْ أَيْضًا جَهَنَّمَ لِبُعْدِ قَعْرِهَا ، يُقَالُ : رَكِيَّةٌ جَهَنَّامٌ ، إِذَا كَانَتْ بَعِيْدَةَ الْقَعْرِ . نَسْأَلُ اللّٰهَ الْعَظِيْمَ ، لَنَا وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ ، الْأَمْنَ مِنْهَا . – وَيَكْفِي هٰذَا الْقَدْرُ مِنْ هٰذَا الْبَابِ .



الْبَابُ الْعَاشِرُ :
فِي مَعْرِفَةِ دَوْرَةِ الْمُلْكِ وَأَوَّلِ مُنْفَصِلٍ فِيْهَا عَنْ أَوَّلِ مَوْجُوْدٍ ؛ وَآخِرِ مُنْفَصِلٍ فِيْهَا عَنْ آخِرِ مُنْفَصَلٍ عَنْهُ ؛ وَبِمَاذَا عَمَرَ الْمَوْضِعُ الْمُنْفَصَلُ عَنْهُ مِنْهُمَا ؟ وَتَمْهِيْدُ اللهِ هٰذِهِ الْمَمْلَكَةَ حَتَّى جَاءَ مَلِيْكُهَا ؛ وَمَا مَرْتَبَةُ الْعَالَمِ الَّذِي بَيْنَ عِيْسَى وَمُحَمَّدٍ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! – وَهُوَ زَمَانُ الْفَتْرَةِ

الْمَلِكُ لَوْ لَا وُجُوْدُ الْمُلْكِ مَا عُرِفَا وَلَمْ تَكُنْ صِفَةٌ مِمَّا بِهِ وُصِفَا
فَدَوْرَةُ الْمُلْكِ بُرْهَانٌ عَلَيْهِ لِذَا قَدِ الْتَقَتْ طَرَفَاهَا هٰكَذَا كُشِفَا
فَكَانَ آخِرُهَا كَمِثْلِ أَوَّلِهَا وَكَانَ أَوَّلُهَا عَنْ سَابِقٍ سَلَفَا
وَعِنْدَمَا كَمُلَتْ بِالْخَتْمِ قَامَ بِهَا مَلِيْكُهَا سَيِّدًا لِلّٰهِ مُعْتَرِفَا
أَعْطَاهُ خَالِقُهُ فَضْلًا مَعَارِفَهَا وَمَا يَكُوْنُ وَمَا قَدْ كَانَ وَانْصَرَفَا

(اَلْأَنْبِيَاءُ نُوَّابُ مُحَمَّدٍ)

اِعْلَمْ – أَيَّدَكَ اللهُ ! – أَنَّهُ وَرَدَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ » = بِالرَّاءِ وَفِي رِوَايَةٍ بِالزَّاي . وَهُوَ (أَيِ الْفَخْرُ) التَّبَجُّحُ بِالْبَاطِلِ . وَفِي صَحِيْحِ مُسْلِمٍ : « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فَثَبَتَتْ لَهُ السِّيَادَةُ وَالشَّرَفُ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ مِنَ الْبَشَرِ . وَقَالَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : « كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّيْنِ » = يُرِيْدُ (أَنَّهُ كَانَ) عَلَى عِلْمٍ بِذٰلِكَ . فَأَخْبَرَهُ اللهُ – تَعَالَى ! – بِمَرْتَبَتِهِ – وَهُوَ رُوْحٌ – قَبْلَ إِيْجَادِهِ الْأَجْسَامَ الْإِنْسَانِيَّةِ . كَمَا أَخَذَ الْمِيْثَاقَ عَلَى بَنِي آدَمَ قَبْلَ إِيْجَادِهِ أَجْسَامِهِمْ . وَأَلْحَقَنَا اللهُ – تَعَالَى ! – بِأَنْبِيَائِهِ ، بِأَنْ جَعَلَنَا شُهَدَاءَ عَلَى أُمَمِهِمْ مَعَهُمْ ، حِيْنَ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيْدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَهُمُ الرُّسُلُ .

فَكَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي الْعَالَمِ نُوَّابَهُ ﷺ مِنْ آدَمَ إِلَى آخِرِ الرُّسُلِ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! – . وَقَدْ أَبَانَ ﷺ عَنْ هٰذَا الْمَقَامِ بِأُمُوْرٍ . مِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ : « وَاللهِ ! لَوْ كَانَ مُوْسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي » . وَقَوْلُهُ فِي نُزُوْلِ عِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ : « إِنَّهُ يَؤُمُّنَا مِنَّا » = أَيْ يَحْكُمُ فِيْنَا بِسُنَّةِ نَبِيِّنَا – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – « وَيَكْسِرُ الصَّلِيْبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيْرَ » . وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ بُعِثَ فِي زَمَانِ آدَمَ ، لَكَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ وَجَمِيْعُ النَّاسِ تَحْتَ حُكْمِ شَرِيْعَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حِسًّا . وَلِهٰذَا لَمْ يُبْعَثْ عَامَّةً إِلَّا هُوَ خَاصَّةً . فَهُوَ الْمَلِكُ وَالسَّيِّدُ . وَكُلُّ رَسُوْلٍ سِوَاهُ ، فَبُعِثَ إِلَى قَوْمٍ مَخْصُوْصِيْنَ فَلَمْ تَعُمَّ رِسَالَةُ أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ ، سِوَى رِسَالَتِهِ ﷺ . فَمِنْ زَمَانِ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – إِلَى زَمَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ : مُلْكُهُ ! وَتَقَدُّمُهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى جَمِيْعِ الرُّسُلِ ، وَسِيَادَتُهُ : مَنْصُوْصٌ عَلَى ذٰلِكَ فِي الصَّحِيْحِ (الْمَرْوِيِّ) عَنْهُ .

(رُوْحَانِيَّةُ مُحَمَّدٍ مَعَ كُلِّ نَبِيٍ وَرَسُوْلٍ)

فَرُوْحَانِيَّتُهُ ﷺ مَوْجُوْدَةٌ وَرُوْحَانِيَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ وَرَسُوْلٍ . فَكَانَ الْإِمْدَادُ يَأْتِي إِلَيْهِمْ مِنْ تِلْكَ الرُّوْحِ الطَّاهِرَةِ ، بِمَا يَظْهَرُوْنَ بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْعُلُوْمِ فِي زَمَانِ وُجُوْدِهِمْ رُسُلًا ؛

وَتَشْرِيْعِهِمُ الشَّرَائِعُ ، كَعَلِيٍّ وَمُعَاذٍ وَغَيْرِهِمَا ، فِي زَمَانِ وُجُوْدِهِمْ وَوُجُوْدِهِ ﷺ ؛ وَكَإِلْيَاس وَخَضِر – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! – وَعِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – فِي زَمَانِ ظُهُوْرِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَاكِمًا بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أُمَّتِهِ الْمُقَرَّرِ فِي الظَّاهِرِ . لٰكِنْ ، لَمَّا لَمْ يَتَقَدَّمْ فِي عَالَمِ الْحِسِّ وُجُوْدُ عَيْنِهِ ﷺ أَوَّلًا ، نُسِبَ كُلُّ شَرْعٍ إِلَى مَنْ بُعِثَ بِهِ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيْقَةِ شَرْعُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنْ كَانَ مَفْقُوْدَ الْعَيْنِ مِنْ حَيْثُ لَا يُعْلَمُ ذٰلِكَ ، كَمَا هُوَ مَفْقُوْدُ الْعَيْنِ الْآنَ ، وَفِي زَمَانِ نُزُوْلِ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – وَالْحُكْمِ بِشَرْعِهِ .

(شَرْعُ مُحَمَّدٍ نَاسِخٌ لِجَمِيْعِ الشَّرَائِعِ)

وَأَمَّا نَسْخُ اللهِ بِشَرْعِهِ جَمِيْعَ الشَّرَائِعِ ، فَلَا يُخْرِجُ هٰذَا النَّسْخُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الشَّرَائِعِ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ شَرْعِهِ . فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَشْهَدَنَا ، فِي شَرْعِهِ الظَّاهِرِ الْمُنْزَلِ بِهِ ﷺ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، – النَّسْخَ ، مَعَ إِجْمَاعِنَا وَاتِّفَاقِنَا عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ الْمَنْسُوْخَ (هُوَ) شَرْعُهُ الَّذِي بُعِثَ بِهِ إِلَيْنَا : فَنَسَخَ بِالْمُتَأَخِّرِ الْمُتَقَدِّمَ . فَكَانَ تَنْبِيْهًا لَنَا – هٰذَا النَّسْخُ الْمَوْجُوْدُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ – عَلَى أَنَّ نَسْخَهُ لِجَمِيْعِ الشَّرَائِعِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، لَا يُخْرِجُهَا عَنْ كَوْنِهَا شَرْعًا لَهُ . وَكَانَ نُزُوْلُ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَاكِمًا يُغَيِّرُ شَرْعَهُ (الْعِيْسَوِيَّ) أَوْ بَعْضَهُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ فِي زَمَانِ رِسَالَتِهِ ، وَحُكْمُهُ بِالشَّرْعِ الْمُحَمَّدِيّ الْمُقَرَّرِ الْيَوْمَ ، – دَلِيْلًا عَلَى أَنَّهُ لَا حُكْمَ لِأَحِدٍ الْيَوْمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! – مَعَ وُجُوْدِ مَا قَرَّرَهُ ﷺ فِي شَرْعِهِ . وَيَدْخُلُ فِي ذٰلِكَ مَا هُمْ عَلَيْهِ أَهْلُ الذِّمَّةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَا دَامُوْا « يُعْطُوْنَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُوْنَ » : فَإِنَّ حُكْمَ الشَّرْعِ عَلَى الْأَحْوَالِ .

(سِيَادَةُ مُحَمَّدٍ عَلَى جَمِيْعِ بَنِي آدَمَ)

فَخَرَجَ مِنْ هٰذَا الْمَجْمُوْعِ كُلِّهِ ، أَنَّهُ (ﷺ) مَلِكٌ وَسَيِّدٌ عَلَى جَمِيْعِ بَنِى آدَمَ ؛ وَأَنَّ جَمِيْعَ مَنْ تَقَدَّمَهُ كَانَ مُلْكًا لَهُ وَتَبَعًا ؛ وَالْحَاكِمُوْنَ فِيْهِ ، نُوَّابٌ عَنْهُ . فَإِنْ قِيْلَ : فَقَوْلُهُ

ﷺ : « لَا تُفَضِّلُوْنِي » – فَالْجَوَابُ : نَحْنُ مَا فَضَّلْنَاهُ ، بَلِ اللهُ فَضَّلَهُ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ لَنَا . وَإِنْ كَانَ قَدْ وَرَدَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ – لَمَّا ذَكَرَ الْأَنْبِيَاءَ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! – فَهُوَ صَحِيْحٌ . فَإِنَّهُ (– تَعَالَى ! –) قَالَ : « فَبِهُدَاهُمُ » ، وَهُدَاهُمْ مِنَ اللهِ ، وَهُوَ شَرْعُهُ ﷺ . أَيْ أَلْزِمْ شَرْعَكَ الَّذِي ظَهَرَ بِهِ نُوَّابُكَ ، مِنْ إِقَامَةِ الدِّيْنِ ، « وَلَا تَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ » . فَلَمْ يَقُلْ (– تَعَالَى ! –) : فَبِهِمُ اقْتَدِهْ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ تَنْبِيْهٌ عَلَى أَحَدِيَّةِ الشَّرَائِعِ . وَقَوْلُهُ (– تَعَالَى ! –) : ﴿ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ = وَهُوَ الدِّيْنُ . فَهُوَ (ﷺ) مَأْمُوْرٌ بِاتِّبَاعِ الدِّيْنِ ، فَإِنَّ الدِّيْنَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ ، لَا مِنْ غَيْرِهِ .

وَانْظُرُوْا فِي قَوْلِهِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : « لَوْ كَانَ مُوْسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي » = فَأَضَافَ الْاِتِّبَاعَ إِلَيْهِ ؛ وَأُمِرَ هُوَ ﷺ بِاتِّبَاعِ الدِّيْنَ وَهُدَى الْأَنْبِيَاءِ ، لَا بِهِمْ . فَإِنَّ الْإِمَامَ الْأَعْظَمَ إِذَا حَضَرَ ، لَا يَبْقَى لِنَائِبٍ مِنْ نُوَّابِهِ حُكْمٌ إِلَّا لَهُ ؛ فَإِذَا غَابَ ، حَكَمَ النُّوَّابُ بِمَرَاسِمِهِ ؛ فَهُوَ (أَيِ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ) الْحَاكِمُ غَيْبًا وَشَهَادَةً . وَمَا أَوْرَدْنَا هٰذِهِ الْأَخْبَارَ وَالتَّنْبِيْهَاتِ إِلَّا تَأْنِيْسًا لِمَنْ لَا يَعْرِفُ هٰذِهِ الْمَرْتَبَةَ مِنْ كَشْفِهِ ، وَلَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى ذٰلِكَ مِنْ نَفْسِهِ .

(شَوَاهِدُ أَهْلِ اللهِ)

وَأَمَّا أَهْلُ اللهِ فَهُمْ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فِيْهِ . قَدْ قَامَتْ لَهُمْ شَوَاهِدُ التَّحْقِيْقِ عَلَى ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ فِي نُفُوْسِهِمْ . وَإِنْ كَانَ يَتَصَوَّرُ ، عَلَى جَمِيْعِ مَا أَوْرَدْنَاهُ فِي ذٰلِكَ ، اِحْتِمَالَاتٌ كَثِيْرَةٌ ، فَذٰلِكَ رَاجِعٌ إِلَى مَا تُعْطِيْهِ الْأَلْفَاظُ مِنَ الْقُوَّةِ فِي أَصْلِ وَضْعِهَا ، لَا مَا هُوَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ ، عِنْدَ أَهْلِ الْأَذْوَاقِ الَّذِيْنَ يَأْخُذُوْنَ الْعِلْمَ عَنِ اللهِ ، كَالْخَضِرِ وَأَمْثَالِهِ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَنْطِقُ بِالْكَلَامِ يُرِيْدُ بِهِ مَعْنًى وَاحِدًا ، مَثَلًا ، مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا ذٰلِكَ الْكَلَامُ . فَإِذَا فُسِّرَ بِغَيْرِ مَقْصُوْدِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي ، فَإِنَّمَا فَسَّرَ الْمُفَسِّرُ بَعْضَ مَا تُعْطِيْهِ قُوَّةُ اللَّفْظِ ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يُصِبْ مَقْصُوْدَ الْمُتَكَلِّمِ .

أَ لَا تَرَى الصَّحَابَةَ ، كَيْفَ شَقَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ – تَعَالَى ! – : ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ ؟ فَأَتَى بِهِ (الْقُرْآنُ) نَكِرَةً . - فَقَالُوْا : « وَأَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيْمَانَهُ بِظُلْمٍ ؟ » . فَهٰؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ - وَهُمُ الْعَرَبُ الَّذِيْنَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِهِمْ - مَا عَرَفُوْا مَقْصُوْدَ الْحَقِّ مِنَ الْآيَةِ . وَالَّذِي نَظَرُوْهُ سَائِغٌ فِي الْكَلِمَةِ غَيْرُ مَنْكُوْرٍ . فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ : « لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنَنْتُمْ . وَإِنَّمَا أَرَادَ اللهُ بِالظُّلْمِ هُنَا ، مَا قَالَ لُقْمٰنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : ﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » . فَقُوَّةُ الْكَلِمَةِ تَعُمُّ كُلَّ ظُلْمٍ ؛ وَقَصْدُ الْمُتَكَلِّمِ إِنَّمَا هُوَ ظُلْمٌ مُعَيَّنٌ مَخْصُوْصٌ . - فَكَذٰلِكَ مَا أَوْرَدْنَاهُ مِنَ الْأَخْبَارِ ، فِي أَنَّ بَنِي آدَمَ سُوْقَةٌ وَمُلْكٌ لِهٰذَا السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ الْمَقْصُوْدُ مِنْ طَرِيْقِ الْكَشْفِ ، كَمَا كَانَ الظُّلْمُ هُنَاكَ ، الْمَقْصُوْدُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ : الشِّرْكَ خَاصَّةً . وَلِذٰلِكَ تَتَقَوَّى التَّفَاسِيْرُ فِي الْكَلَامِ بِقَرَائِنِ الْأَحْوَالِ . فَإِنَّهَا الْمُمَيِّزَةُ لِلْمَعَانِي الْمَقْصُوْدَةِ لِلْمُتَكَلِّمِ .

فَكَيْفَ مَنْ عِنْدَهُ الْكَشْفُ الْإِلٰهِيُّ وَالْعِلْمُ اللَّدُنِّيُّ الرَّبَّانِيُّ ؟ فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ الْمُنْصِفِ أَنْ يُسَلِّمَ لِهٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَا يُخْبِرُوْنَ بِهِ . فَإِنْ صَدَقُوْا فِي ذٰلِكَ ، فَذٰلِكَ الظَّنُّ بِهِمْ ، وَأُنْصِفُوْا بِالتَّسْلِيْمِ حَيْثُ لَمْ يَرُدَّ الْمُسَلِّمُ مَا هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . وَإِنْ لَمْ يَصْدُقُوْا ، لَمْ يَضُرَّ الْمُسَلِّمُ . بَلِ انْتَفَعُوْا (أَيِ الْمُسَلِّمُوْنَ) حَيْثُ تَرَكُوْا الْخَوْضَ فِيْمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ قَطْعٌ ، وَرَدُّوْا عِلْمَ ذٰلِكَ إِلَى اللهِ – تَعَالَى ! – . فَوَفَّوْا الرُّبُوْبِيَّةَ حَقَّهَا . إِذْ كَانَ مَا قَالَهُ أَوْلِيَاءُ اللهِ مُمْكِنًا ، فَالتَّسْلِيْمُ أَوْلَى بِكُلِّ وَجْهٍ .

(دَوْرَةُ الْمُلْكِ)

وَهٰذَا الَّذِي نَزَعْنَا إِلَيْهِ مِنْ دَوْرَةِ الْمُلْكِ ، قَالَ بِهِ غَيْرُنَا كَالْإِمَامِ أَبِي الْقَاسِمِ (أَحْمَدُ) بْنُ قَسِيّ فِي « خَلْعِهِ » ، وَهُوَ رِوَايَتُنَا عَنِ ابْنِهِ عَنْهُ . وَهُوَ مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ . وَكَانَ شَيْخُهُ الَّذِي كُشِفَ لَهُ عَلَى يَدَيْهِ ، مِنْ أَكْبَرِ شُيُوْخِ الْمَغْرِبِ ، يُقَالُ لَهُ : ابْنُ خَلِيْلٍ ، مِنْ أَهْلِ لَبْلَة . وَنَحْنُ مَا نَعْتَمِدُ فِي كُلِّ مَا نَذْكُرُهُ إِلَّا عَلَى مَا يُلْقِي اللهُ عِنْدَنَا مِنْ ذٰلِكَ ، لَا عَلَى مَا تَحْتَمِلُهُ الْأَلْفَاظُ مِنَ الْوُجُوْهِ . وَقَدْ تَكُوْنُ جَمِيْعُ الْمُحْتَمَلَاتِ ، فِي بَعْضِ الْكَلَامِ ،

مَقْصُوْدَةً لِلْمُتَكَلِّمِ ، فَنَقُوْلُ بِهَا كُلِّهَا . فَدَوْرَةُ الْمُلْكِ عِبَارَةٌ عَمَّا مَهَّدَ اللهُ مِنْ آدَمَ إِلَى زَمَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ التَّرْتِيْبَاتِ فِي هٰذِهِ النَّشْأَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، بِمَا ظَهَرَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْإِلٰهِيَّةِ فِيْهَا . فَكَانُوْا خُلَفَاءَ الْخَلِيْفَةِ السَّيِّدِ .

فَأَوَّلَ مَوْجُوْدٍ ظَهَرَ ، مِنَ الْأَجْسَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، كَانَ آدَمُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . وَهُوَ الْأَبُ الْأَوَّلُ مِنْ هٰذَا الْجِنْسِ ، وَسَائِرُ الْآبَاءِ مِنَ الْأَجْنَاسِ ، يَأْتِي بَعْدَ هٰذَا الْبَابِ – إِنْ شَاءَ اللهُ ! – . وَهُوَ (أَيْ آدَمُ) أَوَّلُ مَنْ ظَهَرَ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ هٰذَا الْجِنْسِ ، وَلٰكِنْ كَمَا قَرَّرْنَاهُ (أَعْنِي مِنْ طَرِيْقِ النِّيَابَةِ عَنِ الرُّوْحِ الْمُحَمَّدِيِّ) . ثُمَّ فَصَلَ (اللهُ) عَنْهُ أَبًا ثَانِيًا لَنَا سَمَّاهُ أُمًّا ؛ فَصَحَّ لِهٰذَا الْأَبِ الْأَوَّلِ الدَّرَجَةُ عَلَيْهَا ، لِكَوْنِهِ أَصْلًا لَهَا .

فَخَتَمَ (اللهُ) بِهِ النُّوَّابَ مِنْ دَوْرَةِ الْمُلْكِ ، بِمِثْلِ مَا بِهِ بَدَأَ : لِيُنَبِّهَ (– تَعَالَى ! –) عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ ، وَأَنَّ ذٰلِكَ الْأَمْرَ مَا اقْتَضَاهُ الأَبُ الْأَوَّلُ لِذَاتِهِ . فَأَوْجَدَ (الْحَقُّ) عِيْسَى عَنْ مَرْيَمَ ، فَتَنَزَّلَتْ مَرْيَمُ مَنْزِلَةَ آدَمَ ، وَتَنَزَّلَ عِيْسَى مَنْزِلَةَ حَوَّاءَ . فَكَمَا وُجِدَتْ أُنْثًى مِنْ ذَكَرٍ ، وُجِدَ ذَكَرٌ مِنْ أُنْثًى : فَخَتَمَ (اللهُ) بِمِثْلِ مَا بِهِ بَدَأَ ، فِي إِيْجَادِ ابْنٍ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، كَمَا كَانَتْ حَوَّاءُ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ . فَكَانَ عِيْسَى وَحَوَّاءُ أَخَوَيْنِ ، وَكَانَ آدَمُ وَمَرْيَمُ أَبَوَيْنِ لَهُمَا .

(مَثَلُ عِيْسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ)

﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ** ﴾ = فَأَوْقَعَ التَّشْبِيْهَ فِي عَدَمِ الْأُبُوَّةِ الذُّكْرَانِيَّةِ ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ (– تَعَالَى ! –) نَصَبَهُ دَلِيْلًا لِعِيْسَى فِي بَرَاءَةِ أُمِّهِ . وَلَمْ يُوْقِعِ التَّشْبِيْهَ بِحَوَّاءَ – وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ – لِكَوْنِ الْمَرْأَةِ مَحَلَّ التُّهْمَةِ لِوُجُوْدِ الْحَمْلِ ، إِذْ كَانَتْ مَحَلًّا مَوْضُوْعًا لِلْوِلَادَةِ ، وَلَيْسَ الرَّجُلُ بِمَحَلٍّ لِذٰلِكَ . وَالْمَقْصُوْدُ مِنَ الْأَدِلَّةِ ارْتِفَاعُ الشُّكُوْكِ . وَفِي (خَلْقِ) حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ لَا يَقَعُ الْاِلْتِبَاسُ ، لِكَوْنِ آدَمَ لَيْسَ مَحَلًّا لِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنَ الْوِلَادَةِ . وَهٰذَا لَا يَكُوْنُ دَلِيْلًا إِلَّا عِنْدَ مَنْ ثَبَتَ عِنْدَهُ وُجُوْدُ آدَمَ ،

وَتَكْوِيْنُهُ ، وَالتَّكْوِيْنُ مِنْهُ . وَكَمَا لَا يُعْهَدُ ابْنٌ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، كَذٰلِكَ لَا يُعْهَدُ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ . فَالْمَثَلُ مِنْ طَرِيْقِ الْمَعْنَى أَنَّ عِيْسَى كَحَوَّاءَ . وَلٰكِنْ لَمَّا كَانَ الدَّخْلُ يَتَطَرَّقُ فِي ذٰلِكَ مِنَ الْمُنْكَرِ ، لِكَوْنِ الْأُنْثَى – كَمَا قُلْنَا – مَحَلًّا لِمَا صَدَرَ عَنْهَا ، وَلِذٰلِكَ كَانَتِ التُّهْمَةُ ، – كَانَ التَّشْبِيْهُ بِآدَمَ لِحُصُوْلِ بَرَاءَةِ مَرْيَمَ مِمَّا يُمْكِنُ فِي الْعَادَةِ . فَظُهُوْرُ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، كَظُهُوْرِ حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ . وَهُوَ (أَعْنِي عِيْسَى) الْأَبُ الثَّانِي (لِلْبَشَرِيَّةِ) .

(اِنْفِصَالُ حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ)

وَلَمَّا اِنْفَصَلَتْ حَوَّاءُ مِنْ آدَمَ ، عَمَرَ (اللهُ) مَوْضِعَهَا مِنْهُ بِالشَّهْوَةِ النِّكَاحِيَّةِ إِلَيْهَا ، الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْغِشْيَانُ لِظُهُوْرِ التَّنَاسُلِ وَالتَّوَالُدِ ؛ وَكَانَ الْهَوَاءَ الْخَارِجَ الَّذِي عَمَرَ مَوْضِعَهُ جِسْمُ حَوَّاءَ عِنْدَ خُرُوْجِهَا ، إِذْ لَا خَلَاءَ فِي الْعَالَمِ . فَطَلَبَ ذٰلِكَ الْجُزْءُ الْهَوَائِيُّ مَوْضِعَهُ الَّذِي أَخَذَتْهُ حَوَّاءُ بِشَخْصِيَّتِهَا ، فَحَرَّكَ (اللهُ) آدَمَ لِطَلَبِ مَوْضِعِهِ ، فَوَجَدَهُ مَعْمُوْرًا بِحَوَّاءَ ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا . فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ مِنْهُ . فَجَاءَتْ (حَوَّاءُ) بِالذُّرِّيَّةِ . فَبَقِيَ ذٰلِكَ سُنَّةً جَارِيَةً فِي الْحَيَوَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ وَغَيْرِهِمْ ، بِالطَّبْعِ .

لٰكِنَّ الْإِنْسَانَ (الْحَقِيْقِيَّ) هُوَ الْكَلِمَةُ الْجَامِعَةُ ، وَنُسْخَةُ الْعَالَمِ . فَكُلُّ مَا فِي الْعَالَمِ جُزْءٌ مِنْهُ ، وَلَيْسَ الْإِنْسَانُ (الْحَقِيْقِيُّ) بِجُزْءٍ لِوَاحِدٍ مِنَ الْعَالَمِ . وَكَانَ سَبَبَ هٰذَا الْفَصْلِ ، وَإِيْجَادِ هٰذَا الْمُنْفَصِلِ الْأَوَّلِ – طَلَبُ الْأُنْسِ بِالْمُشَاكِلِ فِي الْجِنْسِ ، الَّذِي هُوَ النَّوْعُ الْأَخَصُّ . وَلِيَكُوْنَ (أَيْضًا) فِي عَالَمِ الْأَجْسَامِ ، بِهٰذَا الْاِلْتِحَامِ الطَّبِيْعِيِّ الْإِنْسَانِيِّ ، الْكَامِلِ بِالصُّوْرَةِ ، الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ ، – مَا يُشْبِهُ الْقَلَمَ الْأَعْلَى وَاللَّوْحَ الْمَحْفُوْظَ ، الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعَقْلِ الْأَوَّلِ وَالنَّفْسِ الْكُلِّ .

(« كُنْ ! » وَالْكَوْنُ)

وَإِذَا قُلْتَ : اَلْقَلَمُ الْأَعْلَى ، فَتَفَطَّنْ لِلْإِشَارَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ الْكَاتِبَ وَقَصْدَ الْكِتَابَةِ ،

فَيَقُوْمُ مَعَكَ (عِنْدَئِذٍ) مَعْنَى قَوْلِ الشَّارِعِ : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُوْرَتِهِ » . ثُمَّ عِبَارَةِ الشَّارِعِ ، فِي الْكِتَابِ الْعَزِيْزِ ، فِي إِيْجَادِ الْأَشْيَاءِ عَنْ « كُنْ ! » . فَأَتَى (الْقُرْآنُ) بِحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ ، وَمَا يَكُوْنُ عِنْدَ « كُنْ ! » (هُوَ) بِـ (مَنْزِلَةِ) النَّتِيْجَةِ . وَهٰذَانِ الْحَرْفَانِ هُمَا الظَّاهِرَانِ ؛ وَ (الْحَرْفُ) الثَّالِثُ ، الَّذِي هُوَ الرَّابِطُ بَيْنَ الْمُقَدِّمَتَيْنِ ، خَفِيَ فِي « كُنْ ! » ، وَهُوَ الْوَاوُ الْمَحْذُوْفُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ . – كَذٰلِكَ إِذَا الْتَقَى الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ لَمْ يَبْقَ لِلْقَلَمِ عَيْنٌ ظَاهِرَةٌ . فَكَانَ إِلْقَاؤُهُ النُّطْفَةَ فِي الرَّحِمِ غَيْبًا لِأَنَّهُ سِرٌّ ، وَلِهٰذَا عُبِّرَ عَنِ النِّكَاحِ بِالسِّرِّ فِي اللِّسَانِ ، قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿**وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا**﴾ . وَكَذٰلِكَ عِنْدَ الْإِلْقَاءِ يَسْكُنَانِ عَنِ الْحَرَكَةِ . وَتَمَكَّنَ إِخْفَاءُ الْقَلَمِ كَمَا خَفِيَ الْحَرْفُ الثَّالِثُ ، الَّذِي هُوَ الْوَاوُ مِنْ « كُنْ ! » ، لِلسَّاكِنَيْنِ . وَكَانَ (الْحَرْفُ الثَّالِثُ الْخَفِيُّ هُوَ) الْوَاوُ لِأَنَّ لَهُ الْعُلُوُّ ، لِأَنَّهُ مُتَوَلِّدٌ عَنِ الرَّفْعِ ، وَهُوَ إِشْبَاعُ الضَّمَّةِ وَهُوَ مِنْ حُرُوْفِ الْعِلَّةِ .

(أَوَّلُ مُنْفَصِلٍ وَآخِرُ مُنْفَصِلٍ فِي دَوْرَةِ الْمُلْكِ)

وَهٰذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ، إِنَّمَا هُوَ إِذَا كَانَ الْمُلْكُ عِبَارَةً عَنِ الْأُنَاسِيِّ خَاصَّةً . فَإِنْ نَظَرْنَا إِلَى سِيَادَتِهِ (ﷺ) عَلَى جَمِيْعِ مَا سِوَى الْحَقِّ ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ النَّاسِ ، لِلْحَدِيْثِ الْمَرْوِيِّ : « إِنَّ اللهَ يَقُوْلُ : لَوْلَاكَ – يَا مُحَمَّدُ ! – مَا خَلَقْتُ سَمَاءً وَلَا أَرْضًا وَلَا جَنَّةً وَلَا نَارًا » – وَذَكَرَ خَلْقَ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ – . فَيَكُوْنُ أَوَّلَ مُنْفَصِلٍ فِيْهَا (أَيْ فِي دَوْرَةِ الْمُلْكِ) النَّفْسُ الْكُلِّيَّةُ ، عَنْ أَوَّلِ مَوْجُوْدٍ وَهُوَ الْعَقْلُ الْأَوَّلُ ؛ وَآخِرُ مُنْفَصِلٍ فِيْهَا حَوَّاءُ ، عَنْ آخِرِ مَوْجُوْدٍ (وَهُوَ) آدَمُ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ آخِرُ مَوْجُوْدٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْعَالَمِ . فَإِنَّهُ مَا ثَمَّ إِلَّا سِتَّةَ أَجْنَاسٍ ، وَكُلُّ جِنْسٍ تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ ، وَتَحْتَ الْأَنْوَاعِ أَنْوَاعٌ . فَالْجِنْسُ الْأَوَّلُ الْمَلَكُ ، وَالثَّانِي الْجَانُّ ، وَالثَّالِثُ الْمَعْدِنُ ، وَالرَّابِعُ النَّبَاتُ ، وَالْخَامِسُ الْحَيَوَانُ . وَانْتَهَى الْمُلْكُ وَتَمَهَّدَ وَاسْتَوَى . وَكَانَ الْجِنْسُ السَّادِسُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ ، وَهُوَ الْخَلِيْفَةُ عَلَى هٰذِهِ الْمَمْلَكَةِ .

وَإِنَّمَا وُجِدَ (الْإِنْسَانُ) آخِرًا لِيَكُوْنَ إِمَامًا بِالْفِعْلِ حَقِيْقَةً ، لَا بِالصَّلَاحِيَّةِ وَالْقُوَّةِ . فَعِنْدَمَا وُجِدَ عَيْنُهُ لَمْ يُوْجَدْ إِلَّا وَالِيًا ، سُلْطَانًا ، مَلْحُوْظًا . ثُمَّ جَعَلَ (الْحَقُّ) لَهُ نُوَّابًا حِيْنَ تَأَخَّرَتْ نَشْأَةُ جَسَدِهِ . فَأَوَّلُ نَائِبٍ كَانَ لَهُ وَخَلِيْفَةٍ ، آدَمُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . ثُمَّ وَلَدَ ، وَاتَّصَلَ النَّسْلُ . وَعَيَّنَ (اللهُ) فِي كُلِّ زَمَانٍ خُلَفَاءًا ، إِلَى أَنِ اتَّصَلَ زَمَانُ نَشْأَةِ الْجِسْمِ الطَّاهِرِ ، مُحَمَّدٌ ﷺ . فَظَهَرَ مِثْلُ الشَّمْسِ الْبَاهِرَةِ . فَانْدَرَجَ كُلُّ نُوْرٍ فِي نُوْرِهِ السَّاطِعِ . وَغَابَ كُلُّ حُكْمٍ فِي حُكْمِهِ . وَانْقَادَتْ جَمِيْعُ الشَّرَائِعِ إِلَيْهِ . وَظَهَرَتْ سِيَادَتُهُ الَّتِي كَانَتْ بَاطِنَةً . فَ ﴿ **هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ . فَإِنَّهُ (ﷺ) قَالَ : « **أُوْتِيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** » . وَقَالَ عَنْ رَبِّهِ : « **ضَرَبَ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ عِلْمَ الْأَوَّلِيْنَ وَالْآخِرِيْنَ** » . فَحَصَلَ لَهُ التَّخَلُّقُ وَالنِّسَبُ الْإِلٰهِيُّ مِنْ قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – عَنْ نَفْسِهِ : ﴿ **هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ . وَجَاءَتْ هٰذِهِ الْآيَةُ فِي « سُوْرَةِ الْحَدِيْدِ » الَّذِي ﴿ **فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ . فَلِذٰلِكَ بُعِثَ (مُحَمَّدٌ) بِالسَّيْفِ وَ « أُرْسِل رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ » .

وَكُلُّ مُنْفَصِلٍ عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ كَانَ عَامِرًا لِمَا عَنْهُ انْفَصَلَ . وَقَدْ قُلْنَا : إِنَّهُ لَا خَلَاءَ فِي الْعَالَمِ . فَعَمَرَ (الشَّيْءُ الْمُنْفَصِلُ) مَوْضِعَ اِنْفِصَالِهِ بِظِلِّهِ ، إِذْ كَانَ انْفِصَالُهُ إِلَى النُّوْرِ ، وَهُوَ الظُّهُوْرُ . فَلَمَّا قَابَلَ النُّوْرَ بِذَاتِهِ ، اِمْتَدَّ ظِلُّهُ ، فَعَمَرَ مَوْضِعَ انْفِصَالِهِ : فَلَمْ يَفْقِدْهُ مَنِ انْفَصَلَ عَنْهُ . فَكَانَ مَشْهُوْدًا لِمَنِ انْفَصَلَ إِلَيْهِ ، وَمَشْهُوْدًا لِمَنِ انْفَصَلَ عَنْهُ . وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ :

شَهِدْتُكَ مَوْجُوْدًا بِكُلِّ مَكَانٍ

فَمِنْ أَسْرَارِ الْعَالَمِ ، أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ يَحْدُثُ إِلَّا وَلَهُ ظِلٌّ يَسْجُدُ لِلّٰهِ ، لِيَقُوْمَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، سَوَاءًا كَانَ ذٰلِكَ الْأَمْرُ الْحَادِثُ مُطِيْعًا أَوْ عَاصِيًا . فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ

الْمُوَافَقَةِ ، كَانَ هُوَ وَظِلُّهُ عَلَى السَّوَاءِ ؛ وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا ، نَابَ ظِلُّهُ مَنَابَهُ فِي الطَّاعَةِ لِلّٰهِ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾ .

(اَلسُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الْأَرْضِ)

« السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الْأَرْضِ » ، إِذْ كَانَ ظُهُوْرُهُ بِجَمِيْعِ صُوَرِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ ، الَّتِي لَهَا الْأَثَرُ فِي عَالَمِ الدُّنْيَا . وَالْعَرْشُ ظِلُّ اللهِ فِي الْآخِرَةِ . فَالظِّلَالَاتُ ، أَبَدًا ، تَابِعَةٌ لِلصُّوْرَةِ الْمُنْبَعَثَةِ عَنْهَا حِسًّا وَمَعْنًى . فَالْحِسُّ (= الظِّلُّ الْحِسِّيُّ) قَاصِرٌ ، لَا يَقْوَي قُوَّةَ الظِّلِّ الْمَعْنَوِيّ لِلصُّوْرَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، لِأَنَّهُ (أَيْ الظِّلُّ الْحِسِّيُّ) يَسْتَدْعِي نُوْرًا مُقَيَّدًا ، لَمَّا فِي الْحِسِّ مِنَ التَّقْيِيْدِ وَالضِّيْقِ وَعَدَمِ الْاِتِّسَاعِ . وَلِهٰذَا نَبَّهْنَا عَلَى الظِّلِّ الْمَعْنَوِيّ بِمَا جَاءَ فِي الشَّرْعِ مِنْ أَنَّ « السُّلْطَانَ ظِلُّ اللهِ فِي الْأَرْضِ » . – فَقَدْ بَانَ لَكَ أَنَّ بِالظِّلَالَاتِ عَمُرَتِ الْأَمَاكِنُ .

فَهَا نَحْنُ قَدْ ذَكَرْنَا طَرْفًا مِمَّا يَلِيْقُ بِهٰذَا الْبَابِ ، وَلَمْ نَمْعَنْ فِيْهِ مَخَافَةَ التَّطْوِيْلِ ؛ وَفِيْمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ لِمَنْ تَنَبَّهَ إِنْ كَانَ ذَا فَهْمٍ سَلِيْمٍ ، وَتَذْكِرَةٌ لِمَنْ شَاهَدَ وَعَلِمَ ، وَاشْتَغَلَ بِمَا هُوَ أَعْلَى ، أَوْ غَفَلَ بِمَا هُوَ أَنْزَلُ ؛ فَيَرْجِعُ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ عِنْدَمَا يَنْظُرُ فِي هٰذَا الْبَابِ .

فصل :
(مَرَاتِبُ أَهْلِ الْفَتْرَةِ)

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْعَالَمِ الَّذِي بَيْنَ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – وَمُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ أَهْلُ الْفَتْرَةِ ، – فَهُمْ عَلَى مَرَاتِبَ مُخْتَلِفَةٍ ، بِحَسَبِ مَا يَتَجَلَّى لَهُمْ مِنَ الْأَسْمَاءِ ، عَنْ عِلْمٍ مِنْهُمْ بِذٰلِكَ ، وَعَنْ غَيْرِ عِلْمٍ .

فَمِنْهُمْ مَنْ وَحَّدَ اللهَ بِمَا تَجَلَّى لِقَلْبِهِ عِنْدَ فِكْرِهِ . وَهُوَ صَاحِبُ الدَّلِيْلِ . فَهُوَ « عَلى نُوْرٍ مِنْ رَبِّهِ » ، مُمْتَزِجٍ بِكَوْنٍ مِنْ أَجْلِ فِكْرِهِ . فَهٰذَا يُبْعَثُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، كَقُسِّ بْنِ سَاعِدَةٍ وَأَمْثَالِهِ ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي خُطْبَتِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمَخْلُوْقَاتِ وَاعْتِبَارَهُ فِيْهَا . وَهٰذَا هُوَ الْفِكْرُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ وَحَّدَ اللهَ بِنُوْرٍ وَجَدَهُ فِي قَلْبِهِ ، لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ ، مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ ، وَلَا رَوِيَّةٍ ، وَلَا نَظَرٍ ، وَلَا اسْتِدْلَالٍ . فَهُمْ « عَلَى نُوْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ » ، خَالِصٍ ، غَيْرِ مُمْتَزِجٍ بِكَوْنٍ . فَهٰؤُلَاءِ يُحْشَرُوْنَ أَحْفِيَاءَ ، أَبْرِيَاءَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ أُلْقِيَ فِي نَفْسِهِ ، وَاطَّلَعَ مِنْ كَشْفِهِ –لِشِدَّةِ نُوْرِهِ ، وَصَفَاءِ سِرِّهِ لِخُلُوْصِ يَقِيْنِهِ ،– عَلَى مَنْزِلَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَسِيَادَتِهِ وَعُمُوْمِ رِسَالَتِهِ بَاطِنًا ، مِنْ زَمَانِ آدَمَ إِلَى وَقْتِ هٰذَا الْمُكَاشَفِ ؛ فَآمَنَ بِهِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ ، « عَلَى شَهَادَةٍ مِنْهُ وَبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ » . وَهُوَ قَوْلُهُ – تَعَالَى ! – : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ = يَشْهَدُ لَهُ فِي قَلْبِهِ بِصِدْقِ مَا كُوْشِفَ بِهِ . – فَهٰذَا يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ضَنَائِنِ خَلْقِهِ ، وَفِي بَاطِنِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَمِنْهُمْ مَنِ اتَّبَعَ مِلَّةَ حَقٍّ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ ، كَمَنْ تَهَوَّدَ ، أَوْ تَنَصَّرَ ، أَوِ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ ، أَوْ مَنْ كَانَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمَّا عَلِمَ وَأُعْلِمَ أَنَّهُمْ رُسُلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، يَدْعُوْنَ إِلَى الْحَقِّ لِطَائِفَةٍ مَخْصُوْصَةٍ . فَتَبِعَهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ وَسَلَكَ سُنَنَهُمْ . فَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ مَا حَرَّمَهُ ذٰلِكَ الرَّسُوْلُ ؛ وَتَعَبَّدَ نَفْسَهُ مَعَ اللهِ بِشَرِيْعَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ الرَّسُوْلُ مَبْعُوْثًا إِلَيْهِ . فَهٰذَا يُحْشَرُ مَعَ مَنْ تَبِعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَتَمَيَّزُ فِي زُمْرَتِهِ فِي ظَاهِرِيَّتِهِ . إِذْ كَانَ شَرْعُ ذٰلِكَ النَّبِيِّ قَدْ تَقَرَّرَ فِي الظَّاهِرِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ طَالَعَ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ شَرَفَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَدِيْنَهُ وَثَوَابَ مَنِ اتَّبَعَهُ ، فَآمَنَ بِهِ ، وَصَدَّقَ عَنْ عِلْمٍ ، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي شَرْعِ نَبِيٍّ مِمَّنْ تَقَدَّمَ ، وَأَتَى مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ . فَهٰذَا أَيْضًا يُحْشَرُ فِي الْمُؤْمِنِيْنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَا فِي الْعَامِلِيْنَ ، وَلٰكِنْ فِي ظَاهِرِيَّتِهِ ﷺ .

وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فآمَنَ بِهِ : فَلَهُ أَجْرَانِ . – فَهٰؤُلَاءِ (أَيْ جَمِيْعُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الْفَتْرَةِ) كُلُّهُمْ سُعَدَاءُ عِنْدَ اللهِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَطَّلَ فَلَمْ يَقرَّ بِوُجُودٍ ، عَنْ نَظَرٍ قَاصِرٍ ، ذٰلِكَ الْقُصُوْرُ هُوَ ، بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، غَايَةُ قُوَّتِهِ ، لِضَعْفٍ فِي مِزَاجِهِ عَنْ قُوَّةِ غَيْرِهِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَطَّلَ لَا عَنْ نَظَرٍ ، بَلْ عَنْ تَقْلِيْدٍ : فَذٰلِكَ شَقِيٌّ مُطْلَقٌ .

وَمِنْهُمْ مَنْ أَشْرَكَ عَنْ نَظَرٍ أَخْطَأَ فِيْهِ طَرِيْقَ الْحَقِّ ، مَعَ بَذْلِ الْمَجْهُوْدِ الَّذِي تُعْطِيْهِ قُوَّتَهُ . – وَمِنْهُمْ مَنْ أَشْرَكَ لَا عَنِ اسْتِقْصَاءِ نَظَرٍ : فَذٰلِكَ شَقِيٌّ . – وَمِنْهُمْ مَنْ أَشْرَكَ عَنْ تَقْلِيْدٍ : فَذٰلِكَ شَقِيٌّ .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَطَّلَ بَعْدَمَا أَثْبَتَ ، عَنْ نَظَرٍ بَلَغَ فِيْهِ أَقْصَى الْقُوَّةِ ، الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ، لِضَعْفِهَا . – وَمِنْهُمْ مَنْ عَطَّلَ بَعْدَمَا أَثْبَتَ ، لَا عَنِ اسْتِقْصَاءٍ فِي النَّظَرِ أَوْ تَقْلِيْدٍ : فَذٰلِكَ شَقِيٌّ .

فَهٰذِهِ كُلُّهَا مَرَاتِبَ أَهْلِ الْفَتْرَةِ الَّذِيْنَ ذَكَرْنَاهُمْ فِي هٰذَا الْبَابِ .



الْبَابُ الْحَادِي عَشَرَ :
فِي مَعْرِفَةِ آبَائِنَا الْعُلْوِيَّاتِ وَأُمَّهَاتِنَا السُّفْلِيَّاتِ

أَنَـا ابْنُ آبَـاءِ أَرْوَاحٍ مُطَهَّـرَةٍ　　وَأُمَّهَـاتِ نُفُـوْسٍ عُنْصُـرِيَّـاتِ
مَا بَيْنَ رُوْحٍ وَجِسْمٍ كَانَ مَظْهَرُنَا　　عِنْدَ اجْتِمَـاعٍ بِتَعْنِيْقٍ وَلَـذَّاتِ
مَا كُنْتُ عَنْ وَاحِدٍ حَتَّى أُوَحِّدَهُ　　بَلْ عَنْ جَمَـاعَةِ آبَـاءٍ وَأُمَّـــاتِ
هُمْ لِلْإِلٰـهِ ، إِذَا حَقَّقْـتَ شَـأْنَهُمُ　　كَصَـانِعٍ صَـنَعَ الْأَشْـيَاءَ بِآلَاتِ
فَنِسْبَةُ الصُّنْعِ لِلنَّجَّـارِ لَيْسَ لَهَـا　　كَـذَاكَ أَوْجَـدَنَـا رَبُّ الْبَرِيَّـاتِ
فَيَصْدُقُ الشَّخْصُ فِي تَوْحِيْدِ مُوْجِدِهِ　　وَيَصْدُقُ الشَّخْصُ فِي إِثْبَاتِ عِلَّاتِ
فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى الْآلَاتِ طَالَ بِنَـا　　إِسْـنَادُ عَنْعَنَـةٍ حَتَّى إِلَى الـذَّاتِ
وَإِنْ نَظَـرْتَ إِلَيْـهِ وَهُوَ يُوْجِدُنَـا　　قُلْنَـا بِوَحْدَتِـهِ لَا بِالْجَمَـاعَـاتِ
إِنِّي وُلِدْتُ وَحِيْدَ الْعَـيْنِ مُنْفَـرِدًا　　وَالنَّـاسُ كُلُّـهُمُ أَوْلَادُ عَــلَّاتِ

(اَلْأُبُوَّةُ وَالْأُمُومَةُ وَالْبُنُوَّةُ)

اِعْلَمْ – أَيَّدَكَ اللهُ ! – أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَقْصُوْدُ مِنْ هٰذَا الْعَالَمِ الْإِنْسَانَ ، وَهُوَ الْإِمَامُ ، لِذٰلِكَ أَضَفْنَا الْآبَاءَ وَالْأُمَّهَاتِ إِلَيْهِ فَقُلْنَا : آبَاؤُنَا الْعُلْوِيَّاتُ وَأُمَّهَاتِنَا السُّفْلِيَّاتُ . فَكُلُّ مُؤَثِّرٍ أَبٌ ، وَكُلُّ مُؤَثَّرٍ فِيْهِ أُمٌّ . هٰذَا هُوَ الضَّابِطُ لِهٰذَا الْبَابِ . وَالْمُتَوَلِّدُ بَيْنَهُمَا ، مِنْ ذٰلِكَ الْأَثَرِ ، يُسَمَّى اِبْنًا وَمُوَلَّدًا . وَكَذٰلِكَ الْمَعَانِي فِي إِنْتَاجِ الْعُلُوْمِ ، إِنَّمَا هُوَ بِمُقَدِّمَتَيْنِ تُنْكِحُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِالْمُفْرَدِ الْوَاحِدِ الَّذِي يَتَكَرَّرُ فِيْهِمَا ، وَهُوَ الرَّابِطُ . وَ (هٰذَا) هُوَ النِّكَاحُ (الْمَعْنَوِيُّ) . وَالنَّتِيْجَةُ الَّتِي تَصْدُرُ بَيْنَهُمَا هِيَ الْمَطْلُوْبَةُ .

فَالْأَرْوَاحُ كُلُّهَا آبَاءٌ ، وَالطَّبِيْعَةُ أُمٌّ لَمَّا كَانَتْ مَحَلَّ الْاِسْتِحَالَاتِ . وَتَتَوَجَّهُ هٰذِهِ الْأَرْوَاحُ عَلَى هٰذِهِ الْأَرْكَانِ ، الَّتِي هِيَ الْعَنَاصِرُ الْقَابِلَةُ لِلتَّغَيُّرِ وَالْاِسْتِحَالَةِ ، تَظْهَرُ فِيْهَا الْمُوَلَّدَاتُ وَهِيَ الْمَعَادِنُ وَالنَّبَاتُ وَالْحَيَوَانُ وَالْجَانُّ ؛ وَالْإِنْسَانُ أَكْمَلُهَا .

(اَلنِّسْوَةُ الْأَرْبَعَةُ وَالْأَرْكَانُ الْأَرْبَعَةُ)

وَكَذٰلِكَ جَاءَ شَرْعُنَا أَكْمَلَ الشَّرَائِعِ ، حَيْثُ جَرَى مَجْرَى الْحَقَائِقِ الْكُلِّيَّةِ : فَأُوْتِيَ (صَاحِبُ الشَّرِيْعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ) « جَوَامِعَ الْكَلِمِ » ؛ وَاقْتَصَرَ عَلَى أَرْبَعِ نِسْوَةٍ وَحَرَّمَ مَّا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ بِطَرِيْقِ النِّكَاحِ الْمَوْقُوْفِ عَلَى الْعَقْدِ ، فَلَمْ يَدْخُلْ فِي ذٰلِكَ مِلْكُ الْيَمِيْنِ ؛ وَأَبَاحَ مِلْكُ الْيَمِيْنِ فِي مُقَابَلَةِ الْأَمْرِ الْخَامِسِ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ . – كَذٰلِكَ الْأَرْكَانُ ، مِنْ عَالَمِ الطَّبِيْعَةِ ، أَرْبَعَةٌ . وَبِنِكَاحِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ لِهٰذِهِ الْأَرْبَعَةِ ، يُوْجِدُ اللهُ مَا يَتَوَلَّدُ فِيْهَا . وَاخْتَلَفُوْا فِي ذٰلِكَ عَلَى سِتَّةِ مَذَاهِبَ : فَطَائِفَةٌ زَعَمَتْ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ الْأَرْبَعَةِ أَصْلٌ فِي نَفْسِهِ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : رُكْنُ النَّارِ هُوَ الْأَصْلُ ، فَمَا كَثُفَ مِنْهُ كَانَ هَوَاءًا ، وَمَا كَثُفَ مِنَ الْهَوَاءِ كَانَ مَاءًا ، وَمَا كَثُفَ مِنَ الْمَاءِ كَانَ تُرَابًا . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : رُكْنُ الْهَوَاءِ هُوَ الْأَصْلُ ، فَمَا سَخُفَ مِنْهُ كَانَ نَارًا ، وَمَا كَثُفَ مِنْهُ كَانَ مَاءًا . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : رُكْنُ الْمَاءِ هُوَ الْأَصْلُ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : رُكْنُ التُّرَابِ هُوَ الْأَصْلُ .

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : اَلْأَصْلُ أَمْرٌ خَامِسٌ ، لَيْسَ وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ الْأَرْبَعَةِ . وَهٰذَا هُوَ الَّذِي جَعَلْنَاهُ بِمَنْزِلَةِ مِلْكِ الْيَمِيْنِ . – فَعَمَّتْ شَرِيْعَتُنَا فِي النِّكَاحِ أَتَمَّ الْمَذَاهِبَ ، لِيَنْدَرِجَ فِيْهَا جَمِيْعُ الْمَذَاهِبِ .

(نَظَرِيَّةُ الْأَصْلِ الْخَامِسِ)

وَهٰذَا الْمَذْهَبُ بِالْأَصْلِ الْخَامِسِ ، هُوَ الصَّحِيْحُ عِنْدَنَا ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالطَّبِيْعَةِ . فَإِنَّ الطَّبِيْعَةَ مَعْقُوْلٌ وَاحِدٌ ، عَنْهَا ظَهَرَ رُكْنُ النَّارِ ، وَجَمِيْعُ الْأَرْكَانِ . فَيُقَالُ : رُكْنُ النَّارِ مِنَ الطَّبِيْعَةِ ، مَا هُوَ عَيْنُهَا . وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُوْنَ (الطَّبِيْعَةُ) الْمَجْمُوْعَ الَّذِي هُوَ عَيْنُ الْأَرْبَعَةِ ، فَإِنَّ بَعْضَ الْأَرْكَانِ مُنَافِرٌ لِلْآخَرِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَبَعْضُهَا مُنَافِرٌ لِغَيْرِهِ بِأَمْرٍ وَاحِدٍ . كَالنَّارِ وَالْمَاءِ ، مُتَنَافِرَانِ مِنْ جَمِيْعِ الْوُجُوْهِ ؛ وَالْهَوَاءُ وَالتُّرَابُ كَذٰلِكَ . وَلِهٰذَا رَتَّبَهَا اللهُ فِي الْوُجُوْدِ تَرْتِيْبًا حِكْمِيًّا لِأَجْلِ الْاِسْتِحَالَاتِ . فَلَوْ جُعِلَ الْمُنَافِرُ مُجَاوِرًا لِمُنَافِرِهِ ، لَمَا اسْتَحَالَ إِلَيْهِ وَتَعَطَّلَتِ الْحِكْمَةُ . فَجَعَلَ (اللهُ) الْهَوَاءَ يَلِي رُكْنَ النَّارِ ، وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا الْحَرَارَةُ ؛ وَجَعَلَ الْمَاءَ يَلِي الْهَوَاءَ ، وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا الرُّطُوْبَةُ ؛ وَجَعَلَ التُّرَابَ يَلِي الْمَاءَ ، وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا الْبُرُوْدَةُ . فَالْمُحِيْلُ أَبٌ ؛ وَالْمُسْتَحِيْلُ أُمٌّ ؛ وَالْاِسْتِحَالَةُ نِكَاحٌ ؛ وَالَّذِي اِسْتَحَالَ إِلَيْهَا ، اِبْنٌ . فَالْمُتَكَلِّمُ أَبٌ ؛ وَالسَّامِعُ أُمٌّ ؛ وَالتَّكَلُّمُ نِكَاحٌ ؛ وَالْمَوْجُوْدُ مِنْ ذٰلِكَ فِي فَهْمِ السَّامِعِ ، اِبْنٌ .

فَكُلُّ أَبٍ عُلْوِيٌّ : فَإِنَّهُ مُؤَثِّرٌ . وَكُلُّ أُمٍّ سُفْلِيَّةٌ : فَإِنَّهَا مُؤَثَّرٌ فِيْهَا . وَكُلُّ نِسْبَةٍ بَيْنَهُمَا مُعَيَّنَةٍ ، نِكَاحٌ وَتَوَجُّهٌ . وَكُلُّ نَتِيْجَةٍ ، اِبْنٌ . وَمِنْ هُنَا يُفْهَمُ قَوْلُ الْمُتَكَلِّمِ لِمَنْ يُرِيْدُ قِيَامَهُ : « قُمْ ! » ، فَيَقُوْمُ الْمُرَادُ بِالْقِيَامِ ، عَنْ أَثَرِ لَفْظَةِ « قُمْ ! » – . فَإِنْ لَمْ يَقُمِ السَّامِعُ – وَهُوَ أُمٌّ بِلَا شَكٍّ – فَهُوَ عَقِيْمٌ ؛ وَإِذَا كَانَ عَقِيْمًا فَلَيْسَ بِأُمٍّ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ .

(الْأَبُ الْأَوَّلُ . الْأُمُّ الْأُوْلَى . النِّكَاحُ الْأَوَّلُ)

وَهٰذَا الْبَابُ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِالْأُمَّهَاتِ . – فَأَوَّلُ الْآبَاءِ الْعُلْوِيَّةِ مَعْلُوْمٌ . وَأَوَّلُ الْأُمَّهَاتِ

السُّفْلِيَّةِ ، شَيْئِيَّةُ الْمَعْدُوْمِ الْمُمْكِنِ . وَأَوَّلُ نِكَاحٍ ، الْقَصْدُ بِالْأَمْرِ . وَأَوَّلُ اِبْنٍ ، وُجُوْدُ عَيْنِ تِلْكَ الشَّيْئِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَا . – فَهٰذَا أَبٌ ، سَارِيُ الْأُبُوَّةِ . وَتِلْكَ أُمٌّ ، سَارِيَةُ الْأُمُوْمَةِ . وَذٰلِكَ النِّكَاحُ سَارٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَالنَّتِيْجَةُ دَائِمَةٌ ، لَا تَنْقَطِعُ فِي حَقِّ كُلِّ ظَاهِرِ الْعَيْنِ . فَهٰذَا يُسَمَّى عِنْدَنَا « النِّكَاحَ السَّارِي فِي جَمِيْعِ الذَّرَارِي » . يَقُوْلُ اللّٰهُ – تَعَالَى ! – فِي الدَّلِيْلِ عَلَى مَا قُلْنَاهُ : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ . وَلَنَا فِيْهِ كِتَابٌ شَرِيْفٌ ، مَنِيْعُ الْحِمَى ، الْبَصِيْرُ فِيْهِ أَعْمَى ، فَكَيْفَ مَنْ حَلَّ بِهِ الْعَمَي ! فَلَوْ رَأَيْت تَفْصِيْلَ هٰذَا الْمَقَامِ ، وَتَوَجُّهَاتِ هٰذِهِ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ الْأَعْلَامِ ، لَرَأَيْت أَمْرًا عَظِيْمًا ، وَشَاهَدْتَ مَقَامًا هَائِلًا جَسِيْمًا . فَلَقَدْ تَنَزَّهَ الْعَارِفُوْنَ بِاللّٰهِ وَبِصُنْعِهِ الْجَمِيْلِ .

(اَلْعَقْلُ الْكُلِّيُّ وَالنَّفْسُ الْكُلِّيَّةُ)

يَاوَلِيِّ ! وَبَعْدَ أَنْ أَشَرْتُ إِلَى فَهْمِكَ الثَّاقِبِ وَنَظَرِكَ الصَّائِبِ ، بِالْأَبِ الْأَوَّلِ السَّارِي ، وَهُوَ الْاِسْمُ الْجَامِعُ الْأَعْظَمُ الَّذِي تَتَبَّعُهُ جَمِيْعُ الْأَسْمَاءِ فِي رَفْعِهِ وَنَصْبِهِ وَخَفْضِهِ ، السَّارِي حُكْمُهُ ؛ وَ (بَعْدَ أَنْ أَشَرْتُ أَيْضًا إِلَى) الْأُمِّ الْأَوَّلِيَّةِ الْآخِرِيَّةِ ، السَّارِيَةِ فِي نِسْبَةِ الْأُنُوْثَةِ فِي جَمِيْعِ الْأَبْنَاءِ ؛ – فَلْنَشْرَعْ فِي الْآبَاءِ الَّذِيْنَ هُمْ أَسْبَابٌ مَوْضُوْعَةٌ بِالْوَضْعِ الْإِلٰهِيِّ ، وَالْأُمَّهَاتِ ، وَاتِّصَالِهِمَا بِالنِّكَاحِ الْمَعْنَوِيِّ وَالْحِسِّيِّ الْمَشْرُوْعِ ، حَتَّى يَكُوْنَ الْأَبْنَاءُ أَبْنَاءَ حَلَالٍ ؛ – إِلَى أَنْ أَصِلَ إِلَى التَّنَاسُلِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَهُوَ آخِرُ نَوْعٍ تَكَوَّنَ ، وَأَوَّلُ مُبْدَعٍ بِالْقَصْدِ تَعَيَّنَ .

فَنَقُوْلُ : إِنَّ الْعَقْلَ الْأَوَّلَ ، الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مُبْدَعٍ خُلِقَ ، وَهُوَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى ؛ وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ مُحْدَثٌ سِوَاهُ . وَكَانَ مُؤَثِّرًا فِيْهِ بِمَا أَحْدَثَ اللّٰهُ فِيْهِ مِنِ انْبِعَاثِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوْظِ عَنْهُ ، كَانْبِعَاثِ حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ فِي عَالَمِ الْأَجْرَامِ ، لِيَكُوْنَ ذٰلِكَ اللَّوْحُ مَوْضِعًا وَمَحَلًّا لِمَا يَكْتُبُ فِيْهِ ذٰلِكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الْإِلٰهِيُّ ، وَتَخْطِيْطِ الْحُرُوْفِ الْمَوْضُوْعَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا جَعَلَهَا الْحَقُّ – تَعَالَى ! – أَدِلَّةً عَلَيْهِ . فَكَانَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوْظُ أَوَّلَ مَوْجُوْدٍ اِنْبِعَاثِيٍّ . – وَقَدْ وَرَدَ فِي الشَّرْعِ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللّٰهُ الْقَلَمَ ثُمَّ خَلَقَ اللَّوْحَ . وَقَالَ لِلْقَلَمِ : اكْتُبْ ! قَالَ

الْقَلَمُ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ اللهُ لَهُ : أُكْتُبُ وَأَنَا أُمْلِي عَلَيْكَ . فَخَطَّ الْقَلَمُ فِي اللَّوْحِ مَا يُمْلِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَهُوَ عِلْمُهُ فِي خَلْقِهِ الَّذِي يَخْلُقُ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

(النِّكَاحُ الْمَعْنَوِيُّ بَيْنَ الْقَلَمِ وَاللَّوْحِ)

فَكَانَ بَيْنَ الْقَلَمِ وَاللَّوْحِ نِكَاحٌ مَعْنَوِيٌّ مَعْقُوْلٌ ، وَأَثَرٌ حِسِّيٌّ مَشْهُوْدٌ . – وَمِنْ هُنَا كَانَ الْعَمَلُ بِالْحُرُوْفِ الْمَرْقُوْمَةِ عِنْدَنَا . – وَكَانَ مَا أُوْدِعَ فِي اللَّوْحِ مِنَ الْأَثَرِ مِثْلُ الْمَاءِ الدَّافِقِ ، الْحَاصِلِ فِي رَحِمِ الْأُنْثَى . وَمَا ظَهَرَ مِنْ تِلْكَ الْكِتَابَةِ ، مِنَ الْمَعَانِي الْمُوْدِعَةِ فِي تِلْكَ الْحُرُوْفِ الْجِرْمِيَّةِ ، (هُوَ) بِمَنْزِلَةِ أَرْوَاحِ الْأَوْلَادِ الْمُوْدِعَةِ فِي أَجْسَامِهِمْ . – فَافْهَمْ ! ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ .

وَجَعَلَ الْحَقُّ فِي هٰذَا اللَّوْحِ ، الْعَاقِلِ عَنِ اللهِ مَا أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ ، الْمُسَبِّحِ بِحَمْدِهِ الَّذِي لَا يَفْقَهُ تَسْبِيْحَهُ إِلَّا مَنْ أَعْلَمَهُ اللهُ بِهِ وَفَتَحَ سَمْعَهُ لِمَا يُوْرِدُهُ ، كَمَا فَتَحَ سَمْعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَمَنْ حَضَرَ مِنْ أَصْحَابِهِ لِإِدْرَاكِ تَسْبِيْحِ الْحَصَى فِي كَفِّهِ الطَّاهِرَةِ الطَّيِّبَةِ ﷺ . وَإِنَّمَا قُلْنَا : « فَتَحَ سَمْعَهُ » ، إِذْ كَانَ الْحَصَى مَا زَالَ ، مُذُّ خَلْقِهِ اللهُ ، مُسَبِّحًا بِحَمْدِ مُوْجِدِهِ . فَكَانَ خَرْقُ الْعَادَةِ فِي الْإِدْرَاكِ السَّمْعِيّ ، لَا فِيْهِ .

ثُمَّ أَوْجَدَ (اللهُ) فِيْهِ (أَيْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوْظِ) صِفَتَيْنِ . صِفَةُ عِلْمٍ وَصِفَةُ عَمَلٍ . فَبِصِفَةِ الْعَمَلِ ، تَظْهَرُ صُوَرُ الْعَالَمِ عَنْهُ (أَيْ عَنِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوْظِ) كَمَا تَظْهَرُ صُوْرَةُ التَّابُوْتِ لِلْعَيْنِ عِنْدَ عَمَلِ النَّجَّارِ . فَبِهَا (أَيْ بِالصِّفَةِ الْعَمَلِيَّةِ) يُعْطِي (النَّجَّارُ) الصُّوَرَ . وَالصُّوَرُ عَلَى قِسْمَيْنِ : صُوَرٌ ظَاهِرَةٌ حِسِّيَّةٌ ، وَهِيَ الْأَجْرَامُ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا حِسًّا ، كَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَالْأَكْوَانِ ؛ وَصُوَرٌ بَاطِنَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ غَيْرُ مَحْسُوْسَةٍ ، وَهِيَ مَا فِيْهَا مِنَ الْعُلُوْمِ وَالْمَعَارِفِ وَالْإِرَادَاتِ . وَبِتَيْنِكَ الصِّفَتَيْنِ ، ظَهَرَ مَا ظَهَرَ مِنَ الصُّوَرِ . فَالصِّفَةُ الْعَلَّامَةُ أَبٌ ، فَإِنَّهَا الْمُؤَثِّرَةُ ؛ وَالصِّفَةُ الْعَامِلَةُ أُمٌّ ، فَإِنَّهَا الْمُؤَثَّرُ فِيْهَا ، وَعَنْهَا ظَهَرَتِ الصُّوَرُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا .

فَإِنَّ النَّجَّارَ الْمُهَنْدِسَ ، إِذَا كَانَ عَالِمًا وَلَا يُحْسِنُ الْعَمَلَ ، فَيُلْقِي مَا عِنْدَهُ عَلَى سَمْعِ مَنْ يُحْسِنُ عَمَلَ النِّجَارَةِ . وَهٰذَا الْإِلْقَاءُ نِكَاحٌ . فَكَلَامُ الْمُهَنْدِسِ أَبٌ ، وَقُبُوْلُ السَّامِعِ أُمٌّ . ثُمَّ يَصِيْرُ عِلْمُ السَّامِعِ أَبًا ثَانِيًا ، وَ (تَصِيْرُ) جَوَارِحُهُ أُمًّا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : فَالْمُهَنْدِسُ أَبٌ ؛ وَالصَّانِعُ ، الَّذِي هُوَ النَّجَّارُ ، أُمٌّ ، مِنْ حَيْثُ مَا هُوَ مُصْغٍ لِمَا يُلْقِي إِلَيْهِ الْمُهَنْدِسُ ؛ فَإِذَا أَثَّرَ (الْمُهَنْدِسُ) فِيْهِ ، فَقَدْ أَنْزَلَ مَا فِي قُوَّتِهِ فِي نَفْسِ النَّجَّارِ . — وَالصُّوْرَةُ الَّتِي ظَهَرَتْ لِلنَّجَّارِ فِي بَاطِنِهِ ، مِمَّا أَلْقَى إِلَيْهِ الْمُهَنْدِسُ ، وَحَصَلَتْ فِي وُجُوْدِ خَيَالِهِ قَائِمَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُ ، (هٰذِهِ الصُّوْرَةُ هِيَ) بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ الَّذِي وَلَّدَ لَهُ فَهْمُهُ عَنِ الْمُهَنْدِسِ . ثُمَّ عَمِلَ النَّجَّارُ — فَهُوَ أَبٌ — فِي الْخَشَبِ —الَّذِي هُوَ أُمُّ النِّجَارَةِ— بِالْآلَاتِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا النِّكَاحُ وَإِنْزَالُ الْمَاءِ ، الَّذِي هُوَ أَثَرُ كُلِّ ضَرْبَةٍ بِالْقَدُوْمِ أَوْ قَطْعٍ بِالْمِنْشَارِ ، وَكُلِّ قَطْعٍ وَفَصْلٍ وَجَمْعٍ فِي الْقِطَعِ الْمَنْجُوْرَةِ لِإِنْشَاءِ الصُّوْرَةِ . فَظَهَرَ التَّابُوْتُ ، الَّذِي هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ الْمَوْلُوْدِ ، الْخَارِجِ لِلْحِسِّ .

فَهٰكَذَا فَلْتَفْهَمِ الْحَقَائِقَ فِي تَرْتِيْبِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَبْنَاءِ ، وَكَيْفِيَةِ الْإِنْتَاجِ . فَكُلُّ أَبٍ لَيْسَ عِنْدَهُ صِفَةُ الْعَمَلِ فَلَيْسَ هُوَ أَبٌ مِنْ ذٰلِكَ الْوَجْهِ . حَتَّى أَنَّهُ لَوْ كَانَ عَالِمًا ، وَمُنِعَ آلَةُ التَّوْصِيْلِ بِالْكَلَامِ أَوِ الْإِشَارَةِ ، لِيَقَعَ الْإِفْهَامُ — وَهُوَ غَيْرُ عَامِلٍ — ، لَمْ يَكُنْ أَبًا مِنْ جَمِيْعِ الْوُجُوْهِ ؛ وَكَانَ أُمًّا لِمَا حَصَلَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْعُلُوْمِ . غَيْرَ أَنَّ الْجَنِيْنَ لَمْ يُخْلَقْ فِيْهِ الرُّوْحُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ؛ أَوْ مَاتَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فَأَحَالَتْهُ طَبِيْعَةُ الْأُمِّ إِلَى أَنْ تَصَرَّفَ ، وَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ عَيْنٌ . — فَافْهَمْ !

(الطَّبِيْعَةُ الْكُلِّيَّةُ وَالْهَبَاءُ)

وَبَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ الْأَبَ الثَّانِيَ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ ، وَأَنَّهُ أُمٌّ ثَانِيَةٌ لِلْقَلَمِ الْأَعْلَى ، كَانَ مِمَّا أُلْقِيَ إِلَيْهَا مِنَ الْإِلْقَاءِ الْأَقْدَسِ الرُّوْحَانِيِّ : الطَّبِيْعَةَ وَالْهَبَاءَ ؛ فَكَانَ أَوَّلَ أُمٍّ وَلَدَتْ تَوْأَمَيْنِ . فَأَوَّلُ مَا أَلْقَتْ (هٰذِهِ الْأُمُّ الثَّانِيَةُ لِلْقَلَمِ) الطَّبِيْعَةَ ثُمَّ تَبِعَتْهَا بِالْهَبَاءِ . فَالطَّبِيْعَةُ وَالْهَبَاءُ أَخٌ وَأُخْتٌ لِأَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ . فَأَنْكَحَ (الْحَقُّ) الطَّبِيْعَةَ الْهَبَاءَ

فَوُلِدَ بَيْنَهُمَا صُوْرَةُ الْجِسْمِ الْكُلِّي ، وَهُوَ أَوَّلُ جِسْمٍ ظَهَرَ . فَكَانَ الطَّبِيْعَةُ الْأَبَ ، فَإِنَّ لَهَا الْأَثَرُ ؛ وَكَانَ الْهَبَاءُ الْأُمَّ ، فَإِنَّ فِيْهَا ظَهَرَ الْأَثَرُ . وَكَانَتِ النَّتِيْجَةُ الْجِسْمَ . – ثُمَّ نَزَلَ التَّوَالُدُ فِي الْعَالَمِ إِلَى التُّرَابِ ، عَلَى تَرْتِيْبٍ مَخْصُوْصٍ ، ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِنَا الْمُسَمَّى بِ « عُقْلَةُ الْمُسْتَوْفِزِ » . وَفِيْهِ طُوْلٌ لَا يَسَعُهُ هٰذَا الْبَابِ ، فَإِنَّ الْغَرَضَ الْاِخْتِصَارَ .

(نَظَرِيَّةُ الْمَرْكَزِ وَنَظَرِيَّةُ نِهَايَةِ الْأَرْكَانِ)

وَنَحْنُ لَا نَقُوْلُ بِالْمَرْكَزِ ، وَإِنَّمَا نَقُوْلُ : بِنِهَايَةِ الْأَرْكَانِ ، وَإِنَّ الْأَعْظَمَ يَجْذَبُ الْأَصْغَرَ . وَلِهٰذَا نَرَى الْبُخَارَ وَالنَّارَ يَطْلُبَانِ الْعُلُوَّ ، وَالْحَجَرُ وَمَا أَشْبَهَهُ يَطْلُبُ السُّفْلَ . فَاخْتَلَفَتِ الْجِهَاتُ ، وَذٰلِكَ عَلَى الْاِسْتِقَامَةِ مِنَ الْاِثْنَيْنِ ، أَعْنِي طَالِبِ الْعُلْوِ وَالسُّفْلِ . فَإِنَّ الْقَائِلَ بِالْمَرْكَزِ يَقُوْلُ : إِنَّهُ أَمْرٌ مَعْقُوْلٌ دَقِيْقٌ تَطْلُبُهُ الْأَرْكَانُ . وَلَوْلَا التُّرَابُ لَدَارَ بِهِ الْمَاءُ ؛ وَلَوْلَا الْمَاءُ لَدَارَ بِهِ الْهَوَاءُ ؛ وَلَوْلا الْهَوَاءُ لَدَارَ بِهِ النَّارُ . وَلَوْ كَانَ (الْأَمْرُ) كَمَا قَالَ ، لَكِنَا نَرَى الْبُخَارَ يَطْلُبُ السُّفْلَ ، وَالْحِسُّ يَشْهَدُ بِخِلَافِ ذٰلِكَ . وَقَدْ بَيَّنَّا هٰذَا الْفَصْلَ فِي كِتَابِ « الْمَرْكَزِ » لَنَا ، وَهُوَ جُزْءٌ لَطِيْفٌ .

فَإِذَا ذَكَرْنَاهُ (أَيْ الْمَرْكَزَ) فِي بَعْضِ كُتُبِنَا ، إِنَّمَا نَسُوْقُهُ عَلَى جِهَةِ مِثَالِ النُّقْطَةِ مِنَ الْأُكْرَةِ الَّتِي عَنْهَا يَحْدُثُ الْمُحِيْطُ ، لِمَا لَنَا فِي ذٰلِكَ مِنَ الْغَرَضِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْمَعَارِفِ الْإِلٰهِيَّةِ وَالنِّسَبِ ، لِكَوْنِ الْخُطُوطِ الْخَارِجَةِ مِنَ النُّقْطَةِ إِلَى الْمُحِيْطِ عَلَى السَّوَاءِ ، لَتَسَاوَى النِّسَبُ حَتَّى لَا يَقَعُ هُنَاكَ تَفَاضُلٌ ، فَإِنَّهُ لَوْ وَقَعَ تَفَاضُلٌ أَدَّى إِلَى نَقْصِ الْمَفْضُوْلِ ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذٰلِكَ . –

وَجَعَلْنَاهُ (أَيْ الْمَرْكَزَ) مَحَلَّ الْعُنْصُرِ الْأَعْظَمِ ، تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّ الْأَعْظَمَ يَحْكُمُ عَلَى الْأَقَلِّ . وَذَكَرْنَاهُ مُشَارًا إِلَيْهِ فِي « عُقْلَةِ الْمُسْتَوْفِزِ » .

(دَوْرَةُ الْأَفْلَاكِ الْعُلْوِيَّةِ)

وَلَمَّا أَدَارَ اللهُ هٰذِهِ الْأَفْلَاكَ الْعُلْوِيَّةَ ، وَأَوْجَدَ الْأَيَّامَ بِالْفَلَكِ الْأَوَّلِ ، وَعَيَّنَهُ بِالْفَلَكِ

الثَّانِيّ الَّذِي فِيْهِ الْكَوَاكِبُ الثَّابِتَةُ لِلْأَبْصَارِ. ثُمَّ أَوْجَدَ الْأَرْكَانَ تُرَابًا وَمَاءًا وَهَوَاءًا وَنَارًا. ثُمَّ سَوَّىٰ السَّمٰوَاتِ سَبْعًا طِبَاقًا، وَفَتَقَهَا – أَيْ فَصَّلَ كُلَّ سَمَاءٍ عَلَى حِدَةٍ – بَعْدَمَا كَانَتْ رَتْقًا، إِذْ كَانَتْ دُخَانًا. وَفَتَقَ الْأَرْضَ إِلَى سَبْعِ أَرْضِيْنَ: سَمَاءٌ أُوْلَى لِأَرْضٍ أُوْلَى؛ وَثَانِيَةٌ لِثَانِيَةٍ، إِلَى سَبْعٍ. وَخَلَقَ «الْجَوَارِي الْخُنَّسَ» خَمْسَةً: فِي كُلِّ سَمَاءٍ، كَوْكَبٌ. وَخَلَقَ الْقَمَرَ وَخَلَقَ الشَّمْسَ.

فَحَدَّثَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بِخَلْقِ الشَّمْسِ فِي الْيَوْمِ، وَقَدْ كَانَ الْيَوْمُ مَوْجُوْدًا. فَجَعَلَ النِّصْفَ مِنْ هٰذَا الْيَوْمِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ نَهَارًا، وَهُوَ مِنْ طُلُوْعِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوْبِهَا؛ وَجَعَلَ النِّصْفَ الْآخِرَ مِنْهُ لَيْلًا، وَهُوَ مِنْ غُرُوْبِ الشَّمْسِ إِلَى طُلُوْعِهَا. وَالْيَوْمُ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَجْمُوْعِ، وَلِهٰذَا «خَلَقَ (اللهُ) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ». فَإِنَّ الْأَيَّامَ كَانَتْ مَوْجُوْدَةً بِوُجُوْدِ حَرَكَةِ فَلَكِ الْبُرُوْجِ، وَهِيَ الْأَيَّامُ الْمَعْرُوْفَةُ عِنْدَنَا لَا غَيْرَ. فَمَا قَالَ اللهُ: خَلَقَ الْعَرْشَ وَالْكُرْسِيَّ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿**خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾. فَإِذَا دَارَ فَلَكُ الْبُرُوْجِ دَوْرَةً وَاحِدَةً، فَذٰلِكَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي خَلَقَ اللهُ فِيْهِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ. ثُمَّ أَحْدَثَ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِنْدَ وُجُوْدِ الشَّمْسِ، لَا الْأَيَّامَ.

وَأَمَّا مَا يَطْرَأُ فِيهَا (أَيْ فِي دَوْرَةِ فَلَكِ الْبُرُوْجِ) مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ – أَعْنِي فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا فِي السَّاعَاتِ، فَإِنَّهَا (دَائِمًا) أَرْبَعٌ وَعِشْرُوْنَ سَاعَةً –، وَذٰلِكَ لِحُلُوْلِ الشَّمْسِ فِي مَنْطِقَةِ الْبُرُوْجِ، وَهِيَ حَمَائِلِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا. (أَيْ) فِيْهَا مَيْلٌ. فَيَطُوْلُ النَّهَارُ إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ حَيْثُ كَانَتْ؛ وَإِذَا حَلَّتِ الشَّمْسُ فِي الْمَنَازِلِ النَّازِلَةِ، قَصَرَ النَّهَارُ حَيْثُ كَانَتْ. وَإِنَّمَا قُلْنَا: «حَيْثُ كَانَتْ»، فَإِنَّهُ إِذَا طَالَ اللَّيْلُ عِنْدَنَا، طَالَ النَّهَارُ عِنْدَ غَيْرِنَا، فَتَكُوْنُ الشَّمْسُ فِي الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وَفِي الْمَنَازِلِ النَّازِلَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا. فَإِذَا قَصَرَ النَّهَارُ عِنْدَنَا، طَالَ اللَّيْلُ عِنْدَهُمْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ. وَالْيَوْمُ هُوَ الْيَوْمُ بِعَيْنِهِ: أَرْبَعٌ وَعِشْرُوْنَ سَاعَةً، لَا يَزِيْدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَلَا يَطُوْلُ وَلَا يَقْصُرُ فِي مَوْضِعِ الْاِعْتِدَالِ. فَهٰذَا هُوَ حَقِيْقَةُ الْيَوْمِ. ثُمَّ قَدْ نُسَمِّي النَّهَارَ وَحْدَهُ يَوْمًا بِحُكْمِ الْاِصْطِلَاحِ. – فَافْهَمْ!

(الزَّمَانُ وَالشُّؤُوْنُ الإِلٰهِيَّةُ)

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ هٰذَا الزَّمَانَ ، الَّذِي هُوَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، يَوْمًا ؛ وَالزَّمَانُ هُوَ الْيَوْمُ . وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَوْجُوْدَانِ فِي الزَّمَانِ ، جَعَلَهُمَا أَبًا وَأُمًّا لِمَا يُحْدِثُ اللهُ فِيْهِمَا ، كَمَا قَالَ : ﴿**يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ**﴾ –كَمِثْلِ قَوْلِهِ فِي آدَمَ : ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ**﴾ . فَإِذَا غَشِيَ اللَّيْلُ النَّهَارَ ، كَانَ اللَّيْلُ أَبًا وَكَانَ النَّهَارُ أُمًّا ؛ وَصَارَ كُلُّ مَا يُحْدِثُ اللهُ فِي النَّهَارِ بِمَنْزِلَةِ الْأَوْلَادِ الَّتِي تَلِدُ الْمَرْأَةُ . وَإِذَا غَشِيَ النَّهَارُ اللَّيْلَ ، كَانَ النَّهَارُ أَبًا وَكَانَ اللَّيْلُ أُمًّا ؛ وَكَانَ كُلُّ مَا يُحْدِثُ اللهُ مِنَ الشُّؤُوْنِ فِي اللَّيْلِ بِمَنْزِلَةِ الْأَوْلَادِ الَّتِي تَلِدُ الْأُمُّ . وَقَدْ بَيَّنَّا هٰذَا الْفَصْلَ فِي « كِتَابِ الشَّأْنِ » لَنَا ، تَكَلَّمْنَا فِيْهِ عَلَى قَوْلِهِ – تَعَالَى ! – : ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ**﴾ . وَسَيَأْتِي – إِنْ شَاءَ اللهُ ! – فِي هٰذَا الْكِتَابِ ، إِنْ ذَكَّرَنَا اللهُ بِهِ ، مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَيَّامِ طَرْفٌ شَافٍ .

وَكَذٰلِكَ قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿**يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ**﴾ – فَزَادَ بَيَانًا فِي التَّنَاكُحِ . وَأَبَانَ – سُبْحَانَهُ ! – بِقَوْلِهِ : ﴿ **وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ** ﴾ – أَنَّ اللَّيْلَ أُمٌّ لَهُ ، وَأَنَّ النَّهَارَ مُتَوَلِّدٌ عَنْهُ ، كَمَا يَنْسَلِخُ الْمَوْلُوْدُ مِنْ أُمِّهِ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا ، وَالْحَيَّةُ مِنْ جِلْدِهَا . فَيَظْهَرُ (النَّهَارُ) مُوَلَّدًا فِي عَالَمٍ آخَرٍ غَيْرِ الْعَالَمِ الَّذِي يَحْوِيهِ اللَّيْلُ . وَالْأَبُ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ . وَقَدْ بَيَّنَّا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ « الزَّمَانِ » لَنَا وَمَعْرِفَةِ الدَّهْرِ . فَهٰذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَبَوَانِ بِوَجْهٍ ، وَأُمَّانِ بِوَجْهٍ ؛ وَمَا يُحْدِثُ اللهُ فِيْهِمَا فِي عَالَمِ الْأَرْكَانِ مِنَ الْمُوَلَّدَاتِ ، عِنْدَ تَصْرِيْفِهِمَا ، يُسَمُّوْنَ أَوْلَادَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ .

(أَهْرَامُ مِصْرَ بُنِيَتْ وَالنَّسْرُ فِي الْأَسَدِ)

وَلَمَّا أَنْشَأَ اللهُ أَجْرَامَ الْعَالَمِ كُلِّهِ ، الْقَابِلِ لِلتَّكْوِيْنِ فِيْهِ ، جَعَلَ مِنْ حَدِّ مَا يَلِي مُقَعَّرِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِلَى بَاطِنِ الْأَرْضِ ، عَالَمَ الطَّبِيْعَةِ وَالْاِسْتِحَالَاتِ وَظُهُوْرِ الْأَعْيَانِ الَّتِي تُحْدِثُ عِنْدَ الْاِسْتِحَالَاتِ ، وَجَعَلَهَا بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ . وَجَعَلَ مِنْ مُقَعَّرِ فَلَكِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا

إِلَى آخِرِ الْأَفْلَاكِ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ . وَقَدَّرَ فِيهَا مَنَازِلَ . وَزَيَّنَهَا بِالْأَنْوَارِ الثَّابِتَةِ وَالسَّابِحَةِ . فَالسَّابِحَةُ تَقْطَعُ فِي الثَّابِتَةِ ، وَالثَّابِتَةُ وَالسَّابِحَةُ تَقْطَعُ فِي الْفَلَكِ الْمُحِيطِ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ . – بِدَلِيلِ أَنَّهُ رُؤِيَ فِي بَعْضِ الْأَهْرَامِ الَّتِي بِدِيَارِ مِصْرَ ، مَكْتُوبًا بِقَلَمٍ يَذْكُرُ فِي ذٰلِكَ تَارِيخَ الْأَهْرَامِ أَنَّهَا بُنِيَتْ وَالنَّسْرُ فِي الْأَسَدِ . وَلَا شَكَّ أَنَّهُ الْآنَ فِي الْجُدَى . كَذَا نُدْرِكُهُ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْكَوَاكِبَ الثَّابِتَةَ تَقْطَعُ فِي فَلَكِ الْبُرُوجِ الْأَطْلَسِ . وَاللهُ يَقُولُ فِي الْقَمَرِ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ . وَقَالَ فِي الْكَوَاكِبِ : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ . وَقَالَ – تَعَالَى ! – ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ﴾ وَقَدْ قُرِئَ « لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا » . وَلَيْسَ بَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَنَافُرٌ . ثُمَّ قَالَ (– تَعَالَى ! –) : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ – يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِهِ فِي الْقَمَرِ : « أَنَّهُ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ » . وَقَالَ : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ – أَيْ فِي شَيْءٍ مُسْتَدِيرٍ .

(الْأَمْرُ الْإِلٰهِيُّ الْمُنَزَّلُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

وَجَعَلَ (الْحَقُّ) لِهٰذِهِ الْأَنْوَارِ ، الْمُسَمَّاةِ بِالْكَوَاكِبِ ، أَشِعَّةً مُتَّصِلَةً بِالْأَرْكَانِ ، تَقُومُ اِتِّصَالَاتُهَا بِهَا مَقَامَ نِكَاحِ الْآبَاءِ لِلْأُمَّهَاتِ . فَيُحْدِثُ اللهُ – تَعَالَى ! – عِنْدَ اتِّصَالِ تِلْكَ الشَّعَاعَاتِ النُّوْرِيَّةِ فِي الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ ، مِنْ عَالَمِ الطَّبِيعَةِ ، مَا يَتَكَوَّنُ فِيهَا مِمَّا نُشَاهِدُهُ حِسًّا . فَهٰذِهِ الْأَرْكَانُ لَهَا ، بِمَنْزِلَةِ الْأَرْبَعَةِ النِّسْوَةِ فِي شَرْعِنَا . وَكَمَا لَا يَكُونُ نِكَاحٌ شَرْعِيٌّ عِنْدَنَا حَلَالًا إِلَّا بِعَقْدٍ شَرْعِيٍّ ، كَذٰلِكَ أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا . فَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ الْوَحْيِ تَنَزُّلُ الْأَمْرِ بَيْنَهُنَّ ، كَمَا قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ – يَعْنِي الْأَمْرَ الْإِلٰهِيَّ .

وَفِي تَفْسِيرِ هٰذَا التَّنْزِيلِ (لِلْأَمْرِ الْإِلٰهِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أَسْرَارٌ عَظِيمَةٌ ، تَقْرُبُ مِمَّا نُشِيرُ إِلَيْهِ فِي هٰذَا الْبَابِ . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هٰذِهِ الْآيَةِ : « لَوْ فَسَّرْتُهَا لَقُلْتُمْ إِنِّي كَافِرٌ ! » . وَفِي رِوَايَةٍ : « لَرَجَمْتُمُونِي ! » . وَإِنَّهَا مِنْ أَسْرَارِ آيِ الْقُرْآنِ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَتَنَزَّلُ

ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ ﴾ ثُمَّ تَمَّمَ وَأَبَانَ فَقَالَ : ﴿**لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ** ﴾ – وَهُوَ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ بِصِفَةِ الْعَمَلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ آنِفًا ، مِنْ إِيْجَادِ اللهِ صِفَةَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي الْأَبِ الثَّانِي . فَإِنَّ الْقُدْرَةَ لِلْإِيْجَادِ وَهُوَ الْعَمَلُ . – ثُمَّ تَمَّمَ (– تَعَالَى ! –) فِي الْأَخْبَارِ فَقَالَ : ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا** ﴾ – وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَيْهِ بِصِفَةِ الْعِلْمِ الَّتِي أَعْطَاهَا اللهُ لِلْأَبِ الثَّانِي ، الَّذِي هُوَ النَّفْسُ الْكُلِّيَّةُ الْمُنْبَعِثَةُ . – فَهُوَ « الْعَلِيْمُ » – سُبْحَانَهُ ! – بِمَا يُوْجِدُ ، « الْقَدِيْرُ » عَلَى إِيْجَادِ مَا يُرِيْدُ إِيْجَادَهُ ، لَا مَانِعَ لَهُ . فَجَعَلَ « الْأَمْرَ يَتَنَزَّلُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » : كَالْوَلَدِ يَظْهَرُ بَيْنَ الْأَبَوَيْنِ .

(أَشْعَةُ الْكَوَاكِبِ وَاتِّصَالُهَا بِالْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ)

وَأَمَّا اِتِّصَالُ الْأَشِعَّةِ النُّوْرِيَّةِ الْكَوْكَبِيَّةِ ، عَنِ الْحَرَكَةِ الْفَلَكِيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ ، بِالْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْمُوَلَّدَاتِ ، فِي الْحِيْنِ الْوَاحِدِ لِلْكُلِّ مَعًا ، (فَقَدْ) جَعَلَهُ الْحَقُّ مِثَالًا لِلْعَارِفِيْنَ فِي نِكَاحِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ جَمِيْعَ نِسَائِهِمْ وَجَوَارِيْهِمْ فِي الْآنِ الْوَاحِدِ ، نِكَاحًا حِسِّيًّا . كَمَا أَنَّ هٰذِهِ الْاِتِّصَالَاتِ (النُّوْرِيَّةَ الْكَوْكَبِيَّةَ هِيَ) حِسِّيَّةً (أَيْضًا) . فَيُنْكِحُ الرَّجُلُ فِي الْجَنَّةِ جَمِيْعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمَنْكُوحَاتِ ، إِذَا اشْتَهَى ذٰلِكَ ، فِي الْآنِ الْوَاحِدِ ، نِكَاحًا جِسْمِيًّا مَحْسُوْسًا ، بِإِيْلَاجٍ وَوُجُوْدِ لَذَّةٍ خَاصَّةٍ بِكُلِّ امْرَأَةٍ ، مِنْ غَيْرِ تَقَدُّمٍ وَلَا تَأَخُّرٍ . وَهٰذَا هُوَ النَّعِيْمُ الدَّائِمُ وَالْاِقْتِدَارُ الْإِلٰهِيُّ . وَالْعَقْلُ يَعْجُزُ عَنْ إِدْرَاكِ هٰذِهِ الْحَقِيْقَةِ مِنْ حَيْثُ فِكْرِهِ ؛ وَإِنَّمَا يُدْرَكُ هٰذَا بِقُوَّةٍ أُخْرَى إِلٰهِيَّةٍ ، فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ (اللهُ) مِنْ عِبَادِهِ .

كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي الْجَنَّةِ فِي « سُوْقِ الصُّوَرِ » ، إِذَا اشْتَهَى (الْعَبْدُ) صُوْرَةً دَخَلَ فِيْهَا . كَمَا تَشَكَّلَ الرُّوْحُ هُنَا ، عِنْدَنَا ، وَإِنْ كَانَ جِسْمًا ؛ وَلٰكِنْ أَعْطَاهُ اللهُ هٰذِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى ذٰلِكَ « وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ » . وَحَدِيْثُ « سُوْقِ الْجَنَّةِ » ذَكَرَهُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِي فِي مُصْنَفِهِ . فَانْظُرْهُ هُنَاكَ .

فَإِذَا اتَّصلَتِ الْأَشِعَّةُ النُّوْرِيَّةُ فِي الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ ، ظَهَرَتِ الْمُوَلَّدَاتُ عَنْ هٰذَا النِّكَاحِ الَّذِي قَدَّرَهُ الْعَزِيْزُ الْعَلِيْمُ . فَصَارَتِ الْمُوَلِّدَاتُ بَيْنَ آبَاءٍ – وَهِيَ الْأَفْلَاكُ وَالْأَنْوَارُ الْعُلْوِيَّةُ – ، وَبَيْنَ أُمَّهَاتٍ وَهِيَ الْأَرْكَانُ الطَّبِيْعِيَّةُ السُّفْلِيَّةُ . وَصَارَتِ الْأَشِعَّةُ ، الْمُتَّصِلَةُ مِنَ الْأَنْوَارِ بِالْأَرْكَانِ ، كَالنِّكَاحِ ، وَ (صَارَتْ) حَرَكَاتُ الْأَفْلَاكِ وَسَبَاحَاتُ الْأَنْوَارِ بِمَنْزِلَةِ حَرَكَةِ الْمُجَامِعِ . وَكَانَ حَرَكَاتُ الْأَرْكَانِ بِمَنْزِلَةِ الْمَخَاضِ لِلْمَرْأَةِ ، لِاسْتِخْرَاجِ الزُّبْدِ الَّذِي يَخْرُجُ بِالْمَخْضِ ، وَهُوَ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْمُوَلِّدَاتِ فِي هٰذِهِ الْأَرْكَانِ لِلْعَيْنِ ، مِنْ صُوْرَةِ الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَنَوْعِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ . – فَسُبْحَانَ الْقَادِرِ عَلَى مَا يَشَاءُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيْكُهُ .

(الشُّكْرُ لِلّٰهِ وَلِلْوَالِدَيْنِ مِنَ الْمَقَامِ الْكُلِّيِّ)

قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ . – فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ ، أَيُّهَا الْوَلِيُّ ! آبَاؤُكَ وَأُمَّهَاتُكَ : مَنْ هُمْ ؟ إِلَى أَقْرَبِ أَبٍ لَكَ ، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ عَيْنُكَ بِهِ ؛ وَأُمِّكَ كَذٰلِكَ الْقَرِيْبَةِ إِلَيْكَ ؛ إِلَى الْأَبِ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ الْجَدُّ الْأَعْلَى ؛ إِلَى بِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ . فَشُكْرُهُمُ الَّذِي يُسَرُّوْنَ بِهِ وَيَفْرَحُوْنَ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ ، هُوَ أَنْ تَنْسِبَهُمْ إِلَى مَالِكِهِمْ وَمُوْجِدِهِمْ ، وَتَسْلُبَ الْفِعْلَ عَنْهُمْ ، وَتُلْحِقَهُ بِمُسْتَحِقِّهِ الَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ . فَإِذَا فَعَلْتَ هٰذَا ، فَقَدْ أَدْخَلْتَ سُرُوْرًا عَلَى آبَائِكَ بِفِعْلِكَ ذٰلِكَ . وَإِدْخَالُ هٰذَا السُّرُوْرِ عَلَيْهِمْ هُوَ عَيْنُ بِرِّكَ بِهِمْ ، وَشُكْرِكَ إِيَّاهُمْ . وَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هٰذَا ، وَنَسِيْتَ اللّٰهَ بِهِمْ ، فَمَا شَكَرْتَهُمْ ، وَلَا امْتَثَلْتَ أَمْرَ اللّٰهِ فِي شُكْرِهِمْ .

فَإِنَّهُ (– تَعَالَى ! –) قَالَ : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ – فَقَدَّمَ نَفْسَهُ لِيُعَرِّفَكَ أَنَّهُ السَّبَبُ الْأَوَّلُ وَالْأُوْلَى ، ثُمَّ عَطَفَ وَقَالَ : ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ – وَهِيَ الْأَسْبَابُ الَّتِي أَوْجَدَكَ اللّٰهُ عِنْدَهَا (لَا بِهَا) ، لِتُنْسِبَهَا إِلَيْهِ – سُبْحَانَهُ ! – ، وَيَكُوْنُ لَهَا عَلَيْكَ فَضْلُ التَّقَدُّمِ بِالْوُجُوْدِ خَاصَّةً ، لَا فَضْلُ التَّأْثِيْرِ ؛ لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيْقَةِ لَا أَثَرَ لَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ أَسْبَابًا لِوُجُوْدِ الْآثَارِ (عَنْهَا ، أَوْ عِنْدَهَا) . فَبِهٰذَا الْقَدْرِ صَحَّ لَهَا الْفَضْلُ ؛ وَطُلِبَ مِنْكَ الشُّكْرُ لَهَا ؛

وَأَنْزَلَهَا الْحَقُّ ، لَكَ وَعِنْدَكَ ، مَنْزِلَتَهُ فِي التَّقَدُّمِ عَلَيْكَ ، لَا فِي الْأَثَرِ ، لِيَكُوْنَ الثَّنَاءُ بِالتَّقَدُّمِ وَالتَّأْثِيْرِ لِلّٰهِ – تَعَالَى ! – ، وَبِالتَّقَدُّمِ وَالتَّوَقُّفِ لِلْوَالِدَيْنِ ، وَلٰكِنْ عَلَى مَا شَرَطْنَاهُ . « فَلَا تُشْرِكِ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ أَحَدًا ! » .

فَإِذَا أَثْنَيْتُ عَلَى اللهِ – تَعَالَى ! – وَقُلْتُ : رَبَّنَا وَرَبَّ آبَائِنَا الْعُلْوِيَّاتِ وَأُمَّهَاتِنَا السُّفْلِيَّاتِ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ أَقُوْلَهَا أَنَا ، أَوْ يَقُوْلُهَا جَمِيْعُ بَنِي آدَمَ مِنَ الْبَشَرِ . فَلَمْ نُخَاطِبْ شَخْصًا بِعَيْنِهِ حَتَّى نَسُوْقَ آبَاءَهُ وَأُمَّهَاتَهُ ، مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَى زَمَانِهِ . وَإِنَّمَا الْقَصْدُ هٰذَا النَّشْءُ الْإِنْسَانِيُّ . فَكُنْتُ مُتَرْجِمًا عَنْ كُلِّ مَوْلُوْدٍ بِهٰذَا التَّحْمِيْدِ : مِنْ عَالَمِ الْأَرْكَانِ وَعَالَمِ الطَّبِيْعَةِ وَ (عَالَمِ) الْإِنْسَانِ . ثُمَّ نَرْتَقِي فِي النِّيَابَةِ عَنْ كُلِّ مُوَلَّدٍ بَيْنَ مُؤَثِّرٍ وَمُؤَثَّرٍ فِيْهِ ، فَنَحْمَدُهُ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَنَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهٍ ، فَيَكُوْنُ الْجَزَاءُ لَنَا ، مِنْ عِنْدِ اللهِ ، مِنْ ذٰلِكَ الْمَقَامِ الْكُلِّ .

(السَّلَامُ التَّامُّ عَلَى جَمِيْعِ الْأَنَامِ)

كَمَا قَالَ لِي بَعْضُ مَشِيْخَتِي : إِذَا قُلْتَ : « السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ ! » أَوْ قُلْتَ : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ! » إِذَا سَلَّمْتَ فِي طَرِيْقِكَ عَلَى أَحَدٍ ؛ – فَاحْضُرْ فِي قَلْبِكَ كُلَّ صَالِحٍ لِلّٰهِ مِنْ عِبَادِهِ ، فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَمَيِّتٌ وَحَيٌّ ، فَإِنَّهُ مِنْ ذٰلِكَ الْمَقَامِ يُرَدُّ عَلَيْكَ . فَلَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، وَلَا رُوْحٌ مُطَهَّرٌ ، يَبْلُغُهُ سَلَامُكَ ، إِلَّا وَيَرُدُّ عَلَيْكَ . وَهُوَ دُعَاءٌ ؛ فَيُسْتَجَابُ فِيْكَ ؛ فَتُفْلِحَ . وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ سَلَامُكَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُهَيَّمِيْنَ فِي جَلَالِهِ ، الْمُشْتَغِلِيْنَ بِهِ ، الْمُسْتَفْرَغِيْنَ فِيْهِ – وَأَنْتَ قَدْ سَلَّمْتَ عَلَيْهِمْ بِهٰذَا الشُّمُوْلِ – فَإِنَّ اللهَ يَنُوْبُ عَنْهُمْ فِي الرَّدِّ عَلَيْكَ . وَكَفَى بِهٰذَا شَرَفًا فِي حَقِّكَ حَيْثُ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ الْحَقُّ ! فَلَيْتَهُ لَمْ يُسْمِعْ (سَلَامُكَ) أَحَدًا مِمَّنْ سَلَّمْتَ عَلَيْهِ ، حَتَّى يَنُوْبَ (الْحَقُّ) عَنِ الْجَمِيْعِ فِي الرَّدِّ عَلَيْكَ ! فَإِنَّهُ بِكَ أَشْرَفُ .

قَالَ – تعَالَى ! – تَشْرِيْفًا فِي حَقِّ يَحْيَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ – وَهٰذَا سَلَامُ فَضِيْلَةٍ وَإِخْبَارٍ . فَكَيْفَ بِسَلَامٍ وَاجِبٍ ، نَابَ الْحَقُّ (فِيْهِ) مَنَابَ مَنْ أَجَابَ عَنْهُ ؟ وَجَزَاءُ الْفَرَائِضِ أَعْظَمُ مِنْ جَزَاءِ الْفَضَائِلِ فِي حَقِّ مَنْ قِيْلَ فِيْهِ : « وسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ » ، فَيَجْمَعُ لَهُ بَيْنَ الْفَضِيْلَتَيْنِ .

وَقَدْ وَرَدَتْ صَلَاةُ اللهِ عَلَيْنَا اِبْتِدَاءًا . وَمَا وَصَلَ إِلَيَّ هَلْ وَرَدَ السَّلَامُ اِبْتِدَاءًا ، كَمَا وَرَدَتِ الصَّلَاةُ ، أَمْ لَا ؟ فَمَنْ رَوَى فِي ذٰلِكَ شَيْئًا وَتَحَقَّقَهُ ، فَقَدْ جَعَلْتُ أَمَانَةً فِي عُنُقِهِ أَنْ يُلْحِقَهُ فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ إِلَى جَانِبِ صَلَاةِ اللهِ عَلَيْنَا فِي هٰذَا الْبَابِ ، لِيَكُوْنَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِيْنَ ، وَشَرَفًا لِكِتَابِي هٰذَا . وَاللهُ الْمُعَيِّنُ وَالْمُوَفِّقُ ، لَا رَبَّ غَيْرَهُ !

(الْآبَاءُ الطَّبِيْعِيُّوْنَ وَالْأُمَّهَاتُ الطَّبِيْعِيَّاتُ)

وَأَمَّا الْآبَاءُ الطَّبِيْعِيُّوْنَ وَالْأُمَّهَاتُ فَلَمْ نَذْكُرْهُمْ ؛ فَلْنَذْكُرِ الْأَمْرَ الْكُلَّ مِنْ ذٰلِكَ . وَهُمْ أَبَوَانِ وَأُمَّانِ . فَالْأَبَوَانِ هُمَا الْفَاعِلَانِ ، وَالْأُمَّانِ هُمَا الْمُنْفَعِلَانِ ، وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُمَا هُوَ الْمُنْفَعِلُ عَنْهُمَا . فَالْحَرَارَةُ وَالْبُرُوْدَةُ فَاعِلَانِ ؛ وَالرُّطُوْبَةُ وَالْيُبُوْسَةُ مُنْفَعِلَانِ . فَنَكَحَتِ الْحَرَارَةُ الْيُبُوْسَةُ فَانْتَجَا رُكْنَ النَّارِ . وَنَكَحَتِ الْحَرَارَةُ الرُّطُوْبَةَ فَانْتَجَا رُكْنَ الْهَوَاءِ . ثُمَّ نَكَحَ الْبُرُوْدَةُ الرُّطُوْبَةَ فَانْتَجَا رُكْنَ الْمَاءِ . وَنَكَحَ الْبُرُوْدَةُ الْيُبُوْسَةَ فَانْتَجَا رُكْنَ التُّرَابِ .

فَحَصَلَتْ فِي الْأَبْنَاءِ حَقَائِقُ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ . فَكَانَتِ النَّارُ حَارَّةً يَابِسَةً ؛ فَحَرَارَتُهَا مِنْ جِهَةِ الْأَبِ ، وَيُبُوْسَتُهَا مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ . وَكَانَ الْهَوَاءُ حَارًّا رَطْبًا ؛ فَحَرَارَتُهُ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ ، وَرُطُوْبَتُهُ مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ . وَكَانَ الْمَاءُ بَارِدًا رَطْبًا ؛ فَبُرُوْدَتُهُ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ ، وَرُطُوْبَتُهُ مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ . وَكَانَتِ الْأَرْضُ بَارِدَةً يَابِسَةً ؛ فَبُرُوْدَتُهَا مِنْ جِهَةِ الْأَبِ ، وَيُبُوْسَتُهَا مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ . – فَالْحَرَارَةُ وَالْبُرُوْدَةُ مِنَ الْعِلْمِ ؛ وَالرُّطُوْبَةُ وَالْيُبُوْسَةُ مِنَ الْإِرَادَةِ . هٰذَا حَدُّ تَعَلُّقِهَا فِي وُجُوْدِهَا مِنَ الْعِلْمِ الْإِلٰهِيِّ . وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُمَا (أَيْ عَنِ الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ) مِنَ الْقُدْرَةِ . ثُمَّ يَقَعُ التَّوَالُدُ فِي هٰذِهِ الْأَرْكَانِ ، مِنْ كَوْنِهَا أُمَّهَاتٍ ، لِآبَاءِ

الْأَنْوَارِ الْعُلْوِيَّةِ ، لَا مِنْ كَوْنِهَا آبَاءًا ، وَإِنْ كَانَتِ الْأُبُوَّةُ فِيهَا مَوْجُودَةً .

فَقَدْ عَرَّفْنَاكَ (- أَيُّهَا الْوَلِيُّ ! -) أَنَّ الْأُبُوَّةَ وَالْبُنُوَّةَ مِنَ الْإِضَافَاتِ وَالنِّسَبِ : فَالْأَبُ اِبْنٌ لِأَبٍ هُوَ اِبْنٌ لَهُ ! وَالِابْنُ أَبٌ لِابْنٍ هُوَ أَبٌ لَهُ ! وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ) بَابِ النِّسَبِ . فَانْظُرْ فِيهِ . - وَاللّٰهُ الْمُوَفِّقُ ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ !

وَلَمَّا كَانَتِ الْيُبُوسَةُ مُنْفَعِلَةً عَنِ الْحَرَارَةِ ؛ وَكَانَتِ الرُّطُوبَةُ مُنْفَعِلَةً عَنِ الْبُرُودَةِ ، - قُلْنَا فِي الرُّطُوبَةِ وَالْيُبُوسَةِ : إِنَّهُمَا مُنْفَعِلَتَانِ ، وَجَعَلْنَاهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ لِلْأَرْكَانِ . وَلَمَّا كَانَتِ الْحَرَارَةُ وَالْبُرُودَةُ فَاعِلَيْنِ ، جَعَلْنَاهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ لِلْأَرْكَانِ . وَلَمَّا كَانَتِ الصَّنْعَةُ تَسْتَدْعِي صَانِعًا وَلَا بُدَّ ؛ وَالْمُنْفَعِلُ يَطْلُبُ الْفَاعِلَ بِذَاتِهِ ، فَإِنَّهُ مُنْفَعِلٌ لِذَاتِهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُنْفَعِلًا لِذَاتِهِ لَمَا قَبِلَ الِانْفِعَالَ وَالْأَثَرَ ، وَ (لَمَا) كَانَ مُؤَثَّرًا فِيهِ ، بِخِلَافِ الْفَاعِلِ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ بِالِاخْتِيَارِ : إِنْ شَاءَ فَعَلَ ، فَيُسَمَّى فَاعِلًا ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ ؛ وَلَيْسَ ذٰلِكَ لِلْمُنْفَعِلِ .

وَلِهٰذِهِ الْحَقِيقَةِ ، ذَكَرَ - تَعَالَى ! - وَهُوَ مِنْ فَصَاحَةِ الْقُرْآنِ وَإِيجَازِهِ : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فَذَكَرَ الْمُنْفَعِلَ ، وَلَمْ يَذْكُرْ : وَلَا حَارٍّ وَلَا بَارِدٍ . (وَذٰلِكَ أَنَّهُ) لَمَّا كَانَتِ الرُّطُوبَةُ وَالْيُبُوسَةُ ، عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِالطَّبِيعَةِ ، تَطْلُبُ الْحَرَارَةَ وَالْبُرُودَةَ ، اللَّتَيْنِ هُمَا مُنْفَعِلَتَانِ عَنْهُمَا ، كَمَا تَطْلُبُ الصُّنْعَةُ الصَّانِعَ ، لِذٰلِكَ ذَكَرَهُمَا (الْقُرْآنُ) دُونَ الْأَصْلِ ، وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ فِي « الْكِتَابِ الْمُبِينِ » . - فَلَقَدْ حَبَا اللّٰهُ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ بِعُلُومٍ مَّا نَالَهَا أَحَدٌ سِوَاهُ ، كَمَا قَالَ : « فَعَلِمْتُ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ » فِي حَدِيثِ « الضَّرْبِ بِالْيَدِ » . فَالْعِلْمُ الْإِلٰهِيُّ هُوَ أَصْلُ الْعُلُومِ كُلِّهَا ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ . -

وَقَدِ اسْتَوْفَيْنَا مَا يَسْتَحِقُّهُ هٰذَا الْبَابُ عَلَى غَايَةِ الْإِيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ ، فَإِنَّ الطُّولَ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ بِذِكْرِ الْكَيْفِيَّاتِ . وَأَمَّا الْأُصُولَ فَقَدْ ذَكَرْنَاهَا وَمَهَّدْنَاهَا . - ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾

انْتَهَى الْجُزْءُ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ .

الجزء الثالث عشر من الفتح المكي



البَابُ الثَّانِي عَشَرَ :
فِي مَعْرِفَةِ دَوْرَةِ فَلَكِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَهِيَ دَوْرَةُ السِّيَادَةِ – وَأَنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللهُ – تَعَالَى ! –

أَلَا بِأَبِي مَنْ كَانَ مَلْكًا وَسَيِّدًا ... وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّيْنِ وَاقِفُ
فَذَاكَ الرَّسُوْلُ الْأَبْطَحِيُّ مُحَمَّدٌ ... لَهُ فِي الْعُلَى مَجْدٌ تَلِيْدٌ وَطَارِفُ
أَتَى بِزَمَانِ السَّعْدِ فِي آخِرِ الْمَدَى ... وَكَانَتْ لَهُ فِي كُلِّ عَصْرٍ مَوَاقِفُ
أَتَى لِانْكِسَارِ الدَّهْرِ يَجْبُرُ صَدْعَهُ ... فَأَثْنَتْ عَلَيْهِ أَلْسُنٌ وَعَوَارِفُ
إِذَا رَامَ أَمْرًا لَا يَكُوْنُ خِلَافُهُ ... وَلَيْسَ لِذَاكَ الْأَمْرِ فِي الْكَوْنِ صَارِفُ

(وُجُوْدُ رُوْحِ مُحَمَّدٍ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ)

اِعْلَمْ – أَيَّدَكَ اللهُ ! – أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْوَاحَ ، الْمَحْصُوْرَةَ الْمُدَبِّرَةَ لِلْأَجْسَامِ ، بِالزَّمَانِ عِنْدَ وُجُوْدِ حَرَكَةِ الْفَلَكِ ، لِتَعْيِيْنِ الْمُدَّةِ الْمَعْلُوْمَةِ عِنْدَ اللهِ . وَكَانَ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِ الزَّمَانِ بِحَرَكَتِهِ ، خَلَقَ الرُّوْحَ الْمُدَبِّرَةَ ، رُوْحَ مُحَمَّدٍ ﷺ . ثُمَّ صَدَرَتِ الْأَرْوَاحُ

عِنْدَ الْحَرَكَاتِ . فَكَانَ لَهَا (أَيْ لِرُوْحِ مُحَمَّدٍ) وُجُوْدٌ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ دُوْنَ عَالَمِ الشَّهَادَةِ . وَأَعْلَمَهُ اللهُ بِنُبُوَّتِهِ ، وَبَشَّرَهُ بِهَا وَآدَمُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَمَا قَالَ : « بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّيْنِ » . وَانْتَهَى الزَّمَانُ بِالْاِسْمِ الْبَاطِنِ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى وُجُوْدِ جِسْمِهِ وَارْتِبَاطِ الرُّوْحِ بِهِ . (فَعِنْدَ ذٰلِكَ) اِنْتَقَلَ حُكْمُ الزَّمَانِ فِي جَرَيَانِهِ إِلَى الْاِسْمِ الظَّاهِرِ ، فَظَهَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِذَاتِهِ جِسْمًا وَرُوْحًا . فَكَانَ الْحُكْمُ لَهُ ، بَاطِنًا أَوَّلًا ، فِي جَمِيْعِ مَا ظَهَرَ مِنَ الشَّرَائِعِ عَلَى أَيْدِي الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ – سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ ! – . ثُمَّ صَارَ الْحُكْمُ لَهُ ظَاهِرًا : فَنَسَخَ كُلَّ شَرْعٍ أَبْرَزَهُ الْاِسْمُ الْبَاطِنُ ، بِحُكْمِ الْاِسْمِ الظَّاهِرِ ، لِبَيَانِ اخْتِلَافِ حُكْمِ الْاِسْمَيْنِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُشَرِّعُ وَاحِدًا ، وَهُوَ صَاحِبُ الشَّرْعِ .

فَإِنَّهُ (ﷺ) قَالَ : « كُنْتُ نَبِيًّا » وَمَا قَالَ كُنْتُ إِنْسَانًا ، وَلَا كُنْتُ مَوْجُوْدًا . وَلَيْسَتِ النُّبُوَّةُ إِلَّا بِالشَّرْعِ الْمُقَرَّرِ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ . فَأَخْبَرَ أَنَّهُ صَاحِبُ النُّبُوَّةِ قَبْلَ وُجُوْدِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِيْنَ هُمْ نُوَّابُهُ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِيْمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَبْوَابِ هٰذَا الْكِتَابِ .

(اِسْتِدَارَةُ الزَّمَانِ)

فَكَانَتِ اسْتِدَارَتُهُ (أَيْ الزَّمَانِ) انْتِهَاءَ دَوْرَتِهِ بِالْاِسْمِ الْبَاطِنِ ، وَابْتِدَاءَ دَوْرَةً أُخْرَى بِالْاِسْمِ الظَّاهِرِ . فَقَالَ (ﷺ) : « اِسْتَدَارَ (الزَّمَانُ) كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللهُ » = فِي نِسْبَةِ الْحُكْمِ لَنَا ظَاهِرًا ، كَمَا كَانَ فِي الدَّوْرَةِ الْأُوْلَى مَنْسُوْبًا إِلَيْنَا بَاطِنًا . أَيْ (كَانَ الْحُكْمُ مَنْسُوْبًا فِي الْبَاطِنِ وَالْحَقِيْقَةِ) إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَفِي الظَّاهِرِ كَانَ (الْحُكْمُ) مَنْسُوْبًا إِلَى مَنْ نُسِبَ إِلَيْهِ ، مِنْ شَرْعِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيْسَى وَجَمِيْعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ .

(الْأَنْبِيَاءُ الْحُرُمُ وَالْأَشْهُرُ الْحُرُمُ)

وَفِي الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الزَّمَانِ أَرْبَعَةٌ حُرُمٍ : هُوْد وَصَالِح وَشُعَيْب – سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِمْ ! – وَمُحَمَّدٌ ﷺ . وَعَيْنُهَا مِنَ الزَّمَانِ : ذُوْ الْقَعْدَةِ وَذُوْ الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ . وَلَمَّا

كَانَتِ الْعَرَبُ تَنْسَأُ فِي الشُّهُوْرِ : فَتَرُدُّ الْمُحَرَّمَ مِنْهَا حَلَالًا ، وَالْحَلَالَ مِنْهَا حَرَامًا ؛ وَجَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ فَرَدَّ الزَّمَانَ إِلَى أَصْلِهِ الَّذِي حَكَمَ اللهُ بِهِ عِنْدَ خَلْقِهِ : فَعَيَّنَ الْحُرُمَ مِنَ الشُّهُوْرِ عَلَى حَدِّ مَا خَلَقَهَا اللهُ عَلَيْهِ ، فَلِهٰذَا قَالَ فِي اللِّسَانِ الظَّاهِرِ : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللهُ » – كَذٰلِكَ اسْتَدَارَ الزَّمَانُ . فَأَظْهَرَ (اللهُ) مُحَمَّدًا ﷺ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ ، جِسْمًا وَرُوْحًا بِالْاِسْمِ الظَّاهِرِ حِسًّا ؛ فَنَسَخَ مِنْ شَرْعِهِ الْمُتَقَدِّمِ مَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْسَخَ مِنْهُ ، وَأَبْقَى مَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُبْقِي مِنْهُ : وَذٰلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ خَاصَّةً ، لَا مِنَ الْأُصُوْلِ .

(ظُهُوْرُ مُحَمَّدٍ فِي دَوْرَةِ الْمِيْزَانِ)

وَلَمَّا كَانَ ظُهُوْرُهُ (ﷺ) بِالْمِيْزَانِ ، وَهُوَ الْعَدْلُ فِي الْكَوْنِ ، وَهُوَ مُعْتَدِلٌ ، لِأَنَّ طَبْعَهُ الْحَرَارَةُ وَالرُّطُوْبَةُ ، – كَانَ (ظُهُوْرُهُ ﷺ) مِنْ حُكْمِ الْآخِرَةِ . فَإِنَّ حَرَكَةَ الْمِيْزَانِ مُتَّصِلَةٌ بِالْآخِرَةِ إِلَى دُخُوْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . وَلِهٰذَا كَانَ الْعِلْمُ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ فِي الْأَوَائِلِ . وَأُعْطِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ « عِلْمَ الْأَوَّلِيْنَ وَالْآخِرِيْنَ » = لِأَنَّ حَقِيْقَةَ « الْمِيْزَانِ » تُعْطِي ذٰلِكَ . وَكَانَ الْكَشْفُ أَسْرَعَ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا كَانَ فِي غَيْرِهَا ، لِغَلَبَةِ الْبُرْدِ وَالْيُبْسِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ قَبْلَنَا ؛ وَإِنْ كَانُوْا أَذْكِيَاءَ وَعُلَمَاءَ فَآحَادٌ مِنَ النَّاسِ مُعَيَّنُوْنَ ، بِخِلَافِ مَا هُمُ النَّاسُ الْيَوْمَ عَلَيْهِ .

أَلَا تَرَى هٰذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ تَرْجَمَتْ جَمِيْعَ عُلُوْمِ الْأُمَمِ ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْمُتَرْجِمُ عَالِمًا بِالْمَعْنَى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ ، لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُوْنَ هٰذَا مُتَرْجِمًا ، وَلَا كَانَ يَنْطَلِقُ عَلَى ذٰلِكَ اِسْمُ التَّرْجَمَةِ . فَقَدْ عَلِمَتْ هٰذِهِ الْأُمَّةُ عِلْمَ مَنْ تَقَدَّمَ ؛ وَاخْتَصَّتْ بِعُلُوْمٍ لَمْ تَكُنْ لِلْمُتَقَدِّمِيْنَ . وَلِهٰذَا أَشَارَ ﷺ بِقَوْلِهِ : « فَعَلِمْتُ عِلْمَ الْأَوَّلِيْنَ » = وَهُمُ الَّذِيْنَ تَقَدَّمُوْهُ ؛ ثُمَّ قَالَ : « وَالْآخِرِيْنَ » = وَهُوَ عِلْمٌ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِيْنَ : وَهُوَ مَا تَعْلَمُهُ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ عِنْدَنَا عُلُوْمًا لَمْ تَكُنْ قَبْلُ . فَهٰذِهِ شَهَادَةٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَنَا ، وَهُوَ الصَّادِقُ بِذٰلِكَ .

(السِّيَادَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِي الْعِلْمِ وَالْحُكْمِ)

فَقَدْ ثَبَتَتْ لَهُ ﷺ السِّيَادَةُ فِي الْعِلْمِ فِي الدُّنْيَا . وَثَبَتَتْ لَهُ أَيْضًا السِّيَادَةُ فِي الْحُكْمِ حَيْثُ قَالَ : « لَوْ كَانَ مُوْسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي » . وَيَبِيْنُ ذٰلِكَ عِنْدَ نُزُوْلِ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – وَحُكْمِهِ فِيْنَا بِالْقُرْآنِ . فَصَحَّتْ لَهُ السِّيَادَةُ فِي الدُّنْيَا بِكُلِّ وَجْهٍ وَمَعْنًى . ثُمَّ أَثْبَتَ (اللهُ) السِّيَادَةَ لَهُ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِفَتْحِهِ بَابَ الشَّفَاعَةِ ، وَلَا يَكُوْنُ ذٰلِكَ لِنَبِيٍّ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِلَّا لَهُ ﷺ . فَقَدْ شَفَعَ ﷺ فِي الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ أَنْ تَشْفَعَ . نَعَمْ ! وَ (شَفَعَ) فِي الْمَلَائِكَةِ (أَيْضًا) : فَأَذِنَ اللهُ – تَعَالَى ! – عِنْدَ شَفَاعَتِهِ فِي ذٰلِكَ ، لِجَمِيعِ مَنْ لَهُ شَفَاعَةٌ – مِنْ مَلَكٍ وَرَسُوْلٍ وَنَبِيٍّ وَمُؤْمِنٍ – أَنْ يَشْفَعَ .

فَهُوَ ﷺ أَوَّلُ شَافِعٍ بِإِذْنِ اللهِ ؛ وَ « أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ » آخِرُ شَافِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَيَشْفَعُ « الرَّحِيْمُ » عِنْدَ « الْمُنْتَقِمِ » أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَيُخْرِجُهُمْ « الْمُنْعِمُ الْمُفْضِلُ » .

وَأَيُّ شَرَفٍ أَعْظَمُ مِنْ دَائِرَةٍ تُدَارُ ، يَكُوْنُ آخِرُهَا « أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ » ؟ وَآخِرُ الدَّائِرَةِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِهَا . فَأَيُّ شَرَفٍ أَعْظَمُ مِنْ شَرَفِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ كَانَ ابْتِدَاءَ هٰذِهِ الدَّائِرَةِ ، حَيْثُ اتَّصَلَ بِهَا آخِرُهَا لِكَمَالِهَا ؟ فَبِهِ – سُبْحَانَهُ ! – ابْتَدَأَتِ الْأَشْيَاءُ ، وَبِهِ كَمُلَتْ . – وَمَا أَعْظَمُ شَرَفِ الْمُؤْمِنِ ، حَيْثُ تَلَتْ شَفَاعَتُهُ بِشَفَاعَةِ « أَرْحَمِ الرَّاحِمِيْنَ » : فَالْمُؤْمِنُ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ !

فَإِنَّ الْعِلْمَ فِي حَقِّ الْمَخْلُوْقِ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ الشَّرَفُ التَّامُّ الَّذِي لَا تَجْهَلُ مَكَانَتُهُ ، وَلٰكِنْ لَا يُعْطِي السَّعَادَةَ فِي الْقُرْبِ الْإِلٰهِيِّ إِلَّا بِالْإِيْمَانِ . فَنُوْرُ الْإِيْمَانِ فِي الْمَخْلُوْقِ أَشْرَفُ مِنْ نُوْرِ الْعِلْمِ الَّذِي لَا إِيْمَانَ مَعَهُ . فَإِذَا كَانَ الْإِيْمَانُ يَحْصُلُ عَنْهُ الْعِلْمَ ، فَنُوْرُ ذٰلِكَ الْعِلْمِ ، الْمُوَلَّدِ مِنْ نُوْرِ الْإِيْمَانِ ، أَعْلَى ؛ وَبِهِ يَمْتَازُ الْمُؤْمِنُ الْعَالِمُ عَلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَيْسَ بِعَالِمٍ . فَيَرْفَعُ اللهُ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْعِلْمَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ دَرَجَاتٍ ، عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ

لَمْ يُؤْتُوْا الْعِلْمَ . وَيُرِيْدُ الْعِلْمَ بِاللهِ ، فَإِنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ لِأَصْحَابِهِ : « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ دُنْيَاكُمْ » .

(الْامْتِيَازَاتُ الْمُحَمَّدِيَّةُ مِنْ وَحْيِ أَمْرِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ)

فَلَا فَلَكَ أَوْسَعُ مِنْ فَلَكِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّ لَهُ الْإِحَاطَةُ . وَهِيَ لِمَنْ خَصَّهُ اللهُ بِهَا مِنْ أُمَّتِهِ بِحُكْمِ التَّبَعِيَّةِ . فَلَنَا الْإِحَاطَةُ بِسَائِرِ الْأُمَمِ ، وَلِذٰلِكَ « كُنَّا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » . — فَأَعْطَاهُ اللهُ مِنْ وَحْيِ أَمْرِ السَّمٰوَاتِ مَا لَمْ يُعْطَ غَيْرُهُ فِي طَالِعِ مَوْلِدِهِ . فَمِنَ الْأَمْرِ الْمَخْصُوْصِ بِالسَّمَاءِ الْأُوْلَى ، مِنْ هُنَاكَ ، لَمْ يُبَدَّلْ حَرْفٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَلَا كَلِمَةٌ ؛ وَلَوْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي تِلَاوَتِهِ مَا لَيْسَ مِنْهَا ، بِنَقْصٍ أَوْ زِيَادَةٍ ، لَنَسَخَ اللهُ ذٰلِكَ . وَهٰذَا عِصْمَةٌ . وَمِنْ ذٰلِكَ الثَّبَاتِ ، مَا نُسِخَتْ شَرِيْعَتُهُ بِغَيْرِهَا ، بَلْ ثَبَتَتْ مَحْفُوْظَةً ، وَاسْتَقَرَّتْ بِكُلِّ عَيْنٍ مَلْحُوْظَةً ، وَلِذٰلِكَ تَسْتَشْهِدُ بِهَا كُلُّ طَائِفَةٍ .

وَمِنَ الْأَمْرِ الْمَخْصُوْصِ بِالسَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، مِنْ هُنَاكَ أَيْضًا ، خُصَّ (ﷺ) « بِعِلْمِ الْأَوَّلِيْنَ وَالْآخِرِيْنَ » وَالتُّؤَدَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالرِّفْقِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِيْنَ رَحِيْمًا . وَمَا أَظْهَرَ ، فِي وَقْتٍ ، غِلْظَةً عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَنْ أَمْرٍ إِلٰهِيٍّ ، حِيْنَ قِيْلَ لَهُ : ﴿ **جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ ، فَأُمِرَ بِهِ لَمَّا لَمْ يَقْتَضِ طَبْعُهُ ذٰلِكَ . وَإِنْ كَانَ (ﷺ) « بَشَرًا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ ، وَيَرْضَى لِنَفْسِهِ » . فَقَدْ قَدَّمَ لِذٰلِكَ دَوَاءًا نَافِعًا يَكُوْنُ فِي ذٰلِكَ الْغَضَبِ رَحْمَةً مِنْ حَيْثُ لَا يُشْعَرُ بِهَا فِي حَالِ الْغَضَبِ . فَكَانَ (ﷺ) يُدِلُّ بِغَضَبِهِ مِثْلَ دَالَّتِهِ بِرِضَاهُ ، وَذٰلِكَ لِأَسْرَارٍ عَرَفْنَاهَا وَيَعْرِفُهَا أَهْلُ اللهِ مِنَّا . فَصَحَّتْ لَهُ السِّيَادَةُ عَلَى الْعَالَمِ ، مِنْ هٰذَا الْبَابِ .

فَإِنَّ غَيْرَ أُمَّتِهِ (ﷺ) قِيْلَ فِيْهِمْ : ﴿ **يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ — فَأَضَلَّهُمُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ! وَتَوَلَّى اللهُ فِيْنَا حِفْظَ ذِكْرِهُ فَقَالَ : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾ — لِأَنَّهُ سَمْعُ الْعَبْدِ وَبَصَرُهُ وَلِسَانُهُ وَيَدُهُ . وَاسْتَحْفَظَ (اللهُ) كِتَابَهُ غَيْرَ هٰذِهِ الْأُمَّةِ فَحَرَّفُوْهُ .

وَمِنَ الْأَمْرِ الْمَخْصُوْصِ مِنْ وَحْيِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، مِنْ هُنَاكَ أَيْضًا ، السَّيْفُ الَّذِي بَعْثُهُ ، وَالْخِلَافَةُ وَاخْتُصَّ بِقِتَالِ الْمَلَائِكَةِ مَعَهُ مِنْهَا (أَيْ مِنَ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ) أَيْضًا . فَإِنَّ مَلَائِكَةَ هٰذِهِ السَّمَاءِ قَاتَلَتْ مَعَهُ يَوْمَ بَدْرٍ . وَمِنْ هٰذِهِ السَّمَاءِ أَيْضًا بُعِثَ مِنْ قَوْمٍ لَيْسَ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا فِي قِرَى الْأَضْيَافِ ، وَنَحْرِ الْجُزُرِ ، وَالْحُرُوْبِ الدَّائِمَةِ ، وَسَفَكِ الدِّمَاءِ ؛ وَبِهٰذَا يَتَمَدَّحُوْنَ وَيُمْدَحُوْنَ . قِيْلَ فِي بَعْضِهِمْ :

ضَرُوْبٌ بِنَصْلِ السَّيْفِ سُوْقَ سِمَانِهَا ... إِذَا عَـدِمُـوْا زَادًا فَـإِنَّـكَ عَـاقِر

وَقَالَ الْآخَرُ يَمْدَحُ قَوْمَهُ :

لَا يَبْعَـدَنْ قَوْمِي الَّذِيْنَ هُـمُ ... سُـمُّ الْعُـدَاةِ وَآفَـةُ الْجُـزُرِ
النَّـازِلُوْنَ بِكُـلِّ مُعْـتَرَكٍ ... وَالطَّيِّبُـوْنَ مَعَـاقِدُ الْأُزُرِ

فَمَدَحَهُمْ بِالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْعِفَّةِ . يَقُوْلُ عَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ ، فِي حِفْظِ الْجَارِ فِي أَهْلِهِ :

وَأَغُضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي ... حَتَّى يُـوَارِي جَـارَتِي مَـأْوَاهَا

وَلَا خَفَاءَ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ بِفَضْلِ الْعَرَبِ عَلَى الْعَجَمِ بِالْكَرَمِ وَالْحَمَاسَةِ وَالْوَفَاءِ . وَإِنْ كَانَ فِي الْعَجَمِ كُرَمَاءُ وَشُجَعَانٌ ، وَلٰكِنْ آحَادٌ . كَمَا أَنَّ فِي الْعَرَبِ جُبَنَاءُ وَبُخَلَاءُ ، وَلٰكِنْ آحَادٌ . وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي الْغَالِبِ لَا فِي النَّادِرِ . وَهٰذَا مَا لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ .

فَهٰذَا مِمَّا أُوْحِيَ اللهُ فِي هٰذِهِ السَّمَاءِ . فَهٰذَا كُلُّهُ مِنَ « الْأَمْرِ الَّذِي يَتَنَزَّلُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » لِمَنْ فَهِمَ . وَلَوْ ذَكَرْنَا عَلَى التَّفْصِيْلِ مَا فِي كُلِّ سَمَاءٍ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي أُوْحِيَ اللهُ – سُبْحَانَهُ ! – فِيْهَا ، لَأَبْرَزْنَا مِنْ ذٰلِكَ عَجَائِبَ ، رُبَّمَا كَانَ يُنْكِرُهَا بَعْضُ مَنْ يَنْظُرُ فِي ذٰلِكَ الْعِلْمِ مِنْ طَرِيْقِ الرَّصْدِ وَالتَّسْيِيْرِ مِنْ أَهْلِ التَّعْلِيْمِ ، وَيَحَارُ الْمُنْصِفُ مِنْهُمْ فِيْهِ إِذَا سَمِعَهُ .

وَمِنَ الْوَحْيِ الْمَأْمُوْرِ بِهِ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ، نَسْخُهُ بِشَرِيْعَتِهِ جَمِيْعَ الشَّرَائِعِ ، وَظُهُوْرُ دِيْنِهِ عَلَى جَمِيْعِ الْأَدْيَانِ ، عِنْدَ كُلِّ رَسُوْلٍ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ ، وَفِي كُلِّ كِتَابٍ مُنْزَلٍ . فَلَمْ يَبْقَ لِدِيْنٍ مِنَ الْأَدْيَانِ حُكْمٌ عِنْدَ اللهِ إِلَّا مَا قَرَّرَ مِنْهُ . فَبِتَقْرِيْرِهِ ثَبَتَ . فَهُوَ مِنْ شَرْعِهِ وَعُمُوْمِ رِسَالَتِهِ . وَإِنْ كَانَ قَدْ بَقِيَ مِنْ ذٰلِكَ حُكْمٌ ، فَلَيْسَ هُوَ مِنْ حُكْمِ اللهِ إِلَّا فِي أَهْلِ الْجِزْيَةِ خَاصَّةً . وَإِنَّمَا قُلْنَا : لَيْسَ هُوَ حُكْمُ اللهِ ، لِأَنَّهُ سَمَّاهُ بَاطِلًا . فَهُوَ عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ ، لَا لَهُ . فَهٰذَا (مَا) أَعْنِي بِظُهُوْرِ دِيْنِهِ عَلَى جَمِيْعِ الْأَدْيَانِ . كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ فِي مَدْحِهِ :

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَـاكَ سُـوْرَةً ... تَرَىٰ كُـلَّ مَلْكٍ دُوْنَهَـا يَتَذَبْذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُـوْكُ كَـوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَهٰذِهِ مَنْزِلَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْزِلَةُ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَشَرَائِعِهِمْ — سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ ! — . فَإِنَّ أَنْوَارَ الْكَوَاكِبِ اِنْدَرَجَتْ فِي نُوْرِ الشَّمْسِ . فَالنَّهَارُ لَنَا وَاللَّيْلُ وَحْدَهُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ ، إِذَا أَعْطَوْا ﴿ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ . — وَقَدْ بَسَطْنَا فِي « التَّنَزُّلَاتِ الْمَوْصِلِيَّةِ » مِنْ أَمْرِ كُلِّ سَمَاءٍ ، مَا إِذَا وَقَفْتَ عَلَيْهِ عَرَفْتَ بَعْضَ مَا فِي ذٰلِكَ .

وَمِنَ الْوَحْيِ الْمَأْمُوْرِ بِهِ ، فِي السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ مِنْ هُنَاكَ ، الْمُخْتَصِّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ مَا وَرَدَ قَطُّ عَنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ « حُبِّبَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ » إِلَّا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَإِنْ كَانُوْا قَدْ رُزِقُوْا مِنْهُنَّ كَثِيْرًا ، كَسُلَيْمَانَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ ! — وَغَيْرِهِ ، وَلٰكِنْ كَلَامُنَا فِي كَوْنِهِ « حُبِّبَ إِلَيْهِ » : وَذٰلِكَ أَنَّهُ ﷺ « كَانَ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّيْنِ » كَمَا قَرَّرْنَاهُ ، وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شَرَحْنَاهُ . فَكَانَ مُقْتَطَعًا إِلَى رَبِّهِ ، لَا يَنْظُرُ مَعَهُ إِلَى كَوْنٍ مِنَ الْأَكْوَانِ : لِشُغْلِهِ بِاللهِ عَنْهُ . فَإِنَّ النَّبِيَّ مَشْغُوْلٌ بِالتَّلَقِّي مِنَ اللهِ وَمُرَاعَاةِ الْأَدَبِ ، فَلَا يَتَفَرَّغُ إِلَى شَيْءٍ دُوْنَهُ . « فَحَبَّبَ اللهُ إِلَيْهِ النِّسَاءَ » فَأَحَبَّهُنَّ ، عِنَايَةً مِنَ اللهِ بِهِنَّ . فَكَانَ ﷺ بِحُبِّهِنَّ بِكَوْنِ اللهِ حَبَّبَهُنَّ إِلَيْهِ . — خَرَّجَ مُسْلِمٌ فِي « صَحِيْحِهِ » فِي أَبْوَابِ الْإِيْمَانِ :

« أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ : إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُوْنَ نَعْلِي حَسَنًا وَثَوْبِي حَسَنًا . فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : إِنَّ اللهَ جَمِيْلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ! » .

وَمِنْ هٰذِهِ السَّمَاءِ (أَيْ السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ) حُبُّ الطِّيْبِ . وَكَانَ مِنْ سُنَّتِهِ النِّكَاحُ لَا التَّبَتُّلُ . وَجُعِلَ النِّكَاحُ عِبَادَةً لِلسِّرِّ الْإِلٰهِيِّ الَّذِي أُوْدِعَ فِيْهِ ، وَلَيْسَ (هٰذَا السِّرُّ) إِلَّا فِي النِّسَاءِ . وَذٰلِكَ ظُهُوْرُ الْأَعْيَانِ لِلثَّلَاثَةِ الْأَحْكَامِ ، الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا : فِي الْإِنْتَاجِ عَنِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ ، وَالرَّابِطِ الَّذِي جَعَلَهُ عِلَّةَ الْإِنْتَاجِ . – فَهٰذَا الْفَضْلُ – وَمَا شَاكَلَهُ – مِمَّا اخْتَصَّ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَزَادَ فِيْهِ بِنِكَاحِ الْهِبَةِ . كَمَا جَعَلَ فِي أُمَّتِهِ ، فِيْمَا يُبَيِّنُ لَهَا مِنَ النِّكَاحِ ، لِمَنْ لَا شَيْءَ لَهُ مِنَ الْأَعْوَاضِ ، بِمَا يَحْفَظُهُ مِنَ الْقُرْآنِ خَاصَّةً ، لَا أَنَّهُ يُعَلِّمُهَا ؛ وَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَقْوَ قُوَّةَ الْهِبَةِ ، فَفِيْهِ اتِّسَاعٌ لِلْأُمَّةِ . – وَلَيْسَ فِي الْوُسْعِ اسْتِيْفَاءُ مَا أَوْحَى اللهُ مِنَ الْأَمْرِ فِي كُلِّ سَمَاءٍ .

وَمِنَ الْأَمْرِ الْمُوْحَىٰ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، إِعْجَازُ الْقُرْآنِ . وَالَّذِي أُعْطِيَهُ ﷺ مِنْ « جَوَامِعِ الْكَلِمِ » ، مِنْ هٰذِهِ السَّمَاءِ تَتَنَزَّلُ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يُعْطَ ذٰلِكَ نَبِيٌّ قَبْلَهُ . وَقَالَ : ﴿ أُعْطِيْتُ سِتًّا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ﴾ . وَكُلُّ ذٰلِكَ أُوْحِيَ فِي السَّمٰوَاتِ مِنْ قَوْلِهِ (– تَعَالَى ! –) : ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ . فَجَعَلَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَا يَصْلُحُ تَنْفِيْذُهُ فِي الْأَرْضِ فِي هٰذَا الْخَلْقِ . فَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ بُعِثَ (ﷺ) وَحْدَهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، فَعَمَّتْ رِسَالَتُهُ : وَهٰذَا مِمَّا أَوْحَى اللهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ . وَنَصَرَ بِالرُّعْبِ : وَهُوَ مِمَّا أَوْحَى اللهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، مِنْ هُنَاكَ . وَمِنْهَا ، مَا حَلَّلَ اللهُ لَهُ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لَهُ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطُهُوْرًا : مِنَ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، مِنْ هُنَاكَ . « وَأُوْتِيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » : مِنْ أَمْرِ وَحْيِ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ . وَمِنْ أَمْرِ هٰذِهِ السَّمَاءِ ، مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنْ إِعْطَائِهِ إِيَّاهُ مَفَاتِيْحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ .

وَمِنَ الْوَحْيِ الْمَأْمُوْرِ بِهِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، مِنْ هُنَاكَ ، وَهِيَ السَّمَاءُ الدُّنْيَا الَّتِي تَلِيْنَا ، – كَوْنُ اللهِ خَصَّهُ بِصُوْرَةِ الْكَمَالِ . فَكَمُلَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ ، وَكَانَ خَاتَمَ النَّبِيِّيْنَ ، وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ لِغَيْرِهِ ﷺ . فَبِهٰذَا وَأَمْثَالِهِ ، اِنْفَرَدَ بِالسِّيَادَةِ الْجَامِعَةِ لِلسِّيَادَاتِ كُلِّهَا ،

وَالشَّرَفُ الْمُحِيْطُ الْأَعَمُّ ﷺ . فَهٰذَا قَدْ نَبَّهْنَا عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ فِي مَوْلِدِهِ ، مِنْ بَعْضِ مَا أُوْحِيَ اللّٰهُ بِهِ فِي كُلِّ سَمَاءٍ مِنْ أَمْرٍ .

(الْمِيْزَانُ وَالزَّمَانُ)

وَقَوْلُهُ (ﷺ) : « الزَّمَانُ » وَلَمْ يَقُلْ : الدَّهْرَ ، وَلَا غَيْرَهُ – يُنَبِّهُ عَلَى وُجُوْدِ « الْمِيْزَانِ » : فَإِنَّهُ مَا خَرَجَ عَنِ الْحُرُوْفِ الَّتِي فِي « الْمِيْزَانِ » بِذِكْرِ الزَّمَانِ . وَجَعَلَ يَاءَ الْمِيْزَانِ مِمَّا يَلِي الزَّايَ ؛ وَخَفَّفَ الزَّايَ (فِي الْمِيْزَانِ) وَعَدَّدَهَا فِي الزَّمَانِ ، إِشْعَارًا بِأَنَّ فِي هٰذِهِ الزَّايِ حَرْفًا مُدْغَمًا .

فَكَانَ أَوَّلُ وُجُوْدِ الزَّمَانِ فِي الْمِيْزَانِ لِلْعَدْلِ الرُّوْحَانِيِّ ، وَفِي الْاِسْمِ الْبَاطِنِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ بِقَوْلِهِ : « كُنتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّيْنِ » . ثُمَّ اسْتَدَارَ ، بَعْدَ انْقِضَاءِ دَوْرَةِ الزَّمَانِ الَّتِي هِيَ ثَمَانِيَةٌ وَسَبْعُوْنَ أَلْفَ سَنَةٍ . ثُمَّ ابْتَدَأَتْ دَوْرَةٌ أُخْرَى مِنَ الزَّمَانِ بِالْاِسْمِ الظَّاهِرِ ، فَظَهَرَ فِيْهَا جِسْمُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَظَهَرَتْ شَرِيْعَتُهُ عَلَى التَّعْيِيْنِ وَالتَّصْرِيْحِ لَا بِالْكِنَايَةِ ، وَاتَّصَلَ الْحُكْمُ بِالْآخِرَةِ . فَقَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ** ﴾ وَقِيْلَ لَنَا : ﴿ **وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ** ﴾ وَقَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ** ﴾ .

فَبِالْمِيْزَانِ أَوْحَى (اللّٰهُ) فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَبِهِ قَدَّرَ فِي الْأَرْضِ أَقْوَاتِهَا . وَنَصَبَهُ الْحَقُّ فِي الْعَالَمِ فِي كُلِّ شَيْءٍ : فَمِيْزَانٌ مَعْنَوِيٌّ ، وَمِيْزَانٌ حِسِّيٌّ لَا يُخْطِئُ أَبَدًا . فَدَخَلَ الْمِيْزَانُ فِي الْكَلَامِ ، وَفِي جَمِيْعِ الصَّنَائِعِ الْمَحْسُوْسَةِ ؛ وَكَذٰلِكَ فِي الْمَعَانِي : إِذْ كَانَ أَصْلُ وُجُوْدِ الْأَجْسَامِ وَالْأَجْرَامِ ، وَمَا تَحْمِلُهُ مِنَ الْمَعَانِي ، عِنْدَ حُكْمِ الْمِيْزَانِ . وَكَانَ وُجُوْدُ الْمِيْزَانِ وَمَا فَوْقَ الزَّمَانِ ، عَنِ الْوَزْنِ الْإِلٰهِيِّ الَّذِي يَطْلُبُهُ الْاِسْمُ الْحَكِيْمُ ، وَيُظْهِرُهُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ! وَعَنِ الْمِيْزَانِ ظَهَرَ الْعَقْرَبُ ، وَمَا أَوْحَى اللّٰهُ فِيْهِ مِنَ الْأَمْرِ الْإِلٰهِيِّ ؛ وَ (ظَهَرَ) الْقَوْسُ وَالْجَدْيُ وَالدَّلْوُ وَالْحُوْتُ وَالْحَمَلُ وَالثَّوْرُ وَالْجَوْزَاءُ وَالسَّرَطَانُ وَالْأَسَدُ وَالسُّنْبُلَةُ .

(اِنْتِهَاءُ الدَّوْرَةِ الزَّمَانِيَّةِ إِلَى الْمِيْزَانِ)

وَانْتَهَتِ الدَّوْرَةُ الزَّمَانِيَّةُ إِلَى الْمِيْزَانِ لِتِكْرَارِ الدَّوْرِ . فَظَهَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ . وَكَانَ لَهُ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الزَّمَانِ حُكْمٌ ، اِجْتَمَعَ فِيْهِ بِظُهُوْرِهِ ﷺ . وَهٰذِهِ الْأَسْمَاءُ (= أَسْمَاءُ الْبُرُوْجِ الاِثْنَى عَشَرَ الْمُتَقَدِّمَةِ) أَسْمَاءُ مَلَائِكَةٍ خَلَقَهُمُ اللهُ ، وَهُمُ الاِثْنَا عَشَرَ مَلَكًا . وَجَعَلَ لَهُمُ اللهُ مَرَاتِبَ فِي الْفَلَكِ الْمُحِيْطِ . وَجَعَلَ بِيَدِ كُلِّ مَلَكٍ مَا شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُ مِمَّا يَبْرُزُهُ ، فِيْمَنْ هُوَ دُوْنَهُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، حِكْمَةً .

فَكَانَتْ رُوْحَانِيَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ تَكْتَسِبُ ، عِنْدَ كُلِّ حَرَكَةٍ مِنَ الزَّمَانِ ، أَخْلَاقًا بِحَسَبِ مَا أَوْدَعَ اللهُ فِي تِلْكَ الْحَرَكَاتِ مِنَ الْأُمُوْرِ الْإِلٰهِيَّةِ . فَمَا زَالَتْ تَكْتَسِبُ هٰذِهِ الصِّفَاتِ الرُّوْحَانِيَّةَ قَبْلَ وُجُوْدِ تَرْكِيْبِهَا ، إِلَى أَنْ ظَهَرَتْ صُوْرَةُ جِسْمِهِ فِي عَالَمِ الدُّنْيَا بِمَا جَعَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُوْدَةِ ، فَقِيْلَ فِيْهِ : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ = فَكَانَ (ﷺ) ذَا خُلُقٍ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَا تَخَلُّقٍ !

وَلَمَّا كَانَتِ الْأَخْلَاقُ تَخْتَلِفُ أَحْكَامُهَا بِاخْتِلَافِ الْمَحَلِّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُقَابِلَ بِهَا ، – اِحْتَاجَ صَاحِبُ الْخُلُقِ إِلَى عِلْمٍ يَكُوْنُ عَلَيْهِ ، حَتَّى يُصَرِّفَ فِي ذٰلِكَ الْمَحَلِّ الْخُلُقَ الَّذِي يَلِيْقُ بِهِ عَنْ أَمْرِ اللهِ ، فَيَكُوْنُ قُرْبَةً إِلَى اللهِ . فَلِذٰلِكَ تَنَزَّلَتِ الشَّرَائِعُ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَحَالَّ أَحْكَامِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي جُبِلَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا . فَقَالَ اللهُ فِي مَثَلِ ذٰلِكَ : « وَلَا تَقُلْ لَهُمَا : أُفٍّ ! » لِوُجُوْدِ التَّأْفِيْفِ فِي خُلُقِهِ . فَأَبَانَ عَنِ الْمَحَلِّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُظْهِرَ فِيْهِ حُكْمَ هٰذَا الْخُلُقِ . ثُمَّ بَيَّنَ الْمَحَلَّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُظْهَرَ فِيْهِ هٰذَا الْخُلُقُ ، فَقَالَ : ﴿ **أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ . وَقَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ** ﴾ فَأَبَانَ عَنِ الْمَحَلِّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ لَّا يُظْهِرَ فِيْهِ خُلُقَ الْخَوْفِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : ﴿ **وَخَافُونِ** ﴾ فَأَبَانَ لَهُمْ حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ يُظْهِرَ حُكْمَ هٰذِهِ الصِّفَةِ . وَكَذٰلِكَ (شَأْنُ) الْحَسَدِ وَالْحِرْصِ . –

وَجَمِيْعُ مَا فِي هٰذِهِ النَّشْأَةِ الطَّبِيْعِيَّةِ ، الظَّاهِرِ حُكْمُ رُوْحَانِيَّتِهَا فِيْهَا ، قَدْ أَبَانَ اللهُ لَنَا حَيْثُ نُظْهِرُهَا وَحَيْثُ نَمْنَعُهَا ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُحَالِ إِزَالَتُهَا عَنْ هٰذِهِ النَّشْأَةِ إِلَّا بِزَوَالِهَا

لِأَنَّهَا عَيْنُهَا : وَالشَّيْءُ لَا يُفَارِقُ نَفْسَهُ . قَالَ ﷺ : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ » وَقَالَ : « زَادَكَ اللّٰهُ حِرْصًا ، وَلَا تَعُدْ ! » .

وَإِنَّمَا قُلْنَا « الظَّاهِرُ حُكْمُ رُوْحَانِيَّتِهَا فِيْهَا » تَحَرَّزْنَا بِذٰلِكَ مِنْ أَجْلِ أَهْلِ الْكَشْفِ ، وَالْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِيْنَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُحَقِّقِيْنَ الْعَالِمِيْنَ . فَإِنَّ الْمُسَمَّى بِالْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ عِنْدَنَا ، لَهُمْ أَرْوَاحٌ بَطَنَتْ عَنْ إِدْرَاكِ غَيْرِ أَهْلِ الْكَشْفِ إِيَّاهَا فِي الْعَادَةِ ، لَا يُحَسُّ بِهَا مِثْلَ مَا يُحَسُّهَا مِنَ الْحَيَوَانِ . فَالْكُلُّ ، عِنْدَ أَهْلِ الْكَشْفِ ، حَيَوَانٌ نَاطِقٌ ، بَلْ حَيٌّ نَاطِقٌ . غَيْرَ أَنَّ هٰذَا الْمِزَاجَ الْخَاصَّ يُسَمَّى إِنْسَانًا لَا غَيْرَ بِالصُّوْرَةِ ، وَوَقَعَ التَّفَاضُلُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ فِي الْمِزَاجِ . فَإِنَّهُ لَا بُدَّ ، فِي كُلِّ مُمْتَزِجٍ ، مِنْ مِزَاجٍ خَاصٍّ لَا يَكُوْنُ إِلَّا لَهُ ، بِهِ يَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهِ ، كَمَا يَجْتَمِعُ مَعَ غَيْرِهِ ، فِي أَمْرٍ (مَّا) ؛ فَلَا يَكُوْنُ عَيْنُ مَا يَقَعُ بِهِ الْاِفْتِرَاقُ وَالتَّمَيُّزُ عَيْنَ مَا يَقَعُ بِهِ الْاِشْتِرَاكُ وَعَدَمُ التَّمَيُّزِ . فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَتَحَقَّقْهُ !

(الْعَالَمُ كُلُّهُ حَيٌّ عَالِمٌ نَاطِقٌ)

قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ . وَشَيْءٌ نَكِرَةٌ ؛ وَلَا يُسَبِّحُ إِلَّا حَيٌّ عَاقِلٌ ، عَالِمٌ بِمُسَبِّحِهِ . وَقَدْ وَرَدَ : « إِنَّ الْمُؤَذِّنَ يَشْهَدُ لَهُ مَدَى صَوْتِهِ مِنْ رَطْبٍ وَيَابِسٍ » . وَالشَّرَائِعُ وَالنُّبُوَّاتُ ، مِنْ هٰذَا الْقَبِيْلِ ، مَشْحُوْنَةٌ . وَنَحْنُ زِدْنَا ، مَعَ الْاِيْمَانِ بِالْأَخْبَارِ ، الْكَشْفَ : فَقَدْ سَمِعْنَا الْأَحْجَارَ تَذْكُرُ اللّٰهَ رُؤْيَةَ عَيْنٍ ، بِلِسَانِ نُطْقٍ ، تَسْمَعُهُ آذَانُنَا مِنْهَا ، وَتُخَاطِبُنَا مُخَاطَبَةَ الْعَارِفِيْنَ بِجَلَالِ اللّٰهِ ، مِمَّا لَيْسَ يُدْرِكُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ .

فَكُلُّ جِنْسٍ ، مِنْ خَلْقِ اللّٰهِ ، أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ ؛ فَطَرَهُمُ اللّٰهُ عَلَى عِبَادَةٍ تَخُصُّهُمْ ، أُوْحِيَ بِهَا إِلَيْهِمْ فِي نُفُوْسِهِمْ . فَرَسُوْلُهُمْ ، مِنْ ذَوَاتِهِمْ ، (هُوَ) إِعْلَامٌ مِنَ اللّٰهِ بِإِلْهَامٍ خَاصٍّ جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ ، كَعِلْمِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ بِأَشْيَاءٍ يَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهَا الْمُهَنْدِسُ النَّحْرِيْرُ . وَعِلْمُهُمْ ، عَلَى الْإِطْلَاقِ ، (يَتَعَلَّقُ) بِمَنَافِعِهِمْ فِيْمَا يَتَنَاوَلُوْنَهُ مِنَ الْحَشَائِشِ وَالْمَآكِلِ ، وَتَجَنُّبِ مَا يَضُرُّهُمْ مِنْ ذٰلِكَ . كُلُّ ذٰلِكَ فِي فِطْرَتِهِمْ . كَذٰلِكَ الْمُسَمَّى جَمَادًا وَنَبَاتًا . أَخَذَ اللّٰهُ بِأَبْصَارِنَا وَأَسْمَاعِنَا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ النُّطْقِ .

وَ (قَالَ ﷺ) : « لَا تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ الرَّجُلَ فَخِذُهُ بِمَا فَعَلَهُ أَهْلُهُ » . جَعَلَ الْجُهَلَاءَ مِنَ الْحُكَمَاءِ هٰذَا ، إِذَا صَحَّ إِيْمَانُهُمْ بِهِ ، مِنْ بَابِ « الْعِلْمِ بِالْاِخْتِلَاجِ » ، يُرِيْدُوْنَ بِهِ « عِلْمَ الزَّجْرِ » . وَإِنْ كَانَ عِلْمُ الزَّجْرِ عِلْمًا صَحِيْحًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ هُوَ مَقْصُوْدُ الشَّارِعِ فِي هٰذَا الْكَلَامِ . فَكَانَ لَهُ ﷺ الْكَشْفُ الْأَتَمُّ ، فَيَرَى مَا لَا نَرَى . وَلَقَدْ نَبَّهَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – عَلَى أَمْرٍ ، عَمِلَ عَلَيْهِ أَهْلُ اللهِ فَوَجَدُوْهُ صَحِيْحًا . (وَهُوَ) قَوْلُهُ : « لَوْلَا تَزْيِيْدَ فِي حَدِيْثِكُمْ ، وَتَمْرِيْجَ فِي قُلُوْبِكُمْ ، لَرَأَيْتُمْ مَا أَرَى ، وَلَسَمِعْتُمْ مَا أَسْمَعُ » . –

فَخُصَّ بِرَتْبَةِ الْكَمَالِ فِي جَمِيْعِ أُمُوْرِهِ ، وَمِنْهَا الْكَمَالُ فِي الْعُبُوْدِيَّةِ . فَكَانَ عَبْدًا صَرْفًا . لَمْ يَقُمْ بِذَاتِهِ رَبَّانِيَّةٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَهِيَ الَّتِي أَوْجَبَتْ لَهُ السِّيَادَةُ ، وَهِيَ الدَّلِيْلُ عَلَى شَرَفِهِ عَلَى الدَّوَامِ . وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ : « كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ » . وَلَنَا مِنْهُ مِيْرَاثٌ وَافِرٌ . وَهُوَ أَمْرٌ يَخْتَصُّ بِبَاطِنِ الْإِنْسَانِ وَقَوْلِهِ ، وَقَدْ يُظْهِرُ خِلَافَ ذٰلِكَ بِأَفْعَالِهِ ، مَعَ تَحَقُّقِهِ بِالْمَقَامِ ، فَيَلْتَبِسُ الْأَمْرُ عَلَى مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ بِالْأَحْوَالِ . – فَقَدْ بَيَّنَّا فِي هٰذَا الْبَابِ مَا مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ .

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾



البَابُ الثَّالِثُ عَشَرَ :
فِي مَعْرِفَةِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ

الْعَرْشُ - وَاللهِ ! - بِالرَّحْمٰنِ مَحْمُوْلُ | وَحَـامِلُوْهُ - وَهٰذَا الْقَـوْلُ مَعْقُوْلُ
وَأَيُّ حَـوْلٍ لِمَخْلُـوْقٍ وَمَقْـدِرَةٍ | لَوْلَاهُ ، جَـاءَ بِهِ عَقْـلٌ وَتَنْزِيْلُ -
جِسْمٌ وَرُوْحٌ وَأَقْـوَاتٌ وَمَرْتَبَـةٌ | مَـا ثَمَّ غَيْرُ الَّذِي رَتَّبْتُ تَفْصِيْلُ
فَذَا هُوَ الْعَرْشُ إِنْ حَقَّقْتَ سُوْرَتَهُ | وَالْمُسْتَوِي بِاسْمِهِ الرَّحْمٰنِ مَأْمُوْلُ
وَهُـمْ ثَمَـانِيَةٌ وَاللهُ يَعْـلَمُهُمْ | وَالْيَـوْمَ أَرْبَعَـةٌ مَـا فِيْهِ تَعْـلِيْلُ
مُحَمَّدٌ ثُـمَّ رِضْـوَانٌ وَمَـالِكُهُمْ | وَآدَمٌ وَخَـلِيْلٌ ثُـمَّ جِـبْرِيْـلُ
وَأَلْحِقْ بِمِيْكَالَ إِسْرَافِيْلَ لَيْسَ هُنَا | سِـوَى ثَمَـانِيَةٍ غُـرَّ بَهَـالِيْـلُ

(الْعَرْشُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ)

اِعْلَمْ – أَيَّدَ اللهُ الْوَلِيَّ ! – أَنَّ الْعَرْشَ ، فِي لِسَانِ الْعَرَبِ ، يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ الْمُلْكُ . يُقَالُ : ثُلَّ عَرْشُ الْمَلِكِ ، إِذَا دَخَلَ فِي مُلْكِهِ خَلَلٌ . وَيُطْلَقُ (الْعَرْشُ) وَيُرَادُ بِهِ

السَّرِيْرُ . فَإِذَا كَانَ الْعَرْشُ عِبَارَةً عَنِ الْمُلْكِ ، فَتَكُوْنُ حَمَلَتَهُ هُمُ الْقَائِمُوْنَ بِهِ . وَإِذَا كَانَ الْعَرْشُ السَّرِيْرَ ، فَتَكُوْنُ حَمَلَتُهُ مَا يَقُوْمُ عَلَيْهِ (السَّرِيْرُ) مِنَ الْقَوَائِمِ ، أَوْ مَنْ يَحْمِلُهُ عَلَى كَوَاهِلِهِمْ . وَالْعَدَدُ يَدْخُلُ فِي حَمَلَةِ الْعَرْشِ . وَقَدْ جَعَلَ الرَّسُوْلُ حُكْمَهُمْ فِي الدُّنْيَا أَرْبَعَةٌ ، وَفِي الْقِيَامَةِ ثَمَانِيَةٌ . فَتَلَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ **وَهُمُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ** ﴾ = يَعْنِي فِي يَوْمِ الدُّنْيَا ؛ وَقَوْلُهُ (– تَعَالَى ! –) : « يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » = يَعْنِي يَوْمَ الْآخِرَةِ .

(الْعَرْشُ مَحْصُوْرٌ فِي جِسْمٍ وَرُوْحٍ وَغِذَاءٍ وَمَرْتَبَةٍ)

رَوَيْنَا عَنِ ابْنِ مَسَرَّةِ الْجَبَلِي ، مِنْ أَكْبَرِ أَهْلِ الطَّرِيْقِ عِلْمًا وَحَالًا وَكَشْفًا : « الْعَرْشُ الْمَحْمُوْلُ هُوَ الْمُلْكُ . وَهُوَ مَحْصُوْرٌ فِي جِسْمٍ وَرُوْحٍ وَغِذَاءٍ وَمَرْتَبَةٍ » . فَآدَمُ وَإِسْرَافِيْلُ لِلصُّوَرِ ؛ وَجِبْرِيْلُ وَمُحَمَّدٌ لِلْأَرْوَاحِ ؛ وَمِيكَائِيْلُ وَإِبْرَاهِيْمُ لِلْأَرْزَاقِ ؛ وَمَالِكٌ وَرِضْوَانُ لِلْوَعْدِ وَالْوَعِيْدِ . وَلَيْسَ فِي الْمُلْكِ إِلَّا مَا ذُكِرَ . –

وَالْأَغْذِيَةُ الَّتِي هِيَ الْأَرْزَاقُ ، حِسِّيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ . فَالَّذِي نَذْكُرُ ، فِي هٰذَا الْبَابِ ، الطَّرِيْقَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى الْمُلْكِ ، لِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْفَائِدَةِ فِي الطَّرِيْقِ ؛ وَتَكُوْنُ حَمَلَتُهُ (أَيْ حَمَلَةُ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ الْعَرْشُ) عِبَارَةً عَنِ الْقَائِمِيْنَ بِتَدْبِيْرِهِ : فَمُدَبِّرٌ صُوْرَةً عُنْصُرِيَّةً أَوْ صُوْرَةً نُورِيَّةً ؛ وَ (مُدَبِّرٌ) رُوْحًا ، مُدَبِّرًا لِصُوْرَةٍ عُنْصُرِيَّةٍ ؛ وَ (مُدَبِّرٌ) رُوْحًا ، مُدَبِّرًا مُسَخَّرًا لِصُوْرَةٍ نُوْرِيَّةٍ ؛ – وَغِذَاءٌ لِصُوْرَةٍ عُنْصُرِيَّةٍ ؛ وَغِذَاءُ عُلُوْمٍ وَمَعَارِفٍ لِأَرْوَاحٍ ؛ – وَمَرْتَبَةٌ حِسِّيَّةٌ مِنْ سَعَادَةٍ بِدُخُوْلِ الْجَنَّةِ ؛ وَمَرْتَبَةٌ حِسِّيَّةٌ ، مِنْ شَقَاوَةٍ بِدُخُوْلِ جَهَنَّمَ ؛ وَمَرْتَبَةٌ رُوْحِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ .

فَمَبْنَى هٰذَا الْبَابِ عَلَى أَرْبَعِ مَسَائِلٍ : الْمَسْأَلَةُ الْأُوْلَى ، الصُّوْرَةُ ؛ وَالْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ ، الرُّوْحُ ؛ وَالْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ ، الْغِذَاءُ ؛ وَالْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ ، الْمَرْتَبَةُ وَهِيَ الْغَايَةُ . وَكُلُّ مَسْأَلَةٍ مِنْهَا تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ فَتَكُوْنُ ثَمَانِيَةً ، وَهُمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ الْمُلْكِ . أَيْ إِذَا ظَهَرَتِ الثَّمَانِيَةُ قَامَ الْمُلْكُ وَظَهَرَ ، وَاسْتَوَى عَلَيْهِ مَلِيكُهُ .

(الْأَجْسَامُ النُّوْرِيَّةُ وَالْمَلَائِكَةُ الْكُرُوْبِيُّوْنَ)

الْمَسْأَلَةُ الْأُوْلَى : الصُّوْرَةُ . وَهِيَ تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : صُوْرَةٌ جِسْمِيَّةٌ عُنْصُرِيَّةٌ ، تَتَضَمَّنُ صُوْرَةً جَسَدِيَّةً خَيَالِيَّةً ؛ وَالْقِسْمُ الْآخَرُ ، صُوْرَةٌ جِسْمِيَّةٌ نُوْرِيَّةٌ . فَلْنَبْتَدِئْ بِالْجِسْمِ النُّوْرِيِّ فَنَقُوْلُ : إِنَّ أَوَّلَ جِسْمٍ خَلَقَهُ اللهُ أَجْسَامُ الْأَرْوَاحِ الْمَلَكِيَّةِ الْمُهَيَّمَةِ فِي جَلَالِ اللهِ ، وَمِنْهُمُ الْعَقْلُ الْأَوَّلُ وَالنَّفْسُ الْكُلُّ . وَإِلَيْهَا (أَيْ إِلَى أَجْسَامِ هٰذِهِ الْأَرْوَاحِ الْمَلَكِيَّةِ الْمُهَيَّمَةِ) انْتَهَتِ الْأَجْسَامُ النُّوْرِيَّةُ الْمَخْلُوْقَةُ مِنْ نُوْرِ الْجَلَالِ . وَمَا ثَمَّ مَلَكٌ مِنْ هٰؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ ، مَنْ وُجِدَ بِوَاسِطَةِ غَيْرِهِ إِلَّا النَّفْسَ الَّتِي دُوْنَ الْعَقْلِ . وَكُلُّ مَلَكٍ خُلِقَ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ ، فَدَاخِلُوْنَ تَحْتَ حُكْمِ الطَّبِيْعَةِ ، فَهُمْ مِنْ جِنْسِ أَفْلَاكِهَا الَّتِي خُلِقُوْا مِنْهَا ، وَهُمْ عُمَّارُهَا . وَكَذٰلِكَ مَلَائِكَةُ الْعَنَاصِرِ . وَآخِرُ صَنْفٍ مِنَ الْأَمْلَاكِ ، الْمَلَائِكَةُ الْمَخْلُوْقُوْنَ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَنْفَاسِهِمْ . فَلْنَذْكُرْ ذٰلِكَ صَنْفًا صَنْفًا فِي هٰذَا الْبَابِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ – تَعَالَى ! – .

اِعْلَمْ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ! – كَانَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ – وَلَا قَبْلِيَّةَ زَمَانٍ ، وَإِنَّمَا ذٰلِكَ عِبَارَةٌ لِلتَّوْصِيْلِ ، تَدُلُّ عَلَى نِسْبَةٍ يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُوْدُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ ، – كَانَ – جَلَّ وَتَعَالَى ! – فِي عَمَاءٍ ، مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ . وَهُوَ أَوَّلُ مَظْهَرٍ إِلٰهِيٍّ ظَهَرَ فِيْهِ ؛ سَرَى فِيْهِ النُّوْرُ الذَّاتِيُّ كَمَا ظَهَرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ النور: ٣٥ . فَلَمَّا انْصَبَغَ ذٰلِكَ الْعَمَاءُ بِالنُّوْرِ ، فَتَحَ فِيْهِ صُوَرَ الْمَلَائِكَةِ الْمُهَيَّمِيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ فَوْقَ عَالَمِ الْأَجْسَامِ الطَّبِيْعِيَّةِ ؛ وَلَا عَرْشٌ وَلَا مَخْلُوْقٌ تَقَدَّمَهُمْ . فَلَمَّا أَوْجَدَهُمْ تَجَلَّى لَهُمْ ، فَصَارَ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ التَّجَلِّي غَيْبًا ، كَانَ ذٰلِكَ الْغَيْبُ رُوْحًا لَهُمْ ، أَيْ لِتِلْكَ الصُّوَرِ . وَتَجَلَّى لَهُمْ فِي اسْمِهِ الْجَمِيْلِ ، فَهَامُوْا فِي جَلَالِ جَمَالِهِ ، فَهُمْ لَا يُفِيْقُوْنَ !

(الْعَقْلُ الْأَوَّلُ قُطْبُ عَالَمِ التَّدْوِيْنِ وَالتَّسْطِيْرِ)

فَلَمَّا شَاءَ (الْحَقُّ) أَنْ يَخْلُقَ عَالَمَ التَّدْوِيْنِ وَالتَّسْطِيْرِ ، عَيَّنَ وَاحِدًا مِنْ هٰؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ الْكُرُوْبِيِّيْنَ – وَهُوَ أَوَّلُ مَلَكٍ ظَهَرَ مِنْ مَلَائِكَةِ ذٰلِكَ النُّوْرِ ، سَمَّاهُ « الْعَقْلَ

وَالْقَلَمَ » . وَتَجَلَّى لَهُ ، فِي مَجْلَى التَّعْلِيْمِ الْوَهْبِيّ ، بِمَا يُرِيْدُ إِيْجَادَهُ مِنْ خَلْقِهِ لَا إِلَى غَايَةٍ وَحَدٍّ . فَقَبِلَ (الْعَقْلُ) بِذَاتِهِ عِلْمَ مَا يَكُوْنُ ، وَمَا لِلْحَقِّ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ الطَّالِبَةِ صُدُوْرَ هٰذَا الْعَالَمِ الْخَلْقِيّ . فَاشْتَقَّ مِنْ هٰذَا الْعَقْلِ مَوْجُوْدًا آخَرَ سَمَّاهُ اللَّوْحَ ، وَأَمَرَ الْقَلَمَ أَنْ يَتَدَلَّى إِلَيْهِ ، وَيُوْدِعَ فِيْهِ جَمِيْعَ مَا يَكُوْنُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا غَيْرَ .

وَجَعَلَ (الْحَقُّ) لِهٰذَا الْقَلَمِ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتِّيْنَ سِنًّا فِي قَلَمِيَّتِهِ ، أَيْ مِنْ كَوْنِهِ قَلَمًا ؛ وَ (جَعَلَ الْحَقُّ لِهٰذَا الْقَلَمِ) مِنْ كَوْنِهِ عَقْلًا ، ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتِّيْنَ تَجَلِّيًا أَوْ رَقِيْقَةً ؛ كُلُّ سِنٍّ أَوْ رَقِيْقَةٍ تَغْتَرِفُ مِنْ ثَلَاثِ مِائَةٍ وَسِتِّيْنَ صَنْفًا مِنَ الْعُلُوْمِ الْإِجْمَالِيَّةِ ، فَيُفَصِّلُهَا (الْقَلَمُ) فِي اللَّوْحِ . فَهٰذَا حَصْرُ مَا فِي الْعَالَمِ مِنَ الْعُلُوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فَعَلِمَهَا اللَّوْحُ حِيْنَ أَوْدَعَهُ الْقَلَمُ إِيَّاهَا . فَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ عِلْمُ الطَّبِيْعَةِ ، وَهُوَ أَوَّلُ عِلْمٍ حَصَلَ فِي هٰذَا اللَّوْحِ مِنْ عُلُوْمِ مَا يُرِيْدُ اللهُ خَلْقَهُ . فَكَانَتِ الطَّبِيْعَةُ دُوْنَ النَّفْسِ . وَذٰلِكَ كُلُّهُ فِي عَالَمِ النُّوْرِ الْخَالِصِ .

(الْعَرْشُ وَعُمَّارُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ)

ثُمَّ أَوْجَدَ – سُبْحَانَهُ ! – الظُّلْمَةَ الْمَحْضَةَ ، الَّتِي هِيَ فِي مُقَابَلَةِ هٰذَا النُّوْرِ ، بِمَنْزِلَةِ الْعَدَمِ الْمُطْلَقِ ، الْمُقَابِلِ لِلْوُجُوْدِ الْمُطْلَقِ . فَعِنْدَمَا أَوْجَدَهَا أَفَاضَ عَلَيْهَا النُّوْرُ إِفَاضَةً ذَاتِيَّةً بِمُسَاعَدَةِ الطَّبِيْعَةِ ، فَلَأَمَ شَعَثَهَا ذٰلِكَ النُّوْرُ . فَظَهَرَ الْجِسْمُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعَرْشِ ؛ فَاسْتَوَى عَلَيْهِ الْاِسْمُ الرَّحْمٰنُ بِالْاِسْمِ الظَّاهِرِ . فَذٰلِكَ أَوَّلُ مَا ظَهَرَ مِنْ عَالَمِ الْخَلْقِ . وَخَلَقَ مِنْ ذٰلِكَ النُّوْرِ الْمُمْتَزِجِ ، الَّذِي هُوَ مِثْلُ ضَوْءِ السَّحَرِ ، الْمَلَائِكَةَ الْحَافِّيْنَ بِالسَّرِيْرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ = فَلَيْسَ لَهُمْ شُغْلٌ إِلَّا كَوْنُهُمْ حَافِّيْنَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ، يُسَبِّحُوْنَ بِحَمْدِهِ . – وَقَدْ بَيَّنَّا خَلْقَ الْعَالَمِ فِي كِتَابٍ سَمَّيْنَاهُ « عُقْلَةُ الْمُسْتَوْفِزِ » . وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مِنْهُ فِي هٰذَا الْبَابِ رُءُوْسَ الْأَشْيَاءِ .

(الْكُرْسِيُّ وَعُمَّارُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ)

ثُمَّ أَوْجَدَ (الْحَقُّ) الْكُرْسِيَّ فِي جَوْفِ هٰذَا الْعَرْشِ ، وَجَعَلَ فِيْهِ مَلَائِكَةً مِنْ جِنْسِ طَبِيْعَتِهِ . فَكُلُّ فَلَكٍ أَصْلٌ لِمَا خُلِقَ فِيْهِ مِنْ عُمَّارِهِ . كَالْعَنَاصِرِ فِيْمَا خُلِقَ مِنْهَا مِنْ عُمَّارِهَا . كَمَا خَلَقَ (اللهُ) آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، وَعَمَرَ بِهِ وَبِبَنِيْهِ الْأَرْضَ . وَقَسَّمَ (الْحَقُّ) فِي هٰذَا الْكُرْسِيِّ الْكَرِيْمِ الْكَلِمَةَ إِلَى خَبَرٍ وَحُكْمٍ : وَهُمَا الْقَدَمَانِ اللَّتَانِ تَدَلَّتَا لَهُ مِنَ الْعَرْشِ ، كَمَا وُرِدَ فِي الْخَبَرِ النَّبَوِيِّ . ثُمَّ خَلَقَ (اللهُ) فِي جَوْفِ الْكُرْسِيِّ الْأَفْلَاكَ ، فَلَكًا فِي جَوْفِ فَلَكٍ . وَخَلَقَ فِي كُلِّ فَلَكٍ عَالَمًا مِنْهُ يَعْمُرُوْنَهُ ، سَمَّاهُمْ مَلَائِكَةً ، يَعْنِي رُسُلًا . وَزَيَّنَهَا (أَيْ الْأَفْلَاكَ) بِالْكَوَاكِبِ . وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ؛ إِلَى أَنْ خَلَقَ صُوَرَ الْمُوَلَّدَاتِ .

(الْأَرْوَاحُ وَالصُّوَرُ النُّوْرِيَّةُ وَالْخَيَالِيَّةُ وَالْعُنْصُرِيَّةُ)

وَلَمَّا أَكْمَلَ اللهُ هٰذِهِ الصُّوَرَ النُّوْرِيَّةَ وَالْعُنْصُرِيَّةَ بِلَا أَرْوَاحٍ تَكُوْنُ غَيْبًا لِهٰذِهِ الصُّوَرِ ، – تَجَلَّى لِكُلِّ صَنْفٍ مِنَ الصُّوَرِ بِحَسَبِ مَا هِيَ عَلَيْهِ . فَتَكَوَّنَ عَنِ الصُّوَرِ وَعَنْ هٰذَا التَّجَلِّي أَرْوَاحُ الصُّوَرِ . وَ (هٰذِهِ) هِيَ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ . – فَخَلَقَ (اللهُ) الْأَرْوَاحَ ، وَأَمَرَهَا بِتَدْبِيْرِ الصُّوَرِ ، وَجَعَلَهَا غَيْرَ مُنْقَسِمَةٍ ، بَلْ ذَاتٌ وَاحِدَةٌ . وَمَيَّزَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ فَتَمَيَّزَتْ . وَكَانَ مَيْزُهَا بِحَسَبِ قُبُوْلِ الصُّوَرِ مِنْ ذٰلِكَ التَّجَلِّي . وَلَيْسَتِ الصُّوَرُ بِأَيْنِيَّاتٍ لِهٰذِهِ الْأَرْوَاحِ عَلَى الْحَقِيْقَةِ . إِلَّا أَنَّ هٰذِهِ الصُّوَرُ لَهَا كَالْمُلْكِ فِي حَقِّ الصُّوَرِ الْعُنْصُرِيَّةِ ، وَكَالْمَظَاهِرِ فِي حَقِّ الصُّوَرِ كُلِّهَا .

ثُمَّ أَحْدَثَ اللهُ الصُّوَرَ الْجَسَدِيَّةَ الْخَيَالِيَّةَ بِتَجَلٍّ آخَرٍ ، بَيْنَ اللَّطَائِفِ وَالصُّوَرِ ؛ تَتَجَلَّى ، فِي تِلْكَ الصُّوَرِ الْجَسَدِيَّةِ ، الصُّوَرُ النُّوْرِيَّةُ وَالنَّارِيَّةُ ظَاهِرَةً لِلْعَيْنِ . وَتَتَجَلَّى الصُّوَرُ الْحِسِّيَّةُ حَامِلَةً لِلصُّوَرِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، فِي هٰذِهِ الصُّوَرِ الْجَسَدِيَّةِ ، فِي النَّوْمِ وَبَعْدَ الْمَوْتِ وَقَبْلَ الْبَعْثِ ، وَهُوَ الْبَرْزَخُ الصُّوْرِيُّ . وَهُوَ قَرْنٌ مِنْ نُوْرٍ ، أَعْلَاهُ وَاسِعٌ وَأَسْفَلُهُ

ضَيِّقٌ ، فَإِنَّ أَعْلَاهُ العَمَاءُ وَأَسْفَلَهُ الْأَرْضُ . وَهٰذِهِ الْأَجْسَادُ الصُّورِيَّةُ ، الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا الْجِنُّ وَالْمَلَائِكَةُ وَبَاطِنُ الْإِنْسَانِ ، وَهِيَ الظَّاهِرَةُ فِي النَّوْمِ وَصُوَرِ سُوْقِ الْجَنَّةِ . وَهِيَ هٰذِهِ الصُّوَرُ الَّتِي تَعْمُرُ الْأَرْضَ (أَعْنِي أَرْضَ الْخَيَالِ أَوْ أَرْضَ الْحَقِيْقَةِ) الَّتِي تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي بَابِهَا .

(غِذَاءُ الْأَرْوَاحِ وَغِذَاءُ الصُّوَرِ)

ثُمَّ إِنَّ اللهَ – تَعَالَى ! – جَعَلَ لِهٰذِهِ الصُّوَرِ وَلِهٰذِهِ الْأَرْوَاحِ غِذَاءً – وَهُوَ (مَوْضُوْعُ) الْمَسْأَلَةِ الثَّالِثَةِ – يَكُوْنُ بِذٰلِكَ الْغِذَاءِ بَقَاؤُهُمْ . وَهُوَ رِزْقٌ حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ . فَالْمَعْنَوِيُّ مِنْهُ غِذَاءُ الْعُلُوْمِ وَالتَّجَلِّيَاتِ وَالْأَحْوَالِ . وَالْغِذَاءُ الْمَحْسُوْسُ مَعْلُوْمٌ . وَهُوَ مَا تَحْمِلُهُ صُوَرُ الْمَطْعُوْمَاتِ وَالْمَشْرُوْبَاتِ مِنَ الْمَعَانِي الرُّوْحَانِيَّةِ ، أَعْنِي الْقُوَّى . فَذٰلِكَ هُوَ الْغِذَاءُ . فَالْغِذَاءُ كُلُّهُ مَعْنَوِيٌّ عَلَى مَا قُلْنَاهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي صُوَرٍ مَحْسُوْسَةٍ . فَتَتَغَذَّى كُلُّ صُوْرَةٍ ، نُوْرِيَّةً كَانَتْ أَوْ حَيَوَانِيَّةً أَوْ جَسَدِيَّةً ، بِمَا يُنَاسِبُهَا . وَتَفْصِيْلُ ذٰلِكَ يَطُوْلُ .

(مَرَاتِبُ الْعَالَمِ فِي السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ)

ثُمَّ إِنَّ اللهَ جَعَلَ لِكُلِّ عَالَمٍ مَرْتَبَةً فِي السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ ، وَمَنْزِلَةً ؛ وَتَفَاصِيْلُهَا لَا تَنْحَصِرُ . فَسَعَادَتُهَا بِحَسَبِهَا : فَمِنْهَا سَعَادَةٌ غَرَضِيَّةٌ ، وَمِنْهَا سَعَادَةٌ كَمَالِيَّةٌ ، وَمِنْهَا سَعَادَةٌ مُلَائِمَةٌ ، وَمِنْهَا سَعَادَةٌ وَضْعِيَّةٌ – أَعْنِي شَرْعِيَّةً . وَالشَّقَاوَةُ مِثْلُ ذٰلِكَ فِي التَّقْسِيْمِ : بِمَا لَا يُوَافِقُ الْغَرَضَ ، وَلَا الْكَمَالَ ، وَلَا الْمِزَاجَ – وَهُوَ غَيْرُ الْمُلَائِمِ – وَلَا الشَّرْعَ .

وَذٰلِكَ كُلُّهُ مَحْسُوْسٌ وَمَعْقُوْلٌ . فَالْمَحْسُوْسُ مِنْهُ مَا يَتَعَلَّقُ بِدَارِ الشَّقَاءِ ، مِنَ الْآلَامِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَيَتَعَلَّقُ بِدَارِ السَّعَادَةِ مِنَ اللَّذَّاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَمِنْهُ خَالِصٌ وَمُمْتَزِجٌ . فَالْخَالِصُ يَتَعَلَّقُ بِالدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَالْمُمْتَزِجُ يَتَعَلَّقُ بِالدَّارِ الدُّنْيَا : فَيَظْهَرُ السَّعِيْدُ بِصُوْرَةِ الشَّقِيِّ ، وَالشَّقِيُّ بِصُوْرَةِ السَّعِيْدِ ، وَفِي الْآخِرَةِ يَمْتَازُوْنَ . وَقَدْ يَظْهَرُ

الشَّقِيُّ فِي الدُّنْيَا بِشَقَاوَتِهِ وَيَتَّصِلُ بِشَقَاءِ الْآخِرَةِ ، وَكَذٰلِكَ السَّعِيْدُ ؛ وَلٰكِنَّهُمْ (فِي الدُّنْيَا) مَجْهُوْلُوْنَ ، وَفِي الْآخِرَةِ يَمْتَازُوْنَ : ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ . فَهُنَالِكَ تَلْحَقُ الْمَرَاتِبُ بِأَهْلِهَا لُحُوْقًا لَا يَنْخَرِمُ وَلَا يَتَبَدَّلُ . فَقَدْ بَانَ لَكَ مَعْنَى الثَّمَانِيَةِ الَّتِي هِيَ مَجْمُوْعُ الْمُلْكِ ، الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالْعَرْشِ . وَهٰذِهِ هِيَ الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ .

(حَمَلَةُ الْعَرْشِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

فَقَدْ بَانَ لَكَ مَعْنَى الثَّمَانِيَةِ . وَهٰذِهِ الثَّمَانِيَةُ لِلنِّسَبِ (الْإِلٰهِيَّةِ) الثَّمَانِيَّةُ الَّتِي يُوْصَفُ بِهَا الْحَقُّ . وَهِيَ : الْحَيَاةُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ وَالْكَلَامُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَإِدْرَاكُ الْمَطْعُوْمِ وَالْمَشْمُوْمِ وَالْمَلْمُوْسِ ، بِالصِّفَةِ اللَّائِقَةِ بِهِ . فَإِنَّ لِهٰذَا الْإِدْرَاكِ بِهَا تَعَلُّقًا ، كَإِدْرَاكِ السَّمْعِ بِالْمَسْمُوْعَاتِ ، وَالْبَصَرِ بِالْمُبْصِرَاتِ . وَلِهٰذَا انْحَصَرَ الْمُلْكُ فِي ثَمَانِيَةٍ . فَالظَّاهِرُ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا أَرْبَعَةٌ : الصُّوْرَةُ وَالْغِذَاءُ وَالْمَرْتَبَتَانِ . وَيَوْمُ الْقِيَامَةِ تَظْهَرُ الثَّمَانِيَةُ بِجَمِيْعِهَا لِلْعِيَانِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ – تَعَالَى ! – : ﴿ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴾ فَقَالَ ﷺ : « وَهُمُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ » . – هٰذَا فِي تَفْسِيْرِ الْعَرْشِ بِالْمُلْكِ .

وَأَمَّا الْعَرْشُ الَّذِي هُوَ السَّرِيْرُ ، فَإِنَّ لِلّٰهِ مَلَائِكَةٌ يَحْمِلُوْنَهُ عَلَى كَوَاهِلِهِمْ ، هُمُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ ، وَغَدًا يَكُوْنُوْنَ ثَمَانِيَةً لِأَجْلِ الْحَمْلِ إِلَى أَرْضِ الْحَشْرِ . وَوَرَدَ فِي صُوَرِ هٰؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ الْحَمَلَةِ مَا يُقَارِبُهُ قَوْلُ ابْنُ مَسَرَّةِ . فَقِيْلَ : الْوَاحِدُ عَلَى صُوْرَةِ الْإِنْسَانِ ، وَالثَّانِي عَلَى صُوْرَةِ الْأَسَدِ ، وَالثَّالِثُ عَلَى صُوْرَةِ النَّسْرِ ، وَالرَّابِعُ عَلَى صُوْرَةِ الثَّوْرِ ، وَهُوَ الَّذِي رَآهُ السَّامِرِيُّ فَتَخَيَّلَ أَنَّهُ إِلٰهُ مُوْسَى ، فَصَنَعَ لِقَوْمِهِ الْعِجْلَ ، وَقَالَ : ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ الْقِصَّةَ .

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾



الْبَابُ الرَّابِعُ عَشَرَ :

فِي مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ الْأَنْبِيَاءِ ، أَعْنِي أَنْبِيَاءَ الْأَوْلِيَاءِ وَأَقْطَابِ الْأُمَمِ الْمُكَمَّلِيْنَ مِنْ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنَّ الْقُطْبَ وَاحِدٌ مُنْذُ خَلَقَهُ اللهُ لَمْ يَمُتْ ، وَأَيْنَ مَسْكَنُهُ ؟

أَنْبِيَاءُ الْأَوْلِيَاءِ الْوَرَثَةْ　　　عَرَّفَ اللهُ بِهِمْ مَنْ بَعَثَهْ
ثُمَّ فِي رُوْعِ إِمَامٍ وَاحِدٍ　　　سِرَّ هٰذَا الْأَمْرِ رُوْحٌ نَفَثَهْ
ثُمَّ لَمَّا عَقَدَ اللهُ لَهُ　　　وَسَرَىٰ فِي خَلْقِهِ مَا نَكَثَهْ
تَلَقَّتْهُ عَلَىٰ عِزَّتِهِ　　　مِنَّةً مِنْهُ قُلُوبُ الْوَرَثَةْ
مَوْضِعُ الْقُطْبِ الَّذِي يَسْكُنُهُ　　　لَيْسَ يَدْرِيْهِ سِوَى مَنْ وَرِثَهْ

(**النَّبِيُّ وَالرَّسُوْلُ**)

اِعْلَمْ – أَيَّدَكَ اللهُ ! – أَنَّ النَّبِيَّ هُوَ الَّذِي يَأْتِيْهِ الْمَلَكُ بِالْوَحْيِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، يَتَضَمَّنُ ذٰلِكَ الْوَحْيُ شَرِيْعَةً يَتَعَبَّدُهُ بِهَا فِي نَفْسِهِ . فَإِنْ بُعِثَ بِهَا إِلَى غَيْرِهِ كَانَ رَسُوْلًا .

وَيَأْتِيْهِ الْمَلَكُ عَلَى حَالَتَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَنْزِلَ بِهَا عَلَى قَلْبِهِ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالٍ فِي ذٰلِكَ التَّنَزُّلِ ؛ وَإِمَّا عَلَى صُوْرَةٍ جَسَدِيَّةٍ مِنْ خَارِجٍ ، يُلْقِي مَا جَاءَ بِهِ إِلَيْهِ عَلَى أُذُنِهِ فَيَسْمَعَ ، أَوْ يُلْقِيْهَا عَلَى بَصَرِهِ فَيُبْصِرَهُ ، فَيَحْصُلُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ النَّظَرِ مِثْلُ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ السَّمْعِ ، سَوَاءًا (بِسَوَاءٍ) . وَكَذٰلِكَ سَائِرُ الْقُوَى الْحَسَّاسَةِ .

وَهٰذَا بَابٌ قَدْ أُغْلِقَ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ . فَلَا سَبِيْلَ أَنْ يَتَعَبَّدَ اللهُ أَحَدًا بِشَرِيْعَةٍ نَاسِخَةٍ لِهٰذِهِ الشَّرِيْعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ . وَإِنَّ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – إِذَا نَزَلَ ، مَا يَحْكُمُ إِلَّا بِشَرِيْعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَهُوَ (أَعْنِي سَيِّدَنَا عِيْسَى) خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ . فَإِنَّهُ مِنْ شَرَفِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ خَتَمَ اللهُ وِلَايَتَهُ – وَالْوِلَايَةَ مُطْلَقَةً – بِنَبِيٍّ ، رَسُوْلٍ ، مُكَرَّمٍ ، خُتِمَ بِهِ مَقَامُ الْوِلَايَةِ . فَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَشْرَانِ : يَحْشُرُ مَعَ الرُّسُلِ رَسُوْلًا ، وَيَحْشُرُ مَعَنَا وَلِيًّا تَابِعًا لِمُحَمَّدٍ ﷺ . كَرَّمَهُ اللهُ – تَعَالَى ! – وَإِلْيَاسَ بِهٰذَا الْمَقَامِ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ .

(أَنْبِيَاءُ الْأَوْلِيَاءِ)

وَأَمَّا حَالَةُ أَنْبِيَاءِ الْأَوْلِيَاءِ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ ، فَهُوَ كُلُّ شَخْصٍ أَقَامَهُ الْحَقُّ فِي تَجَلٍّ مِنْ تَجَلِّيَاتِهِ ، وَأَقَامَ لَهُ مَظْهَرَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَظْهَرَ جِبْرِيْلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . فَأَسْمَعَهُ ذٰلِكَ الْمَظْهَرُ الرُّوْحَانِيُّ خِطَابَ الْأَحْكَامِ الْمَشْرُوْعَةِ لِمَظْهَرِ مُحَمَّدٍ ﷺ . حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خِطَابِهِ ، وَفُزِّعَ عَنْ قَلْبِ هٰذَا الْوَلِيِّ ، عَقَلَ صَاحِبُ هٰذَا الْمَشْهَدِ جَمِيْعَ مَا تَضَمَّنَهُ ذٰلِكَ الْخِطَابُ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمَشْرُوْعَةِ ، الظَّاهِرَةِ فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ . فَيَأْخُذُهَا هٰذَا الْوَلِيُّ كَمَا أَخَذَهَا الْمَظْهَرُ الْمُحَمَّدِيُّ ، لِلْحُضُوْرِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ فِي هٰذِهِ الْحَضْرَةِ مِمَّا أُمِرَ بِهِ ذٰلِكَ الْمَظْهَرُ الْمُحَمَّدِيُّ مِنَ التَّبْلِيْغِ لِهٰذِهِ الْأُمَّةِ . فَيُرَدُّ (الْوَلِيُّ) إِلَى نَفْسِهِ ، وَقَدْ وَعَى مَا خَاطَبَ الرُّوْحُ بِهِ مَظْهَرَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلِمَ صِحَّتَهُ عِلْمَ يَقِيْنٍ بَلْ عَيْنَ يَقِيْنٍ . فَأَخَذَ حُكْمَ هٰذَا النَّبِيِّ ، وَعَمِلَ بِهِ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ .

فَرُبَّ حَدِيْثٍ ضَعِيْفٍ قَدْ تُرِكَ الْعَمَلُ بِهِ لِضَعْفِ طَرِيْقِهِ ، مِنْ أَجْلِ وَضَّاعٍ كَانَ فِي رُوَاتِهِ ، يَكُوْنُ صَحِيْحًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ؛ وَيَكُوْنُ هٰذَا الْوَاضِعُ مِمَّا صَدَقَ فِي هٰذَا

الْحَدِيْثِ ، وَلَمْ يَضَعْهُ . وَإِنَّمَا رَدَّهُ الْمُحَدِّثُ لِعَدَمِ الثِّقَةِ بِقَوْلِهِ فِي نَقْلِهِ ، وَذٰلِكَ إِذَا انْفَرَدَ بِهِ ذٰلِكَ الْوَاضِعُ ، أَوْ كَانَ مَدَارُ الْحَدِيْثِ عَلَيْهِ ؛ وَأَمَّا إِذَا شَارَكَهُ فِيْهِ ثِقَةٌ سَمِعَهُ مَعَهُ ، قُبِلَ ذٰلِكَ الْحَدِيْثُ مِنْ طَرِيْقِ هٰذَا الثِّقَةِ . – وَهٰذَا وَلِيٌّ قَدْ سَمِعَهُ مِنَ الرُّوْحِ يُلْقِيْهِ عَلَى حَقِيْقَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَمَا سَمِعَ الصَّحَابَةُ فِي حَدِيْثِ جِبْرِيْلَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْإِسْلَامِ وَالْإِيْمَانِ وَالْإِحْسَانِ ، فِي تَصْدِيْقِهِ إِيَّاهُ . وَإِذَا سَمِعَهُ (الْوَلِيُّ) مِنَ الرُّوْحِ الْمُلْقِي ، فَهُوَ فِيْهِ مِثْلُ الصَّاحِبِ الَّذِي سَمِعَهُ مِنْ فَمِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، عِلْمًا لَا يَشُكُّ (الصَّحَابِيُّ) فِيْهِ ؛ بِخِلَافِ التَّابِعِ ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُهُ عَلَى طَرِيْقِ غَلَبَةِ الظَّنِّ ، لِارْتِفَاعِ التُّهْمَةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الصِّدْقِ .

وَرُبَّ حَدِيْثٍ يَكُوْنُ صَحِيْحًا مِنْ طَرِيْقِ رُوَاتِهِ ، يَحْصُلُ لِهٰذَا الْمُكَاشِفِ الَّذِي قَدْ عَايَنَ هٰذَا الْمَظْهَرَ ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ هٰذَا الْحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ ، فَأَنْكَرَهُ وَقَالَ لَهُ : لَمْ أَقُلْهُ وَلَا حَكَمْتُ بِهِ . فَيَعْلَمُ (هٰذَا الْمُكَاشِفُ) ضَعْفَهُ ، فَيَتْرُكُ الْعَمَلَ بِهِ عَنْ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ عَمِلَ بِهِ أَهْلُ النَّقْلِ لِصِحَّةِ طَرِيْقِهِ ، وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَقَدْ ذَكَرَ مِثْلَ هٰذَا (الْإِمَامُ) مُسْلِمٌ فِي صَدْرِ كِتَابِهِ « الصَّحِيْحِ » . – وَقَدْ يَعْرِفُ هٰذَا الْمُكَاشِفُ مَنْ وَضَعَ ذٰلِكَ الْحَدِيْثَ الصَّحِيْحَ طَرِيْقَهُ فِي زَعْمِهِمْ : إِمَّا أَنْ يُسَمَّى لَهُ ، أَوْ تُقَامَ لَهُ صُوْرَةُ الشَّخْصِ .

فَهٰؤُلَاءِ هُمْ أَنْبِيَاءُ الْأَوْلِيَاءُ ؛ وَلَا يَتَفَرَّدُوْنَ قَطُّ بِشَرِيْعَةٍ ؛ وَلَا يَكُوْنُ لَهُمْ خِطَابٌ بِهَا إِلَّا بِتَعْرِيْفٍ : إِنَّ هٰذَا هُوَ شَرْعُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، أَوْ يُشَاهِدُ الْمُنْزَلَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ الْحُكْمِ فِي حَضْرَةِ التَّمَثُّلِ ، الْخَارِجِ عَنْ ذَاتِهِ وَالدَّاخِلِ ، الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالْمُبَشِّرَاتِ فِي حَقِّ النَّائِمِ . غَيْرَ أَنَّ الْوَلِيَّ يَشْتَرِكُ مَعَ النَّبِيِّ ، فِي إِدْرَاكِ مَا تُدْرِكُهُ الْعَامَّةُ فِي النَّوْمِ ، فِي حَالِ الْيَقْظَةِ ، سَوَاءً (بِسَوَاءٍ) . وَقَدْ أَثْبَتَ هٰذَا الْمَقَامَ لِلْأَوْلِيَاءِ أَهْلُ طَرِيْقِنَا ؛ وَإِتْيَانَ غَيْرَ هٰذَا وَهُوَ الْفِعْلُ بِالْهِمَّةِ ؛ وَالْعِلْمَ مِنْ غَيْرِ مُعَلِّمٍ مِنَ الْمَخْلُوْقِيْنَ غَيْرِ اللهِ ، وَهُوَ عِلْمُ الْخَضِرِ . فَإِنْ آتَاهُ اللهُ الْعِلْمَ بِهٰذِهِ الشَّرِيْعَةِ الَّتِي تَعَبَّدَهُ بِهَا عَلَى لِسَانِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ – بِارْتِفَاعِ الْوَسَائِطِ – أَعْنِي الْفُقَهَاءَ وَعُلَمَاءَ الرُّسُوْمِ – ، كَانَ مِنَ الْعِلْمِ اللَّدُنِّي ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ

أَنْبِيَاءِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ . فَلَا يَكُوْنُ ، مَنْ يَكُوْنُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ، وَارِثَ نَبِيٍّ إِلَّا عَلَى هٰذِهِ الْحَالَةِ الْخَاصَّةِ : مِنْ مُشَاهَدَةِ الْمَلَكِ عِنْدَ الْإِلْقَاءِ عَلَى حَقِيْقَةِ الرَّسُوْلِ . – فَافْهَمْ !

فَهٰؤُلَاءِ هُمْ أَنْبِيَاءُ الْأَوْلِيَاءِ . وَتَسْتَوِي الْجَمَاعَةُ كُلُّهَا فِي « الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيْرَةٍ » ، كَمَا أَمَرَ اللهُ – تَعَالَى ! – نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُوْلَ : ﴿ **أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ** ﴾ = وَهُمْ أَهْلُ هٰذَا الْمَقَامِ . فَهُمْ ، فِي هٰذِهِ الْأُمَّةِ ، مِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ ، عَلَى مَرْتَبَةِ تَعَبُّدِ هَارُوْنَ بِشَرِيْعَةِ مُوْسَى – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! – مَعَ كَوْنِهِ نَبِيًّا . فَإِنَّ اللهَ قَدْ شَهِدَ بِنُبُوَّتِهِ ، وَصَرَّحَ بِهَا فِي الْقُرْآنِ . فَمِثْلُ هٰؤُلَاءِ (الْأَوْلِيَاءِ) يَحْفَظُوْنَ الشَّرِيْعَةَ الصَّحِيْحَةَ الَّتِي لَا شَكَّ فِيْهَا ، عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّنِ اتَّبَعَهُمْ . فَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالشَّرْعِ ، غَيْرُ أَنَّ الْفُقَهَاءَ لَا يُسْلِمُوْنَ لَهُمْ ذٰلِكَ . –

وَهٰؤُلَاءِ (الْأَوْلِيَاءُ) لَا يَلْزَمُهُمْ إِقَامَةُ الدَّلِيْلِ عَلَى صِدْقِهِمْ . بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْكَتْمُ لِمَقَامِهِمْ . وَلَا يَرُدُّوْنَ عَلَى عُلَمَاءِ الرُّسُوْمِ فِيْمَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ ذٰلِكَ خَطَأٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . فَحُكْمُهُمْ حُكْمُ الْمُجْتَهِدِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ فِي الْمَسْأَلَةِ بِغَيْرِ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ ، وَأَعْطَاهُ دَلِيْلُهُ . وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُخَطِّئَ الْمُخَالِفَ لَهُ فِي حُكْمِهِ ، فَإِنَّ الشَّارِعَ قَدْ قَرَّرَ ذٰلِكَ الْحُكْمَ فِي حَقِّهِ . فَالْأَدَبُ يَقْتَضِي لَهُ أَنْ لَا يُخَطِّئَ مَا قَرَّرَهُ الشَّارِعُ حُكْمًا . وَدَلِيْلُهُ وَكَشْفُهُ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِاتِّبَاعِ حُكْمِ مَا ظَهَرَ لَهُ وَشَاهَدَهُ .

(حَفَظَةُ الْحُكْمِ النَّبَوِيِّ وَحَفَظَةُ الْحَالِ النَّبَوِيِّ)

وَقَدْ وَرَدَ الْخَبَرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ **إِنَّ عُلَمَاءَ هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيْلَ** ﴾ – يَعْنِي الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا . فَإِنَّ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ كَانَتْ تَحْفَظُ عَلَيْهِم (أَيْ عَلَى الْيَهُوْدِ) شَرَائِعَ رُسُلِهِمْ ، وَتَقُوْمُ بِهَا فِيْهِمْ . وَكَذٰلِكَ عُلَمَاءُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا : يَحْفَظُوْنَ عَلَيْهَا أَحْكَامَ رَسُوْلِهَا ﷺ ، كَعُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ ، وَمَنْ نَزَلَ عَنْهُمْ مِنَ التَّابِعِيْنَ وَأَتْبَاعِ التَّابِعِيْنَ : كَالثَّوْرِي ، وَابْنِ عُيَيْنَة ، وَابْنِ سِيْرِيْنَ ، وَالْحَسَنِ ، وَمَالِكٍ ، وَابْنِ أَبِي رَبَاحٍ ،

وَأَبِي حَنِيْفَةٍ ؛ – وَمَنْ نَزَلَ عَنْهُمْ : كَالشَّافِعِي ، وَابْنِ حَنْبَلٍ ؛ وَمَنْ جَرَى مَجْرَى هٰؤُلَاءِ إِلَى هَلُمَّ جرًّا ، فِي حِفْظِ الْأَحْكَامِ .

وَطَائِفَةٌ أُخْرَىٰ ، مِنْ عُلَمَاءِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ ، يَحْفَظُوْنَ عَلَيْهَا أَحْوَالَ الرَّسُوْلِ ﷺ ، وَأَسْرَارَ عُلُوْمِهِ : كَعَلِيٍّ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَسَلْمَان ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ ، وَحُذَيْفَة ؛ وَمِنَ التَّابِعِيْنَ : كَالْحَسَنِ الْبَصْرِيّ ، وَمَالِكِ بْنِ دِيْنَار ، وَبُنَان الْحَمَّال ، وَأَيُّوب السَّخْتِيَانِي ؛ – وَمَنْ نَزَلَ عَنْهُمْ بِالزَّمَانِ : كَشَيْبَان الرَّاعِي ، وَفَرَّح الأسود الْمُعَمر ، وَالْفُضَيْل بْن عِيَاض ، وَذِي النُّوْنِ الْمِصْرِيّ ؛ – وَمَنْ نَزَلَ عَنْهُمْ : كَالْجُنَيْدِ ، وَالتُّسْتَرِي ، وَمَنْ جَرَى مَجْرَى هٰؤُلَاءِ مِنَ السَّادَةِ فِي حِفْظِ الْحَالِ النَّبَوِيّ وَالْعِلْمِ اللَّدُنِّي وَالسِّرِّ الْإِلٰهِيّ .

فَأَسْرَارُ حَفَظَةِ الْحُكْمِ (النَّبَوِيّ) مَوْقُوْفَةٌ فِي الْكُرْسِيّ ، عِنْدَ الْقَدَمَيْنِ : إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَالٌ نَبَوِيٌّ يُعْطِي سِرًّا إِلٰهِيًّا وَلَا عِلْمًا لَدُنِّيًّا . وَأَسْرَارُ حُفَّاظِ الْحَالِ النَّبَوِيّ وَالْعِلْمِ اللَّدُنِّي ، مِنْ عُلَمَاءِ حُفَّاظِ الْحُكْمِ وَغَيْرِهِمْ ، مَوْقُوْفَةٌ عِنْدَ الْعَرْشِ وَالْعَمَاءِ ، وَلَا مَوْقُوْفَةَ ! وَمِنْهَا مَا لَهَا مَقَامٌ ، وَمِنْهَا مَا لَا مُقَامَ لَهَا : وَذٰلِكَ مَقَامٌ لَهَا تَتَمَيَّزُ بِهِ ، فَإِنَّ تَرْكَ الْعَلَامَةِ – بَيْنَ أَصْحَابِ الْعَلَامَاتِ – عَلَامَةٌ مُحَقَّقَةٌ ، غَيْرُ مَحْكُوْمٍ عَلَيْهَا بِتَقْيِيْدٍ ، وَهِيَ أَسْنَى الْعَلَامَاتِ ! وَلَا يَكُوْنُ ذٰلِكَ إِلَّا لِلْمُتَمَكِّنِ الْكَامِلِ فِي الْوَرَثِ الْمُحَمَّدِيّ .

(أَقْطَابُ الْأُمَمِ السَّابِقِيْنَ)

وَأَمَّا أَقْطَابُ الْأُمَمِ الْمُكَمَّلِيْنَ ، فِي غَيْرِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّنْ تَقَدَّمَنَا بِالزَّمَانِ ، فَجَمَاعَةٌ ذُكِرَتْ لِي أَسْمَاؤُهُمْ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيّ ، لَمَّا أُشْهِدْتُهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ فِي حَضْرَةٍ بَرْزَخِيَّةٍ وَأَنَا بِمَدِيْنَةِ قُرْطُبَةٍ ، فِي مَشْهَدٍ أَقْدَسٍ . فَكَانَ مِنْهُمُ الْمُفَرِّق ، وَمُدَاوِي الْكُلُوْمِ ، وَالْبَكَّاءُ ، وَالْمُرْتَفِعُ ، وَالشِّفَاءُ ، وَالْمَاحِقُ ، وَالْعَاقِبُ ، وَالْمَنْحُوْرُ ، وَشَجَرُ الْمَاءِ ، وَعُنْصُرُ الْحَيَاةِ ، وَالشَّرِيْدُ ، وَالرَّاجِعُ ، وَالصَّانِعُ ، وَالطَّيَّارُ ، وَالسَّالِمُ ، وَالْخَلِيْفَةُ ، وَالْمَقْسُوْمُ ، وَالْحَيُّ ، وَالرَّامِي ، وَالْوَاسِعُ ، وَالْبَحْرُ ، وَالْمُلْصَقُ ، وَالْهَادِي ، وَالْمُصْلِحُ ، وَالْبَاقِي . – فَهٰؤُلَاءِ الْمُكَمَّلُوْنَ الَّذِيْنَ سُمُّوْا لَنَا مِنْ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – إِلَى زَمَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ !

(الرُّوْحُ الْمُحَمَّدِيُّ وَمَظَاهِرُهُ فِي الْعَالَمِ)

وَأَمَّا الْقُطْبُ الْوَاحِدُ فَهُوَ رُوْحُ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَهُوَ الْمُمِدُّ لِجَمِيْعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ – سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ ! – وَالْأَقْطَابِ مِنْ حِيْنِ النَّشْءِ الْإِنْسَانِيِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . قِيْلَ لَهُ ﷺ : مَتَى كُنْتَ نَبِيًّا ؟ فَقَالَ ﷺ : ﴿ وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّيْنِ ﴾ . وَكَانَ اسْمُهُ مُدَاوِي الْكُلُوْمِ : فَإِنَّهُ بِجَرَاحَاتِ الْهَوَى خَبِيْرٌ ، وَ (بِجَرَاحَاتِ) الرَّأْيِ وَالدُّنْيَا وَالشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ ، بِكُلِّ لِسَانٍ نَبَوِيٍّ ، أَوْ رِسَالِيٍّ ، أَوْ لِسَانِ الْوَلَايَةِ (أَيْضًا هُوَ جَدُّ خَبِيْرٍ) . وَكَانَ لَهُ (ﷺ) نَظَرٌ إِلَى مَوْضِعِ وِلَادَةِ جِسْمِهِ بِمَكَّةَ ، وَإِلَى الشَّامِ (= بَيْتُ الْمُقَدَّسِ) . ثُمَّ صُرِفَ الْآنَ نَظَرَهُ إِلَى أَرْضٍ كَثِيْرَةِ الْحَرِّ وَالْيُبْسِ ، لَا يَصِلُ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ بِجَسَدِهِ . إِلَّا أَنَّهُ قَدْ رَآهَا بَعْضُ النَّاسِ مِنْ مَكَّةَ ، فِي مَكَانِهِ ، مِنْ غَيْرِ نُقْلَةٍ ، زُوِيَتْ لَهُ الْأَرْضُ فَرَآهَا . وَقَدْ أَخَذْنَا ، نَحْنُ ، عَنْهُ عُلُوْمًا جَمَّةً ، بِمَآخِذٍ مُخْتَلِفَةٍ .

وَلِهٰذَا الرُّوْحِ الْمُحَمَّدِيِّ مَظَاهِرٌ فِي الْعَالَمِ . أَكْمَلُ مَظْهَرِهِ فِي قُطْبِ الزَّمَانِ ، وَفِي الْأَفْرَادِ ، وَفِي خَتْمِ الْوَلَايَةِ الْمُحَمَّدِيِّ ، وَخَتْمِ الْوَلَايَةِ الْعَامَّةِ الَّذِي هُوَ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ (فِي عُنْوَانِ هٰذَا الْبَابِ) بِمَسْكَنِهِ . وَسَأَذْكُرُ فِيْمَا بَعْدَ هٰذَا الْبَابِ – إِنْ شَاءَ اللهُ ! – مَا لَهُ مِنْ كَوْنِهِ « مُدَاوِي الْكُلُوْمِ » مِنَ الْأَسْرَارِ ، وَمَا انْتَشَرَ عَنْهُ مِنَ الْعُلُوْمِ . ثُمَّ ظَهَرَ هٰذَا السِّرُّ بَعْدَ ظُهُوْرِ حَالِ « مُدَاوِي الْكُلُوْمِ » فِي شَخْصٍ آخَرَ اسْمُهُ « الْمُسْتَسْلِمُ لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ » . ثُمَّ انْتَقَلَ الْحُكْمُ مِنْهُ إِلَى « مَظْهَرِ الْحَقِّ » . ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْ « مَظْهَرِ الْحَقِّ » إِلَى « الْهَائِجِ » . ثُمَّ انْتَقَلَ مِنَ « الْهَائِجِ » إِلَى شَخْصٍ يُسَمَّى « وَاضِعَ الْحِكَمِ » ، وَأَظُنُّهُ لُقْمَانٌ – وَاللهُ أَعْلَمُ ! – فَإِنَّهُ كَانَ فِي زَمَانِ دَاوُدَ ، وَمَا أَنَا مِنْهُ عَلَى يَقِيْنٍ أَنَّهُ لُقْمَانٌ . ثُمَّ انْتَقَلَ (هٰذَا السِّرُّ) مِنْ « وَاضِعِ الْحِكَمِ » إِلَى « الْكَاسِبِ » . ثُمَّ انْتَقَلَ مِنَ « الْكَاسِبِ » إِلَى « جَامِعِ الْحِكَمِ » . وَمَا عَرَفْتُ لِمَنِ انْتَقَلَ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِهِ . – وَسَأَذْكُرُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ – إِذَا جَاءَتْ أَسْمَاءُ هٰؤُلَاءِ – مَا اخْتَصُّوْا بِهِ مِنَ الْعُلُوْمِ . وَنَذْكُرُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَةً – إِنْ شَاءَ اللهُ ! – . وَيُجْرَى ذٰلِكَ عَلَى لِسَانِي ، فَمَا أَدْرِي

مَا يَفْعَلُ اللهُ بِي . وَيَكْفِي هٰذَا الْقَدْرُ مِنْ هٰذَا الْبَابِ .

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾

انْتَهَى الْجُزْءُ الثَّالِثُ عَشَرَ

الجزء الرابع عشر من الفتح المكي



الْبَابُ الْخَامِسُ عَشَرَ :

فِي مَعْرِفَةِ الْأَنْفَاسِ
وَمَعْرِفَةِ أَقْطَابِهَا الْمُحَقِّقِيْنَ بِهَا وَأَسْرَارِهِمْ

عَالَمُ الْأَنْفَـاسِ مِنْ نَفَسِي   وَهُمُ الْأَعْلَوْنَ فِي الْقُـدُسِ
مُصْطَفَـاهُمْ سَـيِّدٌ لَسِـنٌ   وَحْيُـهُ يَأْتِيْـهِ فِي الْجَـرَسِ
قُلْتُ لِلْبَوَّابِ – حِيْنَ رَأَى :   مَـا أُقَـاسِيْهِ مِنَ الْحَـرَسِ
قَالَ : مَـا تَبْغِيْهِ يَـا وَلَدِي ؟   قُلْتُ : قُرْبَ السَّيِّدِ النَّدُسِ
مَنْ شَفِيْعِي لِلْإِمَامِ ؟ عَسَى   خَطْـرَةٌ مِنْـهُ لِمُخْتَلِـسِ !
قَـالَ مَـا يُعْطِي عَـوَارِفَهُ   لِغَـنِيٍّ غَيْـرَ مُبْـتَئِسِ

(الْقُطْبُ الْأَوَّلُ : مُدَاوِي الْكُلُوْمِ)

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : ﴿ **إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِيْنِي مِنْ قَبَلِ الْيَمَنِ** ﴾ . قِيْلَ : إِنَّ الْأَنْصَارَ نَفَّسَ اللهُ بِهِمْ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ مَا كَانَ فِيْهِ مِنْ مُقَاسَاةِ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِيْنَ . –

وَالْأَنْفَاسُ رَوَائِحُ الْقُرْبِ الْإِلٰهِيِّ . فَلَمَّا تَنَسَّمَتْ مَشَامُّ الْعَارِفِيْنَ عَرْفَ هٰذِهِ الْأَنْفَاسِ ؛ وَتَوَفَّرَتِ الدَّوَاعِي مِنْهُمْ إِلَى طَلَبِ مُحَقِّقٍ ثَابِتِ الْقَدَمِ فِي ذٰلِكَ الْمَقَامِ ، يُنْبِئُهُمْ بِمَا فِي طَيِّ ذٰلِكَ الْمَقَامِ الْأَقْدَسِ ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ هٰذِهِ الْأَنْفَاسُ مِنَ الْعَرْفِ الْأَنْفَسِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْعُلُوْمِ . —

بَعْدَ الْبَحْثِ بِالْهِمَمِ وَالتَّعَرُّضِ لِنَفَحَاتِ الْكَرَمِ ، عُرِّفُوْا بِشَخْصٍ إِلٰهِيٍّ عِنْدَهُ السِّرُّ الَّذِي يَطْلُبُوْنَهُ ، وَالْعِلْمُ الَّذِي يُرِيْدُوْنَ تَحْصِيْلَهُ . وَأَقَامَهُ الْحَقُّ فِيْهِمْ قُطْبًا يَدُوْرُ عَلَيْهِ فَلَكُهُمْ ، وَإِمَامًا يَقُوْمُ بِهِ ، مُلْكُهُمْ ، يُقَالُ لَهُ : « مُدَاوِي الْكُلُوْمِ » . فَانْتَشَرَ عَنْهُ فِيْهِمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكَمِ وَالْأَسْرَارِ مَا لَا يَحْصُرُهَا كِتَابٌ .

(مُدَاوِي الْكُلُوْمِ وَعِلْمُ الْكِيْمِيَّاءِ)

وَأَوَّلُ سِرٍّ اطَّلَعَ عَلَيْهِ (هٰذَا الْقُطْبُ) الدَّهْرُ الْأَوَّلُ ، الَّذِي عَنْهُ تَكَوَّنَتِ الدُّهُوْرُ ؛ وَأَوَّلُ فِعْلٍ أُعْطِيَ ، فِعْلُ مَا تَقْتَضِيْهِ رُوْحَانِيَّةُ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، سَمَاءُ كَيْوَانٍ . فَكَانَ يُصَيِّرُ الْحَدِيْدَ فِضَّةً بِالتَّدْبِيْرِ وَالصَّنْعَةِ ، وَيُصَيِّرُ الْحَدِيْدَ ذَهَبًا بِالْخَاصِّيَّةِ . وَهُوَ سِرٌّ عَجِيْبٌ . وَلَمْ يَطْلُبْ (= يُقْبَلْ) عَلَى هٰذَا رَغْبَةً فِي الْمَالِ ، وَلٰكِنْ رَغْبَةً فِي حُسْنِ الْمَآلِ ، لِيَقِفَ مِنْ ذٰلِكَ عَلَى رَتْبَةِ الْكَمَالِ . وَأَنَّهُ مُكْتَسَبٌ فِي التَّكْوِيْنِ : فَإِنَّ الْمَرْتَبَةَ الْأُوْلَى (تَكُوْنُ) مِنْ عَقْدِ الْأَبْخِرَةِ الْمَعْدَنِيَّةِ بِالْحَرَكَاتِ الْفَلَكِيَّةِ وَالْحَرَارَةِ الطَّبِيْعِيَّةِ ، زِئْبَقًا وَكِبْرِيْتًا . وَكُلُّ مُتَكَوِّنٍ فِي الْمَعْدِنِ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ الْغَايَةَ الَّتِي هِيَ الْكَمَالُ ، وَهُوَ الذَّهَبِيَّةُ . لٰكِنْ تَطْرَأُ عَلَيْهِ (وَهُوَ) فِي الْمَعْدِنِ ، عِلَلٌ وَأَمْرَاضٌ : مِنْ يُبْسٍ مُفْرِطٍ أَوْ رُطُوْبَةٍ مُفْرِطَةٍ ، أَوْ حَرَارَةٍ أَوْ بُرُوْدَةٍ ، تُخْرِجُهُ عَنِ الْاِعْتِدَالِ . فَيُؤَثِّرُ فِيْهِ ذٰلِكَ الْمَرَضُ صُوْرَةً تُسَمَّى الْحَدِيْدَ أَوِ النُّحَاسَ أَوِ الْأُسْرُبَ (= الرِّصَاص) ، أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِنَ الْمَعَادِنِ .

فَأُعْطِيَ هٰذَا الْحَكِيْمُ مَعْرِفَةَ الْعَقَاقِيْرِ وَالْأَدْوِيَّةِ ، الْمُزِيْلِ اسْتِعْمَالُهَا تِلْكَ الْعِلَّةَ الطَّارِئَةَ عَلَى شَخْصِيَّةِ هٰذَا الطَّالِبِ دَرَجَةَ الْكَمَالِ مِنَ الْمَعْدِنِيَّاتِ الَّتِي هِيَ الذَّهَبِيَّةُ ،

فَأَزَالَهَا ؛ فَصَحَّ وَمَشَى حَتَّى لَحِقَ بِدَرَجَةِ الْكَمَالِ . وَلٰكِنْ لَا يَقْوَى فِي الْكَمَالِيَّةِ قُوَّةَ الصَّحِيْحِ الَّذِي مَا دَخَلَ جِسْمَهُ مَرَضٌ . فَإِنَّ الْجَسَدَ الَّذِي يَدْخُلُهُ الْمَرَضُ ، بُعَيْدَ أَنْ يَتَخَلَّصَ وَيُنَقَّى الْخُلُوْصَ الَّذِي لَا يَشُوْبُهُ كَدَرٌ ، وَهُوَ الْخَلَاصُ الْأَصْلِيُّ : كَيَحْيَى فِي الْأَنْبِيَاءِ وَآدَمَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! – .

وَلَمْ يَكُنِ الْغَرَضُ إِلَّا دَرَجَةَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ فِي الْعُبُوْدِيَّةِ . فَإِنَّ اللهَ خَلَقَهُ فِي « أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » ثُمَّ « رَدَّهُ إِلَى أَسْفَلَ سَافِلِيْنَ » ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ = فَأُبْقُوْا عَلَى الصِّحَّةِ الْأَصْلِيَّةِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ (أَيْ الْإِنْسَانَ) فِي طَبِيْعَتِهِ اكْتَسَبَ عِلَلَ الْأَعْرَاضِ وَأَمْرَاضِ الْأَغْرَاضِ ؛ فَأَرَادَ هٰذَا الْحَكِيْمُ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى « أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » الَّذِي خَلَقَهُ اللّٰهُ عَلَيْهِ . فَهٰذَا كَانَ قَصْدُ الشَّخْصِ الْعَاقِلِ بِمَعْرِفَةِ هٰذِهِ الصَّنْعَةِ الْمُسَمَّاةِ بِالْكِيْمِيَّاءِ ، وَلَيْسَتْ سِوَى مَعْرِفَةِ الْمَقَادِيْرِ وَالْأَوْزَانِ .

(النَّشْأَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ)

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا خَلَقَهُ اللّٰهُ – وَهُوَ آدَمُ أَصْلُ هٰذِهِ النَّشْأَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالصُّوْرَةِ الْجِسْمِيَّةِ الطَّبِيْعِيَّةِ الْعُنْصُرِيَّةِ – رَكَّبَ جَسَدَهُ مِنْ حَارٍّ وَبَارِدٍ وَرَطْبٍ وَيَابِسٍ ، بَلْ مِنْ بَارِدٍ يَابِسٍ ، وَبَارِدٍ وَرَطْبٍ ، وَحَارٍّ رَطْبٍ ، وَحَارٍّ يَابِسٍ . وَهِيَ الْأَخْلَاطُ الْأَرْبَعَةُ : السَّوْدَاءُ وَالْبَلْغَمُ وَالدَّمُ وَالصَّفْرَاءُ . كَمَا هِيَ فِي جِسْمِ الْعَالَمِ الْكَبِيْرِ : النَّارُ وَالْهَوَاءُ وَالْمَاءُ وَالتُّرَابُ . فَخَلَقَ اللّٰهُ جِسْمَ آدَمَ مِنْ طِيْنٍ ، وَهُوَ مَزْجُ الْمَاءِ بِالتُّرَابِ ؛ ثُمَّ نَفَخَ فِيْهِ نَفْسًا وَرُوْحًا . – وَلَقَدْ وَرَدَ فِي النُّبُوَّةِ الْأُوْلَى ، فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ ، مَا أَذْكُرُ نَصَّهُ الْآنَ ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ مَسَّتْ إِلَى ذِكْرِهِ ، فَإِنَّ أَصْدَقَ الْأَخْبَارِ مَا رُوِيَ عَنِ اللّٰهِ – تَعَالَى ! – .

فَرَوَيْنَا عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ وَضَّاح ، مُسْنَدًا إِلَيْهِ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ . فَقَالَ : قَالَ اللّٰهُ فِي بَعْضِ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ : « إِنِّي خَلَقْتُ – يَعْنِي آدَمَ – مِنْ تُرَابٍ وَمَاءٍ ،

وَنَفَخْتُ فِيْهِ نَفْسًا وَرُوْحًا . فَسَوَّيْتُ جَسَدَهُ مِنْ قِبَلِ التُّرَابِ ، وَرُطُوْبَتُهُ مِنَ الْمَاءِ ، وَحَرَارَتُهُ مِنَ النَّفْسِ ، وَبُرُوْدَتُهُ مِنَ الرُّوْحِ . قَالَ : ثُمَّ جَعَلْتُ فِي الْجَسَدِ ، بَعْدَ هٰذَا ، أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ أُخَرٍ ، لَا تَقُوْمُ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا بِالْأُخْرَى ؛ وَهِيَ الْمِرَّتَانِ وَالدَّمُ وَالْبَلْغَمُ . ثُمَّ أَسْكَنْتُ بَعْضَهُنَّ فِي بَعْضٍ فَجَعَلْتُ مَسْكَنَ الْيُبُوْسَةِ فِي الْمِرَّةِ السَّوْدَاءِ ، وَمَسْكَنَ الْحَرَارَةِ فِي الْمِرَّةِ الصَّفْرَاءِ ، وَمَسْكَنَ الرُّطُوْبَةِ فِي الدَّمِ ، وَمَسْكَنَ الْبُرُوْدَةِ فِي الْبَلْغَمِ .

ثُمَّ قَالَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ ! – : فَأَيُّ جَسَدٍ اِعْتَدَلَتْ فِيْهِ هٰذِهِ الْأَخْلَاطُ ، كَمُلَتْ صِحَّتُهُ وَاعْتَدَلَتْ بُنْيَتُهُ . فَإِنْ زَادَتْ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ عَلَى الْأُخْرَى وَقَهَّرَتْهُنَّ ، دَخَلَ السُّقْمُ عَلَى الْجَسَدِ بِقَدْرِ مَا زَادَتْ ؛ وَإِذَا كَانَتْ نَاقِصَةً ، ضَعُفَتْ عَنْ مُقَاوَمَتِهِنَّ ، فَدَخَلَ السُّقْمُ بِغَلَبَتِهِنَّ إِيَّاهَا ، وَضَعْفِهَا عَنْ مُقَاوَمَتِهِنَّ . فَعِلْمُ الطِّبِّ أَنْ يَزِيْدَ فِي النَّاقِصِ أَوْ يَنْقُصَ مِنَ الزَّائِدِ : طَلَبَ الْاِعْتِدَالِ » . – فِي كَلَامٍ طَوِيْلٍ عَنِ اللهِ – تَعَالَى ! – ذَكَرْنَاهُ فِي « الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » .

(مُدَاوِي الْكُلُوْمِ وَالْآثَارِ الْعُلْوِيَّةِ)

فَكَانَ هٰذَا الْإِمَامُ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِهٰذَا النَّشْءِ الطَّبِيْعِيِّ ؛ وَمَا لِلْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ فِيْهِ مِنَ الْآثَارِ الْمُوْدِعَةِ فِي أَنْوَارِ الْكَوَاكِبِ وَسَبَاحَتِهَا ، وَهُوَ « الْأَمْرُ » الَّذِي أَوْحَى اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ ، وَفِي اقْتِرَانَاتِهَا وَهُبُوْطِهَا وَصُعُوْدِهَا وَأَوْجِهَا وَحَضِيْضِهَا . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ وَقَالَ فِي الْأَرْضِ : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ . –

وَكَانَ لِهٰذَا الشَّخْصِ ، فِيْمَا ذَكَرْنَاهُ ، مَجَالٌ رَحْبٌ وَبَاعٌ مُتَّسَعٌ وَقَدَمٌ رَاسِخَةٌ . لٰكِنْ مَا تَعَدَّتْ قُوَّتُهُ فِي النَّظَرِ الْفَلَكَ السَّابِعَ مِنْ بَابِ الذَّوْقِ وَالْحَالِ . لٰكِنْ حَصَلَ لَهُ مَا فِي الْفَلَكِ الْمُكَوْكَبِ وَالْأَطْلَسِ ، بِالْكَشْفِ وَالْاِطِّلَاعِ . وَكَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ قَلْبُ الْأَعْيَانِ فِي زَعْمِهِ . وَالْأَعْيَانُ لَا تَنْقَلِبُ ، عِنْدَنَا ، جُمْلَةً وَاحِدَةً . فَكَانَ هٰذَا الشَّخْصُ لَا يَبْرَحُ يُسَبِّحُ بِرُوْحَانِيَّتِهِ ، مِنْ حَيْثُ رَصْدِهِ وَفِكْرِهِ ، مَعَ الْمُقَابِلِ فِي دَرَجِهِ وَدَقَائِقِهِ .

وَكَانَ عِنْدَهُ ، مِنْ أَسْرَارِ إِحْيَاءِ الْمَوَاتِ ، عَجَائِبُ . وَكَانَ مِمَّا خَصَّهُ اللهُ بِهِ أَنَّهُ مَا حَلَّ بِمَوْضِعٍ قَدْ أَجْدَبَ ، إِلَّا أَوْجَدَ اللهُ فِيْهِ الْخِصْبَ وَالْبَرَكَةَ . كَمَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فِي خَضِرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ! – وَقَدء سُئِلَ عَنِ اسْمِهِ بِخَضِرٍ ، فَقَالَ ﷺ : ﴿ **مَا قَعَدَ عَلَى فَرْوَةٍ إِلَّا اهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ** ﴾ .

(الْمَعْرِفَةُ الذَّاتِيَّةُ وَعِلْمُ الْقُوَّةِ)

وَكَانَ هٰذَا الْإِمَامُ لَهُ تِلْمِيْذٌ ، كَبِيْرٌ فِي الْمَعْرِفَةِ الذَّاتِيَّةِ وَعِلْمِ الْقُوَّةِ . وَكَانَ يَتَلَطَّفُ بِأَصْحَابِهِ فِي التَّنْبِيْهِ عَلَيْهِ ، وَيَسْتُرُ عَنْ عَامَّةِ أَصْحَابِهِ ذٰلِكَ ، خَوْفًا عَلَيْهِ مِنْهُمْ . وَلِذٰلِكَ سُمِّيَ « مُدَاوِي الْكُلُوْمِ » . كَمَا اسْتَكْتَمَ يَعْقُوْبُ يُوْسُفَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ! – حَذْرًا عَلَيْهِ مِنْ إِخْوَتِهِ .

وَكَانَ يَشْغَلُ عَامَّةُ أَصْحَابِهِ بِعِلْمِ التَّدْبِيْرِ وَمِثْلِ ذٰلِكَ ، مِمَّا يُشَاكِلُ هٰذَا الْفَنِّ مِنْ تَرْكِيْبِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ ، وَتَحْلِيْلِ الْأَجْسَادِ ، وَتَأْلِيْفِهَا بِخَلْعِ صُوْرَةٍ عَنْهَا ، أَوْ خَلْعِ صُوْرَةٍ عَلَيْهَا ، – لِيَقِفُوْا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى صَنْعَةِ اللهِ الْعَلِيْمِ الْحَكِيْمِ . وَعَنْ هٰذَا الْقُطْبِ خَرَجَ عِلْمُ الْعَالَمِ ، وَكَوْنِهِ « إِنْسَانًا كَبِيْرًا » ، وَإِنَّ « الْإِنْسَانَ » مُخْتَصَرُهُ فِي الْجِرْمِيَّةِ ، وَمُضَاهِيْهِ فِي الْمَعْنَى .

فَأَخْبَرَنِي الرُّوْحُ الَّذِي أَخَذْتُ مِنْهُ مَا أَوْدَعْتُهُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ ، أَنَّهُ جَمَعَ أَصْحَابَهُ يَوْمًا فِي دَسْكَرَةٍ وَقَامَ فِيْهِمْ خَطِيْبًا ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ . فَقَالَ : « افْهَمُوْا عَنِّي مَا أَرْمُزُهُ لَكُمْ فِي مَقَامِي هٰذَا ، وَفَكِّرُوْا فِيْهِ ، وَاسْتَخْرِجُوْا كَنْزَهُ ، وَاتِّسَاعُ زَمَانِهِ فِي أَيِّ عَالَمٍ هُوَ ؟ وَإِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ . وَمَا كُلُّ مَا يُدْرَىٰ يُذَاعُ . فَإِنَّهُ لِكُلِّ عِلْمٍ أَهْلٌ يَخْتَصُّ بِهِمْ . وَمَا يُمْكِنُ الْاِنْفِرَادُ . وَلَا يَسَعُ الْوَقْتُ . فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ فِي الْجَمْعِ فِطَرٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَأَذْهَانٌ غَيْرُ مُؤْتَلِفَةٍ . وَالْمَقْصُوْدُ مِنَ الْجَمَاعَةِ وَاحِدٌ . إِيَّاهُ أَقْصُدُ بِكَلَامِي ، وَبِيَدِهِ مِفْتَاحُ رَمْزِيٌّ .

وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ . وَلِكُلِّ عِلْمٍ رِجَالٌ . وَلِكُلِّ وَارِدٍ حَالٌ . فَافْهَمُوْا عَنِّي مَا أَقُوْلُ . وَعُوْا مَا تَسْمَعُوْنَ . فَبِنُوْرِ النُّوْرِ أَقْسَمْتُ ، وَبِرُوْحِ الْحَيَاةِ وَحَيَاةِ الرُّوْحِ آلَيْتُ ! إِنِّي عَنْكُمْ لَمُنْقَلِبٌ مِنْ حَيْثُ جِئْتُ . وَرَاجِعٌ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي عَنْهُ وُجِدْتُ . فَقَدْ طَالَ مَكْثِي فِي هٰذِهِ الظُّلْمَةِ . وَضَاقَ نَفَسِي بِتَرَادِفِ هٰذِهِ الْغُمَّةِ . وَإِنِّي سَأَلْتُ الرِّحْلَةَ عَنْكُمْ . وَقَدْ أُذِنَ لِي فِي الرَّحِيْلِ . فَاثْبُتُوْا عَلَى كَلَامِي ، فَتَعْقِلُوْنَ مَا أَقُوْلُ لَكُمْ بَعْدَ انْقِضَاءِ سِنِيْنَ – عَيَّنَهَا وَذَكَرَ عَدَدَهَا – . فَلَا تَبْرَحُوْا حَتَّى آتِيَكُمْ بَعْدَ هٰذِهِ الْمُدَّةِ . وَإِنْ بَرَحْتُمْ ، فَلْتُسْرِعُوْا إِلَى هٰذَا الْمَجْلِسِ الْكُرَّةِ (تِلْوُ الْكَرَّةِ) . وَإِنْ لَطُفَ مَغْنَاهُ ، وَغَلَبَ عَلَى الْحُرُوْفِ مَعْنَاهُ ، فَالْحَقِيْقَةَ ، الْحَقِيْقَةُ ! وَالطَّرِيْقَةَ ، الطَّرِيْقَةُ ! فَقَدِ اشْتَرَكَتِ الْجَنَّةُ وَالدُّنْيَا فِي اللَّبِنِ وَالْبِنَاءِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْوَاحِدَةُ مِنْ طِيْنٍ وَتِبْنٍ ، وَالْأُخْرَى مِنْ عَسْجَدٍ وَلُجَيْنٍ » . – هٰذَا مَا كَانَ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِبَنِيْهِ . وَهٰذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيْمَةٌ ، رَمَزَهَا وَرَاحَ . فَمَنْ عَرَفَهَا اسْتَرَاحَ !

(لِقَاءُ ابْنِ عَرَبِي بِابْنِ رُشْدٍ فِي قُرْطُبَة)

وَلَقَدْ دَخَلْتُ يَوْمًا بِقُرْطُبَةَ عَلَى قَاضِيْهَا أَبِي الْوَلِيْدِ بْنِ رُشْدٍ ؛ وَكَانَ يَرْغَبُ فِي لِقَائِي لَمَّا سَمِعَ وَبَلَغَهُ مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ عَلَيَّ فِي خَلْوَتِي ؛ فَكَانَ يُظْهِرُ التَّعَجُّبَ مِمَّا سَمِعَ . فَبَعَثَنِي وَالِدِي إِلَيْهِ فِي حَاجَةٍ ، قَصْدًا مِنْهُ ، حَتَّى يَجْتَمِعَ بِي ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَصْدِقَائِهِ . وَأَنَا صَبِيٌّ مَا بَقَلَ وَجْهِي وَلَا طُرَّ شَارِبِي . فَعِنْدَمَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ ، قَامَ مِنْ مَكَانِهِ إِلَيَّ مَحَبَّةً وَإِعْظَامًا ، فَعَانَقَنِي وَقَالَ لِي : نَعَمْ ! قُلْتُ لَهُ : نَعَمْ ! فَزَادَ فَرَحُهُ بِي لِفَهْمِي عَنْهُ . ثُمَّ اسْتَشْعَرْتُ بِمَا أَفْرَحَهُ مِنْ ذٰلِكَ ، فَقُلْتُ لَهُ : لَا ! فَانْقَبَضَ ، وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وَشَكَّ فِيْمَا عِنْدَهُ . وَقَالَ لِي : كَيْفَ وَجَدْتُمُ الْأَمْرَ فِي الْكَشْفِ وَالْفَيْضِ الْإِلٰهِيِّ : هَلْ هُوَ مَا أَعْطَاهُ لَنَا النَّظَرُ ؟ – قُلْتُ لَهُ : نَعَمْ ، لَا ! وَبَيْنَ نَعَمْ وَلَا تَطِيْرُ الْأَرْوَاحُ مِنْ مَوَادِّهَا ، وَالْأَعْنَاقُ مِنْ أَجْسَادِهَا . فَاصْفَرَّ لَوْنُهُ ، وَأَخَذَهُ الْإِفْكَلُ ، وَقَعَدَ يُحَوْقِلُ ، وَعَرَفَ مَا أَشَرْتُ بِهِ إِلَيْهِ . وَهُوَ عَيْنُ هٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا هٰذَا الْقُطْبُ الْإِمَامُ ، أَعْنِي « مُدَاوِي الْكُلُوْمِ » .

وَطَلَبَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ أَبِي الْاِجْتِمَاعَ بِنَا لِيُعَرِّضَ مَا عِنْدَهُ عَلَيْنَا : هَلْ هُوَ يُوَافِقُ أَوْ يُخَالِفُ ؟ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَرْبَابِ الْفِكْرِ وَالنَّظَرِ الْعَقْلِيِّ . فَشَكَرَ اللهَ – تَعَالَى ! – الَّذِي كَانَ فِي زَمَانٍ رَأَى فِيْهِ مَنْ دَخَلَ خَلْوَتَهُ جَاهِلًا ، وَخَرَجَ مِثْلُ هٰذَا الْخُرُوْجِ ، مِنْ غَيْرِ دَرْسٍ وَلَا بَحْثٍ وَلَا مُطَالَعَةٍ وَلَا قِرَاءَةٍ . وَقَالَ : هٰذِهِ حَالَةٌ أَثْبَتْنَاهَا ، وَمَا رَأَيْنَا لَهَا أَرْبَابًا . فَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَنَا فِي زَمَانٍ فِيْهِ وَاحِدٌ مِنْ أَرْبَابِهَا ، الْفَاتِحِيْنَ مَغَالِقَ أَبْوَابِهَا ! وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَصَّنِي بِرُؤْيَتِهِ !

ثُمَّ أَرَدْتُ الْاِجْتِمَاعَ بِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً . فَأُقِيْمَ لِي – رَحِمَهُ اللهُ ! – فِي الْوَاقِعَةِ فِي صُوْرَةٍ ، ضُرِبَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِيْهَا حِجَابٌ رَقِيْقٌ ، أَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْهُ وَلَا يَبْصُرُنِي وَلَا يَعْرِفُ مَكَانِي ، وَقَدْ شُغِلَ بِنَفْسِهِ عَنِّي . فَقُلْتُ : إِنَّهُ غَيْرُ مُرَادٍ لِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ . فَمَا اجْتَمَعْتُ بِهِ حَتَّى دَرَجَ ، وَذٰلِكَ سَنَةُ خَمْسٍ وَتِسْعِيْنَ وَخَمْسُ مِائَةٍ ، بِمَدِيْنَةِ مَرَّاكُش ، وَنَقَلَ إِلَى قُرْطُبَة ، وَبِهَا قَبْرُهُ .

وَلَمَّا جُعِلَ التَّابُوْتُ الَّذِي فِيْهِ جَسَدُهُ عَلَى الدَّابَةِ ، جُعِلَتْ تَوَالِيْفُهُ تُعَادِلُهُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ . وَأَنَا وَاقِفٌ ، وَمَعِي الْفَقِيْهُ الْأَدِيْبُ أَبُوْ الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، كَاتِبُ السَّيِّدِ أَبِي سَعِيْدٍ ، وَصَاحِبِي أَبُوْ الْحَكَمِ عَمْرُو ابْنُ السَّرَّاجِ ، النَّاسِخِ . فَالْتَفَتْ أَبُو الْحَكَمُ إِلَيْنَا وَقَالَ : أَلَا تَنْظُرُوْنَ إِلَى مَنْ يُعَادِلُ الْإِمَامَ ابْنَ رُشْدٍ فِي مَرْكُوْبِهِ ؟ هٰذَا الْإِمَامُ ، وَهٰذِهِ أَعْمَالُهُ – يَعْنِي تَوَالِيْفُهُ ! – فَقَالَ لَهُ ابْنُ جُبَيْرٍ : يَا وَلَدِي ، نِعْمَ مَا نَظَرْتَ ! لَا فُضَّ فُوْكَ ! فَقَيَّدْتُهَا عِنْدِي مَوْعِظَةً وَتَذْكِرَةً . رَحِمَ اللهُ جَمِيْعَهُمْ ! وَمَا بَقِيَ مِنْ تِلْكَ الْجَمَاعَةِ (الْآنَ) غَيْرِي . وَقُلْنَا فِي ذٰلِكَ :

هٰـذَا الْإِمَـامُ وَهٰـذِهِ أَعْمَـالُهُ   يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَتْ آمَالُهُ ؟

(مُدَاوِي الْكُلُوْمِ وَعِلْمُ الْفَلَكِ)

وَكَانَ هٰذَا الْقُطْبُ « مُدَاوِي الْكُلُوْمِ » قَدْ أَظْهَرَ سِرَّ حَرَكَةِ الْفَلَكِ ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى غَيْرِ هٰذَا الشَّكْلِ الَّذِي أَوْجَدَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، لَمْ يَصِحَّ أَنْ يَتَكَوَّنَ شَيْءٌ فِي الْوُجُوْدِ الَّذِي

تَحْتَ حِيْطَتِهِ ؛ وَبَيَّنَ الْحِكْمَةَ الْإِلٰهِيَّةَ فِي ذٰلِكَ لِيُرِيَ الْأَلْبَابَ عِلْمَ اللهِ فِي الْأَشْيَاءِ ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ، « لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ » . وَفِي مَعْرِفَةِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ ، عِلْمُ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ هٰذَا الْقُطْبُ . – فَلَوْ تَحَرَّكَ غَيْرَ الْمُسْتَدِيْرِ لَمَا عَمَرَ الْخَلَاءَ بِحَرَكَتِهِ ؛ وَكَانَتْ أَحْيَازٌ كَثِيْرَةٌ تَبْقَى فِي الْخَلَاءِ ؛ فَكَانَ لَا يَتَكَوَّنُ عَنْ تِلْكَ الْحَرَكَةِ تَمَامُ أَمْرٍ ؛ وَكَانَ يَنْقُصُ مِنْهُ قَدْرَ مَا نَقَصَ مِنْ عِمَارَةِ تِلْكَ الْأَحْيَازِ بِالْحَرَكَةِ ؛ وَذٰلِكَ بِمَشِيْئَةِ اللهِ – تَعَالَى ! – وَحِكْمَتِهِ الْجَارِيَةِ فِي وَضْعِ الْأَسْبَابِ .

وَأَخْبَرَ هٰذَا الْقُطْبُ أَنَّ الْعَالَمَ مَوْجُوْدٌ مَا بَيْنَ الْمُحِيْطِ وَالنُّقْطَةِ ، عَلَى مَرَاتِبِهِمْ وَصِغَرِ أَفْلَاكِهِمْ وَعِظَمِهَا . وَأَنَّ الْأَقْرَبَ إِلَى الْمُحِيْطِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي فِي جَوْفِهِ فَيَوْمُهُ أَكْبَرُ ، وَمَكَانُهُ أَفْسَحُ ، وَلِسَانُهُ أَفْصَحُ ، وَهُوَ إِلَى التَّحَقُّقِ بِالْقُوَّةِ وَالصَّفَاءِ أَقْرَبُ . وَمَا انْحَطَّ إِلَى الْعَنَاصِرِ نَزَلَ عَنْ هٰذِهِ الدَّرَجَةِ ، حَتَّى إِلَى كُرَةِ الْأَرْضِ . وَكُلُّ جُزْءٍ فِي كُلِّ مُحِيْطٍ ، يُقَابِلُ مَا فَوْقَهُ وَمَا تَحْتَهُ بِذَاتِهِ ، لَا يَزِيْدُ وَاحِدٌ عَلَى الْآخَرِ شَيْءٌ ، وَإِنِ اتَّسَعَ الْوَاحِدُ وَضَاقَ الْآخَرُ . وَهٰذَا مِنْ إِيْرَادِ الْكَبِيْرِ عَلَى الصَّغِيْرِ ، وَالْوَاسِعِ عَلَى الضَّيِّقِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوَسَّعَ الضَّيِّقُ أَوْ يَضِيْقُ الْوَاسِعُ . وَالْكُلُّ يَنْظُرُ إِلَى النُّقْطَةِ بِذَوَاتِهِمْ . وَالنُّقْطَةُ ، مَعَ صِغَرِهَا ، تَنْظُرُ إِلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنَ الْمُحِيْطِ بِهَا بِذَاتِهَا . فَالْمُخْتَصَرُ (هُوَ) الْمُحِيْطُ ، وَالْمُخْتَصَرُ مِنْهُ (هِيَ) النُّقْطَةُ . وَبِالْعَكْسِ . فَانْظُرْ !

وَلَمَّا انْحَطَّ الْأَمْرُ إِلَى الْعَنَاصِرِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْأَرْضِ ، – كَثُرَ عَكَرُهُ : مِثْلُ الْمَاءِ فِي الْجُبِّ ، وَالزَّيْتِ وَكُلِّ مَائِعٍ فِي الدَّنِّ ، يَتَنَزَّلُ إِلَى أَسْفَلِهِ عَكَرُهُ ، وَيَصْفُوْ أَعْلَاهُ . وَالْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ مَا يَجِدُهُ عَالَمُ الطَّبِيْعَةِ مِنَ الْحُجُبِ الْمَانِعَةِ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَنْوَارِ ، مِنَ الْعُلُوْمِ وَالتَّجَلِّيَاتِ : بِكُدُوْرَاتِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَعَدَمِ الْوَرَعِ فِي اللِّسَانِ وَالنَّظَرِ وَالسِّمَاعِ وَالْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَرْكَبِ وَالْمُنْكَحِ ؛ وَكُدُوْرَاتِ الشَّهَوَاتِ ، بِالْاِنْكِبَابِ عَلَيْهَا وَالْاِسْتِفْرَاغِ فِيْهَا وَإِنْ كَانَتْ حَلَالًا . وَإِنَّمَا لَمْ يَمْنَعْ نَيْلُ الشَّهَوَاتِ فِي الْآخِرَةِ – وَهِيَ (أَيْ شَهْوَاتُ الْآخِرَةِ) أَعْظَمُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا – مِنَ التَّجَلِّي : لِأَنَّ التَّجَلِّيَ هُنَاكَ عَلَى الْأَبْصَارِ ، وَلَيْسَتِ الْأَبْصَارُ بِمَحَلٍّ لِلشَّهَوَاتِ ؛ وَالتَّجَلِّي هُنَا ،

فِي الدُّنْيَا ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى الْبَصَائِرِ وَالْبَوَاطِنِ دُوْنَ الظَّوَاهِرِ ، وَالْبَوَاطِنُ مَحَلُّ الشَّهَوَاتِ . وَلَا يَجْتَمِعُ التَّجَلِّي وَالشَّهْوَةُ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ . فَلِهٰذَا جَنَحَ الْعَارِفُوْنَ وَالزُّهَّادَ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا ، إِلَى التَّقْلِيْلِ مِنْ نَيْلِ شَهَوَاتِهَا وَالشُّغْلِ بِكَسْبِ حُطَامِهَا .

(مَرَاتِبُ الْأَبْدَالِ)

وَهٰذَا الْإِمَامُ هُوَ الَّذِي أَعْلَمَ أَصْحَابَهُ أَنْ ثَمَّ رِجَالًا سَبْعَةً يُقَالُ لَهُمْ « الْأَبْدَالَ » ، يَحْفَظُ اللّٰهُ بِهِمُ الْأَقَالِيْمَ السَّبْعَةَ ؛ لِكُلِّ بَدَلٍ إِقْلِيْمٌ ؛ وَإِلَيْهِمْ تَنْظُرُ رُوْحَانِيَّاتُ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ . وَلِكُلِّ شَخْصٍ مِنْهُمْ قُوَّةٌ (مُنْبَعَثَةٌ) مِنْ رُوْحَانِيَّاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْكَائِنِيْنَ فِي هٰذِهِ السَّمٰوَاتِ ، وَهُمْ : إِبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ ، يَلِيْهِ مُوْسَى ، يَلِيْهِ هَارُوْنَ ، يَتْلُوْهُ إِدْرِيْس ، يَتْلُوْهُ يُوْسُفُ ، يَتْلُوْهُ عِيْسَى ، يَتْلُوْهُ آدَمَ – سَلَامُ اللّٰهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ ! – . وَأَمَّا يَحْيَى فَلَهُ تَرَدُّدٌ بَيْنَ عِيْسَى وَبَيْنَ هَارُوْنَ . – فَيَنْزِلُ عَلَى قُلُوْبِ هٰؤُلَاءِ الْأَبْدَالِ السَّبْعَةِ مِنْ حَقَائِقِ هٰؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! – .

وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمْ هٰذِهِ الْكَوَاكِبُ السَّبْعَةُ بِمَا أَوْدَعَ اللّٰهُ – تَعَالَى ! – فِي سِبَاحَتِهَا فِي أَفْلَاكِهَا ؛ وَبِمَا أَوْدَعَ اللّٰهُ فِي حَرَكَاتِ هٰذِهِ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْعُلُوْمِ وَالْآثَارِ الْعُلْوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ . فَلَهُمْ (أَيْ لِهٰؤُلَاءِ الْأَبْدَالِ) فِي قُلُوْبِهِمْ ، فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ ، بِحَسَبِ مَا يُعْطِيْهِ صَاحِبُ تِلْكَ السَّاعَةِ ، وَسُلْطَانُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ .

(الْإِقْلِيْمُ الرَّابِعُ وَبَدَلُهُ)

فَكُلُّ أَمْرٍ عِلْمِيّ يَكُوْنُ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ، فَمِنْ مَادَّةِ إِدْرِيْسَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . وَكُلُّ أَثَرٍ عُلْوِيّ يَكُوْنُ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ ، فِي عُنْصُرِ الْهَوَاءِ وَالنَّارِ ، فَمِنْ سِبَاحَةِ الشَّمْسِ وَنَظَرِهَا الْمُوْدَعُ مِنَ اللّٰهِ – تَعَالَى ! – فِيْهَا . وَمَا يَكُوْنُ مِنْ أَثَرٍ فِي عُنْصُرِ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ ،

فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ ، فَمِنْ حَرَكَةِ الْفَلَكِ الرَّابِعِ . وَمَوْضِعُ هٰذَا الشَّخْصِ ، الَّذِي يَحْفَظُهُ ، مِنَ الْأَقَالِيْمِ الْإِقْلِيْمُ الرَّابِعِ .

فَمِمَّا يَحْصُلُ لِهٰذَا الشَّخْصِ الْمَخْصُوْصِ مِنَ الْأَبْدَالِ ، بِهٰذَا الْإِقْلِيْمِ ، مِنَ الْعُلُوْمِ : عِلْمُ أَسْرَارِ الرُّوْحَانِيَّاتِ ، وَعِلْمُ النُّوْرِ وَالضِّيَاءِ ، وَعِلْمُ الْبَرْقِ وَالشُّعَاعِ ، وَعِلْمُ كُلِّ جِسْمٍ مُسْتَنِيْرٍ ، وَلِمَاذَا اسْتَنَارَ ؟ وَمَا الْمِزَاجُ الَّذِي أَعْطَاهُ هٰذَا الْقُبُوْلَ ، مِثْلُ الْحُبَاحِبِ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَكَأُصُوْلِ شَجَرِ التِّيْنِ مِنَ النَّبَاتِ ، وَكَحَجَرِ الْمَهَىٰ وَالْيَاقُوْتِ ، وَبَعْضُ لُحُوْمِ الْحَيَوَانِ ؟ – وَعِلْمُ الْكَمَالِ فِي الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ وَالْمَلَكِ ؛ – وَعِلْمُ الْحَرَكَةِ الْمُسْتَقِيْمَةِ حَيْثُمَا ظَهَرَتْ فِي حَيَوَانٍ أَوْ نَبَاتٍ ؛ – وَعِلْمُ مَعَالِمِ التَّأْسِيْسِ وَأَنْفَاسِ الْأَنْوَارِ ؛ – وَعِلْمُ خَلْعِ الْأَرْوَاحِ الْمُدَبِّرَاتِ ، وَإِيْضَاحِ الْأُمُوْرِ الْمُبْهَمَاتِ ، وَحُلِّ الْمُشْكِلِ مِنَ الْمَسَائِلِ الْغَامِضَةِ ؛ – وَعِلْمُ النَّغَمَاتِ الْفَلَكِيَّةِ وَالدُّوْلَابِيَّةِ ، وَأَصْوَاتِ آلَاتِ الطُّرْبِ مِنَ الْأَوْتَارِ وَغَيْرِهَا ؛ – وَعِلْمُ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ طَبَائِعِ الْحَيَوَانِ ، وَمَا لِلنَّبَاتِ مِنْهَا ؛ – وَعِلْمُ مَا إِلَيْهِ تَنْتَهِي الْمَعَانِي الرُّوْحَانِيَّةِ وَالرَّوَائِحِ الْعِطْرِيَّةِ ، وَمَا الْمِزَاجُ الَّذِي عَطَّرَهَا ؟ وَلِمَاذَا تَرْجِعُ ؟ وَكَيْفَ يُنْقِلُهَا الْهَوَاءُ إِلَى الْإِدْرَاكِ الشِّمَى ؟ وَهَلْ هُوَ جَوْهَرٌ أَوْ عَرَضٌ ؟ –

كُلُّ ذٰلِكَ يَنَالُهُ وَيَعْلَمُهُ (هٰذَا الشَّخْصُ الْمَخْصُوْصُ مِنَ الْأَبْدَالِ) صَاحِبُ ذٰلِكَ الْإِقْلِيْمِ ، فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَفِي سَائِرِ الْأَيَّامِ ، فِي سَاعَاتِ حُكْمِ حَرَكَةِ ذٰلِكَ الْفَلَكِ ، وَحُكْمِ مَا فِيْهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ ، وَمَا فِيْهِ مِنْ رُوْحَانِيَّةِ النَّبِيِّ . – هٰكَذَا إِلَى تَمَامِ دَوْرَةِ الْجُمُعَةِ .

(الْإِقْلِيْمُ السَّابِعُ وَبَدَلُهُ)

وَكُلُّ أَمْرٍ عِلْمِيٍّ يَكُوْنُ فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ ، فَمِنْ رُوْحَانِيَّةِ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . وَكُلُّ أَثَرٍ عُلْوِيٍّ فِي عُنْصُرِ الْهَوَاءِ وَالنَّارِ ، فَمِنْ سِبَاحَةِ الْقَمَرِ . وَكُلُّ أَثَرٍ سُفْلِيٍّ فِي عُنْصُرِ

الْمَاءِ وَالتُّرَابِ ، فَمِنْ حَرَكَةِ فَلَكِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا . وَلِهٰذَا الشَّخْصِ (الْمَخْصُوْصِ مِنَ الْأَبْدَالِ) ، الْإِقْلِيْمُ السَّابِعُ .

فَمَا يَحْصُلُ لِهٰذَا الْبَدَلِ مِنَ الْعُلُوْمِ فِي نَفْسِهِ ، فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ ، وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ ، مِمَّا يَكُوْنُ لِهٰذَا الْفَلَكِ حُكْمٌ فِيْهَا : عِلْمُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ ، وَعِلْمُ الْأَسْمَاءِ وَمَا لَهَا مِنَ الْخَوَاصِّ ، وَعِلْمُ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ وَالرَّبْوِ وَالنَّقْصِ .

(الْإِقْلِيْمُ الثَّالِثُ وَبَدَلُهُ)

وَكُلُّ أَمْرٍ عِلْمِيٍّ يَكُوْنُ فِي يَوْمِ الثُّلَاثَاءِ ، فَمِنْ رُوْحَانِيَّةِ هَارُوْنَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . وَكُلُّ أَثَرٍ عُلْوِيٍّ فِي عُنْصُرِ النَّارِ وَالْهَوَاءِ ، فَمِنْ رُوْحَانِيَّةِ الْأَحْمَرِ . وَكُلُّ أَثَرٍ سُفْلِيٍّ فِي رُكْنِ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ ، فَمِنْ حَرَكَةِ الْفَلَكِ الْخَامِسِ . وَلِهٰذَا الْبَدَلِ مِنَ الْأَقَالِيْمِ ، الْإِقْلِيْمُ الثَّالِثُ .

فَمَا يُعْطِيْهِ مِنَ الْعُلُوْمِ فِي هٰذَا الْيَوْمِ ، وَفِي سَاعَاتِهِ مِنْ (سَائِرِ) الْأَيَّامِ : عِلْمُ تَدْبِيْرِ الْمُلْكِ وَسِيَاسَتِهِ ، وَعِلْمُ الْحِمْيَةِ وَالْحِمَايَةِ وَتَرْتِيْبِ الْجُيُوْشِ وَالْقِتَالِ وَمَكَايِدِ الْحُرُوْبِ ، وَعِلْمُ الْقَرَابِيْنَ وَذَبْحِ الْحَيَوَانِ ، وَعِلْمُ أَسْرَارِ أَيَّامِ النَّحْرِ وَسَرَيَانِهِ فِي سَائِرِ الْبِقَاعِ ، وَعِلْمُ الْهُدَى وَالضَّلَالِ وَتَمَيُّزِ الشُّبْهَةِ مِنَ الدَّلِيْلِ .

(الْإِقْلِيْمُ السَّادِسُ وَبَدَلُهُ)

وَكُلُّ أَمْرٍ عِلْمِيٍّ يَكُوْنُ فِي يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ ، فَمِنْ رُوْحَانِيَّةِ عِيْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . وَهُوَ يَوْمُ النُّوْرِ . – وَكَانَ لَهُ (أَيْ لِسَيِّدِنَا عِيْسَى) نَظَرٌ إِلَيْنَا فِي دُخُوْلِنَا فِي هٰذَا الطَّرِيْقِ الَّتِي نَحْنُ الْيَوْمَ عَلَيْهَا . – وَكُلُّ أَثَرٍ فِي عُنْصُرِ النَّارِ وَالْهَوَاءِ ، فَمِنْ رُوْحَانِيَّةِ سِبَاحَةِ الْكَاتِبِ فِي فَلَكِهِ . وَكُلُّ أَثَرٍ سُفْلِيٍّ فِي رُكْنِ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ ، فَمِنْ حَرَكَةِ فَلَكِ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ . وَلِلْبَدَلِ ، صَاحِبِ هٰذَا الْيَوْمِ ، الْإِقْلِيْمُ السَّادِسُ .

وَمِمَّا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْعُلُوْمِ ، فِي هٰذَا الْيَوْمِ وَفِي سَاعَتِهِ مِنَ الْأَيَّامِ : عِلْمُ الْأَوْهَامِ وَالْإِلْهَامِ وَالْوَحْيِ وَالْآرَاءِ وَالْأَقْيِسَةِ وَالرُّؤْيَا وَالْعِبَارَةِ وَالْاِخْتِرَاعِ الصَّنَاعِيّ وَالْعَطْرَدَةِ ؛ وَعِلْمُ الْغَلَطِ الَّذِي يَعْلَقُ بِعَيْنِ الْفَهْمِ ؛ وَعِلْمُ التَّعَالِيْمِ ، وَعِلْمُ الْكِتَابَةِ وَالْآدَابِ ، وَالزَّجْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ وَالطَّلِسْمَاتِ وَالْعَزَائِمِ .

(الْإِقْلِيْمُ الثَّانِي وَبَدَلُهُ)

وَكُلُّ أَمْرٍ عِلْمِيّ يَكُوْنُ فِي يَوْمِ الْخَمِيْسِ ، فَمِنْ رُوْحَانِيَّةِ مُوْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . وَكُلُّ أَثَرٍ عُلْوِيّ فِي رُكْنِ النَّارِ وَالْهَوَاءِ ، فَمِنْ سِبَاحَةِ الْمُشْتَرِي ؛ وَكُلُّ أَثَرٍ سُفْلِيّ فِي عُنْصُرِ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ ، فَمِنْ حَرَكَةِ فَلَكِهِ . – وَلِهٰذَا الْبَدَلِ مِنَ الْأَقَالِيْمِ ، الْإِقْلِيْمُ الثَّانِي .

وَمِمَّا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْعُلُوْمِ ، فِي هٰذَا الْيَوْمِ وَفِي سَاعَاتِهِ مِنَ الْأَيَّامِ : عِلْمُ النَّبَاتِ وَالنَّوَامِيْسِ ، وَعِلْمُ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَعِلْمُ الْقُرُبَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ ، وَعِلْمُ قَبُوْلِ الْأَعْمَالِ وَأَيْنَ يُنْتَهَى بِصَاحِبِهَا ؟

(الْإِقْلِيْمُ الْخَامِسُ وَبَدَلُهُ)

وَكُلُّ أَمْرٍ عِلْمِيّ يَكُوْنُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ – يَكُوْنُ لِهٰذَا الشَّخْصِ الَّذِي يَحْفَظُ اللّٰهُ بِهِ الْإِقْلِيْمُ الْخَامِسُ – فَمِنْ رُوْحَانِيَّةِ يُوْسُفَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . وَكُلُّ أَثَرٍ عُلْوِيّ يَكُوْنُ فِي رُكْنِ النَّارِ وَالْهَوَاءِ ، فَمِنْ نَظَرِ كَوْكَبِ الزُّهْرَةِ . وَكُلُّ أَثَرٍ سُفْلِيّ فِي رُكْنِ الْمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَمِنْ حَرَكَةِ فَلَكِ الزُّهْرَةِ .

وَهُوَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي « أَوْحَى اللّٰهُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ » . وَهٰذِهِ الْآثَارُ هِيَ « الْأَمْرُ الْإِلٰهِيُّ الَّذِي يَتَنَزَّلُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » . وَهُوَ فِي كُلِّ مَا يَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا : بَيْنَ السَّمَاءِ ، بِمَا يَنْزِلُ مِنْهَا ؛ وَبَيْنَ الْأَرْضِ ، بِمَا تَقْبَلُ مِنْ هٰذَا النُّزُوْلِ ، كَمَا يَقْبَلُ رَحْمُ الْأُنْثَى الْمَاءَ مِنَ الرَّجُلِ لِلتَّكْوِيْنِ ، وَالْهَوَاءَ الرَّطْبَ مِنَ الطَّيْرِ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ **خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ وَمِنَ**

ﱡﭐٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞﱠ – وَالْقُدْرَةُ مَا لَهَا تَعَلُّقٌ إِلَّا بِالْإِيْجَادِ ؛ فَعَلِمْنَا أَنَّ الْمَقْصُوْدَ بِهٰذَا التَّنَزُّلِ إِنَّمَا هُوَ التَّكْوِيْنُ . – وَمِمَّا يَحْصُلُ لَهُ (أَيْ لِهٰذَا الْبَدَلِ عَلَى الْإِقْلِيْمِ الْخَامِسِ) مِنَ الْعُلُوْمِ ، فِي هٰذَا الْيَوْمِ وَفِي سَاعَاتِهِ مِنَ الْأَيَّامِ : عِلْمُ التَّصْوِيْرِ مِنْ حَضْرَةِ الْجَمَالِ وَالْأُنْسِ ، وَعِلْمُ الْأَحْوَالِ .

(الْإِقْلِيْمُ الْأَوَّلُ وَبَدَلُهُ)

وَكُلُّ أَمْرٍ عِلْمِيٍّ يَكُوْنُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ ، لِهٰذَا الْبَدَلِ الَّذِي لَهُ حِفْظُ الْإِقْلِيْمِ الْأَوَّلِ ، فَمِنْ رُوْحَانِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيْلُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – . وَمَا يَكُوْنُ فِيْهِ مِنْ أَثَرٍ عُلْوِيٍّ فِي رُكْنِ النَّارِ وَالْهَوَاءِ ، فَمِنْ حَرَكَةِ كَوْكَبِ كَيْوَانٍ فِي فَلَكِهِ . وَمَا كَانَ مِنْ أَثَرٍ فِي الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ – رُكْنِ الْأَرْضِ وَالْمَاءِ – فَمِنْ حَرَكَةِ فَلَكِهِ .

يَقُوْلُ – تَعَالَى ! – فِي الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ : ﱡﭐوَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَﱠ . وَقَالَ – تَعَالَى ! – : ﱡﭐوَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَﱠ . فَخَلَقَهَا (أَيْ هٰذِهِ الْكَوَاكِبَ) لِلْاِهْتِدَاءِ بِهَا . – وَمِمَّا يَحْصُلُ لَهُ (أَيْ لِهٰذَا الْبَدَلِ الَّذِي لَهُ حِفْظُ الْإِقْلِيْمِ الْأَوَّلِ) مِنَ الْعُلُوْمِ ، فِي هٰذَا الْيَوْمِ وَفِي سَاعَاتِهِ مِنْ بَاقِي الْأَيَّامِ لَيْلًا وَنَهَارًا : عِلْمُ الثَّبَاتِ وَالتَّمْكِيْنِ ، وَعِلْمُ الدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ .

(مَقَامَاتُ الْأَبْدَالِ السَّبْعَةِ وَهِجِّيْرَاهُمْ)

وَأُعْلِمَ هٰذَا الْإِمَامُ بِمَقَامَاتِ هٰؤُلَاءِ الْأَبْدَالِ وَهِجِّيْرَاهُمْ . وَقَالَ : إِنَّ مَقَامَ (الْبَدَلِ) الْأَوَّلِ وَهِجِّيْرَهُ : ﱡﭐلَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞﱠ . – وَسَبَبُ ذٰلِكَ ، كَوْنُ الْأَوَّلِيَّةِ لَهُ ، إِذْ لَوْ تَقَدَّمَ لَهُ (= عَلَيْهِ) مِثْلٌ ، لَمَا صَحَّتْ لَهُ الْأَوَّلِيَّةُ ، فَذِكْرُهُ مُنَاسِبٌ لِمَقَامِهِ . –

وَمَقَامُ الشَّخْصِ (الْبَدَلِ) الثَّانِي فِي هِجِّيْرِهِ : ﱡﭐلَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّيﱠ . وَهُوَ مَقَامُ الْعِلْمِ الْإِلٰهِيِّ ، وَتَعَلُّقُهُ لَا يَنْتَهِي . وَهُوَ (أَيْ الْعِلْمُ) الثَّانِي مِنَ الْأَوْصَافِ ، فَإِنَّ أَوَّلَ الْأَوْصَافِ الْحَيَاةُ ، وَيَلِيْهِ الْعِلْمُ . –

وَهِجِّيْرُ الشَّخْصِ الثَّالِثِ وَمَقَامُهُ : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ . وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ : فَإِنَّ الْآيَاتِ الْأُوَلَ هِيَ الْأَسْمَاءُ الْإِلٰهِيَّةُ ، وَالْآيَاتِ الثَّوَانِيَ (هِيَ الَّتِي) فِي الْآفَاقِ ، وَالْآيَاتِ الَّتِي تَلِي الثَّوَانِي (هِيَ الَّتِي) فِي أَنْفُسِنَا . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ . فَلِهٰذَا اخْتَصَّ بِهٰذَا الْهِجِّيْرِ ، الْبَدَلُ الثَّالِثُ مِنَ الْأَبْدَالِ . –

وَمَقَامُ (الْبَدَلِ) الرَّابِعِ فِي هِجِّيْرِهِ : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ . وَهُوَ (أَيِ التُّرَابُ) الرُّكْنُ الرَّابِعُ مِنَ الْأَرْكَانِ الَّذِي يَطْلُبُ الْمَرْكَزَ ، عِنْدَ مَنْ يَقُوْلُ بِهِ ؛ فَلَيْسَ لِنُقْطَةِ الْأُكْرَةِ (شَيْءٌ) أَقْرَبُ مِنَ الْأَرْضِ ؛ وَتِلْكَ النُّقْطَةُ كَانَتْ سَبَبَ وُجُوْدِ الْمُحِيْطِ . فَهُوَ (أَعْنِي هٰذَا الْبَدَلَ الرَّابِعَ) يَطْلُبُ الْقُرْبَ مِنَ اللهِ ، مُوْجِدِ الْأَشْيَاءِ ؛ وَلَا يَحْصُلُ (هٰذَا الْقُرْبُ) إِلَّا بِالتَّوَاضُعِ ؛ وَلَا أَنْزَلُ فِي التَّوَاضُعِ مِنَ الْأَرْضِ . وَهِيَ (= الْأَرْضُ) مَنَابِعُ الْعُلُوْمِ وَتَفَجُّرُ الْأَنْهَارِ . وَكُلُّ مَا يَنْزِلُ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بُخَارَاتِ الرُّطُوْبَاتِ الَّتِي تَصْعُدُ مِنَ الْأَرْضِ . فَمِنْهَا تَتَفَجَّرُ الْعُيُوْنُ وَالْأَنْهَارُ ؛ وَمِنْهَا تَخْرُجُ الْبُخَارَاتُ إِلَى الْجَوِّ ، فَتَسْتَحِيْلُ مَاءًا فَيَنْزِلُ غَيْثًا . فَلِهٰذَا اخْتَصَّ الرَّابِعُ (مِنَ الْأَبْدَالِ) بِالرَّابِعِ مِنَ الْأَرْكَانِ .

وَمَقَامُ (الْبَدَلِ) الْخَامِسِ : ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ . وَلَا يَسْأَلُ إِلَّا الْمَوْلُوْدُ ، فَإِنَّهُ فِي مَقَامِ الطُّفُوْلَةِ – مِنَ الطِّفْلِ وَهُوَ النَّدَى . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ = فَلَا يَعْلَمُ حَتَّى يَسْأَلَ . فَالْوَلَدُ فِي الْمَرْتَبَةِ الْخَامِسَةِ ، لِأَنَّ أُمَّهَاتِهِ أَرْبَعَةٌ وَهُنَّ الْأَرْكَانُ ؛ فَكَانَ هُوَ الْعَيْنُ الْخَامِسَةُ . فَلِهٰذَا كَانَ السُّؤَالُ هِجِّيْرَ الْبَدَلِ الْخَامِسِ مِنْ بَيْنِ الْأَبْدَالِ . –

وَأَمَّا مَقَامُ (الْأَبْدَالِ) السَّادِسِ ، فَهِجِّيْرُهُ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ . وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ ، فَكَانَتِ لِـ (لْبَدَلِ) السَّادِسِ . وَإِنَّمَا كَانَتِ السَّادِسَةُ لَهُ ، لِأَنَّهُ فِي الْمَرْتَبَةِ الْخَامِسَةِ – كَمَا ذَكَرْنَا – يَسْأَلُ ، وَقَدْ كَانَ لَا يَعْلَمُ ؛ فَعِنْدَمَا سَأَلَ عَلِمَ ؛ وَلَمَّا عَلِمَ تَحَقَّقَ بِعِلْمِهِ بِرَبِّهِ فَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَهُ لَيْسَ بِيَدِهِ مِنْهُ شَيْءٌ ،

« وَأَنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ » . فَقَالَ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللهَ لَمَّا مَلَّكَنِي أَمْرِي – « وَهُوَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ » – عَلِمْتُ أَنَّ التَّفْوِيْضَ فِي ذٰلِكَ أَرْجَحُ لِي ، فَلِذٰلِكَ اتَّخَذَهُ هِجِّيْرًا .

وَمَقَامُ (الْبَدَلِ) السَّابِعِ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ . وَذٰلِكَ أَنَّ لَهَا (أَيْ لِلْأَمَانَةِ) الرَّتْبَةُ السَّابِعَةُ . وَكَانَ أَيْضًا تَكْوِيْنُ آدَمَ ، الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْإِنْسَانِ ، فِي الرَّتْبَةِ السَّابِعَةِ : فَإِنَّهُ (صَادِرٌ) عَنْ عَقْلٍ ثُمَّ نَفْسٍ ثُمَّ هَبَاءٍ ثُمَّ فَلَكٍ ثُمَّ فَاعِلَيْنِ (النَّارِ وَالْهَوَاءِ) ثُمَّ مُنْفَعِلَيْنِ (الْأَرْضِ وَالْمَاءِ) . فَهٰذِهِ سِتَّةُ (رُتَبٍ وَأَطْوَارٍ) . ثُمَّ تَكَوَّنَ الْإِنْسَانُ ، الَّذِي هُوَ آدَمُ ، فِي الرَّتْبَةِ السَّابِعَةِ . وَلَمَّا كَانَ وُجُوْدُ الْإِنْسَانِ فِي السُّنْبُلَةِ ، وَلَهَا مِنَ الزَّمَانِ فِي الدَّلَالَةِ سَبْعَةَ آلَافِ سَنَةٍ ، فَوُجِدَ الْإِنْسَانُ فِي الرَّتْبَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْمُدَّةِ . فَمَا حَمَلَ الْأَمَانَةَ إِلَّا مَنْ تَحَقَّقَ بِالسَّبْعَةِ . وَكَانَ هٰذَا هُوَ السَّابِعُ مِنَ الْأَبْدَالِ ، فَلِذٰلِكَ اتَّخَذَ هِجِّيْرًا هٰذِهِ الْآيَةَ . – فَهٰذَا قَدْ بَيَّنَّا لَكَ مَرَاتِبَ الْأَبْدَالِ .

(خُلَفَاءُ الْقُطْبِ مُدَاوِي الْكُلُوْمِ)

وَأُخْبِرْتُ أَنَّ هٰذَا الْقُطْبَ ، الَّذِي هُوَ « مُدَاوِي الْكُلُوْمِ » كَانَ فِي زَمَانِ حَبْسِهِ فِي هَيْكَلِهِ وَوِلَايَتِهِ فِي الْعَالَمِ ، إِذَا وَقَفَ لِوَقْفَتِهِ سَبْعُوْنَ قَبِيْلَةً ، كُلُّهُمْ قَدْ ظَهَرَتْ فِيْهِمُ الْمَعَارِفُ الْإِلٰهِيَّةُ وَأَسْرَارُ الْوُجُوْدِ . وَكَانَ ، أَبَدًا ، لَا يَتَعَدَّى كَلَامُهُ السَّبْعَةَ . وَمَكَثَ زَمَانًا طَوِيْلًا فِي أَصْحَابِهِ . وَكَانَ يُعَيِّنُ فِي زَمَانِهِ ، مِنْ أَصْحَابِهِ شَخْصًا فَاضِلًا ، كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ مَجْلِسًا ، كَانَ اسْمُهُ الْمُسْتَسْلِمَ . فَلَمَّا دَرَجَ هٰذَا الْإِمَامُ ، وَلِيَ مَقَامَهُ فِي الْقُطْبِيَّةِ الْمُسْتَسْلِمُ . وَكَانَ غَالِبُ عِلْمِهِ عِلْمَ الزَّمَانِ . وَهُوَ عِلْمٌ شَرِيْفٌ ، مِنْهُ يُعْرَفُ الْأَزَلُ ، وَمِنْهُ ظَهَرَ قَوْلُهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ **كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ** ﴾ . وَهٰذَا عِلْمٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْأَفْرَادُ مِنَ الرِّجَالِ . وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، وَدَهْرِ الدُّهُوْرِ . وَعَنْ هٰذَا الْأَزَلِ وُجِدَ الزَّمَانُ . وَبِهِ تَسَمَّى اللهُ بِالدَّهْرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : ﴿ لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ! فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ ﴾ . وَالْحَدِيْثُ صَحِيْحٌ ثَابِتٌ . وَمَنْ حَصَلَ لَهُ عِلْمُ الدَّهْرِ ، لَمْ يَقِفْ فِي شَيْءٍ يُنْسِبُهُ إِلَى الْحَقِّ ، فَإِنَّ لَهُ الْاِتِّسَاعُ الْأَعْظَمُ .

وَمِنْ هٰذَا الْعِلْمِ تَعَدَّدَتِ الْمَقَالَاتُ فِي الْإِلٰهِ ؛ وَمِنْهُ اخْتَلَفَتِ الْعَقَائِدُ . وَهٰذَا الْعِلْمُ يَقْبَلُهَا كُلَّهَا ، وَلَا يَرُدُّ مِنْهَا شَيْئًا . وَهُوَ الْعِلْمُ الْعَامّ . وَهُوَ الظَّرْفُ الْإِلٰهِيّ . وَأَسْرَارُهُ عَجِيْبَةٌ . مَا لَهُ عَيْنٌ مَوْجُوْدَةٌ . وَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَاكِمٌ . يَقْبَلُ الْحَقُّ نِسْبَتَهُ ، وَيَقْبَلُ الْكَوْنُ نِسْبَتَهُ . هُوَ سُلْطَانُ الْأَسْمَاءِ كُلِّهَا ، الْمُعَيَّنَةِ وَالْمُغَيَّبَةِ عَنَّا . –

فَكَانَ لِهٰذَا الْإِمَامِ فِيْهِ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ . وَكَانَ لَهُ ، مِنْ عِلْمِهِ بِدَهْرِ الدُّهُوْرِ ، عِلْمُ حِكْمَةِ الدُّنْيَا فِي لَعِبِهَا بِأَهْلِهَا ؛ وَلِمَ سُمِّيَ لَعِبًا ، وَاللهُ أَوْجَدَهُ ؟ وَكَثِيْرًا مَا يُنْسَبُ اللَّعِبُ إِلَى الزَّمَانِ ، فَيُقَالُ : لَعِبَ الزَّمَانُ بِأَهْلِهِ . – وَهُوَ مُتَعَلِّقُ السَّابِقَةُ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ فِي الْعَاقِبَةِ . – وَكَانَ هٰذَا الْإِمَامُ يَذُمُّ الْكَسْبَ وَلَا يَقُوْلُ بِهِ ، مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِحِكْمَتِهِ . وَلٰكِنْ كَانَ يُرَقِّي بِذٰلِكَ هِمَمَ أَصْحَابِهِ عَنِ التَّعَلُّقِ بِالْوَسَائِطِ . أُخْبِرْتُ أَنَّهُ مَا مَاتَ حَتَّى عَلِمَ مِنْ أَسْرَارِ الْحَقِّ فِي خَلْقِهِ سِتَّةٌ وَثَلَاثِيْنَ أَلْفَ عِلْمٍ وَخَمْسُ مِائَةَ عِلْمٍ ، مِنَ الْعُلُوْمِ الْعُلْوِيَّةِ خَاصَّةً .

وَمَاتَ (الْإِمَامُ الْمُسْتَسْلِمُ) – رَحِمَهُ اللهُ ! – . وَوَلِيَ بَعْدَهُ شَخْصٌ فَاضِلٌ اسْمُهُ « مَظْهَرُ الْحَقِّ » . عَاشَ مِائَةً وَخَمْسِيْنَ سَنَةٍ وَمَاتَ . وَوَلِيَ بَعْدَهُ « الْهَائِجُ » . وَكَانَ كَبِيْرَ الشَّأْنِ ، ظَهَرَ بِالسَّيْفِ . عَاشَ مِائَةً وَأَرْبَعِيْنَ سَنَةً . مَاتَ مَقْتُوْلاً فِي غَزَاةٍ . كَانَ الْغَالِبُ عَلَى حَالِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ « الْقَهَّارُ » . وَلَمَّا قُتِلَ ، وَلِيَ بَعْدَهُ شَخْصٌ يُقَالُ لَهُ : لُقْمَانٌ – وَاللهُ أَعْلَمُ ! – . وَكَانَ يُلَقَّبُ « وَاضِعَ الْحِكَمِ » . عَاشَ مِائَةً وَعِشْرِيْنَ سَنَةٍ . كَانَ عَارِفًا بِالتَّرْتِيْبِ وَالْعُلُوْمِ الرِّيَاضِيَّةِ وَالطَّبِيْعِيَّةِ وَالْإِلٰهِيَّةِ . وَكَانَ كَثِيْرَ الْوَصِيَّةِ لِأَصْحَابِهِ . فَإِنْ كَانَ (هٰذَا الْإِمَامُ) هُوَ لُقْمَانٌ ، فَقَدْ ذَكَرَ اللهُ لَنَا مَا كَانَ يُوْصِي بِهِ ابْنَهُ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى رُتْبَتِهِ فِي الْعِلْمِ بِاللهِ ، وَتَحْرِيْضِهِ عَلَى الْقَصْدِ وَالْاِعْتِدَالِ فِي الْأَشْيَاءِ ، فِي عُمُوْمِ الْأَحْوَالِ .

وَلَمَّا مَاتَ (هٰذَا الْإِمَامُ) – رَحِمَهُ اللهُ ! – وَكَانَ فِي زَمَانِ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – ، وَلِيَ بَعْدَهُ شَخْصٌ اسْمُهُ « الْكَاسِبُ » . وَكَانَتْ لَهُ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ فِي عِلْمِ الْمُنَاسَبَاتِ بَيْنَ الْعَالَمِيْنَ ، وَالْمُنَاسَبَةِ الْإِلٰهِيَّةِ الَّتِي وُجِدَ لَهَا الْعَالَمُ عَلَى هٰذِهِ الصُّوْرَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا . كَانَ هٰذَا الْإِمَامُ إِذَا أَرَادَ إِظْهَارَ أَثَرٍ مَا فِي الْوُجُوْدِ ، نَظَرَ فِي نَفْسِهِ إِلَى الْمُؤَثِّرِ فِيْهِ مِنَ

الْعَالَمِ الْعُلْوِيّ ، نَظْرَةً مَخْصُوْصَةً عَلَى وَزْنٍ مَعْلُوْمٍ ، فَيَظْهَرُ ذٰلِكَ الْأَثَرُ مِنْ غَيْرِ مُبَاشَرَةٍ وَلَا حِيْلَةٍ طَبِيْعِيَّةٍ . وَكَانَ يَقُوْلُ : إِنَّ اللهَ أَوْدَعَ الْعِلْمَ كُلَّهُ فِي الْأَفْلَاكِ ، وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ مَجْمُوْعَ رَقَائِقِ الْعَالَمِ كُلِّهِ . فَمِنَ الْإِنْسَانِ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ رَقِيْقَةٌ مُمْتَدَّةٌ . مِنْ تِلْكَ الرَّقِيْقَةِ ، يَكُوْنُ مِنْ ذٰلِكَ الشَّيْءِ فِي الْإِنْسَانِ ، مَا أَوْدَعَ اللهُ عِنْدَ ذٰلِكَ الشَّيْءِ مِنَ الْأُمُوْرِ ، الَّتِي أَمَّنَهُ اللهُ عَلَيْهَا لِيُؤَدِّيْهَا إِلَى هٰذَا الْإِنْسَانِ ؛ وَبِتِلْكَ الرَّقِيْقَةِ يُحَرِّكُ الْإِنْسَانُ الْعَارِفُ ذٰلِكَ الشَّيْءَ لِمَا يُرِيْدُهُ . فَمَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ إِلَّا وَلَهُ أَثَرٌ فِي الْإِنْسَانِ ، وَلِلْإِنْسَانِ أَثَرٌ فِيْهِ . فَكَانَ لِهٰذَا (الْإِمَامِ) كَشْفُ هٰذِهِ الرَّقَائِقِ وَمَعْرِفَتُهَا . وَهِيَ (أَعْنِي هٰذِهِ الرَّقَائِقَ) مِثْلُ أَشِعَّةِ النُّوْرِ .

عَاشَ هٰذَا الْإِمَامُ ثَمَانِيْنَ سَنَةٍ . وَلَمَّا مَاتَ ، وَرِثَهُ شَخْصٌ يُسَمَّى « جَامِعَ الْحِكَمِ » . عَاشَ مِائَةً وَعِشْرِيْنَ سَنَةٍ . لَهُ كَلَامٌ عَظِيْمٌ فِي أَسْرَارِ الْأَبْدَالِ ، وَالشَّيْخِ وَالتِّلْمِيْذِ . وَكَانَ يَقُوْلُ بِالْأَسْبَابِ . وَكَانَ قَدْ أُعْطِيَ أَسْرَارَ النَّبَاتِ . وَكَانَ لَهُ فِي كُلِّ عِلْمٍ ، يَخْتَصُّ بِأَهْلِ هٰذَا الطَّرِيْقِ ، قَدَمٌ . – وَفِيْمَا ذَكَرْنَاهُ ، فِي هٰذَا الْبَابِ ، غُنْيَةٌ .

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾



الْبَابُ السَّادِسُ عَشَرَ :
فِي مَعْرِفَةِ الْمَنَازِلِ السُّفْلِيَّةِ وَالْعُلُوْمِ الْكَوْنِيَّةِ وَمَبْدَإِ مَعْرِفَةِ اللهِ مِنْهَا ؛ وَمَعْرِفَةِ الْأَوْتَادِ وَالْأَبْدَالِ وَمَنْ تَوَلَّاهُمْ مِنَ الْأَرْوَاحِ الْعُلْوِيَّةِ وَتَرْتِيْبِ أَفْلَاكِهَا

عِلْمُ الْكَشَائِفِ أَعْلَامٌ مُرَتَّبَةٌ ۝ هِيَ الدَّلِيْلُ عَلَى الْمَطْلُوْبِ لِلرُّسُلِ
وَهِيَ الَّتِي حَجَبَتْ أَسْرَارَ ذِي عَمَهٍ ۝ وَهِيَ الَّتِي كَشَفَتْ مَعَالِمَ السُّبُلِ
لَهَا مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيّ سَبْعَتُهُ ۝ مِنَ الْهِلَالِ وَخُذْ عُلْوًا إِلَى زُحَلِ
لَوْلَا الَّذِي أَوْجَدَ الْأَوْتَادَ أَرْبَعَةً ۝ رَسَّى بِهَا الْأَرْضَ فَابْتُزَّتْ مِنَ الْمَيَلِ
لَمَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهَا مَنْ يَكُوْنُ بِهَا ۝ فَاعْجَبْ لَهُ مَثَلًا نَاهِيْكَ مِنْ مَثَلِ !

(مَنَافِذُ الشَّيْطَانِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ جِهَاتِ الْإِنْسَانِ الْأَرْبَعَةِ)

اِعْلَمْ – أَيَّدَكَ اللهُ ! – أَنَّا قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَ هٰذَا ، مَنَازِلَ الْأَبْدَالِ وَمَقَامَاتِهِمْ ؛ وَمَنْ تَوَلَّاهُمْ مِنَ الْأَرْوَاحِ الْعُلْوِيَّةِ وَتَرْتِيبَ أَفْلَاكِهَا : وَمَا لِلنَّيِّرَاتِ فِيْهِمْ مِنَ الْآثَارِ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ الْأَقَالِيْمِ . فَلْنَذْكُرْ فِي هٰذَا الْبَابِ مَا بَقِيَ مِمَّا تَرْجَمْتُ عَلَيْهِ .

الْمَنَازِلُ السُّفْلِيَّةُ ، هُنَا ، عِبَارَةٌ عَنِ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي يَأْتِي مِنْهَا الشَّيْطَانُ إِلَى الْإِنْسَانِ . وَسَمَّيْنَاهَا سُفْلِيَّةً لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مِنْ عَالَمِ السُّفْلِ ، فَلَا يَأْتِي إِلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا مِنَ الْمَنَازِلِ الَّتِي تُنَاسِبُهُ ، وَهِيَ الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ وَالْخَلْفُ وَالْأَمَامُ . قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ . وَيَسْتَعِينُ (الشَّيْطَانُ) عَلَى الْإِنْسَانِ بِالطَّبْعِ ، فَإِنَّهُ الْمُسَاعِدُ لَهُ فِيْمَا يَدْعُوْهُ إِلَيْهِ مِنِ اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ . فَأُمِرَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُقَاتِلَهُ مِنْ هٰذِهِ الْجِهَاتِ ، وَأَنْ يُحَصِّنَ هٰذِهِ الْجِهَاتِ بِمَا أَمَرَهُ الشَّرْعُ أَنْ يُحَصِّنَهَا بِهِ حَتَّى لَا يَجِدَ الشَّيْطَانُ ، إِلَى الدُّخُوْلِ إِلَيْهِ مِنْهَا ، سَبِيْلًا .

فَإِنْ جَاءَكَ (الشَّيْطَانُ) مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَطَرَدْتَهُ ، لَاحَتْ لَكَ مِنَ الْعُلُوْمِ عُلُوْمُ النُّوْرِ ، مِنَّةً مِنَ اللهِ عَلَيْكَ وَجَزَاءً ، حَيْثُ آثَرْتَ جَنَابَ اللهِ عَلَى هَوَاكَ . وَعُلُوْمُ النُّوْرِ عَلَى قِسْمَيْنِ : عُلُوْمُ كَشْفٍ وَعُلُوْمُ بُرْهَانٍ بِصَحِيْحِ فِكْرٍ . فَيَحْصُلُ لَهُ (أَيْ لِطَارِدِ الشَّيْطَانِ) ، مِنْ طَرِيْقِ الْبُرْهَانِ ، مَا يَرُدُّ بِهِ الشَّبَهَ الْمُضَلَّةَ الْقَادِحَةَ ، فِي وُجُوْدِ الْحَقِّ وَتَوْحِيْدِهِ وَأَسْمَائِهِ وَأَفْعَالِهِ . فَبِالْبُرْهَانِ يَرُدُّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ ، وَيَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ وُجُوْدِ الْإِلٰهِ . وَبِهِ يَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ « الَّذِيْنَ يَجْعَلُوْنَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ » ، وَيَدُلُّ عَلَى تَوْحِيْدِ الْإِلٰهِ مِنْ كَوْنِهِ إِلٰهًا . وَبِهِ يَرُدُّ عَلَى مَنْ يُنْفِي أَحْكَامَ الْأَسْمَاءِ الْإِلٰهِيَّةِ وَصِحَّةِ آثَارِهَا فِي الْكَوْنِ ، وَيَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِهَا بِالْبُرْهَانِ السَّمْعِيِّ مِنْ طَرِيْقِ الْإِطْلَاقِ ، وَبِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ مِنْ طَرِيْقِ الْمَعَانِي . وَبِهِ يَرُدُّ عَلَى نَفَاةِ الْأَفْعَالِ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ – سُبْحَانَهُ ! – فَاعِلٌ ، وَأَنَّ الْمَفْعُوْلَاتِ مُرَادَةٌ لَهُ سَمْعًا وَعَقْلًا . – وَأَمَّا عُلُوْمُ الْكَشْفِ فَهُوَ مَا يَحْصُلُ لَهُ (أَيْ لِطَارِدِ الشَّيْطَانِ) مِنَ الْمَعَارِفِ الْإِلٰهِيَّةِ فِي التَّجَلِّيَاتِ فِي الْمَظَاهِرِ .

وَإِنْ جَاءَكَ (الشَّيْطَانُ) مِنْ خَلْفِكَ ، وَهُوَ مَا يَدْعُوْكَ إِلَيْهِ أَنْ تَقُوْلَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُ ، وَتَدَّعِي النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ ؛ – وَذٰلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِي كُلِّ مِلَّةٍ كُلَّ صِفَةٍ عَلَّقَ الشَّارِعُ الْمَذَمَّةَ عَلَيْهَا فِي تِلْكَ الْأُمَّةِ ، فَيَأْمُرُكَ بِهَا ؛ وَكُلَّ صِفَةٍ عَلَّقَ الْمَحْمَدَةَ عَلَيْهَا ، نَهَاكَ عَنْهَا ؛ هٰذَا عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَالْمَلَكُ عَلَى النَّقِيْضِ مِنْهُ : يَأْمُرُكَ بِالْمَحْمُوْدِ مِنْهَا ، وَيَنْهَاكَ عَنِ الْمَذْمُوْمِ ؛ – فَإِذَا طَرَدْتَهُ (أَيْ الشَّيْطَانَ

حِيْنَ يَأْتِيْكَ) مِنْ خَلفِكَ ، لَاحَتْ لَكَ عُلُوْمُ الصِّدْقِ وَمَنَازِلُهُ ، وَأَيْنَ يَنْتَهِي بِصَاحِبِهِ ؟ كَمَا قَالَ – تَعَالَى ! – : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ = أَلَا أَنَّ ذٰلِكَ صِدْقُهُمْ هُوَ الَّذِي أَقْعَدَهُمْ ذٰلِكَ الْمَقْعَدَ ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ = فَإِنَّ الْاِقْتِدَارَ يُنَاسِبُ الصِّدْقَ ، فَإِنَّ مَعْنَاهُ (أَيْ الصِّدْقِ) : الْقُوَّي ، يُقَالُ رُمْحٌ صَدْقٌ ، أَيْ صُلْبٌ ، قَوِيٌّ .

وَلَمَّا كَانَتِ الْقُوَّةُ صِفَةَ هٰذَا الصَّادِقِ ، حَيْثُ قَوِيَ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمْ يَتَزَيَّنْ بِمَا لَيْسَ لَهُ ، وَالْتَزَمَ الْحَقَّ فِي أَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَصَدَّقَ فِيْهَا – « أَقْعَدَهُ الْحَقُّ عِنْدَ مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ » ، أَيْ أَطْلَعَهُ عَلَى الْقُوَّةِ الْإِلٰهِيَّةِ الَّتِي أَعْطَتْهُ الْقُوَّةَ فِي صِدْقِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ . فَإِنَّ « الْمَلِيْكَ » هُوَ الشَّدِيْدُ أَيْضًا ، فَهُوَ مُنَاسِبٌ لِـ « مُقْتَدِرٍ » . قَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيْمِ يَصِفُ طَعْنَتَهُ :

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَـا ‌‌‌ ‌‌‌ ‌‌‌ يَرَىٰ قَائِمٌ مِنْ دُوْنِهَا مَا وَرَاءَهَا

أَيْ شَدَدْتُ بِهَا كَفِّي . يُقَالُ : مَلَكْتُ الْعَجِيْنَ ، إِذَا شَدَدْتُ عَجِيْنَهُ . –

فَيَحْصُلُ لَكَ ، إِذَا خَالَفْتَهُ (أَيْ خَالَفْتَ الشَّيْطَانَ) فِي هٰذَا الْأَمْرِ الَّذِي جَاءَكَ بِهِ ، عِلْمُ تَعَلُّقِ الْاِقْتِدَارِ الْإِلٰهِيِّ بِالْإِيْجَادِ ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَصْحَابِنَا ؛ وَيَحْصُلُ لَكَ عِلْمُ الْعِصْمَةِ وَالْحِفْظِ الْإِلٰهِيِّ ، حَتَّى لَا يُؤَثِّرُ فِيْكَ وَهْمُكَ وَلَا غَيْرُكَ ، فَتَكُوْنُ خَالِصًا لِرَبِّكَ .

وَإِنْ جَاءَكَ (الشَّيْطَانُ) مِنْ جِهَةِ الْيَمِيْنِ ، فَقَوِيْتَ عَلَيْهِ وَدَفَعْتَهُ ؛ فَإِنَّهُ إِذَا جَاءَكَ مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ الْمَوْصُوْفَةِ بِالْقُوَّةِ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي إِلَيْكَ لِيُضْعِفَ إِيْمَانَكَ وَيَقِيْنَكَ ، وَيُلْقِي عَلَيْكَ شُبَهًا فِي أَدِلَّتِكَ وَمُكَاشَفَاتِكَ . فَإِنَّهُ لَهُ ، فِي كُلِّ كَشْفِ أَمْرٍ يَطَّلِعُكَ الْحَقُّ عَلَيْهِ ، أَمْرٌ مِنْ عَالَمِ الْخَيَالِ يَنْصُبُهُ لَكَ ، مُشَابِهًا لِلْحَالِكَ الَّذِي أَنْتَ بِهِ فِي وَقْتِكَ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ عِلْمٌ قَوِيٌّ بِمَا تُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَمَا يُخَيِّلُهُ لَكَ ، فَتَكُوْنُ مُوْسَوِيَّ الْمَقَامِ ، وَإِلَّا اِلْتَبَسَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ . كَمَا خَيَّلَتِ السَّحَرَةُ (سَحَرَةُ فِرْعَوْنُ) لِلْعَامَّةِ أَنَّ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ حَيَّاتٌ ، وَلَمْ تَكُنْ كَذٰلِكَ .

(عَصَا مُوْسَى وَحِبَالُ السَّحَرَةِ)

وَقَدْ كَانَ مُوْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – لَمَّا أَلْقَى عَصَاهُ فَكَانَتْ « حَيَّةً تَسْعَى » ، خَافَ مِنْهَا (أَوَّلًا) عَلَى نَفْسِهِ ، عَلَى مَجْرَى الْعَادَةِ . وَإِنَّمَا قَدَّمَ اللّٰهُ ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَعْرِفَةَ هٰذَا قَبْلَ جَمْعِ السَّحَرَةِ ، لِيَكُوْنَ عَلَى يَقِيْنٍ مِنَ اللّٰهِ أَنَّهَا آيَةٌ ، وَأَنَّهَا لَا تَضُرُّهُ . وَكَانَ خَوْفُهُ الثَّانِي عِنْدَمَا أَلْقَتِ السَّحَرَةُ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ ، فَصَارَتْ حَيَّاتٍ فِي أَبْصَارِ الْحَاضِرِيْنَ – (نَقُوْلُ) : كَانَ خَوْفُهُ (هٰذَا) عَلَى الْأُمَّةِ ، لِئَلَّا يَلْتَبِسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ ، فَلَا يُفَرِّقُوْنَ بَيْنَ الْخَيَالِ وَالْحَقِيْقَةِ ، أَوْ بَيْنَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَبَيْنَ مَا (هُوَ) لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ . فَاخْتَلَفَ تَعَلُّقُ الْخَوْفَيْنِ (عِنْدَ مُوْسَى) ، فَإِنَّهُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، قَوِيُّ الْجَأْشِ بِمَا تَقَدَّمَ لَهُ . إِذْ قِيْلَ لَهُ فِي الْإِلْقَاءِ الْأَوَّلِ : ﴿ **خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ** ﴾ أَيْ تَرْجِعُ عَصًا كَمَا كَانَتْ فِي عَيْنِكَ .

فَأَخْفَى – تَعَالَى ! – الْعَصَا فِي رُوْحَانِيَّةِ الْحَيَّةِ الْبَرْزَخِيَّةِ ، فَتَلَقَّفَتْ جَمِيْعَ حَيَّاتِ السَّحَرَةِ ، الْمُتَخَيَّلَةِ فِي عُيُوْنِ الْحَاضِرِيْنَ ، فَلَمْ يَبْقَ لِتِلْكَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ عَيْنٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَعْيُنِهِمْ : وَهِيَ ظُهُوْرُ حُجَّتِهِ عَلَى حُجُجِهِمْ فِي صُوَرِ حِبَالٍ وَعِصِيٍّ ! فَأَبْصَرَتِ السَّحَرَةُ وَالنَّاسُ حِبَالَ السَّحَرَةِ وَعِصِيَّهُمُ ، الَّتِي أَلْقَوْهَا ، حِبَالًا وَعِصِيًّا : فَهٰذَا كَانَ تَلَقُّفُهَا ، لَا أَنَّهَا انْعَدَمَتِ الْحِبَالُ وَالْعِصِيُّ ، إِذْ لَوِ انْعَدَمَتْ لَدَخَلَ عَلَيْهِمُ التَّلْبِيْسُ فِي عَصَا مُوْسَى ، وَكَانَتِ الشُّبْهَةُ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ . فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ الْحِبَالَ حِبَالًا ، عَلِمُوا أَنَّهَا مَكِيْدَةٌ طَبِيْعِيَّةٌ ، يَعْضُدُهَا قُوَّةٌ كَيْدِيَّةٌ رُوْحَانِيَّةٌ . فَتَلَقَّفَتْ عَصَا مُوْسَى صُوَرَ الْحَيَاتِ مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ ، كَمَا يَبْطُلُ كَلَامَ الْخَصْمِ ، إِذَا كَانَ عَلَى غَيْرِ حَقٍّ ، أَنْ يَكُوْنَ حُجَّةً ؛ لَا أَنَّ مَا أَتَى بِهِ يَنْعَدِمُ ، بَلْ يَبْقَى مَحْفُوْظًا مَعْقُوْلًا عِنْدَ السَّامِعِيْنَ ، وَيَزُوْلُ عِنْدَهُمْ كَوْنُهُ حُجَّةً . –

فَلَمَّا عَلِمَتِ السَّحَرَةُ قَدْرَ مَا جَاءَ بِهِ مُوْسَى مِنْ قُوَّةِ الْحُجَّةِ ، وَأَنَّهُ خَارِجٌ عَمَّا جَاءُوْا بِهِ ؛ وَتَحَقَّقَتْ شُفُوْفُ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى مَا جَاءَوْا بِهِ ؛ وَرَأَوْا خَوْفَهُ ، – عَلِمُوْا أَنَّ ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِهِ لَمْ يَخَفْ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يُجْرِي . فَآيَتُهُ (أَيْ آيَةُ مُوْسَى) عِنْدَ السَّحَرَةِ ، خَوْفُهُ ؛ وَآيَتُهُ ، عِنْدَ النَّاسِ ، تَلَقُّفُ عَصَاهُ .

فَآمَنَتِ السَّحَرَةُ . – قِيْلَ كَانُوْا ثَمَانِيْنَ أَلْف سَاحِرٍ – . وَعَلِمُوْا أَنَّ أَعْظَمَ الْآيَاتِ فِي هٰذَا الْمَوْطِنِ ، تَلَقُّفُ هٰذِهِ الصُّوَرَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِيْنَ ، وَإِبْقَاءُ صُوْرَةِ حَيَّةٍ عَصَا مُوْسَى فِي أَعْيُنِهِمْ ؛ وَالْحَالُ ، عِنْدَهُمْ ، وَاحِدَةٌ . فَعَلِمُوْا صِدْقَ مُوْسَى فِيْمَا يَدْعُوْهُمْ إِلَيْهِ ؛ وَأَنَّ هٰذَا الَّذِي أَتَى بِهِ خَارِجٌ عَنْ (طَوْرِ) الصُّوَرِ وَالْحِيْلِ الْمَعْلُوْمَةِ فِي السِّحْرِ ؛ فَهُوَ أَمْرٌ إِلٰهِيٌّ لَيْسَ لِمُوْسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – فِيْهِ تَعَمُّلٌ . فَصَدَّقُوْا بِرِسَالَتِهِ عَلَى بَصِيْرَةٍ ؛ وَاخْتَارُوْا عَذَابَ فِرْعَوْنَ عَلَى عَذَابِ اللهِ ؛ وَآثَرُوْا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ؛ وَعَلِمُوْا ، مِنْ عِلْمِهِمٍ بِذٰلِكَ ، « أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ » ، « وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً » ، – وَأَنَّ الْحَقَائِقَ لَا تَتَبَدَّلُ ، وَأَنَّ عَصَا مُوْسَى مَبْطُوْنَةٌ فِي صُوْرَةِ حَيَّةٍ عَنْ أَعْيُنِ الْجَمِيْعِ ، وَعَنْ (عَيْنِ) الَّذِي أَلْقَاهَا بِخَوْفِهِ الَّذِي شَهِدُوْا مِنْهُ . – فَهٰذِهِ فَائِدَةُ الْعِلْمِ !

(التَّشْكِيْكُ فِي الْحَوَّاسِ وَغَلَطُ السُّوْفِسْطَائِيَّة)

وَإِنْ جَاءَكَ الشَّيْطَانُ ، مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ ، بِشُبْهَاتِ التَّعْطِيْلِ أَوْ وُجُوْدِ الشَّرِيْكِ لِلّٰهِ – تَعَالَى ! – فِي أُلُوْهِيَّتِهِ ، – فَطَرَدْتَهُ فَإِنَّ اللهَ يُقَوِّيُكَ عَلَى ذٰلِكَ بِدَلَائِلِ التَّوْحِيْدِ وَعِلْمِ النَّظَرِ . فَإِنَّ الْخَلْفَ لِلْمُعَطِّلَةِ ! وَدَفْعُهُمْ (يَكُوْنُ) بِضَرُوْرَةِ الْعِلْمِ الَّذِي يُعْلَمُ بِهِ وُجُوْدُ الْبَارِي . فَالْخَلْفُ لِلتَّعْطِيْلِ ، وَالشِّمَالُ لِلشِّرْكِ ، وَالْيَمِيْنُ لِلضَّعْفِ ، وَمِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ : التَّشْكِيْكُ فِي الْحَوَّاسِ .

وَمِنْ هُنَا دَخَلَ التَّلْبِيْسُ عَلَى السُّوْفِسْطَائِيَّةِ حَيْثُ أَدْخَلَ (الشَّيْطَانُ) لَهُمُ الْغَلَطَ فِي الْحَوَّاسِ ، وَهِيَ الَّتِي يَسْتَنِدُ إِلَيْهَا أَهْلُ النَّظَرِ فِي صِحَّةِ أَدِلَّتِهِمْ وَإِلَى الْبَدِيْهِيَّاتِ – فِي الْعِلْمِ الْإِلٰهِيّ وَغَيْرِهِ . فَلَمَّا أَظْهَرَ (الشَّيْطَانُ) لَهُمُ الْغَلَطَ فِي ذٰلِكَ قَالُوْا : مَا ثَمَّ عِلْمٌ ، أَصْلًا ، يُوْثَقُ بِهِ . فَإِنْ قِيْلَ لَهُمْ : فَهٰذَا عِلْمٌ بِأَنَّهُ مَا ثَمَّ عِلْمٌ ، فَمَا مُسْتَنَدُكُمْ وَأَنْتُمْ غَيْرُ قَائِلِيْنَ بِهِ ؟ قَالُوْا : وَكَذٰلِكَ نَقُوْلُ إِنَّ قَوْلَنَا هٰذَا لَيْسَ بِعِلْمٍ ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَغَالِيْطِ . يُقَالُ لَهُمْ : فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ قَوْلَكُمْ : هٰذَا لَيْسَ بِعِلْمٍ ، وَقَوْلَكُمْ : إِنَّ هٰذَا مِنْ جُمْلَةِ

الْأَغَالِيْطِ ، – إِثْبَاتُ مَا نَفَيْتُمُوْهُ ! فَأَدْخَلَ (الشَّيْطَانُ) عَلَيْهِمُ الشُّبَهَ فِيْمَا يَسْتَنِدُوْنَ إِلَيْهِ فِي تَرْكِيْبِ مُقَدِّمَاتِهِمْ فِي الْأَدِلَّةِ ، وَيَرْجِعُوْنَ إِلَيْهِ فِيْهَا .

وَلِهٰذَا عَصَمَنَا اللهُ مِنْ ذٰلِكَ ، فَلَمْ يَجْعَلْ لِلْحِسِّ غَلَطًا جُمْلَةً وَاحِدَةً ؛ وَإِنَّ الَّذِي يُدْرِكُهُ الْحِسُّ حَقٌّ : فَإِنَّهُ (أَيْ الْحِسَّ) مُوْصِلٌ ، مَا هُوَ حَاكِمٌ بَلْ شَاهِدٌ ، وَإِنَّمَا الْعَقْلُ هُوَ الْحَاكِمُ . وَالْغَلَطُ مَنْسُوْبٌ إِلَى الْحَاكِمِ فِي الْحُكْمِ . وَمَعْلُوْمٌ ، عِنْدَ الْقَائِلِيْنَ بِغَلَطِ الْحِسِّ وَغَيْرِ الْقَائِلِيْنَ بِهِ ، أَنَّ الْعَقْلَ يَغْلُطُ إِذَا كَانَ النَّظَرُ فَاسِدًا – أَعْنِي نَظَرَ الْفِكْرِ – فَإِنَّ النَّظَرَ يَنْقَسِمُ إِلَى صَحِيْحٍ وَفَاسِدٍ . – فَهٰذَا هُوَ (مَعْنَى مَجِيْءِ الشَّيْطَانِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى ! –) : « مِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ » .

(تَرْتِيْبُ مَدِيْنَةِ بَدَنِ الْإِنْسَانِ)

ثُمَّ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ جَعَلَهُ الْحَقُّ قِسْمَيْنِ فِي تَرْتِيْبِ مَدِيْنَةِ بَدَنِهِ ؛ وَجَعَلَ الْقَلْبَ ، بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ مِنْهُ ، كَالْفَاصِلِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ . فَجَعَلَ فِي الْقِسْمِ الْأَعْلَى ، الَّذِي هُوَ الرَّأْسُ ، جَمِيْعَ الْقُوَّي الْحِسِّيَّةِ وَالرُّوْحَانِيَّةِ ؛ وَمَا جَعَلَ فِي النِّصْفِ الْآخَرِ مِنَ الْقُوَّى الْحَسَّاسَةِ إِلَّا حَاسَّةِ اللَّمْسِ ، فَيَدْرُكُ الْخَشِنَ وَاللَّيِّنَ وَالْحَارَّ وَالْبَارِدَ وَالرُّطَبَ وَالْيَابِسَ بِرُوْحِهِ الْحَسَّاسِ ، مِنْ حَيْثُ هٰذِهِ الْقُوَّةِ الْخَاصَّةِ السَّارِيَةِ فِي جَمِيْعِ بَدَنِهِ ، لَا غَيْرَ ذٰلِكَ .

وَأَمَّا مِنَ الْقُوَّى الطَّبِيْعِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِتَدْبِيْرِ الْبَدَنِ ، فَ (مَا جَعَلَ الْحَقُّ فِي النِّصْفِ الْآخَرِ مِنْهُ إِلَّا) الْقُوَّةَ الْجَاذِبَةَ ، وَبِهَا تَجْذُبُ النَّفْسُ الْحَيَوَانِيَّةُ مَا بِهِ صَلَاحُ الْعُضْوِ ، مِنَ الْكَبِدِ وَالْقَلْبِ ؛ وَالْقُوَّةَ الْمَاسِكَةَ ، وَبِهَا (أَيْ بِالْقُوَّةِ الْمَاسِكَةِ) تُمْسِكُ (النَّفْسُ الْحَيَوَانِيَّةُ) مَا جَذَبَتْهُ الْقُوَّةُ الْجَاذِبَةُ عَلَى الْعُضْوِ ، حَتَّى يَأْخُذَ مِنْهُ مَا فِيْهِ مَنَافِعَهُ . فَإِنْ قُلْتَ : « فَإِذَا كَانَ الْمَقْصُوْدُ الْمَنْفَعَةَ ، فَمِنْ أَيْنَ دَخَلَ الْمَرَضُ عَلَى الْجَسَدِ ؟ » . فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَرَضَ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّهُ ذٰلِكَ الْعُضْوُ مِنَ الْغِذَاءِ ، أَوِ النَّقْصِ مِمَّا يَسْتَحِقُّهُ . فَهٰذِهِ الْقُوَّةُ (الْجَاذِبَةُ) مَا عِنْدَهَا مِيْزَانُ الْاِسْتِحْقَاقِ ؛ فَإِذَا جَذَبَتْ زَائِدًا عَلَى مَا يَحْتَاجُ

إِلَيْهِ الْبَدَنُ أَوْ نَقُصَتْ عَنْهُ ، كَانَ الْمَرَضُ ؛ فَإِنَّ حَقِيْقَتَهَا الْجَذْبُ ، مَا حَقِيْقَتُهَا الْمِيْزَانُ ؛ فَإِذَا أَخَذَتْهُ عَلَى الْوَزْنِ الصَّحِيْحِ ، فَذٰلِكَ لَهَا (يَكُوْنُ) بِحُكْمِ الْاِتِّفَاقِ وَمِنْ قُوَّةٍ أُخْرَى ، لَا بِحُكْمِ الْقَصْدِ . وَذٰلِكَ لِيَعْلَمَ الْمُحْدَثُ نَقْصَهُ ، « وَأَنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ » .

وَكَذٰلِكَ فِيْهِ أَيْضًا (أَيْ فِي النِّصْفِ الْآخَرِ مِنَ الْبَدَنِ) الْقُوَّةُ الدَّافِعَةُ ، وَبِهَا يَعْرُقُ الْبَدَنُ . فَإِنَّ الطَّبِيْعَةَ مَا هِيَ دَافِعَةٌ بِمِقْدَارٍ مَخْصُوْصٍ لِأَنَّهَا تَجْهَلُ الْمِيْزَانَ ؛ وَهِيَ مَحْكُوْمَةٌ لِأَمْرٍ آخَرٍ مِنْ فُضُوْلٍ تَطْرَأُ فِي الْمِزَاجِ ، تُعْطِيْهِ الْقُوَّةُ الشَّهْوَانِيَّةُ . وَكَذٰلِكَ أَيْضًا هٰذَا كُلُّهُ سَارٍ فِي جَمِيْعِ الْبَدَنِ ، عُلُوًّا وَسُفْلًا . –

وَأَمَّا سَائِرُ الْقُوَى فَمَحَلُّهَا النِّصْفُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ النِّصْفُ الْأَشْرَفُ ، مَحَلُّ وُجُوْدِ الْحَيَاتَيْنِ : حَيَاةُ الدَّمِ وَحَيَاةُ النَّفَسِ . فَأَيُّ عُضْوٍ مَاتَ ، مِنْ هٰذِهِ الْأَعْضَاءِ ، زَالَتْ عَنْهُ الْقُوَى الَّتِي كَانَتْ فِيْهِ ، مَنِ الْمَشْرُوْطِ وُجُوْدُهَا بِوُجُوْدِ الْحَيَاةِ . وَمَا لَمْ يَمُتِ الْعُضْوُ ، وَطَرَأَ عَلَى مَحَلِّ قُوَّةٍ مَا خَلَلٌ ، فَإِنَّ حُكْمَهَا يَفْسُدُ وَيَتَخَبَّطُ وَلَا يُعْطِي عِلْمًا صَحِيْحًا ، كَمَحَلِّ الْخَيَالِ إِذَا طَرَأَتْ فِيْهِ عِلَّةٌ : فَالْخَيَالُ لَا يَبْطُلُ ، وَإِنَّمَا يَبْطُلُ قُبُوْلُ الصِّحَّةِ فِيْمَا يَرَاهُ عِلْمًا . وَكَذٰلِكَ الْعَقْلُ ، وَكُلُّ قُوَّةٍ رُوْحَانِيَّةٍ .

وَأَمَّا الْقُوَى الْحِسِّيَّةُ فَهِيَ أَيْضًا مَوْجُوْدَةٌ . لٰكِنْ تَطْرَأُ حُجُبٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُدْرَكَاتِهَا فِي الْعُضْوِ الْقَائِمَةِ بِهِ ، مِنْ مَاءٍ يَنْزِلُ فِي الْعَيْنِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . وَأَمَّا الْقُوَى (فَهِيَ) فِي مَحَالِّهَا مَا زَالَتْ وَلَا بَرِحَتْ ، وَلٰكِنَّ الْحُجُبَ طَرَأَتْ فَمَنَعَتْ . فَالْأَعْمَى يُشَاهِدُ الْحِجَابَ وَيَرَاهُ – وَهُوَ الظُّلْمَةُ الَّتِي يَجِدُهَا ، فَهِيَ ظُلْمَةُ الْحِجَابِ – ؛ فَمَشْهَدُهُ الْحِجَابُ . وَكَذٰلِكَ ذَائِقُ الْعَسَلِ وَالسُّكَّرِ إِذَا وَجَدَهُ مُرًّا . فَالْمُبَاشِرُ لِلْعُضْوِ ، الْقَائِمُ بِهِ قُوَّةُ الذَّوْقِ ، إِنَّمَا هُوَ الْمِرَّةُ الصَّفْرَاءُ . فَلِذٰلِكَ أَدْرَكَ (الذَّائِقُ) الْمَرَارَةَ . فَالْحِسُّ يَقُوْلُ : أَدْرَكْتُ مَرَارَةً . وَالْحَاكِمُ إِنْ أَخْطَأَ يَقُوْلُ : هٰذَا السُّكَرُ مُرٌّ ، وَإِنْ أَصَابَ عُرْفُ الْعِلَّةِ فَلَمْ يَحْكُمْ عَلَى السُّكَرِ بِالْمَرَارَةِ ، وَعَرَفَ مَا أَدْرَكَتِ الْقُوَّةُ ، وَعَرَفَ أَنَّ الْحِسَّ ، الَّذِي هُوَ الشَّاهِدُ ، مُصِيْبٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَأَنَّ الْقَاضِيَ يُخْطِئُ وَيُصِيْبُ .

فصل :
(مَعْرِفَةُ الْحَقِّ مِنَ الْمَنَازِلِ السُّفْلِيَّةِ)

وَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْحَقِّ مِنْ هٰذَا الْمَنْزِلِ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْكَوْنَ لَا تُعَلِّقُ لَهُ بِعِلْمِ الذَّاتِ أَصْلًا، وَإِنَّمَا مُتَعَلِّقَةُ الْعِلْمِ بِالْمَرْتَبَةِ، وَهُوَ مُسَمَّى اللهِ . فَهُوَ (أَيِ الْعِلْمُ بِالْمَرْتَبَةِ) الدَّلِيْلُ الْمَحْفُوْظُ الْأَرْكَانِ، السَّادُّ عَلَى مَعْرِفَةِ الْإِلٰهِ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ عَلَيْهِ – سُبْحَانَهُ ! – مِنْ أَسْمَاءِ الْأَفْعَالِ وَنعُوْتِ الْجَلَالِ، وَبِأَيَّةِ حَقِيْقَةٍ يَصْدُرُ الْكَوْنُ مِنْ هٰذِهِ الذَّاتِ الْمَنْعُوْتَةِ بِهٰذِهِ الْمَرْتَبَةِ، الْمَجْهُوْلَةِ الْعَيْنِ وَالْكَيْفِ ؟

وَعِنْدَنَا لَا خِلَافَ فِي أَنَّهَا (أَيِ الذَّاتَ) لَا تُعْلَمُ، بَلْ يُطْلَقُ عَلَيْهَا نعُوْتُ تَنْزِيْهِ صِفَاتِ الْحَدَثِ، وَأَنَّ الْقِدَمَ لَهَا، وَالْأَزَلَ الَّذِي يُطْلَقُ لِوُجُوْدِهَا إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءٌ تَدُلُّ عَلَى سُلُوْبٍ، مِنْ نَفْيِ الْأَوَّلِيَّةِ وَمَا يَلِيْقُ بِالْحُدُوْثِ . وَهٰذَا يُخَالِفُنَا فِيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِيْنَ الْأَشَاعِرَةِ، وَيَتَخَيَّلُوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوْا مِنَ الْحَقِّ صِفَةً نَفْسِيَّةً ثُبُوْتِيَّةً . وَهَيْهَاتَ ! أَنَّى لَهُمْ بِذٰلِكَ ؟ وَأَخَذَتْ طَائِفَةٌ مِمَّنْ شَاهَدْنَاهُمْ مِنَ الْمُتَكَلِّمِيْنَ، كَأَبِي عَبْدِ اللهِ الْكَتَّانِي وَأَبِي الْعَبَّاسِ الْأَشْقَرِ وَالضَّرِيْرِ السِّلَاوِي، صَاحِبُ « الْأُرْجُوْزَةِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ »، – (أَقُوْلُ : أَخَذَتُ هٰذِهِ الطَّائِفَةَ) عَلَى أَبِي سَعِيْدِ الْخَرَّازِ وَأَبِي حَامِدٍ وَأَمْثَالِهِمَا فِي قَوْلِهِمْ لَا يَعْرِفُ اللهَ إِلَّا اللهُ !

وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي رُؤْيَةِ اللهِ – تَعَالَى ! – إِذَا رَأَيْنَاهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِالْأَبْصَارِ : مَا الَّذِي نَرَى ؟ وَكَلَامُهُمْ فِيْهِ مَعْلُوْمٌ عِنْدَ أَصْحَابِنَا . وَقَدْ أَوْرَدْنَا تَحْقِيْقَ ذٰلِكَ فِي هٰذَا الْكِتَابِ، مُفَرَّقًا فِي أَبْوَابِ مَنَازِلِهِ وَغَيْرِهَا، بِطَرِيْقِ الْإِيْمَاءِ لَا بِالتَّصْرِيْحِ . فَإِنَّهُ مَجَالٌ ضَيِّقٌ، تَضِيْقُ الْعُقُوْلُ فِيْهِ لِمُنَاقَضَتِهِ أَدِلَّتَهَا . فَهُوَ الْمَرْئِي – سُبْحَانَهُ ! – عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي قَالَهُ وَقَالَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَعَلَى مَا أَرَادَهُ مِنْ ذٰلِكَ . فَإِنَّ النَّاظِرِيْنَ فِيْمَا قَالَهُ وَأَوْحَى بِهِ إِلَيْنَا، اخْتَلَفُوْا فِي تَأْوِيْلِهِ . وَلَيْسَ بَعْضُ الْوُجُوْهِ مِنْهَا بِأَوْلَى مِنْ بَعْضٍ . فَتَرَكْنَا الْخَوْضَ فِي ذٰلِكَ، إِذِ الْخِلَافُ فِيْهِ لَا يُرْتَفَعُ مِنَ الْعَالَمِ بِكَلَامِنَا، وَلَا بِمَا نُوْرِدُهُ فِيْهِ .

فصل :
(فِي مَرَاتِبِ الْأَوْتَادِ وَمَنَازِلِهِمْ)

وَأَمَّا حَدِيْثُ الْأَوْتَادِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ مَعْرِفَتُهُمْ بِهٰذَا الْبَابِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَوْتَادَ ، الَّذِيْنَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الْعَالَمَ ، أَرْبَعَةٌ لَا خَامِسَ لَهُمْ . وَهُمْ أَخَصُّ مِنَ الْأَبْدَالِ . وَالْإِمَامَانِ أَخَصُّ مِنْهُمْ . وَالْقُطْبُ هُوَ أَخَصُّ الْجَمَاعَةِ .

وَالْأَبْدَالُ فِي هٰذَا الطَّرِيْقِ ، لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ . يُطْلِقُوْنَ الْأَبْدَالَ عَلَى مَنْ تَبَدَّلَتْ أَوْصَافُهُ الْمَذْمُوْمَةُ بِالْمَحْمُوْدَةِ ؛ وَيُطْلِقُوْنَهُ عَلَى عَدَدٍ خَاصٍّ – وَهُمْ أَرْبَعُوْنَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ – لِصِفَةٍ يَجْتَمِعُوْنَ فِيْهَا . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : عَدَدُهُمْ سَبْعَةٌ . وَالَّذِيْنَ قَالُوْا : سَبْعَةً ، مِنَّا مَنْ جَعَلَ السَّبْعَةَ الْأَبْدَالَ خَارِجِيْنَ عَنِ الْأَوْتَادِ ؛ وَمِنَّا مَنْ قَالَ : إِنَّ الْأَوْتَادَ الْأَرْبَعَةَ (هُمْ) مِنَ الْأَبْدَالِ . فَالْأَبْدَالُ سَبْعَةٌ ؛ وَمِنْ هٰذِهِ السَّبْعَةِ ، أَرْبَعَةٌ هُمُ الْأَوْتَادُ ؛ وَاثْنَانِ هُمَا الْإِمَامَانِ ؛ وَوَاحِدٌ هُوَ الْقُطْبُ . وَهٰذِهِ الْجُمْلَةُ (أَيِ السَّبْعَةُ) هُمُ الْأَبْدَالُ . – وَقَالُوْا : سُمُّوا أَبْدَالًا لِكَوْنِهِمْ إِذَا مَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ كَانَ الْآخَرُ بَدَلَهُ . وَيُؤْخَذُ مِنَ الْأَرْبَعِيْنَ وَاحِدٌ ، وَتَكْمُلُ الْأَرْبَعُوْنَ بِوَاحِدٍ مِنَ الثَّلَاثِ مِائَةٍ ، وَتَكْمُلُ الثَّلَاثُ مِائَةٍ بِوَاحِدٍ مِنْ صَالِحِي الْمُؤْمِنِيْنَ . –

وَقِيْلَ سُمُّوْا أَبْدَالًا لِأَنَّهُمْ أُعْطُوْا مِنَ الْقُوَّةِ أَنْ يَتْرُكُوْا بَدَلَهُمْ حَيْثُ يُرِيْدُوْنَ ، لِأَمْرٍ يَقُوْمُ فِي نُفُوْسِهِمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ فَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِ هٰذَا الْمَقَامِ ، فَقَدْ يَكُوْنُ مِنْ صُلَحَاءِ الْأُمَّةِ ، وَقَدْ يَكُوْنُ مِنَ الْأَفْرَادِ .

وَهٰؤُلَاءِ الْأَوْتَادُ الْأَرْبَعَةُ لَهُمْ مِثْلُ مَا لِلْاَبْدَالِ ، الَّذِيْنَ ذَكَرْنَاهُمْ فِي الْبَابِ قَبْلَ هٰذَا ، رُوْحَانِيَّةً إِلٰهِيَّةً وَرُوْحَانِيَّةً إِلِّيَّةً . فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَلَى قَلْبِ آدَمَ ؛ وَالْآخَرُ عَلَى قَلْبِ إِبْرَاهِيْمَ ؛ وَالْآخَرُ عَلَى قَلْبِ عِيْسَى ؛ وَالْآخَرُ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ! – . فَمِنْهُمْ مَنْ تَمُدُّهُ رُوْحَانِيَّةُ إِسْرَافِيْلَ ؛ وَآخَرُ ، رُوْحَانِيَّةُ مِيْكَائِيْلَ ؛ وَآخَرُ ، رُوْحَانِيَّةُ جِبْرِيْلَ ؛ وَآخَرُ ، رُوْحَانِيَّةُ عِزْرَائِيْلَ . وَلِكُلِّ وَتَدٍ « رُكْنٌ » مِنْ « أَرْكَانِ الْبَيْتِ » . فَالَّذِي عَلَى قَلْبِ آدَمَ

– عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – ، لَهُ « الرُّكْنُ الشَّامِيُّ » . وَالَّذِي عَلَى قَلْبِ إِبْرَاهِيمَ ، لَهُ « الرُّكْنُ الْعِرَاقِيُّ » . وَالَّذِي عَلَى قَلْبِ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ ! – : لَهُ « الرُّكْنُ الْيَمَانِيُّ » . وَالَّذِي عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَهُ « رُكْنُ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ » . وَهُوَ لَنَا بِحَمْدِ اللهِ !

وَكَانَ بَعْضُ الْأَرْكَانِ ، فِي زَمَانِنَا ، الرَّبِيعُ بْنُ مَحْمُوْدٍ الْمَارِدِيْنِي ، الْحَطَّابُ . فَلَمَّا مَاتَ خَلَّفَهُ شَخْصٌ آخَرُ . وَكَانَ الشَّيْخُ أَبُوْ عَلِي الْهَوَارِي قَدْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي كَشْفِهِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَهُمْ ، وَتَحَقَّقَ صُوَرَهُمْ ؛ فَمَا مَاتَ حَتَّى أَبْصَرَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ فِي عَالَمِ الْحِسِّ : أَبْصَرَ رَبِيعًا الْمَارِدِيْنِي ، وَأَبْصَرَ الْآخَرَ وَهُوَ رَجُلٌ فَارْسِي ، وَأَبْصَرَنَا وَلَا زَمَنًا إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ تِسْعٌ وَتِسْعِيْنَ وَخَمْسُ مِائَةٍ . أَخْبَرَنِي بِذٰلِكَ وَقَالَ لِي : مَا أَبْصَرْتُ الرَّابِعَ ، وَهُوَ رَجُلٌ حَبَشِيٌّ .

وَاعْلَمْ أَنَّ هٰؤُلَاءِ الْأَوْتَادَ يَحْوُوْنَ عَلَى عُلُوْمٍ جَمَّةٍ كَثِيْرَةٍ . فَالَّذِي لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ ، وَبِهِ يَكُوْنُوْنَ أَوْتَادًا ، فَمَا زَادَ مِنَ الْعُلُوْمِ . فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ عِلْمًا ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ، وَلَا بُدَّ ، ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عِلْمًا ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ وَاحِدٌ وَعِشْرُوْنَ عِلْمًا ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُوْنَ عِلْمًا . فَإِنَّ أَصْنَافَ الْعَدَدِ كَثِيْرَةٌ ، هٰذَا الْعَدَدُ (الْخَاصُّ مِنَ الْعُلُوْمِ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ هُوَ أَيْضًا) مِنْ أَصْنَافِ الْعُلُوْمِ ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ . وَقَدْ يَكُوْنُ الْوَاحِدُ ، أَوْ كُلُّهُمْ ، يَجْمَعُ أَوْ يَجْمَعُوْنَ عِلْمَ الْجَمَاعَةِ وَزِيَادَةً . وَلٰكِنَّ الْخَاصَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْعَدَدِ . فَهُوَ شَرْطٌ فِيْهِ . وَقَدْ لَا يَكُوْنُ لَهُ ، وَلَا لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ ، عِلْمٌ زَائِدٌ لَا مِنَ الَّذِي عِنْدَ أَصْحَابِهِ ، وَلَا مِمَّا لَيْسَ عِنْدَهُمْ .

فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ الْوَجْهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ – تَعَالَى ! – عَنْ إِبْلِيْسَ : ﴿ **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ** ﴾ . – وَلِكُلِّ جِهَةٍ وَتَدٌ يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيْمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ إِبْلِيْسُ مِنْ جِهَتِهِ . فَالَّذِي لَهُ الْوَجْهُ (مِنَ الْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةِ) ، لَهُ مِنَ الْعُلُوْمِ عِلْمُ الْاِصْطِلَامِ وَالْوَجْدِ وَالشَّوْقِ وَالْعِشْقِ وَغَامِضَاتِ الْمَسَائِلِ ؛ وَعِلْمُ النَّظَرِ ، وَعِلْمُ الرِّيَاضَةِ ، وَعِلْمُ الطَّبِيْعَةِ وَالْعِلْمُ الْإِلٰهِيِّ ، وَعِلْمُ الْمِيْزَانِ ، وَعِلْمُ الْأَنْوَارِ ، وَعِلْمُ السُّبُحَاتِ الْوَجْهِيَّةِ ، وَعِلْمُ الْمُشَاهَدَةِ ، وَعِلْمُ الْفَنَاءِ ، وَعِلْمُ تَسْخِيْرِ الْأَرْوَاحِ ، وَعِلْمُ

اسْتِنْزَالِ الرُّوْحَانِيَّاتِ الْعُلَى ، وَعِلْمُ الْحَرَكَةِ ، وَعِلْمُ إِبْلِيْسَ ، وَعِلْمُ الْمُجَاهَدَةِ ، وَعِلْمُ الْحَشْرِ ، وَعِلْمُ النَّشْرِ ، وَعِلْمُ مَوَازِيْنِ الْأَعْمَالِ ، وَعِلْمُ جَهَنَّمَ ، وَعِلْمُ الصِّرَاطِ .

وَالَّذِي لَهُ الشِّمَالُ (مِنَ الْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةِ) ، لَهُ عِلْمُ الْأَسْرَارِ ، وَعِلْمُ الْغُيُوْبِ ، وَعِلْمُ الْكُنُوْزِ ، وَعِلْمُ النَّبَاتِ ، وَعِلْمُ الْمَعْدِنِ ، وَعِلْمُ الْحَيَوَانِ ، وَعِلْمُ خَفِيَّاتِ الْأُمُوْرِ ، وَعِلْمُ الْمِيَاهِ ، وَعِلْمُ التَّكْوِيْنِ ، وَعِلْمُ التَّلْوِيْنِ ، وَعِلْمُ الرُّسُوْخِ ، وَعِلْمُ الثَّبَاتِ ، وَعِلْمُ الْمَقَامِ ، وَعِلْمُ الْقَدَمِ ، وَعِلْمُ الْفُصُوْلِ الْمُقَوِّمَةِ ، وَعِلْمُ الْأَعْيَانِ ، وَعِلْمُ السُّكُوْنِ ، وَعِلْمُ الدُّنْيَا ، وَعِلْمُ الْجَنَّةِ ، وَعِلْمُ الْخُلُوْدِ ، وَعِلْمُ التَّقَلُّبَاتِ .

وَالَّذِي لَهُ الْيَمِيْنُ (مِنَ الْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةِ) ، لَهُ عِلْمُ الْبَرَازِخِ ، وَعِلْمُ الْأَرْوَاحِ الْبَرْزَخِيَّةِ ، وَعِلْمُ مَنْطِقِ الطَّيْرِ ، وَعِلْمُ لِسَانِ الرِّيَاحِ ، وَعِلْمُ التَّنَزُّلِ ، وَعِلْمُ الِاسْتِحَالَاتِ ، وَعِلْمُ الزَّجْرِ ، وَعِلْمُ مُشَاهَدَةِ الذَّاتِ ، وَعِلْمُ تَحْرِيْكِ النُّفُوْسِ ، وَعِلْمُ الْمَيْلِ ، وَعِلْمُ الْمِعْرَاجِ ، وَعِلْمُ الرِّسَالَةِ ، وَعِلْمُ الْكَلَامِ ، وَعِلْمُ الْأَنْفَاسِ ، وَعِلْمُ الْأَحْوَالِ ، وَعِلْمُ السَّمَاعِ ، وَعِلْمُ الْحَيْرَةِ ، وَعِلْمُ الْهَوَى .

وَالَّذِي لَهُ الْخَلْفُ (مِنَ الْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةِ) ، لَهُ عِلْمُ الْحَيَاةِ ، وَعِلْمُ الْأَحْوَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعَقَائِدِ ، وَعِلْمُ النَّفْسِ ، وَعِلْمُ التَّجَلِّي ، وَعِلْمُ الْمِنَصَّاتِ ، وَعِلْمُ النِّكَاحِ ، وَعِلْمُ الرَّحْمَةِ ، وَعِلْمُ التَّعَاطُفِ ، وَعِلْمُ التَّوَدُّدِ ، وَعِلْمُ الذَّوْقِ ، وَعِلْمُ الشُّرْبِ ، وَعِلْمُ الرِّي ، وَعِلْمُ جَوَاهِرِ الْقُرْآنِ ، وَعِلْمُ دُرَرِ الْفُرْقَانِ ، وَعِلْمُ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ . – فَكُلُّ شَخْصٍ ، كَمَا ذَكَرْنَا ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ هٰذِهِ الْعُلُوْمِ ؛ فَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ ، فَذٰلِكَ مِنَ الِاخْتِصَاصِ الْإِلٰهِيِّ .

فَهٰذَا قَدْ بَيَّنَّا مَرَاتِبَ الْأَوْتَادِ . وَكُنَّا فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَهُ بَيَّنَّا مَا يَخْتَصُّ بِهِ الْأَبْدَالُ . وَبَيَّنَّا فِي فَصْلِ الْمَنَازِلِ ، مِنْ هٰذَا الْكِتَابِ ، مَا يَخْتَصُّ بِهِ الْقُطْبُ وَالْإِمَامَانِ ، مُسْتَوْفِي الْأُصُوْلِ ، فِي بَابٍ يَخُصُّهُ وَهُوَ السَّبْعُوْنَ وَمِائَتَانِ مِنْ أَبْوَابِ هٰذَا الْكِتَابِ .

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾

اِنْتَهَتِ الْمُجَلَّدَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْفُتُوْحَاتِ الْمَكِّيَّةِ ، بِانْتِهَاءِ الْبَابِ السَّادِسِ عَشَرَ ؛ يَتْلُوْهُ الْبَابُ السَّابِعُ عَشَرَ فِي « مَعْرِفَةِ انْتِقَالِ الْعُلُوْمِ الْكَوْنِيَّةِ وَنَبْذٌ مِنَ الْعُلُوْمِ الْإِلٰهِيَّةِ ، الْمُمِدَّةِ ، الْأَصْلِيَّةِ » .